سلسلة
التراث

مذكرات
مصالي الحاج

1898- 1938

تصدير عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة : محمد المعراجي



منشورات ANEP


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مجموعة التراث

في نفس المجموعة

- المرآة، حمدان خوجة
- الليل الاستعماري، فرحات عباس
- مستقبل الإسلام وكتابات أخرى
- رسالة إلى الفرنسيين، الأمير عبد القادر
- رسالة إلى الرئيس ويلسن وكتابات أخرى ، الأمير خالد
- ليل الاستعمار، فرحات عباس
- نصوص مختارة، عبد الحميد بن باديس

منشورات – 2007
ISBN : 9947-21-305-6
Dépôt légal: 3037-2006

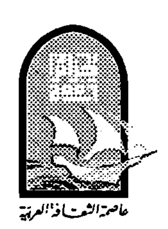
مذكـــــرات

مصـــالي الحـــاج

1938 - 1898

تصدير عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة : محمد المعراجي



منشورات ANEP

تصدير

يطيب لي ويؤلمني في نفس الوقت أن أتحدث عن الوجه السياسي العملاق لحركتنا الوطنية ألا وهو : مصالي الحاج. وبالفعل، فإنه ناضل بدون انقطاع من أجل الاستقلال الوطني لبلادنا أكثر من ربع قرن. ومما لا مراء فيه، فإنه كان هو الذي أنشأ نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب الجزائري وأخيرا حركة انتصار الحريات الديمقراطية وأنه كان أهم منظمي هذه البنيات. ولكنه كان، مع الأسف، غائبا في الفترة الحاسمة من عملية قطع الأوصال الصريحة للمعضلة المتمثلة في هيمنة الدولة الاستعمارية الفرنسية على مجتمعنا. إن محاولات الحوار السياسي والثقافي التي بادر بها ممثلون فضلاء لشعبنا مثل حمدان خوجة والأمير عبد القادر وسي محمد بَنّرحال والأمير خالد والشيخ عبد الحميد بن باديس وفرحات عبّاس لم تؤدّ إلا لتخفيف الخناق بصفة ضعيفة ومؤقتة «للعقدة الغوردية»، وهذا إن لم تقم الدولة الاستعمارية بإنهاء الموضوع وبكل بساطة بقمع وحشي أو بنفي من تجرأ على القيام بالحوار.

ليس في نيتي بعد خمسين سنة من اندلاع حرب التحرير الوطنية أن أذكر الخلافات التي تمت بين مختلف فعاليات حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديموقراطية وقد كان ذلك أحيانا بصفة عنيفة وذلك عشية السنوات الأولى لحرب التحرير وخلالها. وقد حسم التاريخ في الأهم. بالفعل قد تم في إطار جبهة التحرير وجيش التحرير الوطنيين جمع شمل جل القوات الوطنية لشعبنا بغض النظر عن الانتماءات الحزبية وفي هذا الإطار قامت أمتنا بمعركتها الحاسمة واقتلعت الانتصار الأخير على الدولة الفرنسية التي مارست هيمنتها مدّة مائة واثنين وثلاثين

سنة (132) . إن هذا الانتصار هو في الواقع انتصار رمزي لكل أجيال الجزائريات والجزائريين الذين قاوموا بشكل أو بآخر القبضة الحديدية الاستعمارية. وخاصّة فإن هذا الانتصار هو انتصار لكل الذين كانت لهم الجرأة في العمل، الجرأة في المبادرة بالهجوم لجعل النظام الاستعماري يتقهقر أو لتحطيمه وإن كانت هذه الأعمال غير منتظمة في غالب الأحيان أو كانت بمثابة الهمس. وبالتالي لو أن مصالي الحاج كان غائبا في المعركة الحاسمة، ولو أن مواقفه كانت في بعض الأحيان مضرة، فقد لا يكون من العدل بل قد يكون من الأخطاء الفادحة ألاّ نشركه اليوم، بعد أن هدأت الضغائن والأحقاد أو مازالت تهدأ تدريجيا، في انتصار الأمّة الجزائرية وفي الإعتراف بكيانها في شكل دولة وطنية.

لقد ارتفع صوت قويّ وجريء وراديكالي ضد الشك المعمم والخوف المشل الذي كان يكتنف الجزائر المسلمة في مشد من الخضوع الظاهر. وهذا الصوت هو صرخة مصالي الحاج التي صدع بها ثلاث سنوات فقط بعد ذهاب الأمير خالد إلى المنفى وهي بمثابة القفزة النوعية والتصورية والتنظيمية لحركتنا الوطنية.

مع مصالي الحاج لم يعد استقلال الجزائر حلما أو مطلبا سريا، بل صار فكرة إجرائية وهدفا عمليا ومبدءًا تنظيميا. فبفضل جرأة مصالي الحاج ومجهوداته العنيدة وفي البداية مع ثلّة من رفاقه فقد صارت هذه الفكرة، المقصود فكرة الاستقلال، المحور الذي يبنى عليه المجتمع الجزائري كل يوم أكثر.

فالمذكرات التي بادرت الوكالة الوطنية للنشر والإشهار مشكورة بإعادة نشرها، تشهد على المسار الرائع لهذا الرجل الشاب المنبعث من عامّة الشعب التلمساني والذي اختار السبيل غير المتوقع للمساهمة في الكفاح من أجل تحرير شعبه المسلم. فقد غادر الجزائر، وبدأ يعمل على تعبئة العمّال المهاجرين حديثا إلى فرنسا وذلك بالإعتماد على الحركة الشيوعية الدولية، بالوقت الكافي ليستوعب من هذه الإديولوجية المفاهيم الضرورية لصياغة برنامج للاستقلال الوطني بكيفية حرّة والاستفادة مؤقتا من دعمها اللوجستيّ ومن سمعتها الدولية قبل أن يفارقها (أعني الحركة الشيوعية).

يبدو أنه من المفيد التركيز على فترتين زمنيتين حيث كان مسار مصالي الحاج في أوج التئامه مع الآمال الدفينة لشعبنا.

أوّلا في فبراير وخلال المؤتمر لمكافحة الامبريالية المنعقد في بروكسيل، طلق مصالي الحاج الحوار الثنائي المرير مع الدولة الاستعمارية وطالب بصفة صريحة وأمام شخصيات وفدت من جميع أقطار العالم بما يلي :

(1) الاستقلال الكامل للجزائر.

(2) الانسحاب التّام لقوات الاحتلال. "

وثانيا في أغسطس من عام 1936 في الملعب البلدي بالجزائر العاصمة حيث فاجأ أطروحات الحوار التي اعتمدها المؤتمر الإسلامي عندما قال: " هذه الأرض المقدسة، هذه الأرض المباركة ليست للبيع وليست قابلة أن ترتبط بأي كان. هذه الأرض لها أبناؤها ولها ورثتها وهم هنا أحياء ويرفضون تسليمها لأي كان. وبالضبط فمن أجل هذا أتيت إلى هذا التجمع باسم نجم شمال إفريقيا، حزبنا وحزبكم الذي يناضل من أجل استقلال الجزائر... والآن يجب أن ننتظم وأن نتّحد لنكون أقوياء، ولنكافح لتحقيق أهدافنا".

فمن أجل هذه الأزمنة أو على الأقل من أجل هذين الزمنين، فإن مصالي الحاج ينتمي بصفة نهائية وإلى الأبد إلى الفترة المضيئة من الذاكرة الجماعية الوطنية.

عبد العزيز بوتفليقة

الفصـــل الأول

1918 - 1898

طفـــل من تلمســـان

"الفـقـر يـتـكـلـم لــغـة،
والثـراء يتكلـم لغـة أخـرى"

حسب الحالة المدنية الفرنسية، وُلِدت يوم 16 مايو 1898 في تلمسان، في عمالة وهران من والد اسمه الحاج أحمد مصالي وأم اسمها فطيمة صاري علي حاج الدين. وُلد أبي ووالداه في تلمسان وهم فلاحون. كانوا يستغلون أربعة هكتارات مع عائلة ممشاوي. وبما أن هذه المستثمرة الموجودة في صفصاف على مسافة بعض الكيلمترات من تلمسان، كانت لا تكفي لسدٍّ حاجة عائلتين لم تتوقفا عن التكاثر، شرع أبي في العمل عند الآخرين. أمّا أمّي وهي زوجته الثانية، فقد كانت تنتمي إلى عائلة فيها سبع بنات. كان أبوها قاضيا. وباعتبار هذه الوضعية المتواضعة. فإن أولاده لم يكونوا بؤساء. ولكن المساعدة التي كان يوفرها لهم انتهت بوفاته. ولحسن الحظ فإن أمّي كانت قد تزوجت مثل أغلب أخواتها.

كنا في العائلة ستة أولاد: طفلان وأربع بنات. وكان الأكبران بنت وطفل أكبر مني بكثير. كانا ثمرة الزواج الأول لأبي من إمرأة لم تكن سوى خالتي[1] (الزوجة الأولى لأب مصالي الحاج ماتت وهي نفساء عند ولادة أختي خيرة). كنا كلنا نسكن حيّ باب الجياد في منزل هو ملك لجدتي، ماما بن قلفاط وترعرعت في هذا الحيّ وعشت فيه إلى غاية سنة 1918، يعني بلوغ عشرين سنة أي العمر الذي بدأت فيه الإعتماد على نفسي. وعليه فباستثناء زليخة، أختي الصغيرة والمتحدث شخصيا، فإن إخوتي الآخرين قد تزوجوا كلهم خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وقد سمحت لنا هذه الزواجات من عقد تحالفات جديدة ورباطات عائلية جديدة.

إن تزويج أخي وأخواتي تميز باحتفالات متواضعة، ولكنه قد تكلف كثيرا لأبي لأنه كان يواجه المصاريف وحده وكان في هذه الفترة قد تقدم في السن. لم يعد قادرا على الأعمال الشاقة التي كان يقوم بها في الحقل لأن كل شيء كان يتم القيام به بقوة المعصم. فقد توجّب عليه القيام بمساعي لوجود عمل غير منهك. كان أبي تلمسانيا قديما منذ عدة أجيال وكان عاملا بسيطا في الأرض يعيش في عزلة ولهذا

(1) والمقدم هو المسؤول عن الحراسة وعن تنشيط الضريح.

كان السكان يحبونه في مدينتنا. وعليه فقد تمت مساعدته فصار مقدمًا في ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني وذلك خلال سنة 19191. لم يكن لهذا المنصب راتب شهري وكان صاحبه يعيش خاصة من الهدايا العينية والنقدية لرواد سيدي عبد القادر الجيلاني.

أعتقد أن هذا الولي الصالح معروف جدا إن لم أقل يتمتع بشعبية في المغرب العربي وحتّى في كل العالم الإسلامي. عندما نتحدث عنه غالبا ما نقول المرابط، كما بالفرنسية. وفي تلمسان كنا نقدس عددا هائلا من هؤلاء المرابطين (الأولياء). إن بعض المستشرقين الفرنسيين قد خصصوا لهم مؤلفات، ومن بينهم "أميل دير منغام"، صاحب "حياة محمد" وهو المؤلف المفضل لدى الكتاب العرب.[1]

قد كان أبي في بوابة الضريح وذلك مدّة عشرين سنة يخدم سيدي عبد القادر ومريديه الكثيرين. بقي هناك حتى قبيل وفاته خلال شهر مارس 1938. وفي كل هذه المدة فإن القلاقل والمتاعب لم تتركه رغم جديته وتقواه الحقيقية لأن العديد من الناس أرادوا الاستيلاء على منصبه. ولحسن الحظ فإن الصداقة مع السكان قد ساعدته على إبقاء منصبه. أمّا أمّي، فإنها ماتت في ربيع 1922 وكانت قد كرست كل حياتها وإلى آخر أيامها لأولادها لأنها كان عليها تربيتهم وتزويجهم رغم قلة الوسائل.

كيف أقدم مدينة مسقط رأسي؟ توجد تلمسان غرب وهران تماما. هي أهم مدينة حدودية بين الجزائر والمغرب. فقد كانت عاصمة لمملكة قد لمعت بأنوار ساطعة. كانت تقام فيها حفلات إسلامية تجمع الشعراء والعلماء والفقهاء وتقام فيها ولائم ضخمة في بلاط مملكة عبد الوديد بين القرن الثالث عشر والسادس عشر. يتكلم أهل تلمسان عن الأيام السعيدة والمباركة لهذه المملكة، كما أنهم في يومنا هذا يسرهم الحديث والتغني عن الحضور العربي في الأندلس. كل المؤرخين وبالاجتماع ينوهون بدور مهد الحضارة الذي لعبته مدينتنا في العالم الإسلامي. فقد سمّاها الشعراء "جوهرة المغرب". كل عشاق الطبيعة والليالي المقمرة، بل وكذلك المعرفة والموسيقى والفن، كلهم قد تعودوا على المجيء من أبعد المناطق حجّاجا إلى مدينتنا الساحرة.

(1) إيميل ديد منغام : خدمة الصالحين في الإسلام المغاربي: باريس 1954.

عندما نصل راجلين أو في السيارة إلى تلمسان عن طريق الحناية، تظهر لنا المدينة من بعيد جدًّا متربعة تربع الملوك على هضبة قليلة الانحناء وكأنها تودّ أن تقول لزُوّارِها بشيء من الدلال الأنثوي: "سادتي مرحبا بكم" وعندما نأتيها من سيدي بلعباس بواسطة القطار فعلينا قبل كل شيء أن نمرّ جنب مجموعة الجبال ووراء هذا المنظر الفتان، تتماثل مدينة تلمسان التي كانت قبل هذا لا يظهر منها إلاّ النصف، تبرز فجأة للمسافر بأضوائها الساطعة وكأنها جوهرة تخرج من درجها. إن هذه المدينة، التي أسكرت كل الشعراء، محاطة بالعديد من العيون وبالكثافة النباتية التي تزدان بالأزهار والفواكه التي تكتسح حدائق الزيتون. وفي الجهة الشرقية من تلمسان وصوامعها الكبرى لا يمكن ألاّ نرى قرية سيدي بومدين الصغيرة حيث دفن ولي المدينة على ربوة مستندة إلى الغابة.

إن مدينة تلمسان لها سكان على مقاسها فهي حقا جنة عدن على سطح الأرض. فالنساء والرجال والأطفال كلهم مرحون والبشاشة تعلو محيا الجميع. فهم يميلون إلى التفكير والغناء ويحبون الطرز والنسيج. في كل سنة يخرج التلمسانيون مع عائلاتهم ليذهبوا، حَسْبَ تعبيرهم، إلى ملاقاة الربيع بتسلق الربوة التي تؤدي إلى القبة البيضاء لـ "لالّة ستّي". وهنا يتناولون القهوة أو الشاي بالنعناع ويأكلون الحلويات المعسلة. ومن الهضبة التي تأوي ضريح "لالة ستي" نتحصل على منظر منقطع النظير: غابات الزيتون ومساحات خضراء شاسعة تتمدَّدُ تحت السماء الأزرق أبعد مما يمكن أن يصل إليه النظر. فالمسافر غير المكترث لا بدّ أن يتوقف ليتلذذ بالمنظر الرائع عظمة وجمالا. وبعد الشاي، يقدم التلمسانيون طلباتهم ودعاويهم إلى "لالّة ستي" ليبقى أولادهم وأزواجهم وكل عائلاتهم في صحّة دائمة وأن يجدوا ما يحسنوا به وسائل معاشهم. ويتم الرجوع إلى البيت قبل أن تبدأ الشمس في الميل إلى الغروب. وفي طريق العودة، تغني النساء وتزغردن وتقمن بالنذور المرتجلة من أجل مستقبل أبنائهن. إن هذا الحج الذي تقوم به كل المدينة، يتسبب في إنعاش وتهدئة كبيرين وفي فرح كبير لأمهاتنا. وترى أمهاتنا أنهن يقمن بواجبهن.

ولكن ليست النساء وحدهن اللاّئي يقمن بالحج. بل كذلك الرجال الذين لهم هموم ورغبات خاصّة يفعلون مثلهن. إنهم ينتهزون فرصة صلاة الجمعة الكبرى فيذهبون إلى سيدي بومدين إلى مسجد سيدي الحلوي أو إلى سيدي الداودي.

في زمن شبابي أي أكثر من خمسين سنة قبل الآن، كان لكل التلمسانيين ارتباط بالأرض التي كانوا يستخرجون منها جزءاً هامًّا من وسائل معاشهم. وهكذا فقد كان لهم رجل في الريف ورجل في المدينة حيث يقيمون شيئا فشيئا ليعملوا فيها كتجار. فالبعض وهم أقلية كانوا يتركون أهلهم في دارهم الريفية، والبعض الآخر كانوا يقيمون في المدينة. ولكن الكثير من العائلات المقيمة في المدينة كان ما زال لديها في إحدى ملحقات المنزل أبقاراً، وماعزا وبغالا أو أحصنة. وفي الصباح الباكر كانت الحيوانات تقتاد إلى الحقول وعند المساء ترجع إلى المدينة. وعندما يكون الطقس ماطراً، كانت الحيوانات تبقى في المأوى ولكن بمجردّ ما تظهر إشراقة فإن المواشي كانت ترسل إلى المراعي حول تلمسان.

إن هؤلاء الرجال، الذين هم فلاحون وتجار في نفس الوقت، كانوا يتألمون لمغادرة الأرض بغتة، الأرض التي كانوا مرتبطين بها ارتباطهم بالدين. وبالنسبة للكثير، فإن هذه المغادرة التدريجية إلى المدينة هي بمثابة التخلي عن ميراث الأجداد. ولهذا كانوا يقومو بذلك مرحلة بعد مرحلة والدافع على الهجرة ظاهرتان. والدافع الأول هو المشكل الديموغرافي: فالتزايد في الولادات كان لا يسمح بتغذية كل الناس باعتبار القطع الأرضية الصغيرة. ولكن هذا كان كذلك نتيجة للاستعمار ونظامه الكارثي في نزع الملكية الذي أدّى بالسكان المسلمين إلى التفقير سواء في تلمسان أو في مجموع التراب الجزائري.

فالعائلات التي تقصد المدينة لا تمتهن كلها التجارة فالكثير منها يمارس الصناعة التقليدية. تلمسان كانت دائما مشهورة بحرفييها الذين يجلبون إليها عددا لا يحصى من الزبائن. صناعها للأسلحة وللمواد الجلدية وطرازوها ونساجوها ونحاتوها ونجاروها وحذاؤوها وصباغو الجلود وطحانوها، كل هؤلاء من أصحاب الصنائع كانوا لا ينتجون فقط للإستهلاك المحلي فقط ولكن كذلك للتصدير. إن هذه الأنشطة قد أسست لولادة صناعة صغيرة حتى قبل 1914. وقد تطوّرت هذه الصناعة كثيرا أثناء الحربين العالميتين.

إن المجتمع التلمساني، وهذا معروف جيدا، متديّن كثيرا. كل حياة سكان المدينة متأثرة إلى درجة كبيرة بالمبادئ الإسلامية. من المهد إلى اللحد، نتحدث عن هذا ونتناقش لا سيما في أماكن العبادة ولكن أيضا في الدار وفي المقهى وأثناء التجوال أو الأسفار وفي المتاجر والحمامات وفي المقبرة. وليست هذه التقوى

مدهشة لمن يريد أن يعتبر أن الإسلام ليس فقط دينا ولكنه يُسَيِّرُ حياة كل مسلم. لا يكفي أن نؤدي الصلاة أو أن نحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ولا أن نذهب إلى الحج في مكة، فالعقيدة تضم كل مجالات الحياة. كل حادث وكل عمل وكل فكرة من طرف المؤمن ومشاريعه وأحزانه وأفراحه وخيباته، كل هذا يهم الشريعة الإسلامية.

وفي تلمسان هناك أربع أوخمس مساجد مفتوحة على مدار السنة للمؤمنين. أضف إلى هذا أن كل حيّ فيه مسجد صغير يستعمل كمدرسة للأطفال. وأخيرا فالكبار والصغار يذهبون في الوقت المناسب للحضور في الدروس التربوية إلى المدارس أو إلى المحلات الطرقية الإسلامية في المدينة.

فالطرق الدينية ترى أن مهمتها هي إرشاد المؤمنين في ممارساتهم للإسلام. كانت هذه الطرق تلعب دورا مهما في تلمسان. فقد كانت تجمع جزءا كبيرا من السكان ولو أن البعض كانوا يترددون على الزوايا لأن هناك دائما أشخاص يتمسكون بحريتهم واستقلالهم. ومن بين الجمعيات الدينية النشيطة في المدينة نستطيع ذكر القادرية والتجانية والطيبية وخاصة الدرقاوية التي تنتمي إليها أغلب عائلتي.

إن هذه الطريقة قد رأت النور في منطقة بني سناسن على الحدود الجزائرية المغربية منذ زمان بعيد جدّا. وكان التلمسانيون يزورون دائما قائدها السيد الحاج الهبري الذي كان تأثيره ينتشر عبر كل شمال إفريقيا وحتّى في المشرق. فطلبوا منه ذات يوم الرخصة لإقامة ملحقة للزاوية الأم في مدينتهم وهكذا أسست الزاوية الهبرية في تلمسان وذلك تقريبا في فترة ميلادي.

على رأس كل زاوية يوجد شيخ يساعده لجنة من عشرة أشخاص. يجب أن يتلقى الشيخ، على مرأى ومسمع من جميع الناس، إذنا وأن يقلد درجة يسمحان له بحق فتح محلّ طرقي جديد يعلم فيه الطريقة، يعني السبيل الذي ينبغي أن يتبعه كل من يريد اتباع طريق الله بصفة دائمة. إن الشيخ محمد بن يلس هو أول من ترأس الطريقة في تلمسان وقد قلده لذلك السيد الحاج محمد الهبري. إن حياة هذه الشخصية المهمة قد أحيطت بأساطير مدهشة. فقد كان البعض يقر بأنه كانت له السلطة على التنقل مسافة ألف كيلومتر في رمشة عَيْن. وهكذا كان ينفلت من الشرطة الفرنسية. يعترف له أنه ذات يوم عند رجوعه من الشرق و بينما كان في تونس وكانوا يبحثون عن آثاره طار بحركة واحدة ببرنسه إلى وهران لينفلت ممن كانوا يبحثون عنه. وكل هذا كان بفضل بركته الربانية.

عندما بلغت عمر فهم الأشياء تعلمت من حاشية الزاوية أن المؤسس التاريخي للطريقة كان السيد العربي الدرقاوي وهو رجل ذو قيمة أخلاقية كبرى. فقد كان يعرف الفلسفة وعلم النفس. وأساس نظريته كان يعتمد بالطبع على تعليم الإسلام ومبادئه الأساسية. ولكي نتوصل إلى فهم هذه المبادئ واستيعابها كان يقول بأنه لا بدّ من قائد أو مرشد، يعني شيخ الطريقة، ليقود التلميذ على طريق المعرفة.

إذًا يجب على كل مترشح للإنخراط أن يقضي فترة حضور في الزاوية، وأن يقدم للشيخ ويطلب منه الإذن في الإقتراب إلى الله بفضل طريقة درقاوة. فالدرقاوي الجديد يلتزم بتطبيق وصايا الشيخ بدقة ومسؤولية وعندما يلقى صعوبات، عليه أن يرجع إليه. يجب عليه أن يحارب الداء والرغبات والشهوات. يوصى بأن يأكل قليلا وأن يتعبد كثيرا وأن يواجه رغبات النفس. وبالإضافة إلى الصلوات الخمس اليومية، يجب عليه أن يقوم بأعمال صالحة خاصّة. وهكذا فإنه مثلا يجلس وحده في غرفة وفي زاوية منها تكون مظلمة نوعا ما، ويكون متربعا ومتوجها إلى القبلة ويذكر اسم الله جهرا لمدة نصف ساعة على الأقل حتى يتعب. وهكذا وشيئا فشيئا يبدأ المريد في الإرتفاع حتى يبلغ حالة التأمل وهو عالم مدهش ذو افتتان كبير.

فالمنخرط الجديد قد يجد نفسه أحيانا بعد الإكثار من الصلاة كأنه تحول إلى عالم جديد. قد يشعر أنه صار ملاكا وهو لا يرى إلاّ الأضواء والله. فهو يشعر أنه مخفف ومطهر ويعتقد أنه يختفي في السماء. إن هذا السكر قد يؤثر عليه ويخل بتوازنه وفي هذا المستوى يتدخل الشيخ لتدارك الوضعية التي هيمنت على المريد الشاب. وعندما يتم تجاوز هذه المرحلة، يصير الرواد الذين تمت تربيتهم رجالا أقوياء ويبقون دائما مرتبطين في كل مظاهر حياتهم بمبادئ الزاوية.

كل الدرقاويين يعتبرون أنفسهم إخوة. إنهم يحبون بعضهم ويبحثون دائما عن المناسبات التي تسمح باللقاء وتبادل الأفكار حول المشاكل الدينية التي تشغل بَالَهُم.إنهم ينظمون لقاءات ترفيهية في الريف وفي بعض الأحيان ينظمون أسفارا جماعية. حيثما وجدوا فإنهم يتحدثون عن وحدة اللّه وعن الدنيا وعن اليوم الآخر. لا يستطيع أيّ شيء، مهما كان، أن يزعزع طمأنينتهم. الله في كل مكان، ومصير كل واحد مكتوب وكل ما يقع فقد كان مكتوبا.

كل عائلتي كانت منتمية إلى هذه الطريقة سواء من ناحية أبي أو من جهة أمّي. إن بعض أقربائي كانت لهم فيها مسؤوليات. وبالتالي فإني ومنذ نعومة أظافري قد

تربيت على المبادئ الطرقية. وقد حافظت طوال حياتي على ذكريات ممتازة عن هذه التربية وعن الفلسفة البسيطة للطريقة التي مفادها أنه ينبغي محاربة المنكر والدفاع عن الخير. وإن هذا قد ساعدني على مواجهة كل الصعوبات التي كانت تعترضني خلال حياتي النضالية.

وحتى أتمكن من تقديم الوسط التلمساني لبداية القرن (العشرين) فلا بدّ أن أتكلم عن المحتل. ومن ضمن المعمرين التجار والموظفون والحرفيون، كان هناك، بالإضافة إلى الفرنسيين، الاسبان واليهود وعدد من الأجانب الآخرين من كل الأصول. إن اليهود والكاثوليك والبروتستانت كانت لهم بيعهم وكنائسهم ومقابرهم. وكان هناك مدرسة مسيحية وهي "مجرسة الاخوان" والتي كان معلموها كهنة. كانت كل مجموعة دينية تمارس بكل حرية وبدون أي تخفّي حياتها الدينية.

كانت تلمسان دائما مدينة استراتيجية بفضل موقعها الجغرافي. إن مدينتنا الصغيرة ذات الـ 15.000 ساكن كانت إذن مدينة ثكنات. كانت تأوي أربع ثكنات كبيرة حيث يتواجد المرتزقة (ليجيونير) وصيادي إفريقيا وعساكر العتاد والعساكر من الأهالي (الزواف والتيريور).

قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن هذا الخليط من العساكر قد يحدث صدامات دامية مع السكان. وبالفعل ومما يؤسف له ان مثل هذه الأحداث قد وقعت عدة مرات. كان الخمر والعنصرية هما السببان في وقوع هذه الأحداث. فوجود أحياء مخصصة هو الذي كان يشجع على اندلاع هذه الأحداث [1]. لم يستطع الاستعمار إحداث أحياء قصديرية وهي الأماكن التي كان يحصر فيها الأهالي بعد طردهم من أماكن سكناهم التقليدية. وبالفعل فقد تشبث التلمسانيون بمنازلهم وأحيائهم ومدينتهم. وهكذا فإن السكان من كل الأجناس كانوا يسكنون مع بعضهم، الواحد بجوار الآخر في انسجام نسبيّ رغم بعض المشادات المضجّة من نوع التي أعطت شعبية لعائلة هيرنانداس. ولكن الوضعية كانت تبقى دائما قابلة للإنفجار إذ كان يمكنها أن تندلع في أي وقت.

(1) الأحياء التي توجد فيها دور الخنا.

إن الوجود الفرنسي كان في صباي قد بلغ سبعين سنة من الوجود. كان آباؤنا يتحدثون عن هذا في السهرة بكلمات كانت تبرز إلى أيّ حدّ كانت هذه الوضعية مؤلمة. كان هذا يخيفنا. كنا في الغالب وبصفة غير إرادية، نلتجئ إلى أحضانهم بحثا عن المأوى والحماية. وكانوا يحدثوننا أيضا في المساء وقبل النوم عن نصيب تونس التي تم احتلالها منذ 1881 وكذلك عن المغرب القريب منا.

على بعد مائة متر عن دار ماما بن قلفاط، كان هناك قطعة أرض كبيرة فيها أشجار واخضرار. إن هذا المكان بوجوده في وسط أبراج كبيرة وهي تحصينات قديمة بناها الفرنسيون، كان يشكل بالنسبة لكل أطفال الحيّ مرتعا للقاء واللعب. إن هذه القطعة الأرضية "الرحيبة" كانت بالنسبة لنا ملعبا لكرة القدم بدون المبالغة في المقاييس. كنا نلعب فيه القفز على ظهور بعضنا، كنّا نتسابق وفي الغروب كنا نلعب "فارس الليل". كنا نحب الركوب على الأسوار حيث أنه كان في امكاننا رؤية حقول الفلاحة ومرور الناس وأحيانا أعضاء من عائلتنا. وفي وسط الملعب كان يتربع ضريح الولي سيدي المازوني. وعلى اليمين من الأسوار وعلى بعد خمسين مترا، كانت هناك ثكنة كبيرة مع قطعة أرض للتدريبات وتجهيزات رياضية وملعب للتنس يؤمه الرجال والنساء للتمرين. وعلى اليسار من الأسوار إذا واصلنا السير إلى جانب التحصينات نصل إلى واحد من الأبواب الكبيرة للمدينة التي تؤدي إلى وسط المدينة عبر شارعي سيدي بلعباس والمنصور. وعندما نتوجه إلى اليمين كنا نتوجه إلى محطة القطار والمقبرة وقرية سيدي بومدين ثم بعد ذلك إلى مقاطعة وهران. كان لي خالات وابناء أعمام وأخت متزوجة، كلهم يعيشون في هذا الحيّ مثلنا. وهكذا فإني كنت أحس بأنّي محاط بصفة جيدة حتّى أثناء ألعابي.

ذات يوم، ولا شك أنه في سنة 1905، وجدت نفسي في شارع سيدي بلعباس في وسط جمع كبير من البشر. وحسب ما كان يقال في ذلك اليوم، كان الناس ينتظرون وصول سلطان الفرنسيين. كان اسمه ينتقل من فوج إلى فوج وكانت التعاليق، حسب ما كان يبدو لي، مطبوعة بكثير من الجدّ. وفيما بعد عرفت أن سلطان الفرنسيين المعني لم يكن سوى أميل لوبي، رئيس الجمهورية الفرنسية، الذي جاء إلى تلمسان ليطلع على الأعمال التعميرية خلال دورته في الجزائر. فقد قال ذلك معلمي، السيد محمّد بوعياد، إلى كل التلاميذ بمناسبة درس من الدروس. وقد أخبرنا حينئذ أن تلميذا من المدرسة اسمه لحمر، علما بأن أباه كان له مقهى عربيا في ساحة النصر، كان قد قرأ أو ارتجل خطابا على شرف الرئيس لوبي.

إن عبارة "سلطان الفرنسيين" ليست منّي. وبما أنها كانت مألوفة لدي، فإني، بلا شك، كنت أسمعها مراراً في الدار. إن المسلمين، في بداية هذا القرن العشرين، لم يكن لهم في رئاسة دولهم إلاّ السلاطين. ويمكن القول بأن أوربا، باستثناء فرنسا، كانت في نفس المستوى مع العالم الاسلامي: كان لها ملوكها وامبراطوراتها وكان لنا سلاطيننا.

عندما كان عمري في الثانية عشر تقريبا، انتبهت إلى كون الناس يتحدثون كثيرا عن سلطان تركيا وسلطان المغرب. ففي تلمسان كما هو الحال في غيرها، كان كل الأطفال منذ طفولتهم الأولى يسمعون الوالدين يتحدثون ويتألمون عن السلاطين الذين كانوا قلقين خاصّة على مصير "رجل الشرق المريض"، أو بعبارة أخرى: تركيا. سلطانها هو الذي كان أمير المؤمنين أي هو الذي كان بيده مصير المغرب (العربي). كان آباؤنا يعتقدون أن نهضة الامبراطورية العثمانية ستؤدي حتما إلى تحرير كل المغرب (العربي).

كان في عمري سبع سنين عندما ناقش أبوايا مسألة المدرسة. كان في ذلك الوقت أربع مدارس ابتدائية ومتوسطة فرنسية في تلمسان. فهل كان عليهما أن يرسلاني إلى إحدى هذه المدارس أو إلى المدرسة العربية؟ وقد أدت هذه المسألة إلى مناقشة عائلية كبيرة. فأمّي كانت تقول أنه كان يجب علي أن أذهب إلى المدرسة العربية وأن أتعلم حرف جيّدة. وكان أبي يميل إلى الحل الآخر. وقد علّل ذلك أمام زوجته في البراهين التالية: "ولنتركه يبدأ بالفرنسية، وفي وقت لاحق يستطيع دائما أن يبدأ تعلم العربية. وإذا توصل بهذه الطريقة إلى نتائج إيجابية، فقد يسهل عليه حينئذ أن يصنع مستقبله. فبمعرفة الفرنسية يستطيع أن يدافع على نفسه وعلينا. سيكون ترجمانا بيننا وبين الفنرسيين. وبعد هذا كله فنحن لا نعرف أين نذهب وما يخبئه الله لنا في هذا العالم". كانت أمّي وهي تحضر القهوة قد استمعت باهتمام كبير إلى حجج زوجها. واكتفت في جوابها بهذه الكلمات: "ماذا تريد أن أقول؟ أتوسل إلى الله أن يحفظه من مآسي الحياة." إنّ هذا الحديث المملوء بالحنان بين شخصين يهمهما مستقبلي قد تعلق بأعماقي وبقى منقوشا في ذاكرتي على أنه ذكرى طيبة.

وفي يوم من الأيام، حملني أبي على كتفيه وأوصلني إلى مدرسة "ديسيو" في الطرف الآخر من المدينة قرب "سهريج مهدة"[1]. كانت المؤسسة مفتوحة للعرب

والفرنسيين. وكان المعلمون ينتمون أيضا إلى الفئتين. وكان معلمي، السيد ساليسي، فرنسيا إلاّ أنه كان يتكلم العربية قليلا، الشيء الذي سهل الاتصال.

وفي اليوم الثاني من الدخول، تحصلت على لوحتي وأقلام رصاص وطباشير وبعض الصور. كان لدينا كذلك بعض الخشيبات نتعلم بواسطتها الحساب بالفرنسية. قبل أن نصير قادرين على التعامل مع العمليات الأربعة الشهيرة. وفي الاستراحة التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر، كنت أتبادل انطباعاتي مع رفاقي ونحن نأكل، معًا، قطعة خبز. وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر، شعرت بأني مرتاح في القسم وفي الإستراحة... ولكن بصفة أقل أمام السبورة. كنت قد بدأت التكلم بالفرنسية شيئا ما. وفي المنزل كان الجميع فرحين بي ولم يشتغل أي واحد بفروضي الصغيرة. كانت أمّي تقول لي: "افتح عينيك وأذنيك واستمع جيّدا لما يقول "السيد"، تعني بذلك المعلم. ثم من اللوحة مررت إلى الكراس وتحصلت على القلم (مساك الريشة) والأقلام الملونة. وهكذا اشترى لي أبي محبرة. وصلنا إلى العطلة المدرسية بعد امتحانات آخر السنة. كنا كلنا نأمل أن نغيّر القسم. بما أني كنت أتابع بدون صعوبة تذكر، كنت أتوقع المرور إلى السنة الثانية. إلا أن التطلع إلى ثلاثة أشهر من العطلة قد غمرني بالفرح. كانت فرحتي كبيرة بالعودة إلى حياة الحقول. وبالفعل سنذهب مثل كل صيف إلى الريف في ضيعة الصفصاف. هذه الملكية الصغيرة المسماة باسم شجر "الصفصاف"، كانت ملكا لعدد من العائلات المتساهرة ولكن أبي وابن خالي ممشاوي الغوثي كما ذكرت من قبل كانا يستغلانها لفائدة الجميع. كانت المحاصيل تقسم جزافيا حسب سهم كل وارث بعد أن يطرح منها مصاريف العمل المنجز وغيرها.

لاستغلال هذه الملكية، كنّا نستعمل جمارين وبغلين نستعيرهما من جيرانها. كنا نحصد القمح والذرة والعلف ونقطف التين والجوز والرمان والطماطم والقرع والفلفل الذي كنا نيبسه في الشمس. كنا نبيع الخضر والفواكه والعلف للحصول على شيئ من الدراهم نقدا. وكان لا بدّ من ذلك لدفع الضرائب وشراء القهوة والسكر والصابون إلخ...

(1) وهو حي من أحياء تلمسان.

كنا، أقصد الأطفال، نمرر أهم أيامنا في العطلة لالتقاط الجلبان والفول والتين وهو عمل شاقّ. وفي المساء كان يعترينا التشنّج من القدمين إلى الرأس. ورغم هذا كنا نجد وقتا للعب في ألعاب متنوعة وللسباحة في ساقية تمرّ قرب ملكيتنا.

في عائلتنا كنا خمسة أفراد نعيش من قسمتنا من المحصول. وأثناء السنة، كنا نعيش من خبز الشعير، والتين المجفف وبعض الحلويات المصنوعة بالذرة وزيت الجوز والبطاطا والخضر المصبّرة. كنا في غالب الأحيان نستدين عند صاحب الدكان لنتمكن من المرور إلى السنة القادمة. لم نكن نعرف ما الطبيب وما الممرضة : كانت الأرض تقوم بسد حاجاتنا فتعطينا الأعشاب التي نتداوى بها. فقد كنا نخاف من المستشفى ومن الأطباء الذين لم نكن نثق بهم، سواء كنا على حق أم لا.

إن مسقط رأسنا في الصفصاف كان يتشكل من بيت مرقع شيئا ما فيه غرفة واحدة حيث كنا ننام كلنا وكوخ كبير وفناء. وكان الكل محاطًا بسور من الأشواك والخشب والأحجار الكبيرة لأنه كان عندنا عدد قليل من النعاج والعنزات وكذلك بعض الدجاجات. وفي المساء عندما نقترب من منزلنا مع الحيوانات، كانت الشمس ما زالت تلاعب الأشجار. حينئذ كانت أمّي قد فرشت حصائر تحت شجرة الجوز الكبيرة ووضعت مائدة قصيرة وكل لوازم العشاء. كانت حيواناتنا ترعى بشراهة وكأنها تريد أن تخزن لليل وتعطينا المزيد من الحليب. كان الخرفان يقتربون من أمهاتهم ويطلقون صيحات مليئة بالحنان. أمّا أبي، وهو دائم النشاط، فقد أتانا بحلاب مليءٍ بالحليب الدافئ الذي حلبه قبل قليل. وكانت الشمس في هذه الأثناء تغير لونها شيئا فشيئا وتأخذ اللون الأصفر الذهبي قبل الغروب. هذا الزمن الساحر كان يتكرر كل يوم مزوّجا بذلك بين جمال الطبيعة ولطافة الحياة العائلية.

عندما يأتي المساء، كنا ندخل في مقرنا ونحمل معنا أمتعتنا، بينما كان أبي يتحقق من دخول الحيوانات كلها إلى الزريبة [1].

قبل إطفاء الشمعة، كنا نشكل دائرة حول أختي الصغيرة زليخة وكان عمرها ثلاثة أعوام. كانت تقوم برقصة مصحوبة بالتصفيقات. كانت تضحك وتمر من واحد إلى آخر وترتمي في النهاية في أحضان أمّي وهي فرحانة. كان مثل هذا المشهد يسبق في كل ليلة نومنا.

(1) وهو ذلك السور الذي تحدثت عنه أعلاه وهو من خشب وشوك وأحجار.

كان أبي واقفا منذ الفجر، قبل طلوع الشمس ويرفع يديه إلى السماء وراءه ويدعو بصوت منخفض. وبعد ذلك يذهب لحلب المعزات، ثم يفك رباط الحيوانات ويسوقها إلى المراعي. عندما نستيقظ كان قريبنا الغوثي قد ذهب إلى المدينة دافعا أمامه الحمارين المحملين بالفواكه والخضر. وعند عودته كان يحمل إلينا بضائع من الدكان وكذلك أخبار السوق والمدينة.

أمّا مجرى الماء الذي كان يمرّ بمحاذاة ملكيتنا فقد كان ينبع من هضبة المفروش ويعبر محلّة الوريط قبل أن يصل عندنا ثم يتابع نزوله إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان يسمى السكاك والتافنة. ومن الجهات الثلاث الأخرى كان يحيط بنا مسلمون وكذلك فرنسيون. فالأوربيون الذين كانوا يسكنون في الجوار كانوا كلهم في قرية استعمارية تسمى كذلك "صفصاف" وكانت خاصّة بهم. كان أبي يعرفهم نوعا ما. فأغنى المعمرين في الناحية كان، على ما أظن، السيد دولفوس. كانت له أراضٍ قد غرس فيها الكروم وزرع فيها القمح والشعير والخرطال. وقد صار فيما بعد مليونيرا يمتلك العديد من الضيعات وخاصة أكبرها وأحدثها. قد تحصل على طائرة للتنقل بين ممتلكاته المختلفة.

أتذكر يوما أبي يتحدث عن تاريخ الأراضي التي كانت حولنا. وكان يقول لي هي الآن ملك للمعمرين فقد كانت ملكا للجزائريين الذين انتزع منهم ذلك. "فضلا عن ذلك، نحن كذلك مهددون. ألسنا محاطين تقريبا من كل النواحي بالمعمرين الذين صاروا اكتساحيين أكثر فأكثر. ولكن الله لا يسمح أن نجرد من هذه الملكية الصغيرة". كانت أمّي عموما تقوم بأعمالها المنزلية بهدوء ولكن في هذه المرّة التفتت فجأة نحونا لتقول بدورها أن أولياء تلمسان سيعترضون على أي محاولة لطردنا. كل واحد من والدينا كان يحس بقلق شديد فيما يخص المستقبل وكنا نلاحظ ذلك أثناء بعض المحادثات التي كانت تظلم الجوّ وتغطي النور الساطع لشمس جويليا. كنا ونحن أطفال نشاطر والدينا همومهم حتّى لو أننا لا نفهمها.

من بين جيراننا الأقربين، كانت هناك عائلة فرنسية، عائلة برات التي كانت تزرع العلف والشمندر للحيوانات. وكان لأبي علاقات حسنة معهم. كانوا يشترون علينا العلف الذي كانوا يحشونه بأنفسهم. كنا نتبادل أحيانا الخدمات. وكان ابن السيد برات هو الذي يأتينا كلما كانت بيننا أمور للضبط. ولكن، أحيانا وخاصّة في الصيف، كانت كل العائلة هي التي تأتي لزيارتنا. وبهذه المناسبة كنا نهدي لهم

القهوة والحلويات العربية التي يشتهونها والفواكه. إن البنات "برات" اللائي كان لهن عمر أختي الكبيرة، كن يهدين لها الخواتم والجواهر. ولكن هذه المجوهرات كانت ترهات من النوع الرخيص ولكن هذا مفهوم. فبما أننا كنا لا نتكلم الفرنسية، كنا نتبادل النظرات والابتسامات. لحسن الحظ كان أبي يعرف بعض الكلمات بالفرنسية وكانت عائلة البرات تنطق بعض الكلمات بالعربية. كان إذن بالإمكان التعبير عن أفكارنا وبعض الكلمات اللطيفة.

مع الزمن، كانت علاقاتنا مع عائلة البرات قد تقلصت ولكنها لم تنقطع نهائيا. ماذا كنا نفكر عنهم ؟ كان هؤلاء الناس ظرفاء ومحبين ولم يمسونا بسوء. كان أبي عندما يتحدث عنهم يقول أنهم من خلق الله وهم مثلنا تماما وأنه علينا أن نحترمهم وأن نخصهم بالإعتبار. إن القرآن الكريم يوصي أن نراعي الإحترام الأكبر والتفهم الأكبر للجار على الشمال وعلى اليمين. أضف إلى هذا، فقد قال أبي : "فلهم دينهم ولنا ديننا" . ومن البديهي أن كل واحد كان ينسى في قرارة نفسه الكيان الاستعماري ونتائجه على كل المستويات البشري منها والسياسي والاقتصادي. وهذا مشكل حسب تفكيرنا، سيجد حلا في يوم من الأيام. متى وكيف؟ "الله وحده أعلم"، كانت هذه هي إجابة أبي كلما نطلب منه ذلك. "هو الوحيد الذي له مفتاح هذه المسألة" . وبالفعل فإن أبي كان، مثل كل التلمسانيين، يحلم بأن يرى يوما ما "أمير المؤمنين" يتدخل لصالحنا.

ماذا كان يمكن أن تفكر فيه عائلة البرات من ناحيتها ؟ فالأب كان يبدو مستغرقا تماما بالعمل وهمّه أن يواجه تربية أولاده الأربعة. إن هذا المعمر، وهو أب لعائلة متواضعة، كان يظن أنه متواجد في الجزائر من أجل أسباب وطنية، في خدمة فرنسا. وكان هذا كذلك بالنسبة له عملا صالحا وإنسانيا. فيما بعد، وعندما بلغ ابنه ثلاثين سنة تقريبا، قد تحدث مع ابن عمي الحاج عبد القادر ممشاوي. وكنت وقتئذ على رأس نجم شمال افريقيا وقد أبدى دهشته في أن يرى أن ابن فلاح صغير، لم يدرس في المدارس الكبيرة، قد توصل إلى بلوغ مثل هذه المسؤولية وأن يخوض معركة كهذه وفي منظمة كهذه. كان يظن بلا ريب حينئذ أن الحكومة الفرنسية التي دجّنت العديد من الآخرين، لن تترك ابن مصالي يذهب بعيدا في هذه الطريق دون أن تضع حدّا لنشاطه. كان المعمرون آنئذ مقتنعين أن لن يتحرك أحد أبدا في الجزائر لأن القوة ستخمَد أيّ عزم لمعارضة "العمل التعميري لفرنسا" .

خلال الإقامة في "الصفصاف" في صائفة 1906، فقد استقبلنا، مثلما كنا نفعل ذلك دائما، أعضاء عائلتنا، أختي خيرة وزوجها وأبناؤها، أخي الغوثي، ابن عمّي بن عودة وجاء أقرباء آخرون لقضاء بعض الأيام معنا. وهذا كان بالنسبة لنا، نحن الأطفال، سبب فرحة كبيرة. كنت أحب أن أرى كل عائلتي مجتمعة في هذه القطعة الأرضية الموروثة عن آباء ماتوا. وبهذه المناسبة، كانت الوجبتان اليوميتان اللتين نأخذها حول أبي، وهو الرجل الأكبر سنا، تتحوّل إلى مجلس عائلي بدون جدول أعمال. وكانت كذلك تتخذ شكل اجتماع استعلامي حقيقي.

إن قريبي عبد القادر ممشاوي الذي كان كذلك نسيبي، كان يتمتع بنفوذ كبير في عائلتنا. هو صانع عربات، متدين جدّا، كان عضوا فاعلا ومسيرا في زاوية الدرقاوي. بعد وجبة المساء، كان دائما يكلمنا عن جمال وعظمة الإسلام. وكان كذلك يحدّثنا عمّا يجري في المدينة وفي المغرب وفي العالم. كنت أستمع إليه بانتباه كبير وكنت واقعا تحت سحر كلامه. ولكن ينبغي أن أقرّ أني، نظرا لصغر سني، لم أكن أفهم الشيء الكثير. ومع هذا فإني أتذكر أن في كل هذه الاجتماعات العائلية كانت الكلمات الآتية هي التي تتردد كثيرا: الإسلام، الله، مكّة، سيدنا (محمد صلى الله عليه وسلم)، الشام (وهو عبارة عن دمشق) وأسماء رجال تلمسان الصالحين.

كانت الأمسيات تنتهي بالفرح لأن أختي الكبيرة خيرة كانت كثيرة الحيوية وكثيرة الضحك وبالتالي فقد كانت هي المنشطة الأساسية. كانت في وقت متأخر من الليل تحكي لنا الحكايات والألغاز لتلهينا وفي بعض الأحيان لتخيفنا.

ولكن ومع الأسف ليست كل عائلتي هنا في الواقع. كل الحاضرين الذين تكلمت عنهم ينتمون إلى فرع الأب لأنه هو الفرع الذي لنا معه أكثر الارتباطات والتحالفات. لقد تمت زواجات لتوطيد النسب الأصلي: إن دم آل مصالي وآل ممشاوي قد اختلط كثيرا ومنذ زمن بعيد. إن ملكية الصفصاف مشتركة بيننا كلنا نرث من بعضنا البعض. كنا مربوطين في نفس العربة إن صح التعبير وبكيفية مستمرة. ومن ناحية فرع أمّي أعني آل ممشاوي فالأمر كان مختلفا. فعدد من أخوات أمّي قد تم ارتباطاهن مع عائلات بلخوجة وبن دمراد. وجدتي كانت هي شخصيا من عائلة بن قلفاط. هذه العائلات الثلاثة كانوا يعملون في المدينة في التجارة والصناعة التقليدية مع التفاتة متواضعة إلى الفلاحة وتربية الأنعام. فباعتبار وضعيتهم الاقتصادية والتحالفات التي

ضبطوها. لقد كان الأقرباء من ناحية الأم يتبعون سُبلاً أخرى ويدخلون في أوساط مختلفة عن أوساطنا. إن تطور المجتمع كان يحملهم بصفة طبيعية نحو البرجوازية وعالم التجارة الكبيرة. إن الطمع في الربح والتعطش للإرتقاء أكثر من الذين هم أمامهم من الأشياء التي صارت تتحكم في حياتهم. ولهذا فإنهم لم يأتوا أبدا لزيارتنا في الصفصاف.

إن وضعيتهم الجديدة لم تُؤَدِّ بهم في الواقع لهجرنا. بالعكس فإن خالاتي كن يظْهرن كثيرا من اللطف ويقدمن الكثير من الخدمات. كلما جمعتنا أموات أو زواجات لوقت معين، كن يبدين الكثير من الحرارة ومن التقرب إلينا. ولكن كان هناك شيء من الاحساس بالضيق. حقيقة عندما كان الأمر يتعلق بالجيل الأول، فقد كان والديّ لا يتغيران أما النساء، بوجه خاص، فإنهن كن يخشين أن سوء الحظ أو الطمع قد يهدّدانهن بسبب وصولهن إلى الرزق والسعادة في العالم. فكن يتعبدن أكثر ويكررن الزيارات إلى أولياء المدينة، ويتصدقن ببعض الدراهم والأطعمة للمساكين. ومع هذا فإن هذه البرجوازية المتنامية مهما شعرت بأنها تركت في أسفل السلم الإجتماعي أشخاصا كانت تحبكم، فإنها لم تستطع الهبوط إليهم بنفس الحماس. إن دوامة الحياة الجديدة مع كل ما فيها من الجاذبية كان يفرق بينهم شيئا فشيئا. كلهم، هؤلاء وأولئك، كانوا يلاحظون في قرارة أنفسهم أنه لم يبق أي شيء مشترك بينهم. الغنى والفقر لا يمكن أن يلتقيا ولا أن يتعايشا. الفقر يتكلم لغة والثراء يتكلم لغة أخرى.

في نهاية سبتمبر وبعد أن وضعت المحاصيل في الأكياس، كنا نعود إلى المدينة حيث سنرجع إلى عاداتنا الحضرية. فالمنزل أو قل الغرفة التي كنا نسكنها ليست ملكا لنا. كانت ملكا لجدتي والبقية ستثبت لي خطئي ولكنني لم أكن أُعير أي اهتمام لهذه الجزئية. كنت أحبّ حَنَّى[1]. وقد كانت حنينة علي ولطيفةً معي وكريمة مثل أمي. فقد كانت في كل وقت ملاذي والمدافع علي وعندما يقتضي الأمر ذلك فقد كانت طبيبي. إذا ما وقع منّي أيّ شرود كنت أختفي عندها ولم يكن في وسع أيّ واحد الدخول إلى غرفتها ما عدا أمّي. كانت تؤيدني حتى في حالة خطئي. إلاّ أنها، ورغم تدليلها لي، لم تكن توافقني على شرودي وتغيباتي في المدرسة. كان بودها أن أختار نهائيا بين العمل والمدرسة. كانت ترى أن الدراسة بعد سنتين أو ثلاثة، يعني وقت تعلم الكتابة والحساب. كان ينبغي أن أتوجّه إلى مهنة جيّدة.

(1) لقب لجدتي لأمي وقد كان لها شخصية قوية ويسميها مصالي حاج ماما بن قلفاط أو ببساطة جدتي.

كانت لا تجهل أن أبي الذي بلغ اليوم أكثر من خمسين سنة يجب عليه أن يواجه وحده مصاريف تزويج أخواتي. وكانت كذلك تعرف أن ملكيتنا "الصفصاف" لا تكفي لسد حاجات عدد من العائلات مع أولادهم الذين يتزايدون شيئا فشيئا.

وعند وصول الخريف، جاء الدخول المدرسي بعد ثلاثة أشهر من عطلة مملوءة. ولكن في تلمسان فالخريف هو زمن قطف الزيتون. وهذا النشاط كان يجند في أكتوبر المئات من الرجال والنساء والبنات والأبناء وقد وجد والدي أنفسهما لأول مرة هذه السنة أمام خيار أليم: هل كان يجب أن أرسل إلى المدرسة أو أن يحتفظ بي لقطف الزيتون ؟ وفي الأخير لم يتخذ القرار بصفة جذرية. فقد تركت لألتحق برفاقي في المدرسة، مع العلم أنني سأقضي الخميس والأحد وأيام العطل في قطف الزيتون. ففي فريقي من الملتقطين كان هناك أطفال من حينا بما فيهم أخواتي. كنا نستيقظ باكرا في الصباح ونذهب ونحن نضحك ونغني. كنا نحمل معنا الخبز للغذاء والتين وبعض الحلويات المصنوعة من الدرة. فالملاك الذي كنا نعمل عنده كان يعطينا الزيتون أو زيتا مملحًا شيئا ما لنغمس فيه خبزنا. كانت أيام العمل طويلة ومضينة. فكان لا بدّ من كل حماس الشباب والحاجة إلى الدراهم لمعاناة تلك الأيام بالضحك والغناء. فقد كانت الفتيات مسرورات رغم التعب لأن الدريهمات القليلة اللائي كن يربحنها في هذا العمل كانت ستستعمل في تحسين تجهيزهن والجهاز هو أهم اهتماماتهن. كانت الفتاة وهي مازالت في بداية العمر تضحي بشيء من نفسها من أجل الحبّ ومن أجل وضعيتها في المجتمع غداً. عندما تعمل فإنها تحسن جهازها وتحضر مستقبل دارها وسعادة زوجها وأولادها. لهذا كانت تستيقظ مثلنا على الساعة الرابعة صباحا لتذهب إلى العمل، في الريح وغالبا ما يكون ذلك تحت المطر مدة إثنى عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم. أليس هناك شيء من العظمة ومن الشرف ومن السمو ؟ إن هذا الشغل الشاغل المتعلق بالغد يستحق الاحترام خاصّة وأنه في ذلك الوقت، أي في بداية القرن، كانت ظروف معيشة المرأة الجزائرية مما يرثى لها.

بعد الرجوع إلى المدرسة، كنت مع التلاميذ الذين قبلوا في الابتدائي الثاني. ومعلمنا الجديد يسمى سي مصطفى بن عبورة. كان يعرف بأنه رجل قاس يحسن استعمال العصا كما يحسن استعمال البراعة. وبالفعل فإنه كان يستعمل العصا اللينة لمعاقبة التلاميذ فيوزع عليهم الضربات على كف اليد. كان هذا الأمر يفزعنا إلى درجة أننا كنا نشل عندما يسألنا. والطلوع إلى السبورة كان بمثابة العذاب للتلاميذ.

عندما أشتكي من هذه الوضعية، كان أبواي ينصحاني بحفظ دروسي وبعدم الوصول متأخرا. إن هذه القساوة كانت، حسب ما كانوا يقولون، داء يعقبه خير.

ولم أكن فيما يخصني متفقا مع هذا التفكير العائلي. إلاّ أن التلاميذ الكبار كانوا يقولون أن سي مصطفى بن عبورة كان يريد خاصّة من تلاميذه الأهالي أن يتصرفوا تماما مثل الفرنسيين وأنه كان يأبى أن يراهم يتعفنون في القسم. عندما علمت هذا، صار عندي روح المنافسة التي صارت تشجعني على العمل. أما معلمنا، فبفضل معرفته للموسيقى، فقد كان يعلمنا الغناء بالفرنسية وهذا ما كان يعجبنا كثيراً. فالمدرسة بصفة عامّة كانت جذّابة بالنسبة لي. ولا أدري لماذا كنت أحيانا أتغيب من المدرسة. على كل حال إن هذه الفلتات قد تسببت في الكثير من العقوبات حتّى وصلت إلى الإلتجاء عند جدتي وأضع نفسي تحت حمايتها حتّى لا أقع تحت ضالّة شدة العقاب.

في يوم من سنة 1908، أخبرنا شفويا أنه كان علينا وبأسرع وقت ممكن أن نخلي الغرفة التي كنّا نسكنها في الدار التي تملكها جدّتي التّي لم تعد تملك دارها لأنها باعتها بمنحة مدى الحياة أو وضعتها في الرهن. كنت ما زلت صغيرا ولم يكن في استطاعتي فهم أيّ شيء في هذه القضية التي تشبه لعبة سحرية: ليس من المفيد أن نذكر أن هذا الخبر الخطير الذي لم يكن أيّ واحد ينتظره قد اتعسنا كثيرا. كانت أمي المسكينة تختفي لتبكي حتى لا تحزننا. أمّا أبي ورغم أنه متأثر كثيرا إلاّ أنّه كان هادئا فقد قال لنا: "يا أولادي، لا تبكوا، إن الله معنَا. ثم ماذا؟ فلدينا ملكنا في الصفصاف وهناك الكثير من الرمل والحجر لبناء دار صغيرة إذا اقتضى الحال".

في الوقت الذي كنا نعيش تلك الفترة من التردد، كان أبي يبحث عن حلّ، وانتهى إلى وجود مكان للسكن ومنصب شغل في نفس المكان. كانت الدار محاطة بحديقة كبيرة مملوءة بالبرتقال والمندرين وأشجار فواكه أخرى. كانت توجد وراء محطة تلمسان على بعد ثلاث كلمترات من المدينة. وكانت ملكا للسيد فيلاني، فرنسي من أصل إيطالي، متزوج وأب لعدة أولاد. كان نجاراً/نحاتًا وكان مشهورا بأعماله الفنية..كان على أبي أن يتكلف بالحديقة، بفلاحتها وبالصيانة العامّة للملكية. وفي المقابل، كان على السيد فيلاني أن يضع تحت تصرف أبي غرفة كبيرة وحجرة للعتاد. أضف إلى هذا أنه كان لنا سهم في المحاصيل ومبلغ من المال في نهاية السنة.

كنا نسكن جنبا إلى جنب وكنا كثيرا ما نرى السيد فيلاني وزوجته وأولاده. كانوا لطفاء جدّا ومتفهمين. من حين لآخر كانت السيدة فيلاني تعطينا بعض الحلويات واللعب. كان والدانا يوصياننا أن نكون ودودين وخدومين معهم. كنا لا نفهم بعضنا جيدا ولكن نقوم بمجهودات، أحيانا بالإشارات لتبليغ المهم. كانت عائلة فيلاني عائلة متدينة ممارسة ومن غرفتنا كنا نسمعهم أحيانا بأصوات منخفضة يصلون وبلغة، ربما الإيطالية لأننا كنا لا نفهم منها شيئا.

لم يكن معنا جيران، ولكن الطريق كانت كثيرة المرور. وعلى مقربة منا يوجد ضريح سيدي عبد الله المرج حيث كان مدفونا مرابط كبير، كان الزوار يتوافدون عليه من تلمسان ومن القرى المجاورة. كنا نشعر بالراحة في دارنا الجديدة وكأن الله قد كافأنا بعد المحنة التي تخطيناها. بعد وصولنا، ذهبنا، أقصد أمي وأخواتي وأنا، وعند قدوم الليل، لحرق شمعة على ضريح سيدي عبد الله المرج متوسلين إليه أن يأخذنا في حمايته. ثم هناك شيء كان يطمئننا كثيرا: فالدار كانت في الطريق الموصل إلى الصفصاف، ملجؤنا في حالة حصول طارئ. أضف إلى هذا أننا، قبل ذهابنا، كان سي الغوثي صاري علي حاج الدين قال لأمي، بنت عمه أننا سوف لن نبقى مدة طويلة بعيدا عن تلمسان. كان يفكر في وجود مكان آخر نعيش فيه. كما أنه كان في كل مرّة كلما تعترض العائلة صعوبات فإن مسألة المدرسة تدخل من جديد في جدول الأعمال. وفي الأخير سمحوا لي بالذهاب إلى المدرسة. منذ سكنا عند السيد فيلاني، صرت أعمل بنشاط أكثر وذلك بدون شك بالنظر إلى وضعيتنا الصعبة. إن الإتصال المباشر مع عائلة فرنسية، كنا دائما بجانبها دون أن نقدر على فهمها، قد شجعني على التعلم. إن هذا الحماس الجديد تجاه المدرسة قد أثلج صدر والدي الذي كانت له فكرة عن أهمية التعلم. فقد كان يقول: "يجب للعيش مع هؤلاء، يعني الفرنسيين، وللتمكن من مواجهة المآسي، أن نتعلم لغتهم وأن نترك الباقي على الله".

إن اهتمامي بالدراسة لم يمنعني من التغيب أحيانا من المدرسة، وذلك دون أن يعلم والدي. فمنذ صرنا نسكن بعيدا عن المدينة، كان من السهل علي أن أهجر المدرسة دون أن يعلم أحد بذلك. ولكن كل شيء ينتهي إلى المعرفة. فقد علمت عائلتي تغيباتي بواسطة المعلم فقد أخبرتني أختي آمنة عن الغضب الشديد الذي انتاب أبي. فاختفيت عند خالاتي لأنتظر حتّى تهدأ الوضعية. عندما سمعت أمّي، جاءت لتطلب منّي الرجوع إلى الدار. وتتكلف هي بتهدئة الأوضاع فاتبعتها، ولكن بمجرد الوصول عند فيلاني، ذهبت لأختفي في عمق الحديقة لأراقب أولاً كيف سيتصرف أبي.

قبل قدوم الليل بقليل، جاءت أمّي لتأخذني وقد طمأنتني أنه لن يكون هناك شيء حصير. عندما صرت أمام أبي، نظر إليّ بعينين غاضبتين وتكلم معي بغضب: "أنت هـ ! أهكذا تذهب إلى المدرسة ؟ أخفيت عنّي الحقيقة فأرغمت معلمك على علامي. إنك تفضحني، ولكنك ستدفع كل هذا. احتَرز أن تجلب غضب الله عليك، إنك رخيص". هذا ما وقع في المساء، ولكن لم تنته الأمور. من الغد وعند ساعة السابعة صباحا، ترك عمله في الحديقة وجاء يبحث عني فاقتادني عند شجرة جوز وربطني معها قائلا : "ستبقى هنا كل النهار ودون أن تأكل أي شيء".

ما كاد أبي يختفي حتّى جاءت أمّي وقد سترت نفسها بقطعة من القماش وكانت شاحبة اللون، لتخلصني "يا ربّي احفظه واعطه الحكمة، لأني ليس لي سواه، فصنه لي" فاقتادتني إلى الدار حيث كانت أخواتي تحضرن قهوة الصباح فأعطيت لي القهوة حينا مع شيءٍ من الثريد. وبينما كانت أمي تشتغل حولي فإنها كانت في نفس الوقت توبخني: "إذا أردت أن تستمع إلى وتفرحني يا ولدي، لا بد أن تقوم بما طلبه منك أبوك. إنه لا يريد إلا مصلحتك. الله وحده يعلم كم أن كل هذا يؤلمني وكم أدعو لك في كل صلاة من صلواتي".

قد بقي هذا اليوم منقوشا في ذاكرتي. ولكنني لم أحفظ أيّ حقد ضد أبي. قد تبين لي أنه لا يريد إلا سعادتي وأنه إن كان هناك فرق في السلوك بينه وبين أمّي، فإن ذلك ليس إلاّ شكلا من أشكال الطبع وعليّ أن أعترف أن أبي، بعدما مرّ غضبه، فإنه رجع إليّ وكأن شيئا لم يكن.

وقعت هذه الحادثة بضعة أيام قبل نهاية السنة المدرسية. فلم يبق في وسعنا الذهاب خلال الصيف إلى الصفصاف منذ سكنا عند السيد فيلاني. فقد قرر والداي ترتيبي خلال أشهر العطلة الثلاثة عند حلاق، سي السعيدي، لأتعلم المهنة. فقد كان والداي يقومان بهذه التجربة قبل اتخاذ قرار حول مستقبلي، لأن تغيباتي في المدرسة قد أثارت مناقشة هذا الموضوع.

لم أكن أعرف أيّ شيء عن مهنة الحلاق، ولكن حب الاستطلاع وجاذبية التغيير قد ساعداني على أن أكون مسرورا باختيار والديّ. فمدة أسبوع كامل، كانوا يكلمونني عن هذه المهنة وعن أهميتها. إن أصحابها كانوا من أصل مرابطي وبالتالي لهم مكانة محترمة. فالسيد سعيدي كان متوزجا وأبا لبنت صغيرة. وزوجته كانت ذات تربية جيدة ولطيفة ومتدينة.

بعد خمسة عشر يوما من العمل تم تضبيط أوقات عملي بشكل نهائي، في الصباح كنت أذهب لجلب المفاتيح من دار صاحب المحل، ثم أتوجه نحو صالة الحلاقة.

وفيما يخص الصالة، فإنها في الواقع كانت محلا صغيرا جدّا حيث لا يتمكن أربعة أشخاص الجلوس فيها إلاّ بصعوبة. كنت أقوم بفتحها ثم أنظفها وأكنس أمام الباب بعد أن أرش المكان بالماء حتى لا يثار الغبار عن الكنس، لأن ذلك كان يسوء الجيران. وأثناء النهار، كان ينبغي أن أبقى واقفا على يمين صاحب المحل لأتعلم كل مرة عندما يحلق زبونا. كنت استعمل مروحة لأروح على الزبون وألطف عليه حرارة الموسم. وكانت هذه الأعمال قد تدرّ عليّ ببعض الدريهمات من حين لآخر. في هذه الفترة الزمنية كان الناس يحلقون رؤوسهم، ويطيبون لحاهم ويحجمون الدم من القفا أو من الساق. كان الحلاق كذلك نوعا ما طبيبا ونزاعا للأسنان. أمّا الأطفال فإنهم يحلقون رؤوسهم مرّة واحدة بفلسين ويأتي الآباء لدفع المستحق أيّاما بعد ذلك وأحيانا كانوا ينسون ولكن هذا لم يقلق صاحب المحل.

السيد سعيدي كان له فكرة كبيرة عن مهنته وكان يشتغل بفن ولباقة. فقد كان لنا دائما كثير من الزبائن ومن بينهم العديد من سكان ضواحي تلمسان. فالجمعة، اليوم التقليدي لاستراحة المسلمين، كان بالنسبة لنا أكبر يوم عمل. في الصباح كان صالوننا الصغير لا يكفي لاستقبال كل الناس. فكل من كان يأتي متأخرا كان عليهم أن يذهبوا من جديد إلى السوق لقضاء حوائجهم ثم يعودون في العشية مع طرود ملفوفة في أوراق صفراء صارخة.

فالجمعة كانت بالفعل يوم سوق. كان الفلاحون يأتون مبكرين لبيع موادهم التي كانوا ينشرونها على الأرض. أما الحضر فإنهم يأتون بقفافهم في أيديهم ويمرون من بائع إلى بائع بحثا عن النوعية وأرخص الأسعار. فالمساومة كانت شيئا عاديا وكانت في الغالب تحدث مناقشات وضوضاء. وبعض المناقشات كانت تصل إلى المشاجرة. كان صالوننا الصغير متواجداً في وسط شارع ابن خلدون، قرب فندق بن زاغو [1].

بين السوقين : المَدْرَسْ والمَوْقف. كلمة موقف بالعربية تعني "وضعية" ولكنه كذلك يوحي بفكرة الوقوف. وبالفعل فإن رجالا بدون عمل كانوا يذهبون في الصباح

(1) هو مكان خاصّ بالمسافرين ويصلح كذلك لربط الدواب (خيل، حمير، بغال).

الباكر إلى هذا السوق وكانوا يبقون واقفين الواحد جنب الآخر في انتظار من يحتمل أن يشغلهم. والمشغلون يمرون أمام هؤلاء الرجال ويدققون النظر إليهم ليختاروا الأقوياء النشطاء. فهذا هنا بمثابة مكتب التشغيل. هناك تلمسانيون كانت لهم أملاك صغيرة صارت لا تكفيهم لسدّ حاجاتهم المعاشية وهكذا فقد تحتم عليهم أن يبيعوا شخصهم في السوق. فقد سمعت أبي في أغلب الأحيان يقول وهو يتحدث عن قريب أو صديق أو جار في وضعية سيئة أنه "تحتم عليه الذهاب إلى سوق الموقف". وبعد بعض الأشهر فقد تعلمت الكثير من الأشياء الصغيرة. فالجيران كانوا يعرفونني ويقدرونني ويساعدونني عندما تعترضني صعوبات مثل فتح الصالون الصغير. وصار الزبناء مألوفين لديّ. عندما كان صاحب الصالون يصل في الصباح فقد كان يحمل لي معه أشياء للأكل. بعد نظرة سريعة يتفقد فيها حالة الصالة، يذهب هو بدوره إلى السوق. وعند رجوعه كان يعطيني القفة مملوءة بالسلع وأحملها إلى زوجته التي كانت بحاجة لها لتحضير الغداء. السيدة سعيدي كانت انسانية فقد كانت تسألني عن أخبار أمّي وأخواتي وعملي. كانت تعطيني أشياء للأكل ثم ترسلني لأقتني لها بعض المشتريات وكنت آخذ معي بنتها الصغيرة على ظهري وأتجوّل معها وأقضي المشتريات في نفس الوقت. كنت أحب كثيرا أن أحمل معي هذه البنت وكأنها أختي زليخة. وبعد الرجوع إلى العمل كنت أجد صاحب الصالون مستغرقا في شغله. كان يحدقّ إليّ وكأنهّ يقول بأني متأخّر وهكذا فإني أبرر له ساعة وصولي بعد أن أعدد له ما عملت. وفي الحين آخذ مكاني على يمينه والمروحة في اليد.

فقد مرّ أبي ليراني مرة أو مرّتين عند السيد سعيدي. كنت أشعر أنّه كان فرحانا جدّا بوضعيتي الجديدة. وفي يوم من الأيام تبادل بعض الكلمات مع السيد سعيدي بصوت منخفض حتى لا أسمع شيئا. ورغم هذا فهمت أني موضوع حديثهما. فأشهر العطلة المدرسية الثلاثة أوشكت على الإنتهاء ومازلت لم أعرف هل أعود إلى المدرسة. إن زيارة أبي كان من المفروض أن تفصل في هذه المسألة. كل عائلتي تريد الآن أن أترك المدرسة وأن أبقى في التمهين ما دمنا عند السيد فيلاني. اتفق السيد سعيدي مع أبي في هذا الموضوع وما كان عليّ إلاّ أن أقبل هذا القرار ولو كان ذلك مع بعض الإنقباض في القلب لأني كنت أفكر في الالتحاق بأصحابي في القسم. وفي الأخير لماذا قام والدي بهذا الإختيار؟ أظن وبدون تأكيد أن مسألة الدراهم ومسألة الغيابات قد كان لهما مفعولهما. إن تعلم مهنة حلاق لم تكن تبدو لي صعبة. هناك فقط سبب واحد وهو متعلق بالسن: لا يمكن أن نبدأ في استعمال

الموسى قبل سن الخمسة عشر سنة. ما دمت لم أبلغ بعد عشر سنوات كنت باستمرار مكلفا بنفس الأشغال التي لا يمكن أن تتجاوز التنظيف، قضاء الحاجات والترويح بالمروحة... والكلام مع أطفال الحيّ. كنت مرتاحا عند السيد سعيدي لأنه هو وأصدقاؤه كانوا لطفاء جدا. كان أصدقاؤه يزورونه كثيرا وكانوا دائما يحتاجون إلى شراء علب السجائر، أعواد الثقاب أو أشياء أخرى وكان يسرني أن أحضر لهم ذلك. كنت أستطيع هكذا أن أتجول في الحيّ وأن ألعب أحيانا بالكويرات مع رفقائي.

عند صاحب الصالون وكذلك في الدار كان الكلام يدور كثيرا حول السياسة. كان الكلام يدور دائما على المغرب والمشرق والحج إلى مكة والكلام عن طربلس. ولكن كان الحديث في بدايته عن الرياضة في هذه الفترة وخاصّة الحديث عن كرة القدم والرياضات البدنية. كانت هاتان الرياضتان تعجباني كثيرا. كما تعجب كل الأطفال. كي نلعب كرة القدم، وعند عدم وجود كرة، كنا نصنع كرات من بعض الخرق البالية التي نثقلها ببعض الأحجار. وفيما يخص رياضة الجمباز فإننا كنا نفعل نفس الشيء: فعوض الأخشاب الثابتة والأخشاب المتوازية أو الحلقات، كان الأطفال يصعدون الأشجار للقيام بحركاتهم المختلفة. إن حبّ كرة القدم قد أوصلني إلى هربات قصيرة ذات يومين أو ثلاثة وهذا لم يعجب صاحب الصالون الذي عاقبني بصفة جدية وأرسل زوجته عندنا لتخبز والدتي.

سمعت خلال هذه السنة في عائلتي أن قريبي الحاج عبد القادر ممشوي كان ينوي الذهاب إلى مكّة للقيام بفريضة الحج مع تلمسانيين آخرين. وهذا حدث هام جدًا وخاصّة في هذه الفترة التي بدأ فيها الاستعمار المنتصر يثير غضب السكان بالاستيلاء على الأراضي. فالحج كان يظهر وكأنه عمل مستقل تحت حماية وكان يسمح بإبقاء الاتصال بين الجزائر ومجموع العالم الإسلامي. فالحجاج من مختلف الأصول، كان في إمكانهم تبليغ الأخبار والأنباء عن جهتهم وبينهم المشاكل السياسية والاقتصادية والثقافية ومسألة التعاون الإسلامي كانت كلها يتم النظر فيها بصفة جماعية. كل واحد يتحدث عن آلامه وآماله وكل واحد بعد العودة، يصير ناشرا للدعاية ومناضلا من أجل عظمة الحضارة الإسلامية.

فبمجرد ما يعلن المترشح للسفر إلى البقاع المقدسة عن نيته في ذلك، فإنه يصير شخصية هامّة في عائلته وفي حيّه. إن هذا المترشح للحج الذي سيقوم بأحد أركان الإسلام الخمسة التي تنبني عليها العقيدة الإسلامية. يقوم بتحضير سفره مدة طويلة لأن السفر وقتئذ عملية صعبة. فالسفر في ذلك الوقت كان يقتضي المشي مسافة

خمسمائة كيلومتر تقريبا على ظهر جمل عبر الصحراء العربية. فالكل قد يدوم ستة أشهر فالحاج المفترض كان عليه أن يتخذ كل الإحتياطات وأن ينظم أموره وأمور عائلته قبل سفره. وكان عليه أيضا أن يتحصل على كل الرخص من الإدارة الاستعمارية التي كانت كثيرة الحذر من الحجاج.

إن ابن خالتي وزوج أختي صار بهذه المناسبة مركز اهتمامات كل العائلة القريبة، يعني تقريبا ثلاثون شخصا مدة أشهر قبل سفره إلى مكة والمدينة. كان يخبرنا كل يوم بالإجراءات التي قام بها وتطور سعيه ونتحدث عن الفوائد التي نتحصل عليها من الحج. كنا نساعده على تحضير تغذيته خلال السفر، وهي تعتمد على المصبرات، وذلك حتى لا ينقصه شيء مدّة أشهر. فالنساء والأطفال يطلبون منه أن يشتري لهم أشياء تذكارية مثل السبحات وماء بئر زمزم المقدسة أو أقمشة دمشقية. أما الأشخاص المرضى فإنهم يطلبون منه أن يدعو لهم الله في الحرم النبوي. وفيما يخصني طلبت أن يشتري قندورة جميلة وحزام حريري وبطاقات بريدية تمثل الجيش العثماني في تحركه ومناظر من الجزيرة العربية.

خلال الرجوع وأكثر بكثير من الذهاب، كنا ننظم حفلات فخمة و ولائم كبيرة للحجاج . كانوا لا يدخلون مباشرة في ديارهم لتحية والي المدينة. وهنا يستقبلون عائلاتهم وأصدقائهم وكذلك العديد من الوفود.كانوا يقضون جزءا كثيرا من الليل في الصلاة ولكن كذلك إنهم يدلون بأول أسرارهم حول التقلبات التي تعرضوا لها خلال السفر. ومن الغد وعند نهاية الصبيحة كانوا ينزلون كلهم مع بعضهم بصحبة أهلهم وأصدقائهم إلى وسط المدينة في موكب ضخم وهم يغنون ويذكرون الله ورسوله. أما النساء على الشرفات ووراء أبواب المنازل كنّ يرسلن زغاريد مسكرة. فالحفلة كانت تدوم بالنسبة للأقرباء عدّة أيّام. وفيما بعد نسأل بصفة غير منقطعة الحاج عمّا رأى وسمع. الحاج عبد القادر ممشاوي سيحدثنا بغزارة مدّة أشهر وسنوات عن مراحل سفره. أتذكّر أنه أخبرنا عن حديث جرى بينه وبين عضو من عائلة الأمير عبد القادر وهو مقيم بدمشق عاصمة الأمويين.

كان والداي يسكنان على بعد عدد من الكلمترات عن المدينة وكنت مشغولا كل النهار بالعمل عند السيد سعيدي. ولكن هذا لم يمنعني، ولا شك في ذلك أن أعود إلى حيّي القديم لرؤية رفقائي واللعب معهم. إن الفروق بين الأحياء كانت هامة جدّا إلى درجة أننا كنا لا نغادر حيّنا إلاّ نادرا لمدّة أكثر من يوم. لم ير أبدا أحد منا حتّى مدينة وهران التي كانت عاصمة العمالة.

من حين لآخر، كان أطفال الأحياء يشعلون حربا بالحجارة لتسوية بعض المشاكل المتعلقة بالزعامة الترابية. كل جزء من المدينة كان له مسيروه وزعيمه، وقد نتوصل إلى مواجهات عندما لا تعطي المفاوضات أيّة نتيجة. أتذكّر أننا لما كنا نذهب للسباحة في الشلالات أو في الصفصاف، كنا نذهب مسلحين بعصيّ لردّ هجومات محتملة من أطفال يحاولون بانتظام أن ينتزعوا منا لمجاتنا أو سكاكيننا أو أحيانا حتّى ملابسنا. كان هؤلاء المهاجمون يسكنون في مرتفعات قرية سيدي بومدين. كانوا يهاجموننا على حين غفلة لإحداث حالة من الهلع وعندها يستولون بسهولة على كل ما هو معنا. فقد وقع لنا أن دخلنا إلى منازلنا نصف عارين، الشيء الذي يفجع والدينا فيضربونا ضربا مبرحا.

ففي هذه الفترة صرت شيئا فشيئا أغير أماكن اللعب، تاركا الرحيبة مفضلا عليها عرصة ديدو وحيث تبعني بعض أصحابي. إن عساكر ثكنة المشوار كانوا يستعملون عرصة ديدو للتمارين العسكرية. كان هناك الزّواف والترايور والمرتزقة (ليجيونار). وكان هؤلاء المرتزقة آتين من جميع بلدان أوربا وبالنسبة للبعض منهم فإنهم كانوا ينتسبون إلى عائلات كبيرة. وكان بيننا وبينهم اتصال أحسن من العساكر الآخرين. فالمرتزقة كانوا يؤثرون فينا بمعارفهم وبجرأتهم وسلوكهم الصبياني أحيانا. كانوا يعطوننا أحيانا دروسا في الملاكمة وكانوا يحدثوننا عن بلدانهم وعن الأحداث التي شاركوا فيها في الهند الصينية أو في مدغشقر. كنا نشتري لهم الخمر ونعطيهم السجائر. بعض هؤلاء الجنود قد حدث لهم في حياتهم أوقات صعبة و/أو مآسي حملتهم على اختيار المغامرة وعلى أن يصيروا مرتزقين للاستعمار. لم تكن لهم شهرة حسنة وفي الحقيقة فقد كانوا سيئين عندما يشربون الخمر. نحن الصغار، كنا نجهل كل هذا. كان قلبي مملوءا بالشفقة والحنان على هؤلاء المرتزقة لدرجة أني لم أستطع أن أقدّم أي حكم عليهم.

صار متداولا باستمرار أن تعود كل عائلتي إلى تلمسان. نتذكر الوعد الذي تفوّه به سي الغوثي صاري الحاج الدين في الوقت الذي كنّا فيه متأثرين بفقدان سكننا وذهبنا نعيش في الحرم المقدس لسيدي عبد الله المرج. منذ ذلك اليوم، فإن أمّي التي لا تستطيع العيش خارج تلمسان لم تتوقف عن سعيها قرب ابن عمها ليجد حلا كما وعد بذلك. وفي الأخير فقد توصل إلى إعطائنا سكنا تقريبا في نفس الحيّ الذي كانت فيه الدار القديمة. فقد كان وكأنه يوم عيد بعدما عرف الخبر. كانت أمّي مشرقة وكان أبي فرحانا وأخوتي مليئات بالنشاط. أمّا أنا فقد كنت في منتهى

السعادة. فبفضل هذا الرجوع إلى المدينة صار في إمكاني أن أجد بسهولة مكانتي لدى رفاقي القدماء ودون أن أفرط في الجدد رفاق عرصة ديدو والأحياء المحيطة بتلمسان.

كنا كلنا فرحانين بالقيام بزيارة خالاتنا وأخوالنا وأعمامنا وأبنائهم وبناتهم. فأسرعنا في ربط أمتعتنا ورمي ألبستنا كما اتفق فوق عربة يجرها حمار عاص. وكان أبي يعرف الحيوانات جيدا فأعطاه قليلا من الشعير لينشطه. فودعنا عائلة فيلاني التي كان لنا معها علاقات حسنة. وزيارتنا الأخيرة قبل الإقلاع كانت لضريح سيدي عبد الله المرج.

فالدار التي علينا الآن أن نسكنها كانت موجودة في متاهة من الطرقات الصغيرة التي لا يتجاوز عرضها مترا وخمسين سنتيمترا وكانت هذه المجموعة من البنايات محاطة بمنازل يسكنها فرنسيون ويهود وعلى مقربة من ذلك يوجد حيّ درب سيدي الوزان الذي فيه كتاب لتحفيظ القرآن ومسجد صغير. إن التركيبة الاجتماعية لهذه القصبة كانت لدرجة أنك تذهب من الفقر إلى السّعة وأحيانا إلى الثراء وذلك في مساحة لا تتجاوز بعض عشرات الأمتار. هناك منازل جميلة بها حدائق ومنازل أخرى صغيرة ومظلمة. بالقرب منا كانت هناك عائلة فرنسية، آل مولينا. الأب والأم والأولاد الثلاثة كانوا يعيشون في منزل كبير له حديقة وأشجار وأزهار. كان أحد أولادهم سيّئًا وكنت ألعب معه وأتشاجر معه عند المناسبة. وكانت دارنا من بين الديار الفقيرة جدا. كانت قصيرة في المدخل ومظلمة ورطبة. كانت لنا غرفة فرق الطابق الأرضي بينما كان هذا الأخير مخصصا لعائلة بن زرقة التي كانت، حسب ظني، مالكة لسكناها. أمّا الغرفة التي كنا نسكنها فقد كانت مرهونة لصالح صاري علي الحاج الدين. فقد انتهز فرصة الدائن على حساب الملاك ليسكنها بدون مقابل. ولكن هذا كان يعني كذلك أنه في يوم ما يتحتم علينا الرحيل عندما المالك الحقيقي للغرفة يستطيع أن يدفع دَيْنه.

منذ عودتنا إلى المدينة، تخليت عن العمل وكنت أقضي كل وقتي في عرصة ديدو وفي شارع سيدي بلعباس اللذين كانا بمثابة مركز القيادة لنشاطي. كل من يريد أن يجدني كان متأكدا من وجودي في هذه المملكة الصغيرة. ولكن مع الأسف، فإن هذا الإخلاص لأماكني المفضلة كان يحتمل ضررا خطيرا. في كل هربة من هرباتي، كان أخي الغوثي الصغير يعرف أين يأتي لإلقاء القبض عليّ. وكان عليّ إذن أن اتخذ

بعض الاحتياطات. كلما كنت أراه قادما من بعيد، كان عليّ أن أفرّ وأن أتيه في الطرقات الصغيرة وعندما أتعب عليّ أن أدخل في أيّ منزل أجده مفتوحا أمامي. وهكذا أستطيع أن أفلت منه لفترة زمنية ما. ولكن في الغالب كان يختفي في زاوية من الطريق وينتظر خروجي. وبالتالي فقد كان عليّ أن أغير خطتي لتجنب الكمائن التي كان يبنيها لي.

وفي يوم من الأيام استطعت كذلك أن أفلت منه بحظة: عندما سلكت نهج لموريسيار لأذهب إلى حيّ الكوران، كان هناك درب. يعني طريق بدون خروج. في هذا الدرب كانت تسكن عائلة بوكلي حسن التي كان لنا معها علاقة عائلية من جهة أمّي. عندما كنت أشعر بأنهم يبحثون عني كنت أتوجه في الغالب إلى هذا المكان الذي أعرفه جدا ليكون لي حظّ في التخلص من أخي. ولكن في هذه المرّة، فقد تنبأ بمكان اختفائي وتبعني إلى غاية نهاية الدرب، وتحت وطأة الهلع دخلت في أول منزل وجدته أمامي كالمرات الأخرى. لم يكن ذلك المنزل دار عائلة بوكلي حسن ولكنها دار أجانب. فاحتراما للتقاليد الإسلامية، لم يستطع أخي مطاردتي حتى داخل الغرفة التي كان فيها ناس جالسين في الأرض على جلود أغنام وكانوا يتناولون الغداء حول طاولة قصيرة. فبقي إذن قدام الباب وصار يطلب بصوت مرتفع من هذه العائلة أن تطردني ويحثهم على أن يسلموني له. وقد شرح لهم أني تركت عملي. فحاولت العائلة بلطف أن تطلب مني الخروج لوحدي ووعدوني بألا يمسوني فتحصنت وراء سرير خوفا من أن أطرد بالقوة.

ولكن الناس الذين أزعجتهم في وقت الإفطار قد وجدوا هذا المشهد مزعجا. أرادت إمرأة أن تنهي هذه البلبلة تناولتني من يدي لتحاول أن تقودني إلى باب المنزل حيث كان ينتظرني أخي وهو غضبان جدّا. تحت وطأة المفاجأة وأنا لا أعرف كيف أرد الفعل فعلقت اليد الأخرى برجل السرير بكل ما لديّ من قوّة. فالتحق شاب بالسيّدة، التي هي في اعتقادي أمه، لدفعي خارج المنزل بدون لطف فأدّى تدخلهما إلى سقوط السرير الذي لم يكن مثبتا إلا على أرجل صغيرة وقد جذبته نحوي فسقطت إثر ذلك فناجين وكؤوس شاي لتزيد في البلبة درجة. وعليه توقف أهل الدار عن الأكل وقاموا كلهم، فأمر الرجل النساء بالدخول في غرفة أخرى حتّى يفسح المجال لأخي شخصيا أن يدخل ويلاحظ الخسائر التي تسببت فيها. فبرؤية ذلك المشهد فقد بلغ غَضبه أوجه. وبالتالي فقبل أن يتكلف بالخسائر التي ارتكبتها

بهؤلاء الناس المساكين أعطاني ضربا مبرحا وهددني بعقاب كبير. وبعد ذلك قدم عتذاراته لأصحاب المنزل على إزعاجهم في وقت غداء منتصف النهار. كل هذه عملية قد كلفتني عقابا جسديا وأوقاتا صعبة عند رجوعي قرب والديّ.

فقد كنت أستحق ذلك بلا ريب. هؤلاء الناس الذين اجتمعوا للغداء كانوا ينتمون ى عائلة عمّال. وكانوا مثل أغلب الجزائريين يعيشون معا في هذا الفضاء الصغير جدّا. كانت العائلة تتركب من ستة أشخاص فوق الطاولة لم يوجد إلا حساء قد ضيف إليه شيء من الزيت وخبز الشعير. وفيما يخص السرير فهو عبارة عن ألواح موضوعة على دعامات قصيرة وقد وضع فوق كل هذا حصيرة من الحلفاء وغطاءين. فقد كان ذلك التجهيز غير كاف ليتمكن مستعملوه من الحصول على الدفء ليلا في هذه الغرفة التي كانت جدرانها رطبة إلى حدّ العرق.

بعد رجوعه إلى تلمسان، وجد أبي نفسه في البطالة مدّة بعض الأسابيع. ثم وجد عملا في مؤسسة نقل فقد ذهب للتكلف بمحطة لعجلات الركاب موجودة بين حناية والرمشي على الطريق الرابطة بين تلمسان وبني صاف. إن المؤسسة كانت تنقل في نفس الوقت المسافرين والبضائع وقد كان على رأسها رجل معروف جيدا في تلمسان ألا وهو السيد رفائيل. كان هذا الرجل يملك إصطبلات في حَيِّنَا وكان مكتبه في نهج فرنسا أعني المكان الذي تذهب منه العربات. كنا نجده كل صباح باكرا في المسمكة التي يملكها في ساحة الجزائر الصغيرة. عندما كنت أذهب لأسأله عن أبي، كان دائما يعطيني رزمة حوت لعائلتي وفلسين أو ثلاثة لي شخصيا. كان في الخمسين من العمر وهو دائما بشوش وكان له شوارب كبيرة. كان السيد رفائيل إنسانيا وخدوما.

في هذا الوقت كذلك غيرت مهنتي. فقد صرت حذّاء متدربا. فالسيدة بن زرقة التي كان زوجها حلاقا كان لها بالفعل ولد حذاء ونصحت أمّي أن توجهني إلى هذه المهنة. كانت تقول بأن المستقبل واعد بالنسبة لهذه المهنة أكثر مما هو بالنسبة للحلاقة. فقد قدمني ابنها للسيد بن عطار صاحب الاسكافية. كان يسكن قرية سيدي بومدين مع أخويه الذين كانا بلاغجيين. وأمهم التي كانت تدعى "لالا بورسو"، لا أدري لماذا، كانت إمرأة طيبة جدّا وشعبية. كانت معروفة جدّا لدى بعض العائلات التي كانت في طريق البرجوازية في حينا لأنها كانت طباخة مشهورة ومطلوبة في الأعراس الكبيرة، وكانت كذلك دلاكة ونوعا ما طبيبة.

كان عملي يبدأ باكرا. كان علي أن أفتح الاسكافية وأن أقوم بالتنظيف. ثم كنت أذهب لرمي الأوساخ بعد تمشيطها لأضع على حدة المسامير والقطع الجلدية الجيدة وقطع الشمع إلخ... ثم أخرج بعد ذلك للقيام بالمشتريات عند بائعي الخردوات دون أن أنسى إذا أتيحت الفرصة أن ألعب كرة القدم لفترة قصيرة بالضرب على كرة من خرق الكتان مع الأطفال الذين هم في عمري. كانوا يعلمونني كيف أقطع الكرتون والجلد وكيف أسمر الأحذية التي انتهى من صنعه والتي هي قابلة للبيع. ولحفظ ثيابي من الغراء فقد أعطي لي مئزر وهكذا صار مظهري فعلا إسكافيا. كنا خمسة أو ستة عمال من أعمار مختلفة بالإضافة إلى صاحب المحل الذي كان يعطي الأوامر ويوفر النصائح. كنا نصنع الأحذية للتصدير الصغير. فقد كان التجار التلمسانيون يذهبون لبيعها في مدن وقرى الناحية الوهرانية. كنا كذلك نصنع أحذية على المقاس حسب أذواق الزبائن. فقد كانت هذه المسألة تؤدي إلى مساومات حادّة من زمن الطلب إلى يوم التسليم.

كان الدكان في حيّ نشيط وهذا كان يعجبني كثيرا. كان هناك على مقربة منا فرنان في حالة عمل حيث كان ينضج فيهما الخبز لعدد من الأحياء. كان الأطفال يأتون باستمرار حاملين سينيات خشبية عليها الخبز الذي لا بدّ من إنضاجه وفي رمضان نرى زيادة على ذلك سينيات مملوءة بالحلويات المصنوعة من اللوز والقرفة والعسل والفانيلا وماء الورد. فالأطفال الفقراء كانوا ينظرون بشغف إلى تلك الحلويات التي يوزعها عليهم أحيانا العائلات التي هي في طريق البرجوازية بمناسبة الأعياد الإسلامية. فهل كان هذا خوفا من الله أو الخوف من جهنم أو لتجنب آثار السحر التي تحدثها مطامع الفقراء.

يقال بأن الاسكافيين هم الذين لا يتسبطون جيدا. فهذا صحيح وقد لاحظته مدّة تمهيني فقد رأيت صاحب المحل والعمال يلبسون أحذية كانت قد أعطيت لهم للترقيع أو إعادة فرشها وفيما يخصني ما زلت لم ألبس حذاء في رجلي. كان والدي يهديان لي بلغات بمناسبة الأعياد الدينية. ولكنها كانت مصنوعة من الكرتون أكثر من الجلد وكانت لا تقاوم أكثر من شهر. وفي تلك الفترة كان عمري عشر سنوات. كنت دائما ألبس شيئا بسيطا. كنت ألبس عباءة طويلة بيضاء تنزل إلى غاية العقب وتحتها كنت ألبس سروالا، يعني بنطلونا ملونا كنت أشده عند الحزام بتكّة وكنت أضع على رأسي المحلقة شاشية صغيرة وكان رجلاي حافيين في أغلب الأوقات.

وفيما بعد صرت ألبس نعالاً تساعدني كثيرا في الرياضة ومصروف والديّ. فقد كنت مستريحا جدا هكذا لكن إلى حدّ ما من العمر. وبعدما اتصلت بأصحاب يلبسون بكيفية أخرى تطورت مطالبي.

وفي هذا الوقت كنت أعيش مع فكرة الذهاب لرؤية أبي في مكان عمله ولم أتوقف من التردد على أمّي في هذا الموضوع. ولم تكن أمّي تنظر إلى هذا الموضوع بعين راضية. ولأتحصل على رضاها، قررت أخيرا أن أرى السيد رفائيل الذي قبل بتسهيل الأمر لي وهكذا حدد تاريخ سفري الأول. كان فرحي عظيما وكان خيالي يدور بسرعة فائقة. كنت أتصور كل شيء. كنت خائفا نوعا ما من القيام بهذا السفر وحدي مع أناس لا أعرفهم. لا عليه، فإن الله يساعدني. بالطبع فقد كنت أخفي ذعري حتّى لا تعارض أمي هذا السفر الذي كان يقذف بي في الأحلام.

لقد تحصلت على رخصة التغيب من الاسكافية. وقد تم الإقلاع في العشية. فالمسافرون وعددهم عشرة قد أخذوا أماكنهم في العربة مع رِزماتهم كان كل هذا يتم في حركة كثيرة الإضطراب. السيد رفائيل كان هنا وكان العديد من الناس يحيطون به. كان يذهب من مكان لآخر والغليون في فمه والأوراق في يده. فالأحصنة الثلاثة التي كان عليها أن تجر العربة لم تكن يخشى عليها كثيرا من الألم : كانت الطريق منحدرة على مسافة خمسة عشر كيلومترا وبعد ذلك فإن الأرض كانت منبسطة إلى غاية المحطة.

بعدما أقلعت، ذهبت كل تخوفاتي لتترك المكان إلى الفضول. كنت أنظر بصفة خاصّة إلى الأملاك الكبيرة حيث ينبت القمح والكرم. فقد مررنا بقرية الحناية في ساعة مبكرة وكانت هذه القرية مركزا هاما للتعمير على بعد ثمانية كيلومترات من تلمسان. هنا كما الحال في أماكن أخرى فإن نظام نزع الأملاك قد خلف ضحايا لصالح الوافدين الجدد. وبالتالي فإننا نلتقي من حين لآخر فلاحين بدون أرض متوجهين جماعات وفرادى إلى المدينة. فإن الحوذي الذي جلست قربه كان يقول عندما يراهم: "مساكين !" ثم يتحدث عن أبي وعن عائلتي والناس في تلمسان. وكان يقول كلاما طيبا عن السيد رفائيل ويتحدّث عن كرمه. إن هذا الرجل، حسبه، كان يحب العرب. كان يقصد أن هذا الرجل ينظر بعين بشرية إلى العرب دون حبهم فعلا أكثر من الآخرين. إلاّ أن موقف السيد رفائيل كان بارزا بالنسبة لموقف المعمرين الآخرين الذين لا يمتنعون عن إظهار كرههم للعرب حتى لو كان ذلك بالمزاح.

في وقت معين وبعد فترة من السكوت، قرع الحوذي سوطه وقال: "أترى هناك في المنعرج ؟ فهنا لك ينتظرنا أبوك مع أحصنة لتعويض هذه الحيوانات المسكينة التي تعبت". فكرة رؤية أبي في بلد بعيد عن تلمسان كانت تفرحني، وكنت مسرورا بالوصول. إن هذه الجولة التي أوصلتني أربعين كيلمترا خارج تلمسان تمثل بالنسبة لي سفرا خارقا للعادة وقد كنت مستعجلا للقيام به. قبل أن تتوقف العربة بصفة نهائية قرع الحوذي سوطه عدة مرات ليعبر عن فرحه وليبحث عن رضا المسافرين. ثم أعلن بصوت عال من مقعده : "عمي أحمد ! عمي أحمد ! ها هو ولدك إنه "نشيط جدّا ! فليحفظه الله من خبث الناس ! كنت متأثرا كثيرا. وأضاف الحوذي: "لا تتحرك، سأحمل رزماتك وتنزل فيما بعد". عندما جاء دوري، توجهت نحو أبي الذي كان واقفا أمام أحصنة التعويض الثلاثة. فقد ضمني بقوة ثم قبلني وأشار لي بالبقاء قرب العربة بينما ينهي قرن الفريق الجديد من الأحصنة.

أخذ الحوذي طريق بني صاف بعد ذلك بقليل. ثم رافقت أبي إلى الاصطبلات في الضيعة / المرحلة وأنا حامل رزماتي. هنا تكلف أبي بالأحصنة فأعطاها الأكل ثم اقتادني إلى الغرفة الكبيرة التي كان يعيش فيها. فقد خيم الليل دون أن نشعر بذلك. حضرنا كل شيء للعشاء. ثم أوقد أبي مصباح العواصف ووضع على مائدة قصيرة مرقا بالبطاطا واللحم والطماطم. كان هناك كذلك العنب والتين. كنت جائعا جدا. فالسفر والهواء الطلق قد حرّكا شهيتي.

وخلال العشاء سألني أبي عن أخبار العائلة وعن عملي. "هل تعلمت شيئا على الأقل في مهنتك كإسكافي؟" سألني وهو يبتسم. كنت تعبانا ولكني كنت منشرحا وفرحانا بوجود جوّ عائلي. بمجرد الإنتهاء من العشاء، وعندما رأى أن النوم بدأ في الإستيلاء عليّ، أشار لي بمكاني الذي أنام فيه. قلت مكاني ولم أقل سريري. هو نفسه كان ينام على فراش موضوع على حصيرة من الحلفاء تحتها بعض الألواح. عندما استيقظت، قدّم لي أبي إمرأة عربية لطيفة جدّا. ربما كانت خادمة، كانت تسكن في المحطة مع أبنائها. كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية. فقد كنت متأثرا بكل ما أرى: هذه الضيعة الكبيرة، كل ما تحتوي عليه، حركة العربات ذهابا وإيابا والأنعام والخيل والأراضي الغنية التي تحيط بنا. ومن دون أن أشعر لم أستطع أن أمنع نفسي من مقارنة صفصافنا الصغير مع هذه الضيعة وهذه الأملاك. في تلك الفترة لم أفهم لماذا كانت هناك فروق. كنا نكتفي أحيانا بالقول أن الفرنسيين كانوا يتقنون العمل ولكننا لم نكن نقتنع بما نقول. خلال النهار، أنبأت أبي بالتساؤلات في هذا المجال.

فضحك. وفي ذلك كان يفرمن أي حديث شائك لأنه كان يعتقد أن ذلك ليس من مستوى عمري إذ قد اكتفى بالقول. "إن الله يجازي الرجال حسب ما يعملون وما يستحقون". وكان هنا يشير إلى ما جاء في آية من القرآن.

كان ينبغي أن أفكر في الرجوع. كان أبي قد حضر عدة رزم ووضعها في كيس. وكنت في آن واحد فرحانا بالعودة إلى تلمسان ومستاء من إبقاء أبي في هذه الغرفة الكبيرة وَحْدَهُ وسط هؤلاء الناس الذين ليسوا من عائلته. لم أبق عنده إلاّ خمسة أيّام ولكنه كان يريد أن أعود بسرعة إلى عملي الاسكافي وهو حسبه مهنة حسنة وقد أعطاني في هذا الشأن العديد من الوصايا.

عندما قال الخوذي : "هيو ! هيو !" قارعا سوطه، ثبت نظري بقوة في أبي وهو واقف قرب الخيل. فقد كان السيد رفائيل من مجموع المسافرين في هذه المرّة. فعبّأ غليونه الذي لم يفارق فمه طوال المسافة. كنت مغموما. بينما كان الخيل يجرون هذه العربة بصعوبة وفي هدوء رهيب، كنت ما زلت أفكر في عزلة أبي. فالسيد رفائيل الذي كان من حين لآخر يرسل الأضحُوكات مرّة بالعربية ومرّة بالفرنسية قد نجح في اخراجي من عالم الحنين. فقد كان يقول لي: "هل أنت فرحان بسفرك هذا؟ كيف وجدت السمك أنا أعرف بأن أباك حضره جيدا. أتعرف أن أباك رجل سليم العقل وعامل وهو رجل جادّ تعرفه عائلتي منذ زمن بعيد"

وبعد هذه الإستراحة التي دامت أسبوعا صغيرا، رجعت إلى الاسكافية. وفي الحين وجهت لي الأسئلة لا حول السفر ولكن حول غيابي الذي كان لا ينبغي أن يتجاوز ثلاثة أيام. فصاحب المحلّ قد وبخني بصفة جادّة. فقد تحملت ذلك بصعوبة لأنني لم أكن بعيدا عن الرجوع إلى أهلي وقرع الباب ورائي. ولكن عندما أخبرت أمي بهذا الحادث، فقد أوصتني بألا آخذ في الإعتبار هذه التصرفات والكلمات المؤذية التي يقولها صاحب الاسكافية. حسبها فإنه لم يكن يريد إلاّ مصلحتي.

وعليه فقد رجعت إلى العمل ولكن بأقل حماس من الماضي. كنت دائما أنتظر أن يحدث شيء فيخلصني من هذا المكان. وفي كل مرَة عندما أتعرض لاستياء كنت أفكر في المدرسة التي تركتها بصفة مفاجئة. فقد كنت أندم كثيرا على التغيبات التي كانت عملا غير ناضج وأن أبي قد أنّبَني كثيرا على ذلك. فقد رأيت من جديد رفقاء القسم. فقد أخبروني أن المقاعد موجودة في المدرسة وأن المعلم لا يرغب في أخذ التلاميذ الذين لهم عمر معين. وبما أننا لم نكن نتحدث عن هذا في عائلتي

فإنني كنت أجهل عمري وأتساءل هل ما زالت الشروط تتوفر في. فقد وجدنا منزلا جديدا. كان على ملكية سي الغوثي صاري الحاج الدين. كانت الدار متواجدة على طرف حيّ الرحيبة على بعد مائة متر عن شارع سيدي سعدي. فقد كنت مثلنا جميعا في منتهى الفرحة لأننا هكذا نقترب أكثر من أقاربنا. في هذا الحيّ، كنا نسكن على بعد بعض الأبواب من عائلة سي الغوثي صاري الحاج الدين ومن خالتي منصورية وفاطمة بن ديمراد وبالتالي قريبين من أبناء وبنات خالتي وإلى جانب ذلك كان الإخوة الأربعة سي الغوثي، الحاج السنوسي، سي أحمد بن قلفاط وسي محمد بن قلفاط. وعلى مسافة من هنا نجد الحاج عبد القادر معشوي الذي كان يسكن حيّ مصطفى مع أخيه. على ثلاثمائة متر حولنا لم يكن هناك إلا أخوات وإخوة وخالات وأبناء وبنات خؤولة وكانت فرحتي وكأنني سمكة في الماء.

فمباشرة بعد رحيلنا في هذا الحيّ العزيز علينا، وجدوا لي عملا آخر خارج تلمسان عند أحد الأقرباء وهو صديق سي الغوثي صاري علي الحاج الدين وهو السيد مسلي الغوثي. كان متزوجا وأبا لعائلة وكان يستغل حانوتا في الحناية. فالبعد وفقدان رفاقي وألعابي، كل هذا كان يقلقني كثيراً. وفي الأخير قبلت هذا العمل لإرضاء عائلتي وإثبات حسن نيتي في القيام بتجربة أخرى. في عشية من صيف سنة 1908، ذهبت مع صاحب العمل الجديد إلى الحناية، كان في يدي كيس صغير من القماش فيه بعض الملابس وشيء من المأكولات. سي الغوثي مسلي كان رجلا شابا كان يلبس شاشية جميلة وبدلة أنيقة. ولكنه كان قليل الكلام وذا مسحة حزينة وهذا ما كان يخيفني.

فقد تم اقتيادي مباشرة إلى ما خلف الحانوت لأتعرف على المكان الذي سأعيش فيه وأنام عندما ينتهي الشغل. فالمكان كان صغيرا ومظلما وعاريا. وكان يتصل بالحانوت مباشرة بواسطة باب صغيرة كانت تفتح مباشرة على أمتعتي. فما عدا كيسي فقد كان هنا حصيرة ووسادة ولحاف وبعض الأشياء الصغيرة. إن هذا التوطين الحزين لم يعجبني تماما. وبالإضافة إلى ذلك وجدت نفسي معزولا وقد تخلى عني. وأتذكّر أني كنت أتناول وجباتي وحدي. في النهار كنت مشغولا بالعمل وبالإتصال مع الزبائن وبالتالي كنت أنسى متاعبي. ولكن بمجرد ما يأتي المساء، فإني كنت أعرف كل المتاعب. فكأن يداً قوية تمسكني من الرقبة وتضغط على حلقي بعنف. كم مرّة بكيت في سكوت الليل وأنا أحاول كظم شهيقي. كنت أودّ الصراخ ومناداة أمّي لتأتي لإسعافي. وفي صباح يوم من الأيّام فكرت في الهروب. ولكن الخوف منعني. كنت أخشى أن أتيه في الطرق وأن أجد نفسي محاطاً بكلاب أو ذئاب. فقد قيل لنا أن فهدا يحوم في نواحي جبال عين فزّة.

فالتجارة كانت تعجبني. وكان لديّ في هذا الوقت استعداداً لتعلم هذه المهنة وقد كان في إمكاني تذوق ذلك لو كانت وضعية معاشي مختلفة. ولم أخبر أبدا أولياء عملي بمخاوفي وواصلت عملي مدّة عدّة أسابيع مبقيا في أعماقي آلامي وآمالي. في يوم من الأيام علمت أن عيداً إسلاميا، أظن أن المولد، يعني عيد ميلاد نبينا، قد يقع عن قريب. فصباح ذلك اليوم الموعود ذهبت باكرا إلى صاحبة عملي وفي يدي رزمة وتوسلت إليها أن تفعل كل ما في وسعها مع زوجها ليسمح لي أن أذهب لقضاء هذا العيد مع عائلتي. إن عبارة "أمّي" التي كنت أرددها بدون انقطاع في توسلاتي قد أثرت فيها وحركت عاطفة أمومتها. فرجعت قرب زوجها وبنتها وبقيت ساعة تقريبا معهما حتّى قدمت لهما الإفطار وحدثتهما عن مسعاي. ومن ناحيتي ذهبت إلى الحانوت ففتحته وقمت بالتنظيف المعتاد. فلم تخبرني إلا في ساعة الغداء عندما قدمت لي الأكل وهي مبتسمة أني سأسافر عشية هذا اليوم في العربة إلى تلمسان.

إن فرحي لم تسعه الحدود. ولم يكن في ذهني إلاّ عجلة واحدة: الرجوع إلى الحظيرة العائلية وشرح أسباب عودتي أحسن ما يمكن الشرح وحتّى لا يعتبر عودة سريعة. كلما اقتربت العربة من تلمسان كنت أشعر بضيق كبير لم أستطع تفسيره. لحسن الحظ فإن أبي كان دائما غائبا. فقد كان دائما في محطة السيد رفائيل لعدد من الأشهر. عندما رأتني أمي أدخل وفي يدي رزمتي ابتسمت قبل أن تطلب مني وهي تتحدث بنوع من الخفة: "وأخيراً ما بك ؟ هل أنت مريض ؟" فبعد زمن من التردد وبعض الحمحمات، فتحت لها قلبي وحكيت لها كل آلامي.

فالشيء الذي أقلق أمي كثيرا هو وصف المكان الخلفي للحانوت. فلم تستطع أن تفهم، وهي محقة في ذلك، كيف يمكن أن يخصص نظام من هذا القبيل إلى طفل يوضع تحت كلفة زوجين شابين. ولتنهي هذا الحديث الحزن طلبت مني أن أنزع ثيابي وهي تقول: "اليوم عيد سأغير لك ملابسك مثل جميع الأطفال. ستذهب معهم إلى سيدي بومدين وتصلي على ضريحه ليشفع لك عند الرحمن الرحيم ليغفر لك عن تجاوزاتك ويهديك إلى سبيل الخير والعدل". فبصوت لطيف ونغمة أليمة وحزينة قد تقلب مشاعر الأقل شعورا من الرجال، أضافت ما يلي: "ولدي إنك صرت كبيرا. لا بد أن تفكر في نفسك. ليس لي إلا الله وأنت وأخواتك وأبوك المسكين الذي هو هناك في المحطة ليتمكن من النفقة علينا في انتظار أن تبدأ الشغل لمساعدتنا".

وعند رجوعي من الحناية فقد وجدت نفسي من جديد من غير شغل إن لم يكن بعض الذهاب والإياب إلى الصفصاف. فقد انتهزت الفرصة لمعاودة الإتصال مع كل رفاقي. وقد تعرفت كذلك لأول مرّة على فرنسيين ويهودي من حيّنا. أغلب الشباب من الثامنة إلى الخامسة عشرة كانوا يذهبون إلى المدرسة أو إلى المتوسطة ولو أن أوضاعهم الإجتماعية مختلفة. كنت من بين أفقرهم. عندما تقع بعض المساهمات بيننا لتغطية مشتريات كانوا يتجنبون أن يطلبوا مني المساهمة في المصاريف.

كنا أحيانا نذهب جماعات إلى نواحي تلمسان. كل يوم بعد ساعة الخروج من المدرسة، كنا نلتقي في عرصة ديدو لنمارس الرياضة: كرة القدم، السباق، القفز إلخ. وقبيل مجيء الليل كنا نجتمع في نهج سيدي بعباس، قبالة المقهى العربي، على مدارج منزل كبير هو في ملك السيدة موريتي التي كان أحد أبناء أخيها رفيقا. تحت هذا المنزل مباشرة يوجد مرأب كبير كان يبدو وأنه يقوم بأعمال مفيدة. كنا نلعب ونمزح مع المارّة وكنا نتحدث كثيرا عن الرياضة وخاصّة مباريات كرة القدم وذلك بحيوية كبيرة.

بفضل ابن خالتي عبد الحميد بن دمراد الذي كان يشتغل في معمل التبغ فقد أدخلت للعمل فيه. إن أصحاب المعمل: السيد والسيدة سوريانو، كانا من أصل اسباني. كان المعمل ويا للمصادفة السارة، بجانب مدرسة ديسيو. كنا نسمع جرس الاستراحة وجرس الغداء. كان التبغ معروفا بعلامة قاسيار. فأصحاب المعمل وأولادهم وبعض العمال العرب واليهود كانوا يتكلمون الاسبانية. السيدة سوريانو التي كانت تدعى "لاما" كانت جميلة جدًا. وكانت تسير أعمال الدار بمهارة كبيرة. هي التي كانت تلبس السروال. وزوجها كان من محبي سباقات الخيل. وكان لهما ثلاثة أطفال: جوليان، آنتوان وفرانسو وبنتا اسمها دولوراس.

كانت لاما تكلفني أحيانا ببعض الأعمال الصغيرة في منزلها. فقد لقبتني "التشيتو" والذي يعني صاحب الأنف الصغير أو المسحوق بالاسبانية. في فناء منزلها الكبير يوجد قرد صغير مربوط في النافذة. كنت أنظر إليه وهو يقفز بإعجاب وأنا مفتون برشاقته. كنت ألعب أحيانا محاولا إقلاقه. وفي يوم من الأيام انتقم مني.

قد أعطتني لاما في ذلك اليوم الأواني النحاسية لتنظيفها وكذلك الأحذية وبعض التحف الصغيرة. فأقمت في أسفل الدرج عند مدخل المنزل مع الحرق والمواد المنظفة وقطعة لا بأس بها من الخبز بالزبدة الذي كنت أنهشه نهشا من زمان لآخر.

فالقرد عندما رآني أعمل، بدأ يتحرك في كل الجهات ويلقي أصواتا صغيرة وكأنه يريد أن يشدّ انتباهي إلى قفزاته البهلوانية. وكانت صاحبة المنزل في عمق الدار، فقد كنت إذن مرتاحا لأشتغل بالقرد الصغير. فقد أبرزت له قبضة يد مهددة ثم رميته بنوايا الفواكه. ثم رجعت في النهاية إلى عملي، خوفا من أن تجدني "لاما" وأنا أقلق قردها الصغير. وحتى لا تشك في ألعابي قد ابتعدت عن الدرج لأتموقع في مدخل بيت الأشياء القديمة،بينما رجع القرد إلى مكانه فوق النافذة بعد أن حررته، لم يمض إلا وقت قليل حتى شعرت بشيء دافئ على كتفي. فرفعت رأسي عفويا لأرى من أين أتاني هذا. فكان القرد الصغير الذي نفذ انتقامه منّي وبكيفيته الخاصّة.

لقد أصابني في كبرياء الطفل، فقفزت إلى حنفية المغسلة وغسلت بسرعة آثار خيبتي. وفجأة سمعت صوت صاحبه المنزل: "أين أنت يا صغير؟ هل قمت بعملك؟" وعندما وجدتني لاما طلبت مني لماذا ترى قميصي مبللا من الكتف إلى مقبض اليد. ترددت قليلا ثم ما دمت لا أستطيع نفي الواقع فأخبرتها بما وقع لي مع القرد الصغير. فبدأت تضحك ورفعت يديها إلى السماء ثم أعادتهما على خصرها وانتصبت وكأنها نخلة صغيرة في وجه الريح ثم قالت بنوع من التفخيم وعلى نغمة مسرحية: "إذا فالقرد الصغير يظهر أنه أذكى وأقوى منك. ألا تستحي أيها الصغير؟؟؟ فأخذت يدي واقتادتني إلى المعمل حيث سردت ما حدث لي إلى كل الناس. الورشة التي أعمل فيها قد حفرت تحت مستوى الأرض وعلى يساره يوجد تواصل في شكل نفق يتصل بمخزون من عشرين شخصا.فبالعض منهم يحولون الأوراق الكبيرة من فرجينيا إلى تبغ رقيق وذلك باستعمال آلة قديمة تشبه المقصلة. فالتبغ الرطب كان يمر على الفرن ليُيبس بصفة كاملة. ثم يمرر إلى صانعات وصانعي السجائر ليبرموا السجائر باليد. ابن خالتي عبد الحميد كان عليه أن يملأ أكياسا من الورق بـ 30 غرام من التبغ بينما آخرون يحضرون علبا ذات عشرين سجارة. وكانت مهنتي أن ألصق صويرات على هذه الأكياس وهذه العلب. كنت أستعمل غراء يدعى "لابسطي" بعد أن أحضرها شخصيا. كان كذلك علي أن أحمل إلى صانعات وصانعي السجائر كل ما يحتاجون إليه.

كانت صانعات السجائر تغنين أثناء العمل. كنا نعيش، كما يمكنك أن تتصور ذلك في جوّ عربي اسباني. للمزاح أو لإقلاقي، كانت بعض صانعات السجائر يقلن لي: "إذا كنت لطيفا وإذا تعلمت المهنة جيّدا سأقبلك". وأخريات يوعدنني بتزويجي بناتهن. وكان هذا ممّا يجعل وجهي يحمرّ إلى غاية الأذنين حياء.

ومن بين صانعي السجائر، هناك رجل من عمر معين قد تعوّد، عندما كان في حاجة إلى خدماتي، أن يناديني لا باسمي الخاص ولكن باسم أمّي. وكنت لا أحب أن يذكر اسم أمي في معمل التبغ. كنت أعتبر هذا شتما حقيقيا وقد أخبرت والديّ بذلك. ولفهم هذا، لا بد أن تعرف أن مشكل المرأة في تلك الفترة أي قبل ستين عاما كان خطيرا. فالمرأة كانت محجّبة من رأسها لرجليها وكأنها خلف ستار، وكانت تظهر وكأنها عارية إذا تكلمت وذلك باعتبار أنوثتها وبجمال وسحر صوتها. سواء كانت عارية أو غير مرئية فقد بقيت المرأة دائما سبب اضطراب الرجل.

إن الأشغال الصغيرة كالتنظيف والترتيب والقيام بالمشتريات التي كانت صاحبة المعمل تكلفني بها، كانت هذه الأشغال تغير الرتابة العادية في الورشة وتسمح لي في نفس الوقت أن أتطلع على أشياء جديدة وهكذا فإني لم يكن لي أبداً ما أقرؤه حتى الآن إن لم يكن لوحتي عند مكوثي السريع بالمدرسة. ولكن قد تسنت لي الفرص بينما كنت أنظف درج منزل السيدة سوريانو أن أوراق بعض المجلات والكتب والكراسات. فقد استطعت أن أرى هنا لأوّل مرّة وبأيّ إعجاب! مجلة كبيرة في ذلك الوقت "ليلوستراسيون". كنا نجد فيها صورا تمثل باشوات مغاربة والجيش التركي في مقاطعة طرابلس ومدن من فرنسا والبحر مع السفن وبعض السيدات الجميلات ذات القبعات. كنت مبهوراً أما هذه الأشياء التي لم أرها أبدا عن قرب.

فصاحبة المنزل، وهي نازلة بدون سابق إنذار، قد وجدتني في الدرج أنظر فاغرا فلي فهي "ليوستراسيون" الذي كنت قد فتحته على ركبتيّ. "ما زلت لم تنته من تطهير زاوية الأوراق المملوءة بالغبارص!" كما قالت ولم تدع لي الوقت للجواب بكلمة، فواصلت على نفس النغمة: "سترمي كل هذا وهذا وهذا. والمجلات الأخرى والكتب الأخرى تضعها جانبا". كانت تريد أن أرمي جرائد "ليوستراسيون" والمجلات. فشكلت رزمة من كل هذا وأنزلته إلى الورشة في انتظار تنظيفه جيدا وحمله عندي بكميات صغيرة.

بقيت تقريبا سنة في مصنع التبغ. وتعلمت الكثير من جميع النواحي. كان العمل منظما جيدا وكان لدينا الشعور السار بأننا نعمل شيئا جاداً. وكنت أربح أجرة كانت تدفع لي بصفة منضبطة. كانت هناك ساعات عمل دقيقة ويوم من الراحة. كان ذلك مختلفا تماما عن مهنة حلاق أو اسكافي. أضف إلى هذا أنه كان يسود بين العمال، صغاراً وكبارا، يهودا أو جزائريين، جوّ خفيف الروح أو شيء من الأخوة والتضامن

الطبيعيين. إن أصحاب المعمل نفسهم، ربما لأنهم حديثي العهد بهذه الدرجة الإجتماعية، لا يتعاملون بقساوة مع مستخدميهم. ولكن، ومثل كل المتوسطيين والإسبان على وجه الخصوص، كانوا سريعي الغضب. ثم إن كانوا يحبون عمالهم فإنهم يحبون كذلك إن لم يكن أكثر المال.

منذ هذا الوقت اكتشفت وللأبد أهمية العمل المنظم. كنت أتحدث مع أصحابي في هذا الموضوع. حسبهم يجب ألا ننسى أنه يتضمّن مظهرا نقابيا. عندما سمعت لأول مرة كلمة نقابة، لم أفهمها. كنت أجهل تماما معناها. ولكن الأحداث تكلفت بسرعة بتفهيمي ما هي الحقوق النقابية وذلك بصفة عملية.

في يوم من الأيام وعند وصولي إلى معمل التبغ وجدت أصحاب المعمل والعمال الكبار في مناقشة كبيرة، كان يبدو أنهم قلقون. وبالفعل وفي آخر الصبيحة تقدم سيّد يشبه موظفا وفي يده رزمة في شكل أسطواني. كان يريد رؤية أصحاب المؤسسة الذين كان لهم معه حديث مدة ثلاث أرباع ساعة تقريبا. عندما ذهب، جاء السيد والسيدة سوريانو في وسط المعمل وفتحا الرزمة الأسطوانة التي سلمها لهم الموظف. فقد كانت تحتوي على ملصقات يجب إلصاقها على جدران المعمل ليتمكن العمّال من الإطلاع عليها. ثم جمع أصحاب المعمل العمال حولهم ليشرحوا لهم محتوى الملصقات لأن الأغلبية لا تقرأ الفرنسية. فأخبرونا أن قوانين جديدة قد تم التصويت عليها وأن إحداها تمنع أرباب العمل من تشغيل عمال صغار جدًا. فإذا كان لدينا أقلّ من أربعة عشر سنة لم يكن لنا الحق في العمل في المصنع.

هذا القانون كان يخصني لأني لم أبلغ بعد اثني عشر سنة. فالنبأ قد فجع الجميع. فالعمال الصغار الذين يهمهم الأمر انتابهم القلق وأرباب العمل كانوا يتساءلون عن حالهم: إنهم سيفقدون يدا عاملة رخيصة. عندما علمت العائلات بالإجراء المتعلق بالأطفال لم يقبلوا أن يتم تطبيق إجراء يؤدّي إلى البطالة المحتمة. أمّا أرباب العمل فإنهم بعدما عصفت عاصفتهم مدة أيام ضدّ تدخل الدولة في أمورهم الداخلية، حاولوا تجاوز القانون مع بعض النجاح. أمّا الإدارة، من ناحيتها، فإنها أغلقت عينيها على المسألة. ولم يمرّ زمن طويل حتى فقدت المسألة من حداثتها.

إن هذا الدخول غير المتوقع للنقابة في المصنع الذي كنت أعمل فيه قد أفادني. فقد أدت هذه الحادثة إلى النظر في إمكانية الذهاب من هذا العمل. كان على هذا القانون أن يحميني لأني آنذاك كنت أقوم بعمل قاسٍ جدًا بالنسبة لصغر سني. ولكنها

كذلك قد ساعدتني على تحقيق مشروع كنت قد تخليت عنه خلال هذا التجوال من مهنة إلى مهنة، وهذا المشروع هو عودتي إلى المدرسة.

فقد كان الشيئان مرتبطان في ذهني نوعا ما. كنت أريد أن أفهم معنى الفكر النقابي لأني لم أتحصل على جواب مقنع. أولا لأني كنت صغير ولم أكن أفهم الفرنسية جيدا، ثم لأن عائلتي وفي المحيط الخاص بي. كانت مشكلة النقابة مجهولة قطعا. فمن يستطيع أن يعطيني مفتاح هذا السرّ؟ فسواء كنت محقا أو مخطئا فإنّي كنت أعتقد أن مدرسة الفرنسيين هي التي تستطيع أن تحررني من هذا الإنشغال وتسمح لي بفهم ما جرى في مصنع التبغ. فبدأت أفعل كل شيء لوجود الوسيلة التي تعيدني إلى المدرسة وقبل كل شيء استخبرت لدى أصحابي القدماء في القسم. فقد علمت أن سلكا للممرنين[1] قد استحدث لتعويض المعلمين وفي الحالات القصوى استخلافهم. هؤلاء الممرنون كانوا من "الأهالي" وهي التسمية المستهجنة التي اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا بها الجزائريين. فقلت في نفسي بأنّي أستطيع بدون شك أن أجد دعما عند هؤلاء المعلمين الجدد وبالفعل وجدت مساعدة واحد منهم وهو سي محمد الكلوش الذي كان يسكن حينا. واستطعت كذلك أن أرى السيد ماتش، مدير المدرسة لأن نسيبتيه تسكنان قريبا منا وهو بعد يعرفني.

ففي الوقت الذي بدأت فيه مسعاي كنت ما زلت عاملا في مصنع التبغ. وقد كان الحديث قد دار حول التمسك بي بعد اللف حول قانون القاصرين. فالسيدة سوريانو تسعى لمصلحتها ولكنها كذلك إنسانية. وفي ما يخصني، فقد كنت أفضل الطرد تطبيقا للقانون لأبرر بسهولة الرجوع إلى المدرسة لأنني قررت أن أبلغ هدفي في كل الحالات. وبعد ثلاثة أشهر من المجهودات فإن عنادي قد تغلب وعلمت أني قبلت من جديد في المدرسة.

إن محيطي كان مندهشا وأكثر من ذلك ربّة عملي التي لم تصدق. إن ابن خالتي عبد الحميد بن دمراد الذي كان باعتبار سنه غير معني بهذا القانون النقابي، أخبرني بأن السيدة سوريانو بعد علمها بالخبر قد قالت: "حتى وأنا فرنسية، فقد كانت لي

---

(1) الممرنون الأهالي كانوا عمّالا متعاقدين يوظفون بمستوى شهادة الدراسات الإبتدائية عكسا للمساعدين الأهالي وهو اسم كان يعطى للمعلمين المسلمين غير المجنسين. منذ سنة 1908 تم توظيف العديد من الممرنين للمدارس الجديدة "المعاونة" لتعطي تعليما ابتدائيا بسيطا جدًا.

صعوبات كبيرة لتسجيل أولادي في المدرسة. فقد قمت بمساع لا متناهية قبل أن أجد لهم مكانا. والطفل الصغير الذي كان عندي قبل أيام استطاع أن يعود بسهولة إلى المدرسة التي هجرها قبل سنتين ! إن هذا الطفل يفعل ما يشاء. لا أفهم شيئا". فكان علي من الآن فصاعدا أن أباشر العمل بجدية بعد كل هذا الوقت الضائع لألتحق بقسم أو اثنين إن أنا أردت اللحاق بأترابي من التلاميذ.

في هذه الفترة، حول سنة 1908، هناك مشروع للحكومة الفرنسية الذي يرى ضرورة الخدمة العسكرية الإجبارية للجزائريين المسلمين قد تم الإعلان عنه. فبمجرد ما عرف الخبر فإنه تسبب في استياء العائلات وقلقهم وغضبهم. فقد أنزلت الفاجعة بكل مدينة تلمسان. وقد كان الأمر كذلك بالنسبة لكل القطر الجزائري ولكني كنت طفلا صغيرا ساذجا ملتصقا بثياب أمي ولم أعرف شيئا عن هذا الأمر.

فالأمهات في العائلات هن اللائي اعتراهن التشويش. فحسبهن، كانت فرنسا تريد سرقة أبنائهن وتحطيم الخلية العائلية. "إن هذا لن يتم، فالله لن يسمح بذلك" هذا ما كانت كل النساء يكررن. بالنسبة لهؤلاء النساء اللائي كن إلى غاية اليوم لا يشتغلن إلا بالمنزل وبالأطفال، فمشكل العسكرية، يعني الخدمة العسكرية، صار حقيقة فكرة ثابتة. ففي كل المناسبات وخاصّة العزاء الذي كان يجلب إلى حينا حضورا نسويا هامّا، كنّ يتناولن الحديث عن العسكرية مع الأمل أن سيدي بومدين يشفع لدى الله لحماية أبناء المدينة.

ففي المقاهي وفي الأسواق وفي المساجد وفي الزوايا وفي كل مكان كان الناس يتحدثون عن ضريبة الدم التي تريد الحكومة الفرنسية جبايتها. فالرجال وكذلك النساء، لا أحد يريد أن يضحي أبناؤه في خدمة الجيش الفرنسي. فقد كانوا يعتبرون هذا المشروع تحديا وخرقا للمبادئ الإسلامية. أما الأوساط الدينية فإنها كانت ترى فيه وسيلة منحرفة لتمسيح المسلمين.

كنا نتساءل عن معرفة ماذا ينبغي فعله لجعل فرنسا تتخلى عن قرارها. فهناك دعاية لا أشك أن مصدرها الأوساط الدينية والثقافية تؤكد أن الخدمة العسكرية مطبقة على الجزائريين كانت محرّمة في الشرع الإسلامي. فكل من يسمح بتجنيده في الجيش الفرنسي كان يقوم بخطيئة فادحة وبالتالي يعصي خالقه. منذ ذلك الوقت انتشرت كلمة حرام التي تعني غير شرعي، في كل المحادثات التي تتناول العسكرية،

أبداً، لن نقوم بهذه الخطيئة، "أبدا لن نسلم أبناءنا للفرنسيين ليصنعوا منهم جنودا فيزيدون في قوّة من اكتسحوا بلادنا"[1].

كانت تحكى أشياء كثيرة وكانت أخبار تتحرك ثم تكذب في حينها. والواقع أن الناس كانوا ينتظرون أن يأتي أحد لتخليصهم من التهديد. فالتلمسانيون الكبار المحبون للأتراك كانوا يعتقدون أو يأملون أن تركيا تتدخل لدى الحكومة الفرنسية لردها على قرارها. كانوا يقولون أن الباب العظمى في القسطنطينية قد أبقت لها بعض الحقوق على الجزائر.

أثناء سهرة من السهرات حدثنا أبي كما كان يفعل عادة عن حديث مع المفتي الحاج جلول شلبي. وكان كيس التبغ قرب يديه وورق السجائر وبقية من قهوة. كان يحضر سجارة بحركات متناسقة وهو في نفس الوقت يتكلم. بعدما نفخ على الشمعة بدأ بقوله لنا: "أولاديص! إن الغابة لها آذان". وهي كيفية يحذرنا بها أنه لا بدّ من الحديث بصوت منخفض حتّى لا يسمعنا أحد قال: "فالمفتي منشغل كثيرا بالتجنيد. إنه يعتبر أن هذا مأساة أخرى تنزل على المسلمين. لا نعرف كيف يمكن أن نتخلص من هذا. ولكن الحاج جلول شلبي هو نَفْسُهُ، وهذا مهم، له كثير من الأبناء والبعض منهم في عمر الخدمة العسكرية". وهذه النقطة الأخيرة هي أكبر مشكل بالنسبة للمفتي لأنه موظف ومأجور من طرف الفرنسيين. ولكن التلمسانيين الذين يحبونه لاستقامته وتحفظه تجاه الإدارة الفرنسية يعرفون أنه قادر على أخذ مسؤولياته. كل العيون متوجهة نحوه، هو منبع كل الآمال. وقد بيّن أبي أنه بمناسبة زيارته للمفتي كان وجده في مكتبة وهو محاط بعدد من البرجوازيين وكان يحضر وصيته ليضبط ميراثه حتى لا يعرض أبناءه لمواجهات وأحكام. إن هذا الاحتياط قد أقلق أبي فقد اعتقد أن هذا له علاقة بموقف المفتي تجاه الخدمة العسكرية. وفي نفس السهرة تكلم أبي عن أصدقائه وهم فلاحون مثله وقد كانوا يخشون أن يحرموا من اليد العاملة إذا ذهب أبناؤهم إلى الجيش. وكانوا كذلك خائفين أن يفقدوهم في حرب محتملة في المستقبل. وقد تحدث أبي عن حرب البروسيان.

(1) قد لجأ الجزائريون إلى ذكر معاهدة موقعه بين الجنرال دي بورمون والسكان العرب في سنة 1830. إن هذه "المعاهدة الفرنسية العربية" كانت ذكرى تم تشويهها وهي معاهدة الاستسلام التي فرضت على الداي التركي والتي تعهد فيها دي بورمون على شرفه أنه يترك "حرية ممارسة الديانة المحمدية".

حسب إشاعات نشرت هنا وهناك، علمنا أن بعض العائلات التلمسانية تتهيأ للهجرة في حالة ما يطبق مشروع الخدمة العسكرية الإجبارية. وفي وقت قصير جدًا، إن فكرة الهجرة قد بدأت تفشى وتمت الهجرات الأولى[1]. الهجرة تمثل في تاريخ الإسلام زمنا هامًا جدًا[2]. إن هذه المسألة، يعني مسألة النفي ينقسم حولها الناس، فقد سمحت لتدخل المفتي[3] الكبير الحاج جلول شلبي في المسجد الكبير لتلمسان.

إن خطبة الحاج جلول شلبي تمت يوم الجمعة خلال الصلاة الكبرى. في هذا اليوم كنت لا أدري لماذا في ميدان البلدية قريبا من المسجد الكبير. كانت الساعة تقريبا الحادية عشر صباحا وقد كان هنا الكثير من الناس. كان المصلون يتوجهون إلى البابين الكبيرين للمسجد. بدأت أتبع خطاهم ولكن كنت خجلانا. كنت أظن بما أنني ما زلت طفلا ومرتديا لباسا قديما وحافيا، سيمنعونني من الدخول بينما كان المصلون يأخذون أماكنهم كنت ما زلت مترددًا. كانت الأفكار تتزاحم في رأسي حتى تشجعت أخيرا ودخلت المسجد. لم أعرف أين أجلس ولكن رجلا شدّ يدي وأدمجني في الصفوف فوجدت نفسي جالسا في الصف الثاني أمام المحراب[4] قرب سارية كبيرة.

وفجأة فإن المصلين الذين كانوا يدعون بصوت مرتفع سكتوا. وخيم صمت رهيب على المسجد. ثلاث ضربات أعلنت عن ظهور المفتي. كان يتقدم وراء مصلٍّ كان عليه أن يسلمه عصا يرتكز عليها ليصعد بعض درجات من المنبر. جلس المفتي وانتظر حتّى ينتهي المؤذن من الآذان أي الدعاء إلى الصلاة. ثم وقف وهو مرتد لباسا كله أبيض، وقف بجلال ليبدأ خطبته. خطبته التي كانت تقطع أحيانا بفترات صمت

---

(1) ابتداء من شهر ديسمبر 1908، 321 تلمساني طلبوا جواز السفر للهجرة وفي سنة 1909 و1910 هاجر مائة شخص بكيفية سرية.

(2) الهجرة تُعطي بداية التاريخ الإسلامي في 622م وهي تاريخ فرار محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة

(3) وظيفة المفتي قد عرفها مصالي الحاج شخصيا كالتالي: المفتي يشغل مكانا هامًا في حياة المجتمع الإسلامي. إنه يرعى احترام الشرع الإسلامي ويعطي في كل مرّة تقع أزمة أو أحداث خارقة للعادة تفسيرا صحيحا وعادلا للمبادئ الإسلامية في علاقتها مع الوضعية.

(4) هو مكان في المسجد يأخذ اتجاه مكة التي يتوجه لها كل المصلين. المنبر الذي يلقي منه المفتي خطبته كان مباشرة أمامي.

قصيرة جدّا تواصل مدّة ربع ساعة على الأكثر. استمعت إليه بانتباه حيوي ولكني لم أفهم جيدا لأنه يلقي خطبته بالعربية الفصحى. وفيما بعد أمّ الصلاة ثم خرج المصلون. وفيما يخصني مشيت خلف الذين توجهوا نحو وسط المدينة وهم كثر. وهنا، علمت بفضل المجموعات التي تشكلت في ساحة البلدية أن المفتي قد صرح في المسجد أنه ضد الخدمة العسكرية الإجبارية لأنها مخالفة لمبادئ الإسلامية[1]. كان الرجال الكبار يرددون كلمة "حرام" وهم متوجهون نحو نيابة العمالة. وقد التحقنا فيها بالكثير من الناس من رجال ونساء وأطفال. تجمع المتظاهرون أمام النيابة الرسمية التي كانت مغلقة ومحروسة من الداخل. تعرفت على ناس من حينا ومنخرطين في زاويتي وأعضاء من عائلتي. فمن حين لآخر كانت باب نيابة العمالة تفتح لتسمح بالدخول أو بالخروج لشخص ما. بدأت الإشاعات تنتشر. تم الحديث عن إلغاء التجنيد. وكانوا يقولون كذلك أن الأعيان قد تم استقبالهم من طرف نائب العامل ليكلموه عن ضرورة إلغاء الخدمة العسكرية لأن المفتي الكبير قد حرم ذلك. وعند الرابعة بعد الزوال تكاثر الناس وبدأ بعض الناس يتحركون من هنا وهناك ويصرحون بصوت عال لمن يريد سماعهم: "نعم ! نعم ! هذا يوم كبير نعيشه، هو يوم العدل. لن نعطي أبناءنا. نحن مسلمون والله معنا. إن الذي يؤمن بالله لا يجب عليه أن يخشى أحداً". يظهر أن المتظاهرين كانوا ينتظرون قراراً من السلطات الفرنسية: إن لم يكن إلغاء مشروع الخدمة العسكرة فليكن على الأقل تأجيله. كان الحديث كذلك يدور حول الهجرة وكان التأكيد على أنها تفرض على المسلمين في حالة إصرار الحكومة الفرنسية على موقفها. وبما أن الجواب المنتظر لم يأت فقد نفذ صبر المتظاهرين. فإن البعض منهم قد بدأ يبرز غضبه. كنا نسمع القول: "لابد أن ندافع على أنفسنا، يجب أن نحضر عصينا وفؤوسنا". في نواحي الخامسة، عندما لم يرد شيء، تفرقت الجموع. فالمظاهرة كانت رَمزية ومسالمة إلا أنها قد أحرزت أهمية هائلة من الناحية النفسية والوطنية[2].

---

(1) لقد حرم المفتي من مرتبه الشهري بعد الخطبة لأنه عارض أمام الملأ الخدمة العسكرية وذلك ضد إرادة الحكومة.

15 إن أكبر مظاهرة وقعت يوم 19 ديسمبر 1908. وحسب الشرطة فإنها قد جمعت 2000 متظاهراً لم يتفرقوا إلا بعد أن تم استقبال ممثليهم الثمانية. هناك مظاهرة أخرى يعني التي وقعت يوم 21 ديسمبر. قد تم تنظيمها بعد الصلاة في الجامع الكبير.

إن مفتي تلمسان الكبير، حسب ما قيل لي، قد أكد بوضوح أن المسلمين الجزائريين ليس لهم الحق بل يجب عليهم أن يهاجروا نحو البلدان الإسلامية للإحتجاج ضد الخدمة العسكرية. فهو شخصيا أرسل ولده إلى المشرق الشيء الذي أثبت الشكوك التي حدثنا عنها أبي في تلك السهرة التي جرت أيّاما قليلة قبل ذلك. كان الناس يحضرون الهجرة في السرّ ودون أن تعلم السلطات الاستعمارية بذلك. إن بعض العائلات المحبذة للهجرة قد اكتفت بإرسال أبنائها الذين هم في سن التجنيد إلى المشرق أمّا الفقراء والذين لم يستطيعوا تحصيل الرخص الضرورية لمثل هذا السفر كانوا يذهبون إلى البلد الإسلامية الأقرب يعني المغرب. إن بعض العائلات من تلمسان مكثوا هنالك ومازالوا يعيشون هناك اليوم. وبدون شك فقد حصلت هجرات مشابهة في الناحية القسنطينية نحو تونس وطرابلس. كل هؤلاء الناس كانوا يذهبون دون أن يفكروا في غدهم، في مستقبلهم. ففي أعماقهم كانوا يفكرون بأنهم يجدون الاستقبال والضيافة وسعادة الحياة. فقد كان على المهاجرين أن يبيعوا، بل أن يُصَفُّوا ما لديهم بأسعار منخفضة كل ما لا يستطيعون حمله معهم. إن سوق الخردة قد عرف في ذلك الوقت حركة كبيرة. فقد كنا نرى فيه الأغطية والسينيات النحاسية والمهاريس والموائد القصيرة والأباريق والأحذية والعباءات والبلغات والكتب وغيرها.

كان أبي يقول لنا إنه حزين لرؤية المهاجرين يغادرون ربما لألاّ يرجعوا أبداً. كان يعرفهم كلهم تقريبا. كان يحبهم ويدعو لهم. "ربما يجب علينا نحن كذلك أن نذهب. لا نعرف ما يخفي لنا القدر. كل شيء مكتوب في كتاب الله". هذا ما كان يقول. وبالفعل فإن عدد المهاجرين كان يرتفع من يوم إلى يوم[1]. من حين لآخر كنا نشاهد شخصية من مدينتنا أو حتى عائلة تغادر البلاد بكيفية صريحة وكأنها تريد أن تشجع كل من هو متردد. هكذا فإن الحاج محمد بن يلس، شيخ زاوية درقاوة قد أعلن مغادرته ومغادرة بعض من رواده. إن هذا الحدث قد كان له أثر عميق في مدينتنا. إن شعراءنا ومغنينا قد ذكروا هذه الهجرة برقة وحنين. وكانت الأغاني تنتهي عموما هكذا : "يا ربّ، اجمعنا كلنا في الشام" (يعني سوريا).

(1) حسب "صدى وهران"، عدد من 14 إلى 18 أكتوبر 1911، 1200 شخصا قد هجروا بلدية تلمسان التي كان عدد سكانها 000 25 نسمة منها 000 15 للمدينة نفسها. نائب عمالة تلمسان عدّ 425 شخصا فقط. سجل تحقيق باربديت 637 مهاجرا لنيابة عمالة تلمسان.

إن مقاومة التلمسانيين كانت تقلق السلطات الاستعمارية التي حاولت أن تفرق بيننا. وهكذا فإن أزمة اندلعت في زاوية الشيخ محمد بن يلس، التي كانت وقتئذ في انتشار متواصل فوقع فيها انفصال مؤلم ووضعت أسس زاوية جديدة منافسة للأولى. فقد كان مقرها في الدرب حلاوة. وظهر مسيّروها بصفة علنية في الأسبوع الذي تبع الأزمة. فقد كان انفصالهم محضرا بصفة جيّدة. ثلاثة منهم: سيدي العربي تشوار، سي العباس وسي الحبيبي كانوا معروفين ومحبوبين في مدينتنا. بما أنني كنت تلميذا في الزاوية، كنت أعرفهم وخاصّة سيدي العربي تشوار. كان يسكن حينا وقد رتبني والدي لفترة عنده لأتعلم حرفة بلاغجي. كان ذا قامة عالية وهو شخصية هامّة، وكان يلبس دائما وبصفة كاملة ثيابا بيضاء وكان يضع على رأسه عمامة. يبدو كأنه خليفة من الأزمنة الأولى للإسلام. كان نظيفا وكريما وكان يعتبره الناس في تلمسان رجلا صالحا أو وليا.

فرئيس الطريقة وروحها كان يتمثل في الشيخ بن عليوة. هو من مواليد مستغانم، كان صاحب صناعة البلغات من عائلة كبيرة. لم أعرفه ولكنهم قالوا عنه أنه فصيح وماهر وداهية (دبلوماسي). كان قد ذهب إلى سوريا وهناك إشاعات تحاك حول سفره. لقد تأكد أنّه حرّم هجرة التلمسانيين وقد وعظ بكيفية ملحة في سبيل العودة إلى البلد. إن بعض مريديه الآن في طريق العودة.

إن التلمسانيين لم يريدوا تصديق هذه الإشاعات أو أغلبهم لأنهم يعتبرونها عارًا. لكن الأخبار الآتية من سوريا قد أكدت تلك الإشاعات. إن بعض المهاجرين قد أعلنوا أنه، بالإضافة إلى الشيخ الحاج بن عليوة، هناك تلمسانيون آخرون كانوا يحثون كذلك على العودة. إن هذه الأخبار قد حرضت جزء كبير من مريدي ضد الزاوية الجديدة ورئيسها. لم يمر زمن طويل حتّى رأينا بالفعل مهاجرين رجعوا إلى تلمسان وكانوا مرتبكين نوعا ما ولكن فرحون بالالتحاق بذويهم. إن الذين مكثوا في المشرق كانوا يكتبون رسائل مؤثرة ومملوءة بالحنين ويصفون معيشتهم بأنها مؤلمة وصعبة الاحتمال. وهكذا فإن الناس قد توصلوا في نهاية الأمر إلى جانب زاوية الشيخ بن عليوة ومريديه. فإن موظفي القنصليات الفرنسيين كانوا يتولون الأمور بإعلام المهاجرين بأنهم يتكلفون بمصاريف ترحيلهم. صحيح أن التلمسانيين الذين كانوا ينقدون مواطنيهم وينصبون أنفسهم قضاة، لم يتحركوا فيما يخصهم من أحيائهم ودكاكينهم.

إن المهاجرين الذين كانوا يرجعون كانوا يستدعون مباشرة إلى نيابة العمالة ـمساءلتهم. كان يتم تخويفهم وكانوا يدفعون كلفة ترحيلهم على عكس الوعود التي قدمت لهم. وحينئذ كانوا يشعرون بوضعية دونية بالنسبة للذين لم يذهبوا وكانوا مخطئين في نظر الإدارة. ومع هذا فإن المهاجرين لم يعودوا كلهم. أكثر من نصفهم بقوا في المشرق حيث انتهى بهم الأمر إلى الاندماج في الشعب السوري. لم يتوقفوا عن الكتابة وعن إعطاء الأخبار. كانوا يبعثون بطاقات بريدية جميلة تمثل الجيش التركي في التمرين وهذا من الأشياء التي كانت تعجبنا كثيراً.

فعائلتنا فيخصها لم تهاجر ولكن الاحتمال قد تمت مناقشته. أنا شخصيا لم يكن لي الحق في الكلام بالطبع إلاّ أنني كنت أرغب في الذهاب إلى سوريا في أقرب الآجال. كان أبي وأمّي موافقان على الذهاب ولكنهما كانا يقولان: "نحن ننتظر أن يقرِّرَ الحكماء سي الغوثي الحاج الدين، الحاج عبد القادر ممشاوي، سي الغوثي بن قنباط ورؤساء العائلات الذين نعرفهم جيدا ما يجب أن نفعله". كلهم كانوا يترددون، لأنهم كانوا يريدون انتظار تطور الأحداث قبل أن يأخذوا مسؤولية كبيرة مثل هذه. لكن أيضا لا بد من اعتبار أننا لم نكن معنيين في الأجل العاجل بالمسألة العسكرية. كان عمري وقتئذ تجاوز العشر سنوات بقليل.

فعندما رجعت إلى المدرسة استطعت أن أعاود التردد إلى حيّ نهج سيدي بلعباس الذي صار مكان التقاء الشبان الصغار الفرنسيين/العرب. هنا تعرفت على فرنسي يفوقني بسنتين أو ثلاثة وهو اميل سيسكار. كان وقتئذ في عشية التقدم لامتحان الأهلية (بروفي). في ذلك الوقت كانت هذه الشهادة بالنسبة لنا لها نفس قيمة البكالوريا في فرنسا. إن والدي رفيقي كانا مقاولين في البناء وأصلهم من بيربينيون وكان لهم لهجة تلك الجهة.

كان ايميل سيسكار رياضيا وكان ينتمي إلى جمعية "التلمسانية". وقد حدثني كثيرا عن هذه الرياضة الأنيقة وفي يوم من الأيام اقتادني الجيمناز ليوريني مهارته. لقد قام أمامي بتمارين على العمود الثابت، والحلقات والمتوازيان وحصان الحلقات. لم يكن هذا بالنسبة لي جديدا ولكن هذه هي الزيارة الأولى لمقر الجمعية الرياضية وقاعاتها الكبيرة قد كان له أثر كبير في نفسي. وقد لاحظت في المقر خاصّة معرض الميداليات التي تم الفوز بها في مختلف المسابقات، والصور الفوتوغرافية الجماعية حيث البنات والبنون كانوا يؤدون الحركات في رشاقة الملائكة وكذلك الاستعراضات

بالسيف. فقد قررت منذ ذلك الوقت الانتماء إلى هذه الجمعية. فقد نسيت وأنا مستغرق في أحلامي الصبيانية أن هذا يكلف الدراهم وأنا لا أملك سنتيما واحدا.

أخبرت إميل سيسكار عن رغبتي في الالتحاق بالجمعية الرياضية وقد عددت له العراقيل وأسررت إليه تخوفي من أني لا أستطيع أن أتخطاها. فأجابني: "لا تقلق سأساعدك. عليك في الحين أن تطلب الانخراط في الجمعية وابدأ بالتدريب وفيما يتعلق بالباقي فلا شيء يستعجل. فقد قام هو شخصيا بالمساعي الضرورية وقدمني إلى المدرب المكلف بتربية الرياضيين الشبان. إن لطف رفيقي الجديد قد غمرني ومسني في الأعماق. فقدمته إلى عائلتي أثناء حفلة صغيرة نظمتها على شرفه. فقد أعطيناه الشاي بالنعناع وحلويات بالعسل والفواكه. فقد نزع حذاءه ليجلس بصفة طبيعية مثل العرب. وكان يشارك في المحادثة بلغتنا التي كان يعرفها جيدا.

فقد صرنا فيما بعد صديقين حميمين. إميل سيسكاركان فتى جدا وذكيا وطيبا وعازما في سلوكه وتصرفاته. كان شابا ولكن كان له شخصية قوية. لم يكن وطنيا فليس فيه شيء من صفات المعمر. رغم ما يظهر عليه من حديثه وتقديراته فإنه يعتقد أنه رائد وفي الواقع وفي أعماقه فقد كان مقتنعا أن فرنسا كانت هنا في الجزائر وفي أماكن أخرى لتأدية مهمة حضارية. لا أستعمل هذه الكلمة من أي كلمة أخرى. "فالحضارة" هي الحجة الكبرى التي استعملت لتبرير الوقائع والأحداث التي قام بها الفرنسيون والأوربيون في الجزائر. صارت هذه الكلمة من كثرة استعمالها تضجر مسامعنا بل تثير ثائرتنا. وكانت هناك كيفيات كثيرة تُقذف بها هذه الكلمة لتقرع مسامعنا. هناك من يقول لنا هذا في صيغة هزلية، وآخرون في صيغة شتم مرفوقة بحركات فاحشة. فأغلب سكان تلمسان كانوا لا يبالون بهذا التهكم. أغلب الجزائريين كانوا يجهلون اللغة الفرنسية. ولكن الأطفال والشبان كانت لهم ردة فعل غاضبة ويتبادلون أحيانا الضرب عندما يسمعون ذلك. ففي الأحياء البعيدة عن وسط المدينة كانت تصفيات الحساب الصغير تحدث تدخل الآباء للدفاع عن أبنائهم فالكبار كذلك كانوا يتبادلون الشتم في ذلك الوقت. فـ "العرب القذرون" و"صال بيكو" و"الفرنسي القذر" و"الاسباني القذر" و"اليهودي القذر" كانت تقذف وكأنها حجارة قبل أن نتوصل أحيانا إلى الضرب. فالأوربيون الذين كانوا يتحدثون العربية كانوا يقذفون لنا كلمات فاحشة في لغتنا. فالمسلمات اللائي يجهلن كل شيء في هذه الفترة عن اللغة الفرنسية وكن يرفعن أيديهن إلى السماء ليشهدن الله على خبث هؤلاء "الكافرات" وهو اللقب الذي كان يعطى للأوربيات. وفي بعض الأحيان، كانت

هذه الأحداث تأخذ أبعادا أخرى عندما تخبر هذه الزوجات الفرنسيات أزواجهن. وكان هؤلاء يخبرون الشرطة ويُرْسَل حينئذ رئيس الحيّ إلى عائلتنا لتحذيرهم. في هذه الأشياء وفي أشياء أخرى كانت موازين وأقياساً مختلفة.

وهكذا فإن صديقي إميل سيسكاركان رغم حرصه على البقاء مهذبا ومحترما فإنه كان ينزلق أحيانا في نقد يكون أحيانا لاذعا نحو الذين كان يسميهم مثل الآخرين الأهالي. كان عنده مركب تفوق خامد لا ينتظر إلاّ الظهور. هناك أمر غريب، كلما تعلم العربي وحاول أن يقترب من الفرنسي ليفهمه أحسن كلما كان العربي عرضة للهزل والاحتقار وفي بعض الأحيان للخشونة. عشية الحرب العالمية الأولى، كان الاستعمار في أوجه ولم يكن هناك أي فرنسي يريد ببساطة التخيل بأن رجلا من الأهالي قد يكون مثله أو متساويا معه. عندما كنا نشتكي لدى آبائنا من سلوك رفاقنا الفرنسيين. كانوا يقولون لنا أنه لا يمكننا أن ننتظر أي شيء من الوثنيين: "هؤلاء الناس أقوياء ووطنهم قويّ ولكي نعيش لا بدّ أن نظهر أقوى منهم". إن ضرورات الحياة كانت هنا وكنّا مجبورين على التعايش في انتظار أيام أحسن. فقد واصلت رغم ذلك لقاءاتي التي كانت مفيدة في نهاية الأمر للجميع. فالاحتكاك بين حضارتين لا يمكن إلاّ أن يثري العلاقات حتى ولو كان هناك بعض الصدامات.

في "التلمسانية" بدأ الحديث عن السفر إلى معسكر قرب وهران، حيث كان لا بدّ أن يقع سباق رياضي بين عدد من الجمعيات. إن البعض من هذه الجمعيات كان سيأتي من فرنسا نفسها. فقد كانت رغبتي أن أكون ضمن الوفد. وهكذا يمكنني أن أركب القطار وأن أزور مدينة كبيرة وأن أخالط رياضيين مشهورين وأن أشارك في مسابقة كبيرة لأول مرّة. كنت أحلم بلبس شورط أبيض ومئزر أسود بأزرار مذهبة وأن أتباهى هكذا بشاشيتي الجميلة. كنت أتكلم بذلك إلى أصدقائي وخاصّة إلى والديّ. وكنت أتناول هذا الموضوع في الدار مرارا ولكن أبي كان يكتفي بإجابتي بـ "إن شاء الله" وكانت هذه الإجابة تقلقني كثيراً. كنت أخشى أن هذه الكيفية في الجواب تخفي رفضيا.

وحتّى أضع كل الحظوظ من جانبي، كنت أتحرك على أساس أن هذه العراقيل لم تكن مهمة وكنت أكرس أغلب وقتي للتمارين. إميل سيسكار، الذي كان قد شارك في منافسات رياضية، كان يساعدني على تحضيري. بالطبع لم يكن عندي في المنزل أي شيء لأتمرن. فكنت إذن أستعمل أحجارا كبيرة على أنها وزن وأتمرن لتقوية العضلات وأستعمل إطاراً لكرمة قديمة لأتمرن على حركات الجذب.

أما فيما يخص الدراهم والثياب اللازمة إذا أردت القيام بالتنقل، فإن إخوتي وأمّي وأقرباء آخرين سيلمون لي أو سيعطوني ما هو ضروري. وليكون تجهيزي جاهزا في الوقت المطلوب، اعتمد على مساهمة كل عائلتي. كم من مرّة جربت ملابسيص! من حين لآخر كنت أقوم ببعض الحركات أمام الجيران الذين كانوا يجدون ذلك ساحرا وذلك لأبرهن لهم على ما سأفعله في معسكر. ومع هذا فقد كنت أخشى ألا أنجح في امتحان الاختيار الذي سيتم قبل الذهاب. ولكن إميل سيسكار كان ساهرا على ذلك فقد ضاعف ساعات التدريب في الوقت المناسب لتصحيح بعض العيوب. فكل شيء قد تم على ما يرام من هذه الناحية. وأخيرا تقرر أني سأذهب.

فالوقت الذي طالما انتظرته والذي عكّر علي ليالّيَ، قد وصل. في هذا اليوم كان الناس بكثرة في محطة تلمسان فقد كان الرياضيون يشغلون عربة كاملة. لم يكن سوى عشرة متسابقين بين عرب وفرنسيين ولكن كثير من الآباء كانوا يرافقون أولادهم. عندما رفع رئس المحطة علمه للاعلان عن الاقلاع، كان قلبي يخفق بسرعة جنونية. انطلق القطار بهدوء مرسلا دخانا أسود كانت الريح تتلاعب به في كل الاتجاهات. فقد وضعوني في آخر المقصورة لتجنب ضياعي في أروقة القطار. فبعد ساعة استولى علي النوم. فبعد كل هذه الأيام من التوتر الذي سبق هذا الانطلاق، كنت منهوكا. فقد دام السفر يوما. اقتادونا إلى مدرسة أسكنوني فيها إلى نهاية المسابقة التي كان من المفروض أن تستمر مدة أربع أو خمس أيام.

إن التلمسانية تحصلت على جائزة كبيرة وإن رفاقي وأنا معهم قد تحصلنا على نقط جيدة. إن مدربنا السيد فورنيي كان فرحانا بنا. أما أنا فقد كنت مفتونا بهذا السفر خاصّة وأني شعرت أنه فتح لي آفاقا جديدة. منذ ذلك الوقت صرت متثبتا من نفسي ولا أخشى الحركات التي أقوم بها. وقد وصل هذا إلى إتمام تقدمي في اللغة الفرنسية. إن رفيقي إميل سيسكار كان غالبا ما يوجه لي ملاحظات حول كيفيتي في الكلام وكان أحيانا يهزأ منّي. إلا أن مفرداتي أثريت خلال هذه السنوات الأخيرة وصرت أحسن تعبيري يوما بعد يوم. عند الرجوع من معسكر وخلال السهرة ألقي علي أبي العديد من الأسئلة. كان قد خاف عليّ عندما ذهبت بعيدا جدّا لأن سكان معسكر حسبه كانوا مشهورين على أنهم أكبر المشاجرين و"ماهرين في استعمال العصا عند عدم وجود السيف".

وإن أصحابي في نهج سيدي بلعباس كانوا فرحين بفكرة أني مثلت حينا في مسابقة الرياضة. ولكن الرياضات التي كانت لها الأولوية عشية الحرب العالمية 1914-1918، هي كرة القدم وبدرجة أقل الدراجة. وشيئا فشيئا فإن الأرضية منخفضة التي كنا نلعب فيها الكرة المستديرة قد جلبت إليها أغلب الشباب. وفي يوم الأحد كان التلمسانيون من كل الأعمار يحضرون مباريات كرة القدم بين الفرق محلية أو مع فرق تأتي من مدن أخرى. أما فيما يخص الدراجة فإننا كنا نعتبر أنها ختراع هائل ولكن لم يكن في مقدور أيّ واحد منا أن شتري واحدة. هناك شاب من حينا، درب سيدي الوزان قد اشترى واحدة جديدة من علامة "ساجتات". عند عودته من جولاته في نواحي المدينة، كنا نحيط به ونستمع إليه وهو يحكي لنا مآثرهُ يمتدح الصفات العالية لدراجَته. إن الشغف بالرياضة الذي استولى على الشباب عربي قد طور لديهم روح المنافَسَة. كنا نحب لعب مباريات فيما بيننا ولكن كذلك مع الأوربيين. كنا دائما نريد أن نقيم أنفسنا بالنسبة لهم لنثبت أننا مثلهم وحتى نتغلب عليهم. وهكذا فإن الرياضة من هذا المنظور لها صبغة الوطنية. ومن غير أن شعر بذلك فإننا نضع أنفسنا في الاحتجاج وأن هذه الوضعية كانت تعكر علاقاتنا مع رفاقنا الأوربيين. فقد كان هذا صحيحا في الملاعب ولكن كذلك في المدرسة في العمل في الثكنة وكذلك في التجارة.

كان المسلم الجزائري يسمع في كل مكان ولأتفه الأسباب أنه أهلي، أو بيكو أو شجرة تين أو فأر. فكل واحد كان إذن محترزا أو هو يحاول الإبقاء على اتصالاته. كن الشبان الأوربيين وأعترف بذلك ليسوا ضدّ العرب فيما يخصني فإني كنت دائما نحث عن صحبة رفاق أوربيين وخاصّة الذين أتوا حديثا من فرنسا. كان هذا في طبيعتي. ثم إني كنت أريد تعلم الفرنسية ومعرفة حياة هؤلاء الناس الذين أتوا عندنا وأخلاقهم وعاداتهم. فآباؤنا نفسهم كانوا يقولون لنا: "كونوا لطيفين مع الفرنسيين شبان عندما تلعبون معهم".

على كل حال كنا نبحث دائما عن محبة الأوربيين الصغار لنحمي أنفسنا من تجاوزات الاستعمار ولنحصل على مساعدتهم إذا أصابتنا مصيبة ما. وكذلك كان لأمر بالنسبة لوالدينا وجيراننا وأصدقائنا. فقد كانوا يحتاجون وجود عمل أو وجود شاهد على حسن السيرة ولهذا فإن معرفة عائلة فرنسية كانت شيئا جميلا. فالعمال مستخدمون في الضيعات الفرنسية والخدام والحوذيون كانوا يقولون أنه هناك رميون خدومون إلى درجة أنك تقول أنهم مسلمون جيدون.

إذا كان الناس يبحثون هكذا عن الحماية والمساعدة لدى فرنسيين من بين معارفهم فلأنهم كانوا يعيشون في خشية من الغد. فإن بورجوازيتنا الناشئة خاصّة كان لها علاقات متواصلة مع الأوربيين. وقد كانت تتوصل مع الوقت إلى ربط صداقات معهم. فقد كانت تدافع على مصالحها ولكنها في نفس الوقت كان ذلك يسمح لها بالإسراع إلى مساعدة كل من يقرع على بابها عند وقوع مشكل ما. كنا نقول عادة، عند الحديث عن الفرنسيين الجيدين أو عن برجوازيتنا أن العائلة الفلانية تستطيع تخليص أحدهم من الموت بفضل علاقاتها. فقد كان يحدث عادة أن نخلص جارا مهددا بالسجن لأنه قام بجنحة صغيرة أو نسي دفع ضرائبه. وهذا يعني أن علاقات حسن الجوار ولو كانت محدودة قد وجدت حتّى في عهد بلوغ الاستعمار أوجه. فقد تعددت هذه العلاقات في زمن هجرة الجزائريين إلى المشرق وعند اقتراب الحرب العالمية الأولى. كان الفرنسيون بدون شك يريدون جلب محبة المسلمين الجزائريين الذين سيحتاجون إليهم كعساكر حتى لا نقول كلحم للمدافع.

كان التلمسانيون مازالوا لم يهضموا مسائل الخدمة العسكرة الواجبة والهجرة التي تبعت ذلك حتى هبط عليهم نبآن ذوي أهمية رئيسية. ففي الشرق وفي سبتمبر 1911، أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا وأنزلت جيشها في أرض طرابلس. وفي الغرب بدأت فرنسا تحت غطاء حمايتها احتلال المغرب. إن هذين الحدثين اللذين كانا يدعمان موقف دعاة الهجرة كانا يغذيان المناقشات في كل العائلات وفي كل الزاويات، في كل الحلقات التي كان يجري فيها الحديث السياسي. فالصغار مثلي كانوا لا يفهمون معنى ومغزى هذه الأنباء. كان عليهم أن يطلبوا من والديهم شرح الوضعية. حقيقة كانت الصحافة تتحدث عن هذا وكذلك الجرائد المصورة كانت تنشر صورا تحكي عن أعمال حربية. ولكن كنا لا نشتري أبدا الجرائد ولو فعلنا ما كان في إمكاننا فهم محتوياتها. عندما تم اجتياح أراضي طرابلس واحتلال المملكة المغربية، لم يكن في استطاعتي أن أحدد جغرافيا مسرح هذه العمليات. كانت تحكى لنا حكايات عجيبة عن قوّة تركيا وعن القيمة العسكرية للبرابر المغاربة. فقد كان هذا يسكرنا ويضرم نار الحماس فينا. قيل لنا أنه كان يكفي أن يشير أمير المؤمنين إلى حرق شعرة من شعراته كي ينسحب المحتلون ويقضي بعضهم على بعض. وفيما يخص المغاربة فإنهم كانوا يقبضون رصاصات العدو ويعيدونها إلى مجال الأعداء وكأنها كرة طائرة. كان أبي يقول بأنهم كانوا يحملون "حروزا" تبرد الرصاص. على كل حال، كنا نفكر بأن تركيا والمغرب كان في استطاعتها التخلص لأنهما معتدى عليهما. فقد صرنا الآن نقوم بصلوات زائدة ليحميهما الله. كانت

النساء تشتكين: "بالأمس كان هؤلاء الروميين يريدون أخذ أولادنا ويتركوننا كقفاف بدون آذان واليوم فإنهم يريدون ابتلاع المسلمين الآخرين. إن الله لا يتركهم يفعلون سيعطيهم الطاعون والكوليرا".

فخلال هذه السنوات التي سبقت الحرب الكبرى، فقد كنت أعيش مثل سداد فليني فوق الماء يذهب تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين. كنت أحس بمشاعر ممزوجة بالخوف. فقد كنت أحس بأني لست على الصراط المستقيم. كنت أقول لنفسي أنه يجب عليّ أن أختار بصفة نهائية بين المدرسة والعمل. وهكذا فإني في سنة 1913 قد ترددت حقيقة حتى ولو أني اخترت من جديد المدرسة. كنت سأبلغ خمسة عشر سنة ولكن بالنسبة للمدرسة فالعمر لم يعد يحسب. كان عليّ أن أتعلم بعض المبادئ من الأشياء الفرنسية والحصول على شهادة التعليم الابتدائي بصفتي من الأهالي وذلك حسب المستطاع. إن هذه الشهادة كان لها مفعول عظيم في مجتمعنا الصغير بتلمسلن.

خلال السنتين قبل الامتحان الذي ترشحت له سنة 1916 وقد بلغت ثمانية عشر سنة، قمت بمجهود كبير. وهكذا فإني قد استطعت تحسين معلوماتي خاصّة في الفرنسية الشيء الذي خدمني كثيرا فيما بعد. فاللغة العربية لم يحسب لها أي حساب أمام لغة المعمر. ففي القسم المتوسط الثاني مثلا كانت تدرس لنا مدة نصف ساعة في الأسبوع من العربية الدارجة. بالنسبة لأصحابي كنت قويا في الإنشاء الفرنسي وكذلك في الجغرافيا وفي السنوات الأخيرة كذلك في التاريخ. فقد كنت مع الأسف ضعيفا في الحساب وهو الشيء الذي رسبني في شهادة التعليم.

خرجت من المدرسة والدموع تملأ عينيّ. لكن لم يبق لي أي اختيار. بالإضافة إلى الحد العمري فقد كان علي أن آخذ في الحسبان الاعتبارات العائلية. فبادئ ذي بدء، إن عائلتي محتاجة إلى مساعدة. إن أبي قد طعن في السن وصار يعمل كل يوم أقل، فإن الموارد التي تأتي من الصفصاف كانت غير كافية. ثم طرحت مسألة استدعاء قسم 18 وكنت ضمنها. وبالتالي فإن أمّي بالنظر إلى وسائلنا الضعيفة أرادت أن تقدم شكوى للجيش على أنني مكلف بالعائلة ولو أننا لم نكن نتوقع الكثير من نتيجة ذلك.

إن كل من علمني في المدرسة كان يحبني وكان ذلك متبادلا، ولو أني كنت أقوم بهربات كثيرة. فقد حافظت على ذكريات جيدة عن معلمي سي محمد بوعياد الذي كنت تلميذا له في عدة أقسام. كان يجمعنا حول مكتبة ليحدثنا عن أسفاره

في فرنسا والزيارات التي قام بها في المتاحف والمعامل والمغازات الكبرى. عندما كان يتحدث عن الفروق التي توجد بيننا وبين الفرنسيين في مجال استغلال الأراضي، كان يظهر وطنية ما ولا يخفي ألمه أنه يلاحظ أننا متأخرون في مجال الفلاحة. فقد حفظت له الحكمة: "كل من ليس منظما يصير لا محالة عبدا لمن هو منظم".

في أحد الأيام وبينما كنا في الابتدائي الثاني، شرح لنا س محمد بوعياد أن المطر ظاهرة طبيعية. وبما أننا أظهرنا تعجبنا، أجابنا بهذا الجواب: فهل تعتقدون أن السماء فيها أحواض من الماء؟" هذا وقد أخبرت أمي بهذا الجواب ممسني فقالت لي: "هذه كلمات وثني". اسمع يا ولدي فإن الله هو القادر على سقوط المطر". ولم أعرف كثرا لماذا، ولكني اخترت تفكير أمي.

إن هذا المعلم قد سماني "المحامي" لأني كنت دائما أدافع على أصحابي وكنت استعمل نغمات مختلفة عند القراءة، الشيء الذي كان يضحك أصحابي. كنت أمسك كراس العقوبات وأستطيع أن أظهر كرمي نحو أصحابي معاقين. خلال تمدرسي قد أثر فيّ شيء على وجه الخصوص. ففي كتاب تاريخ نجدُ بعض الصفحات تتحدث عن الاستيلاء على الجزائر العاصمة ومآثر الجيش الفرنسي ومآثر الأمير عبد القادر. وهناك صورة كبيرة تمثل لقاء بين فرسان فرنسيين فوق أحصنة مجهزة أحسن تجهيز ومجموعة من المحاربين العرب وفي وسطهم الأمير عبد القادر. فقد حفظت مع أصحابي هذه الجملة للأمير: "إذا أراد الله فإني سأعطي السعادة للعرب". هذا ما كان ولكن كان كافيا لإلهام خيالنا. كنا نكرر هذه الكلمات مع شيء من الاغتباط في كلّ مرّة كنا نلتقي.

حدثت والدي على ما قرأته في كتاب التاريخ. وفي المساء وخلال سهرة حدثنا أبي عمّا يعرفه عن ملحمة الأمير عبد القادر فقد أخبرنا أنه في فترة وصول الفرنسيين، كانت عائلتي قد ذهبت إلى المغرب مع أناس آخرين من تلمسان وأنه أثناء هذه الهجرة وُلد أبي وحده، في الأرض المغربية. ولم تعد عائلتي إلاّ بعد ذلك بكثير. إن أجدادنا قد تألموا كثيرا من الاحتلال. في كل البلاد، كانت قصص آلامهم تنقل إل الأجيال الصاعدة. لم يضع منها شيء.

عندما كنت مازلت في المدرسة وفي ربيع 1913، تواجدت يوما في حانوت الحاج الدين في حديث مع عبد الله أحد أبنائه، وإذا بامرأة ذات عمر محترم دخلت وفي يدها رزم. فأسرعت لمساعدتها فوهبت لها معونتي. بعد أن شكرتني، طلبت

منّي خدمة: "أتريد يا صغيري أن تعينني على حمل هذه الرزم إلى منزلي الذي ليس بعيدا من هنا؟" فكلمة "صغيري" قد ملكتني. فأفهمتها في الحين وبفرنسيتي لابدائية أني كنت مسرورا بمرافقتها. وخمس دقائق بعد ذلك كنّا عندها في أسفل نهج سيدي بلعباس وأمام نجارة الهمش.

سألتني هذه السيدة عن اسمي واسم والدي وسألت عن منزلي وأشغالي، وفي الوقت الذي كنا فيه نتكلم كانت تعطيني الحلويات ثم دخل زوجها وبدأ هو الآخر يسألني. فقد شكرني الاثنان بحرارة على المساعد وطلبا منّي الرجوع لزيارتهما ما دمت أسكن في نفس الحي. ورافقاني بلطف إلى الباب وكأني أحد أبنائهما. إن هذه الالتفاتات التي لم أكن متعودا عليها قد أفرحتني. وفي الغداء قصصت على عائلتي ما كنت أعتبره حدثًا.

فأسابيع قليلة بعد ذلك اللقاء الأول، صارت علاقاتي مع عائلة "كويتو" متميزة بصداقة حقيقية وكذلك بثقة كاملة. فصرت أذهب عندهم كما أذهب إلى منزلي وكان لي مقعد في طاولتهم. كانا يساعداني على تعلم الجغرافيا والتاريخ. عندما يسمعان هدري كانا يضحكان إلى غاية الدموع. فالسيد "كويتو" كان دكتورا في الطب وفي طب العيون وكان كذلك طبيب أسنان. وكانت زوجته خياطة ماهرة وطباخة جيدة. كان الاثنان من بريطانيا وكانا يتفاهمان جيدا. إن هذين الشخصين اللذين كان الحظ سببا في معرفتهما سيقودان ابتداء من الآن خطواتي.

اندلعت الحرب العالمية الأولى وكأنها دوي رعد في سماء زرقاء يوم 2 أغسطس 1914 وكان وقتها شهر رمضان. لم يكن الحدث بالنسبة لنا، نحن الشبان، يكتسي أهمية كبرى. في الحقيقة كنا نجهل القوة المدمرة التي كانت على وشك البداية والأبعاد العالمية التي اتخذها النزاع مدة أربع سنوات. كنت أظن أنه يشبه الحرب الإيطالية التركية التي سبقته بسنتين. أضف إلى هذا أن التلمسانيين، ما عدا أقلية صغيرة، سواء الشباب أو الكهول كانوا لا يعرفون شيئا عما كان يجري في أوربا ولم يسمعوا أبدًا عن الخصومات بين البلدان. وبالعكس فإن الناس كلهم كانوا يهتمون بتركيا ويسألون عن موقفها في النزاع.

إن الآباء الذين كان لهم أبناء في عمر التجنيد كانوا يعيشون في قلق عويص. كانوا لا يريدون رؤية أولادهم يقطعون البحر الأبيض المتوسط ويموتون من أجل قضية لا تعنيهم في شيء. فبدأ أهل تلمسان من جديد يفكرون في الهجرة. فالبعض فكر في

تخدير الشبان ليرفضوا في مجلس المراجعة. فقد كانت الحرب تظهر في شكل الكارثة خاصّة وأن سلطان الإمبراطورية العثمانية كان إلى جانب ألمانيا والنمسا والمجر. فالمسلمون كانوا موضوعين أمام حالة ضميرية حقيقية. ولكن الاستعمار الأوربي كان يريد الجنود ولا تهمه كل هذه الاعتبارات.

فتلمسان كانت حقا تستحق تسميتها بالمدينة الثكنة. كنا نلاحظ كل تحركات الجيش التي تذهب أو تعود من المغرب. كنا كذلك نرى الفرق العسكرية من "تيرايور" والصيادين المشاة والزواف في طريقهم إلى وهران. أتذكّر أني، في العديد من المرات رافقت العساكر إلى محطة القطار بمناسبة ذهابهم إلى الجبهة. كان وقتها الكثير من النساء والأطفال والرجال المسنين على أرصفة المحطة وقد أتوا للتحدث مع أقربائهم قبل إقلاع القطار. كان الجو بقي منقوشا في ذاكرتي وكأنه يقع اليوم بالذات. ركب الجنود الذاهبون في عربات كانت مخصصة من قبل إلى الحيوانات. وكان أحد الجنود وفي يده موسى لماع وكان يلعب به ويقول: "كما ترون" فبهذا سأقطع آذان البوش" إن هذا الصياد الإفريقي، كنت أعرفه جيدا. كان يهوديا تلمسانيا، القبّي وكان أبواه لهما مُحلّ بيع التبغ في زاوية ساحة البلدية.

صارت تلمسان مركزا هاما للتجنيد. فقبل اندلاع الحرب بكثير تم تنظيم التجنيد في دائرة شعاعها أربعون كيلومترا حول تلمسان. كان الناس في هذه السلطة يعرفون أن الحصادة الكبيرة للبشر ستطل في يوم من الأيام. وعليه فإذا كانت الخدمة العسكرية الإجبارية قد فرضت على المسلمين الجزائريين فكانت لهذا السبب.

فالدعاية من أجل التجنيد كانت ماهرة. كانت مجموعة من عشر "تيرايور" مصحوبة بعريفين أو ثلاثة فرنسيين وعرب يطوفون في المدينة. كان البعض منهم ينغم الموسيقى بالغايطة وهي آلة تشبه البينيو البريطون. كانوا بهذه الكيفية يجلبون الناس وفي المقام الأول الأطفال الذين يترصدون دائما أيّ ضجيج وأيّ حركة. وبما أنهم كانوا يقومون بذلك أيّام الأعياد والأسواق في الزحمة. إن هؤلاء الفلاحين الذين ليست لهم أراض لأنها انتزعت منهم كانوا يشكلون الهدف المفضل للأعوان المكلفين بالتجنيد. عندما يقع المستمعون في سحر هذا الجوّ يوقف فرنسي الموسيقى ويتدخل عريف عربي فيأخذ الكلمة ويشرح بكل فصاحة وبتفاصيل ضافية كل الفوائد التي يمكن أن يستفيد بها من يتعاقد بصفة إرادية. إن هذه الاقتراحات كانت جذابة وخاصّة لذوي البطون الجائعة : "إن الذي يتعاقد مع الجيش يستطيع أن

يقول للقائد[1] كلمة كامبرون ويستطيع حتى رفع يده على الآغا[2]". فالمتكلم يعرف جيدا أن هذه الكلمات تذهب مباشرة إلى قلب الفلاح الذي هو ضحية القايد والآغا اللذين كانا يفزعانه باتفاق مسكوت عنه مع الإدارة.

بالاعتماد على هذه الوسائل المكيافيلية استطاع الاستعمار أن يجهز جيشا من أكثر من مائة ألف جندي. هم الأولون الذين يرسلون إلى ميادين الحرب في بلجيكا وشمال فرنسا.[3] كانوا يعرفون، لدى الفرنسيين تحت التسمية المبهمة: "توركوس". فلونهم الأسمر، وقامتهم وأناقتهم كان لها الأثر الكبير على المدنيين وحرّك همتهم الوطنية في شارع سان جرمان.

بما أنني كنت أذهب إلى المدرسة الفرنسية، كان أبويّ وجيراني وأصحابي يعتقدون بأنه كان في استطاعتي أن أقرأ لهم الصحافة وأن أشرح لهم كل تطورات الحرب. فالنزاع قد انتشر بسرعة إلى كل أوربا وآسيا وإفريقيا والولايات المتحدة وكان يصعب عليّ أن ألبّي رغباتهم وفضولهم وهذا ما كان يعكر علي الجو. كنت أحاول إذن أن أبذل جهدا كبيرا لفهم مقالات الجرائد وإرضاء على الأقل جزئيا الأشخاص الذين كانوا يستمعون إليّ. إن تعطشي لمعرفة التاريخ والجغرافيا ومما لا شك فيه الآن السياسة، كان يفيدني كثيراً. كنت كذلك أستفيد من مساعدة السيد والسيدة "كويتو" ومعلمي.

كان الناس متواجدون بكثرة كل يوم في انتظار الصحافة في ساحة البلدية. فنصف ساعة بعد تسليم البضاعة إلى السيد كونتريراس الذي كان في نفس الوقت حلاقا وموزعا للجرائد لم نجد أي يومية. لقد حضرت مرارا إلى مشاجرات. كنت أشتري ثلاثة إلى خمسة جرائد في اليوم وأوزعها مباشرة إلى السيد محمد بوعياد، معلمي وإلى السيد والسيدة "كويتو". فمن بين الجرائد التي كنت غالبا ما أشتريها لهم نجد: "صدى وهران" و"صدى الجزائر" و"الجريدة" (باريس)، "الصباح" و"الباريزياني الصغير" و"الإكسيلسيور" و"الأنترانزنجان". وبما أني تصاحبت مع اثنين من الباعة

(1) القائد هو موظف ولكن بدرجة أعلى من القائد.
(2) وهو كذلك موظف ولكن بدرجة أعلى من القائد.
(3) حسب الأرشيف العسكرية قد تم تجنيد 604 16 مجند متعاقد في الأشهر الأربعة الأخيرة من سنة 1914، و 052 12 سنة 1915، و608 12 سنة 1916 و261 6 سنة 1917 و159 13 سنة 1918 اي مجموعة 60684 متعاقد تطوعي.

الأربعة الجزائريين الذين يعملون مع السيد كونتريراس، كانا يقدمان لي خدمة كبيرة. فبالإضافة إلى الجرائد التي كان يجب علي توزيعها، كنت أشتري كل يوم جريدة أخرى على حسابي الخاص فكنت أقرأها ثم أعيدها إليهما فكانا يبدلانها لي بنشرية فرنسية أخرى. وكنت أكرر العملية أربع إلى خمس مرات كل يوم. وفي المساء وبعد العشاء كنا نذهب كذلك إلى نيابة عمالة تلمسان لنقرأ آخر بلاغ للحرب. فقد كان هناك مئات الأشخاص وخاصّة الأوربيون الذين يأتون من جميع أحياء المدينة لمعرفة آخر الأنباء.

في أول أكتوبر 1914، في الوقت الذي كنت متوجها إلى المدرسة وجدتها قد سكنها الجيش. فأرسلنا إذن إلى بناية أخرى وراء سوق الأنعام وعلى طريق منصورة. ثم خصص جزء هام من التعليم إلى الأعمال المتعلقة بالحرب. مازلت أتذكر أنه أعطي لنا شعر الكاتب الفرنسي الأكاديمي جان أيكارد للحفظ. وكان معلمنا يكلمنا عن عظمة فرنسا وجمالها ومعاملها وقوتها. من الملاحظ أن هذه الدعاية كانت مفروضة من طرف باريس عبر الجزائر العاصمة.

كانوا كذلك يعلمون لنا الأناشيد الوطنية مثل "لامرسياز" أو "لالوغان". وفي إحدى هذه الأناشيد أضافوا بعض الكلمات في الأخير لإشراك الشباب العربي في الحرب. وكانت تقول: "عليها يجب أن يموت الفرنسي، عليها يجب أن يموت العربي". فمن حيث الموسيقى كانت هذه النغمات الموسيقية تحركنا في الأعماق ولكن في عمق اللاشعور كانت الأمور تختلف. كان من المستحيل أن نتصور أن الجزائريين سواء كانوا شبانا أو كهولا لا يمكنهم أن يظهروا مشاعر موالية ومحبة للفرنسيين بينما كانوا يوضعون في محتشدات وكأنهم مخلوقات دونية ويحرمون من أي حرية ومن أيّ حق. فالمغاربيون كانوا غير مكترثين بنداءات الاستعمار المنهمك في الحرب وكانوا أحيانا يتلذذون برؤيتهم في هذا الكمين.

فالسيد والسيدة "كويتو" بدآ يهتمّان بي أكثر فأكثر. فلم يساعداني فقط على التعلم بل كانا يريدان أن يصنعا مني ميكانيكي أسنان. بدأت أتعلم المهنة. لم أضع فيها كل عنايتي لأني كنت مولعا بقراءة الجرائد والمدرسة والحرية. وحتى لا أعاكس هذين الشخصين الطيبين اللذين يريدان سعادتي فتركت الوقت ليتكلف بصنع وفَسْخِ الأشخاص. فالسيدة "كويتو" قد صممت في قرارة نفسها أن تلبسني مثل الفرنسيين. فقد كان هذا يعجبني ويزعجني في نفس والوقت. كنت أخشى أن

أعاكس عائلتي وخاصّة والديّ. فقد خاطت لي هي بنفسها بدلة ذات لون كاكي وقد اشترت لي بعد ذلك أحذية وجوارب وأقمصة وربطات عنق ومناديل وقد أهدت الكل في كارتون جميل. فقد تسلحت بكل شجاعتي لأشرح لها خوفي أمام ردة الفعل المحتملة لوالديّ اللذين لا يستطيعان السماح لي أن ألبس مثل الفرنسيين. كان التلمسانيون، باستثناء بعض الأشخاص، يلبسون بالكيفية التقليدية. فالسيدة "كويتو" التي كانت جدّة مرّتين قد فهمتني عندما طلبت منها أن تبقى الكارتون عندها بعض الأيام. لم يكن أبي ضد هذا اللباس ولكنه لا يريد أن أكون من بين الأوائل الذين يعلنون عن هذه الموضة، التي تمنعها عاداتنا.

خلال السنتين 1915 و1916 أخذت الحرب منعرجا خطيرا. فسعر المعيشة بدأ يرتفع. فالسكر والقهوة وأعواد الثقاب ومواد أخرى صارت نادرة. بدأت السوق السوداء تبرز. كانت الحرب تستقر شيئا فشيئا مع موكبها من المآسي. ففي تلمسان، قامت السلطات بالتفتيش المفاجئ وتوقيف شبان تعتبرهم السلطة على أنهم سيؤون فترسلهم إلى فرنسا للعمل في معامل الحرب. إن هذا الإجراء قد أثار غضب السكان المسلمين الذين كانوا يعتبرون أن الأسباب المذكورة لم تكن إلاّ حجّة واهية لتبرير المساس بالحريّة. كانت الإدارة الاستعمارية بمكيافيليتها المعتادة تقول أنها بالفعل تريد ببساطة أن تخلص المدينة من كل هؤلاء المتشردين وترك السكان العاملين يعيشون بهدوء. ولكن هذا لم يغالط أحداً. إنها كانت لا تريد أن تتم لقاءات أو اجتماعات في النهار كما كانت لا تريد أن يتم ذلك ليلا. كانت الإدارة تخشى أن ترى الناس يعلقون ويتبادلون آراءهم عن الحرب وخاصّة منذ الثورة التي وقعت في ناحية عين تموشنت خلال الأسابيع الأولى من النزاع العالمي.

لقد ثار رجلان، الأخوان بوزانير وقتلا دركي أو اثنين للاحتجاج ضد الخدمة العسكرية وضد إجراءات تخويف السكان الجزائريين. كان الحديث يجري في كل العائلات فقد صارا بطلين. إن أعمالهما كانت تكذب الدعاية المكتوبة والمسموعة التي قام بها المعمرون الذين كانوا يؤكدون أن الأهالي يحسون بشعور وطني فرنسي ويريدون محاربة الذين انتهكوا حرمة حياد بلجيكا. فقد أخبروا أن نائب العامل في تلمسان سيعطي مبلغا هامّا من الدراهم ومكافآت أخرى لكل رجل من الأهالي يقتاد إليه الثائرين أحياء أو أمواتا. ولكن هذا النداء لم يَتبعه أي جواب. وواصل الأخوان مقاومتهما وتحديهما للمئات من الدركيين الذين يبحثون عنهم. فقد قتل أحدهما بسرعة في كمين بعد أن أثبت مقاومة كبيرة. والكبير منهما قد انفلت مدة شهر أو

أكثر عن المطاردات البوليسية. كان يجد لدَى سكان الناحية التي استقر فيها تضامنا كبيرا. وفي الأخير، تم قتله هو كذلك. ولكن هذه الثورة لهذين الرجلين الشجاعين المحترمين قد أحدثت في كل عمالة وهران ذبذبات وطنية قد شغلت العقول كثيراً.

فقد كانت الحرب لا تبقى نفسها أبدا في النسيان. قد تحركت إشاعات ابتداء من سنة 1916 مفادها أن الإمكانية التي منحت للعائلات باقتراح شخص يعوض الابن المستدعى سيتم إلغاؤها. كانت هذه الإشاعات تضاعف من آلام الأمهات وتغذي الانتقادات اللاذعة ضد الإدارة[1]. في عائلتي لم يرد أبدا أن يوجد لي شخص معوض. لم يكن لدينا الإمكانيات للتفكير في ذلك الحل الذي كان يستلزم مبلغا هامّا من الدراهم. لهذا كانت أمّي مهمومة ومريضة عند التفكير بأنني سأمر أمام مجلس المراجعة بعد سنتين. كنت مع أخواتي أحاول أن أقنعها بأن الحرب تكون قد انتهت وأن الفرنسيين سيلغون القانون الذي فرض علينا ضريبة الدم.

كانت السيدة "كويتو" قد فتحت قربَ دارها، قبل وفاة زوجها بداية سنة 1915، ورشة للخياطة حيث كانت تأتي السيدات وآنسات كن يظهرن لي من عائلات فرنسية ثرية. كن لا يشبهن أبدا النساء الأوربيات اللائي كن يسكن في الأحياء الفقيرة مختلطات مع الإسبان واليهود والجزائريين. كانت هؤلاء السيدات جميلات وكانت لهن تصرفات جميلة وكن يتكلمن لهجة ليس لها أي شبه مع الوافدين الأوربيين ذوي الأصل المتوسطي.فقد كن بالنسبة لي مفاجأة سارّة بل قل قد خجلت لرؤيتهن.كن لابسات عباءات طويلة وجميلة وعلى رؤوسهن قبعات مزينة بالأزهار ولبسن قفازات ولهن جرابات صغيرة. كان على السيدة "كويتو" التي كانت ذات قامة قصيرة أن ترفع رأسها للتحدث إلى هؤلاء السيدات الطويلات المسترسلات وكأنهن نخلات صغيرة مملوءَة بالفواكه.كن كلهن يحكن التبابين لمساعدة الجنود الذين كانوا يتألمون كثيرا من برد الشمال القاسي وشرق فرنسا، وليتحملوا الجو الشتوي القارس.أظن أن منظمتهم كانت معروفة تحت اسم "سيدات من فرنسا".

---

(1) هذا النظام الذي كان يسمح لأبناء العائلات الثرية وذات النفوذ أن يتملصوا من الخدمة العسكرية، كان غير مقبول من طرف معظم الجزائريين. عندما اتفق على إلغائه، قام الأثرياء بإثارة الفقراء فتراجعت الإدارة الفرنسية.

كانت إحدى هؤلاء السيدات زوجة لموظف جاء من فرنسا ومعروف على أنه يحب العرب. في تلمسان كان عاديا أن نميز بين فرنسيي فرنسا الذين يعتبرون أصدقاء الأهالي وفرنسيي الجزائر الذين كانوا فيما يخصهم ضد العرب. في المدرسة كان معلمنا السيد محمد بوعياد قد كلمنا عن نائب فرنسي، ألبان روزي، كان يدافع بشجاعة عن الجزائريين المسلمين وكان يستنكر أفاعيل المعمرين. وكان هذا النائب قد اعتنق الإسلام[1]. حتّى وأنه لا ينبغي أن نعمم، فإني رأيت شخصيا أستاذا في كوليج (المتوسط وثانوي) في تلمسان، السيد بردريز الذي كان يوزع نصف مدخوله على الأولاد المساكين.

عند تواصل الحرب صار البلاغجية والحياكين والعديد من الحرفيين الذين كانوا لا يشتغلون إلاّ للاستهلاك المحلّي بدؤوا يشتغلون في أعمال كبيرة وبالتالي فإن تجارة حقيقية رأت النور واستولت على كل الناس. لقد استغنى فجأة العديد من مهنيين الذين ليس لهم أي تعليم والذين كانوا البارحة فقط يغلب عليهم السهاد في دكاكينهم الصغيرة. فقد صاروا يملكون السيارات والمحلات في الشوارع. كنا نناديهم الأغنياء الجدد. كنا نراهم يذهبون من مقهى إلى مقهى يشربون المشهيات ثم يتعشون في الشلالات يَتبَعهم في ذلك الموسيقى والمغنون. فقدْ كانت هذه نشأة رأسمالية في تلمسان. وقد كان الأمر كذلك وبكيفية أوسع في الجزائر وفي كل مدن الجزائرية. يموت في الحرب مئات الآلاف من الرجال من كل الأعمار وفي ظروف بشعة بينما يقوم المئات الآخرون بالصفقات التجارية.

بينما كان الأثرياء الجدد يحكون أيديهم ولا يفكرون إلاّ في التجارة. فإن السواد الأعظم من السكان كان يعلن الحرب ولا ينشغل إلا بمصير تركيا. كان آباؤنا يقولون: "اللهم احفظها! إنها العين الوحيدة التي بقيت لنا كي نرى النور". كلما كانت أخبار خاصّة متعلقة بالجيش التركي في الصحافة،أظهر التلمسانيون اهتمامهم بألف كيفية. كان الناس يرسلون لبعضهم البعض ابتسامات معبرة في الطريق وكان التجار يتبادلون تهاني. وكانت النساء يصلين ويقمن بزيارات لأولياء المدينة. فالشعوب المحرومة تستعمل كل الوسائل لإبراز فرحها أو غضبها. فهي كيفية من الكيفيات للمقاومة في انتظار زمن أحسن. وكان الاستعمار لا يجهل شيئا من هذه التظاهرات ولكنه يوحي

---

1) ألبان روزي كان نائبا لبيراليا يقعد على مقاعد اليمين وقد أثبت دائما على أنه يدافع على الجزائريين المسلمين. وقد لقبه المعمرون للاستهزاء منه علي بن روزي الشيء الذي خلاّنا نعتقد أنه اعتنق الإسلام.

بأنه لا يرى وهو يفكر أنه ربما يستطيع أن يختار في يوم ما زمن الانتقام. المهم بالنسبة لأصحاب الجزائر أن يتمكنوا من الكتابة إلى باريس أن كل الأمور على أحسن ما يرام وأن أهالينا يحسنون سلوكهم[1].

كانت مدينة تلمسان تعيش بصفة مستمر في جوّ من الحمى بسبب ذهاب العساكر وإيابهم. فالتيرايور في بدلتهم الحربية كانوا يجوبون طرقات المدينة في دوريات. فالأحياء المخصصة كانت محروسة باستمرار لأنها كانت في بعض الأحيان مسرحا لأحداث خطيرة. كانت "سيدات فرنسا" تذهبن إلى المحطة أثناء رحيل الجنود لتوزيع السجائر وقول كلمات طيبة لأقرباء الجنود. كانت الفتيات كالعسل مع المجندين الجدد عندما يأتون في إجازة. قد بدأ الجرحى يصلون ويملؤون المستشفى العسكري. تم تنظيم سهرات في قاعة البلدية وكنا نغني فيها الأناشيد الوطنية مع الموسيقى العسكرية. وفي المدرسة كنا نجمع الأموال "لجنودنا" وفي المدينة كان هناك أطفال وبنات يبيعون أشياء لفائدة المجروحين. وهكذا فإن كل الناس كانوا يعملون من أجل الحرب.

فبعد خروجي من المدرسة بدأت العمل ابتداءا من أكتوبر1916 في دكان خالي الحاج الدين كما كانت أمي تريد ذلك. كانت بالفعل تعتقد أن أخاها يمكن أن يساعدني على الإفلات من الخدمة العسكرية. "يستطيع أن يقتلعك من أيدي هؤلاء الكفار لأنه يملك بركة الله وكل أولياء البلد هم معه" .هذا ما كانت تقول لي.إن تنظيم متجره يعكس الدرجة المنحطة التي كان فيها الجزائريون. فقد كان منقسما إلى قسمين. القسم الأكبر كان مخصصا للأوربيين الذين كانوا يجدون هنا تحت تصرفهم كل المواد التي نجدها في فرنسا ما عدا الخمر ولحم الخنزير. كان الزبناء الأوربيون يشترون كثيرا.فقد كان البعض يطلب مثلا في مرّة واحدة كيلوغراما من السكر وربع كيلو من القهوة المرحية وعلبتين من الزبدة وربع من الجبن وعلبتين شوكولاطة وعلبتين من المقرونة وعلبتين سردين وحلويات حامضة للأطفال.

أما المواد الغذائية الخاصّة بالأهالي فقد كانت موضوعة في الجهة الأخرى من المتجر. وهي على وجه العموم المواد التي أساسها الدقيق. فقد كان من ضمنها ما يسمح بتحضير الكسكس والسفنج وحلويات الحفلات والشوربة. كان يدخل أطفال

---

(1) في الواقع كانت السلطات، بالعكس، تسود مشاعر العداء لدى السكان الجزائريين، وحبهم للأتراك وإعجابهم بالحاج فيوم الثاني، بحيث لا تحاول باريس أن تشكرهم على ولائهم.

صغار أو بنات محتجبات ليطلبوا منا عادة مقدار فلس من السكر والقهوة المختلطين وعندما نقدم لهم ذلك يقولون بصوت منطفئ ومنخفض: "دينا". عندئذ نشعر أن الفقر كان عظيما. كنا نبيع بفلسين من الزيت وفلس من الملح إلخ... إذا دخل أحد من الأهالي سواء كان رجلا أو امرأة عن طريق الصدفة في متجر أوربي فقد لا يكون من الخطأ أن نعلمه بذلك.

فالفرق بين المعمرين والمستعمرين كان يظهر بصفة صارخة بمناسبة أعياد آخر السنة. فمن جهة الأوربيين كان المتجر مزينا بالأنوار ومحتوى المعروضات كان غنيا إذ نجد الشكولاطة بأنواعها والكستناء المسكر والحلويات وحلويات الترك ذات العلامات الأوربية. وفي الناحية الأهلية كانوا ما زالوا يطلبون منا نفس المواد: "فلس قهوة وسكر خليط"، وكان كل هذا يمزق الأحشاء.

في الحقيقة كان الظلم سائدا في كل المجالات. عندما تم استخدامي لم يتم إخباري بظروف العمل: الأجرة وساعات العمل ويوم الراحة. لم أكن فرحانا البتة ولكني انطويت على نفسي ولم أقل شيئا لا لوالديّ ولا لأرباب عملي. فقد فكرت لحظة أن أطرح القضية على شيخ الطريقة وأن أطلب منه النصيحة. وبعد التفكير، عدلت عن فكرتي في انتظار أيام أحسن من هذه ولكنها لم تأت أبداً. ما دامت الحرب متواصلة فإن الأمور التجارية كانت تنمو من حسن إلى أحسن. فالثراء صار يلفت الأنظار وذهب بعض الواصلين حتّى إلى لعب "الماموشي". ورغم هذا فإن أجرتي الشهرية التي كانت تساوي عشرين فرنكا فرنسيا لم تزدد أبداً.

فستة أشهر بعد استخدامي. أي في ربيع سنة 1917، صرت متعودا على مهنتي. كنت أستطيع أن أبيع وأن أحسب وأن أزن وأن أرد الصرف وأن أصنع الرزم وبالتالي كان يمكنني أن أشد المنضدة التجارية لوحدي. لقد ربحت ثقة الزبناء العرب والأوربيين. كنت أتكلم الفرنسية أحسن وكانت كلماتي قد صارت ثرية. وكان يعجبني أن أتكلم مع السيدات والبنات وأنا أبيع لهن شكولاطة "كوهلار" والبيسكويت والعطور.

فقد كنت جيد الصحة وكنت أكبر على مرأى العين. ولم تكن أمي ترى ذلك بعين الرضا لأنها كانت تفضل أن أبقى ضعيفا ونحيلا حتّى لا أقبل في مجلس المراجعة. وفي المساء كنت أخرج مع رفاقي لنقوم بدورة أو بعبارة أخرى لنتجوّل ونتبادل الأفكار والمشاعر. قد بدأت عيناي تتوقف عند النساء. وبما أني كنت

خجولا فلم أستطع التكلم عن النساء إلا مع فتيان من عمري. كانت التربية الدينية والحياء لا يسمحان لنا بالحديث بسهولة عن هذا الموضوع. كنا لا نستطيع الحديث عن شهواتنا وعن اندفاعاتنا إلاّ لأصدقاء مقربين. لا بد أن أقول أن عيني لم تقع أبداً في المتجر على النساء المسلمات لأن ذلك ليس في فكري. ثم إن النساء القليلات اللائي كن يأتين إلى المتجر كن محجبات. وهكذا فإن كل المناسبات كانت جيدة للتوجه إلى الرف المخصص للفرنسيات.

فمن غير أرباب عملي، كان هناك مسؤول سيدي بودغن. أكبر مني سنا، فقد كان يوجه عملي باحترام وودية. كنا ننتمي إلى نفس الزاوية وكان يعطيني نصائح ممتازة. فقد انتبه إلى الميول الذي يدفعني إلى الرف المخصص لأوربيين وقال لي مرّة: "سيدي حجي، فكر في الله وصلّ". إن هذا قد جعل وجهي يحمر إلى غاية الشعر. فقد كنت أشبه طفلا فوجئ وهو يسرق مربّى. إن هذا التوبيخ وجّه إليّ بلباقة.

إن محادثاتي مع الفرنسيات لم يكن لها متابعة لأني، أولا لم يكن لي معهن إلا محادثات مناسباتيّة. على كل حال، لم تستطع أيّ فرنسية أن تظهر مع شاب عربي دون أن تتعرض إلى قلق من قبل والديها أو حتّى أي أوربي. إذا كان لفرنسية من الجزائر مشاعر صداقة مع شاب عربي، فقد كان من المستحيل أن تعبر عن ذلك. تقولون: لماذا؟ فلأن اعتبارات جنسية ودينية كانت تتدخل أضف إلى ذلك مركب الاستعلاء من الناحية الفرنسية. فالشعر العربي الذي يغنيه موسيقيونا: "إن الحب يهين المال ويركع الملوك". كل شيء تقريبا يركع أمام الحب إلا الاستعمار.

كنت دائما أذهب إلى الزاوية التي كانت بالنسبة لي مرسى وملاذا. فكل واحد ملزم أخلاقيا بمشاورة أصدقائه حول الصعوبات التي تعترض حياته الدينية وحياته الذاتية، وإذا ما اقتضى الأمر ذلك تعرض هذه المسائل على معرفة الشيخ الذي يكون مستعدا للبحث عن الحلول. وهذا لا يعتبر اعترافات لأنها غير موجودة في الدين الإسلامي. يطلب المؤمنون الاستشارة من أجل الزواج أو من أجل خلاف عائلي أو سفر أو أي أعمال أخرى في الحياة اليومية. وهكذا فإني تحدثت في الزاوية عن مشكلي الخاص بالخدمة العسكرية. كل الشبان الذين كان عليهم أن يذهبوا إلى الجيش كانوا يطلبون من الشيخ ماذا ينبغي فعله. كان يجيبهم أنه يجب عليهم أن يدعوا الله وألا ييأسوا من مساعداته وطيبته ورحمته والاعتقاد بأن كل المشاكل تجد حلولها بكيفية أو بأخرى. كان الشيخ أحيانا يطلب من المعني أن يسعى هو نفسه

وألا يبقى جامدا للتغلب على المصير. فالمثل الفرنسي: "أعن نفسك، تعنك السماء" وللعرب مثل مشابه: "تحركوا أيها المؤمنون،سترضون وتسعدون" .

فقد كانت الزاوية تلعب دور حزب سياسي ضخم، يبذل جهوداً ليضمن للمؤمن السعادة فوق الأرض والجنة في الآخرة. لأن مهمة الإسلام الأولى هي أن يقود الإنسان في طريق النجاة من ولادته إلى لحْده، فإن الدنيوي والروحي يتفاعلان ليسمحا للإنسان بالتفتح. إذا كان مريدو زاويتنا يعرضون مشاكلهم الشائكة على الشيخ ليتحصلوا على توضيحات، كانوا في الأخير يبقون أحرارا ليعملوا حسب العقل والواجب وفي احترام ضوابط المجتمع ومشيئة الله. إن مجتمعنا يكرم روح التوافق. لا يفصل في أيّ شيء بصفة نهائية فالباب لا يغلق أبدا على المناقشة. إذا وقع شيء مقلق كان أبي يقول: "من يستطيع أن يتنبأ كيف ينتهي النهار؟" . إن رجال المنطق يعتبرون هذا السلوك من القدرية. وإنهم على خطأ. إذا انحنى عربي أمام مأساة فهذا لا يعني أنه يستسلم. فإنه ينحني فقط لمدة زمنيةً مع الاعتقاد الصارم بأن الوضعية ستتغيّر.

فخلال سنوات 1916 و1917، صارت الحرب أكثر قتلا. كنت أسمع أنباء مخيفة في أوساط "سيدات فرنسا" عندما كنت أحمل لهن الرزم الكبيرة من الملابس الصوفية التي كانت تكلفني بها السيدة "كويتو" . كانت الإدارة تحاول بكل الوسائل أن تذكي وهج الوطنية في أوساط السكان. وكانت بورجوازيتنا بصفة علنية أو بالتستر تساهم في كل التظاهرات التي ينظمها الفرنسيون. فالقياد والآغوات ببرانسهم الحمراء المزينة بالنياشين كانوا يحضرون في كل الحفلات. كانت الصحافة الجزائرية في أعمدتها تذكر مآثر الجيش الجزائري وشجاعة السنغاليين الذين كانوا حَسب الأقوال، يلعبون بالموسى أو الحربة بكثير من الوهج.

وهكذا بعثت المقولة الدعائية: "الحرب من أجل "الحق" و"الحضارة"" . كنت لا أفهم لماذا يذكرون "الحق" . أما فيما يخص الحضارة فقد كان كل الناس ينطقون بها "سفيلزاسيون" وهي ذلك المرض الخطير الذي فتك بسكاننا من جرّاء النقص الغذائي. كان الكبار يشرحون لنا أن كل ذلك ما هو إلا ذرّ الغبار في العيون وأنه من الواجب أن لا نعير أيّ اهتمام إلى هذه الدعاية.

إن المطالبة أو، إذا أردتم، الاحتجاج كما نقول اليوم في الأوساط الجامعية، بدأت طريقها دون أن يشعر أحد بذلك. إن بعض الأوساط في تلمسان كانوا يقولون صراحة

أنه يجب أن نغتنم فرصة هذه الحرب لنثور ونسترجع حريتنا. ويقول آخرون أننا لم نحسن اقتناص الفرصة التي منحت لنا بعد بداية العدوان، وأخيرا فإن الجزائريين الذين درسوا العلوم الإسلامية أكدوا أن الله يهيننا مدّة طويلة من الزمن لأننا لم نطع الخليفة محمد الخامس، سلطان تركيا، الذي نادى المسلمين إلى الجهاد. لكل هذه الحجج كان الحكماء يجيبون أن الثورة أو الانتفاضة يجب أن تكون محضرة ليحالفها النجاح.

بقيت تركيا دائما في مركز الاهتمامات. كان طرادان ألمانيان، الـ"ڤوبن" والـ"براسلو" قد قنبلا عنابة وسكيكدة قبل أن يذهبا إلى تركيا مرورا بمضيق الدردنيل لينفلتا من التحالف وقد تحدثت الصحافة كثيرا عن ذلك. فقد اعتبرت مآثر الطرادين على أنهما إثارة. وقد كان السكان المسلمون فرحوا بذلك الحدث. إن الأفواج الذين كنت أقرأ لهم الصحافة وأقص عليهم أخبار الحرب قد تحرشوا علي بالأسئلة الشيء الذي جعلني ألتجئ إلى السيد "كويتو" للإجابة عليها كلها. وعندما أعلنت الصحافة وقتا بعد ذلك أن الحلفاء سيقومون بعملية إنزال في تركيا للاستيلاء على إسطنبول، فقد فُجِعَ السكان. إذا كانت ذاكرتي وفية، فإن بلاغجيا من عمر متوسط من عائلة بن حمزة قد أصيب بسكتة قلبية عند سماعه مشروع الحلفاء.

إن معركة الدردنيل دارت إلى فائدة الأتراك في آخر الأمر وهكذا فإن الناس احتفلوا بهذا الحدث. ففي الطريق كان الناس يضحكون ويقبلون بعضهم بعضا. والبعض الآخر نظموا ولائم وقضوا اليوم في الشلالات أو في مكان آخر. وفي صلاة الجمعة كانت المساجد مملوءة. وفي كل البيوت تقريبا كانت تقلبات الأحوال في معركة الدردنيل في جدول حكايات السهرات. إن بعض رفاقي كانوا يعرفون على ظهر قلب أسماء وأعداد البواخر التي أغرقت وكذلك عدد الأسرى.

كان الوقت يمر وكنت أتوجّه نحو العشرين عاما في عمري. فقد صرت الآن شابا كبيرا ومهذبا. كانت أمّي المسكينة تعيش أكثر فأكثر كابوسا لا متناهيا ألا وهو ذهاب ابنها الوحيد إلى الجيش. كنا نبدي لها أننا نعيش وكأن هذا المشكل غير موجود أصلا وذلك لتفادي آلامها. وفي خريف1917 رافقني الغوثي الحاج الدين إلى بلدية تلمسان لتسجل مختلف أوزاني وذلك دون أن تعلم العائلة بشيء. ومع الأسف لم نستطع إخفاء تاريخ مجلس المراجعة للقسم 1918 على أمّي. فقد كان يوم حزن للجميع. مثل المستدعين قضيت جزءا من الليلة السابقة لهذا الحدث الحزين في الصلاة رفقة والدي. وقد مكث البعض كل الليلة في مسجد سيدي بومدين.

وأثناء مجلس المراجعة، كنا مندهشين من كوننا سنتقدم عراة أمام الأطباء العسكريين الذين كانوا يستهزئون من حيائنا وصفاء قلبنا. فقد كانوا حسب آبائنا وثنيين لا أخلاق لهم ولا دين. ثم أعلن أني صالح لتادية الخدمة. وعملا باستشارة أقرباء وأصدقاء كتبنا إلى الجنرال الذي يحكم مدينة تلمسان رسالة نطلب منه فيها إعفائي من الخدمة العسكرية على أساس أني سند العائلة. وقد حرر هذا الطلب محاسب الحاج الدين. وقد تم رفضها شهرا بعد ذلك. فحسب الإدارة، لي أخ أكبر وهو ملزم بضمان منحة لأبي. فلم يبق لنا أيّ شيء نفعله. ورغم هذا وحتى لا نكثر هم أمي، فقد تناسينا رفض الطلب.

فقد كانت الإشاعات المتناقضة تجوب أنحاء تلمان حول المستدعين من القسم 1918. كنا نسمع أنه لن يلحقوا لأن الحرب في نهايتها أو إنهم سيمضون خدمتهم في تلمسان نفسها. كانت هذه الفرضيات البحتة تقال هنا وهناك وتبقي شيئا من الأمل. وفيما يخصني كنت متوكلا على الله. ففي الزاوية التي كنت أقصدها بانتظام بعد عملي كالعادة، كان للفقراء معنويات مرتفعة وكانوا يقولون لي أن الشر قد يولد خيراً. على كل حال فقد بدأت الاتصال مع كل المستدعين في المدينة لنكون فوجا. كنّا نريد أن نتحضر لاتخاذ موقف مشترك في حالة إلحاقنا بفريق واحد أو في مدينة واحدة.

وفي الأثناء كانت الثورة الروسية قد اندلعت وكان القيصر قد استسلم. والجزائريون الذين في عمري لم يفهموا شيئا في هذا الانقلاب. فإذا كنا نعرف الروس كأمّة فذلك فقط لأن والدينا كانوا يحكون لنا أن هذا الشعب كان دائم التحرش على الإمبراطورية العثمانية وقد جرّده من مقاطعات شمال البحر الأسود. كان يريد الاستيلاء على القسطنطينية والبسفور والدردنيل ليكون له منفذ على البحر الأبيض المتوسط، حسب قولهم.

ومرة أخرى التجأت إلى السيد "كويتو" ليشرح لي معنى هذه الثورة والإيديولوجية الماركسية. لأنه كان عليّ أن أرضي المستمعين العاديين وخاصّة أبي. ولكن ورغم مجهودات السيد "كويتو" لم أتوصل في تلك الفترة أن أتصور بدقة ما هو البلشفيزم، وأهداف الثورة وأسباب السلم المنفصل الذي تم في براست لتُوفسك.

إن استدعاء القسم 1918 من الأهالي قد تم في فبراير. فالفرنسيون كانوا يستلمون دعوة للذهاب فرديا إلى فرقتهم. ولكن الجزائريين كانوا يجمعون عشية الذهاب في

ثكنة في المدينة. ولا يغادرونها في الغد وعند طلوع النهار إلا بعد فرز المجندين وتنظيم الموكب. إن هذه التدابير الاحتياطية تبرز أن الجيش كان يخشى أن المستدعين الأهالي لا يلتحقون بفرقتهم. وكانت كذلك كيفية أخرى يبرزون لهم بها أنهم ليسوا متساوين مع الفرنسيين.

ومع الفجر فإن أباء المجندين الشبان وأصدقائهم وجيرانهم كانوا كلهم أمام الثكنة لمرافقتهم إلى محطة القطار. كانت الأمهات والأخوات يصحن ويبكين ويمزقن وجوههن بأظافرهن. "اتركوا لنا أبناءنا !" هذا ما كن يرددن بكل قواهن. كان الناس ينظرون إلينا بوجوه حزينة. غالبا ما كان الجنود يتدخلون لإبعاد زحمة الجمهور. كان على الجنود القدماء أن يواكبونا وهم آباء أو أجداد عائلة. لم يكونوا شديدين معنا، فقد كان هناك شيء من الأبوة في أسلوب تعاملهم. فقد وصلنا إلى مقصدنا، وهو وهران في نهاية الصبيحة. فبعد الحساء ووقت من الراحة قادونا إلى المرش ثم إلى مخزن الألبسة. فكل واحد منا تحصّل على رداء أسود وسروال أحمر وحذاء خشين وقميص وكلسون وحزام صوفي وشاشية عسكرية. وقد تم تلقيحنا وقد أخافنا هذا خوفا شديدا. ثم مررنا أمام الطبيب لمكاشفة الإدماج وهذا ما يصنع منا جنودا من "أجل الحق والحضارة".

كنا نسكن في ثكنة "لوري-مارينيي" الموجودة فوق الهضبة الصغيرة في الحي العربي الحمري الذي يعني التراب الأحمر. وليس بعيدا عنا يوجد "القرية الزنجية" وهي مسكونة فقط من طرف العرب الفقراء. فالثكنة كانت مطلية بالأبيض، كانت كبيرة ونظيفة. كانت الغرف كبيرة وذات تهوية جيدة. كنا ننام على الأرض فوق أفرشة من التبن.

بقينا أسبوعا دون أن نخرج من الثكنة. وكان الأقرباء الذين رافقونا يأتون لرؤيتنا عند الباب وأيديهم محملة بالفواكه والحلويات الوهرانية. فيما يخصني كان أخي الغوثي وابن خالي الحاج عبد القادر ممشاوي، مقدم زاوية تلمسان هما اللذان كانا يأتيان. وعندما رخصوا لنا لأول مرّة بالخروج في المدينة، فقد تلقفني قريبيّ لمرافقتي حتى لا أتيه في مدينة كبيرة مثل هذه. وخلال خرجتي الثانية يوم الأحد، اقتاداني عند الشيخ عبد الباقي، رئيس زاوية كبيرة في ناحية وهران. وعند تناول الشاي بعد الغداء فإن هذه الشخصية المحترمة والفاضلة والمضيئة والتي تَلبس لباسا أبيض، إن الشيخ عبد الباقي قد قدم لي نصائحه ثم وجه دعاء للقوي القدير أن يحمي مخلوقاته من الجائر الظالم يعني الاستعمار.

لقد بدأت فصلا جديدا في حياتي. كنت ممزقا ولكن شيئا لا يمكن تعريفهُ كان يحملني على الهدوء في نفس الوقت. فهل كان هذا هو حبّ السفر أو جاذبية المجهول أو الرغبة في الحياة أو نداء المصير؟ ربما وبدون شك فقد كان القليل من كل هذه الأشياء. فقبل الوصول إلى وهران كانت رغبتي كبيرة في أن أرى البحر والزوارق والسفن وكل هذه الأشياء التي كانت بمثابة السحر لتخيلاتي. بعد أن ذهب قريبيّ إلى تلمسان فقد بدأت مباشرة بإرضاء فضولي والتجول في كل مكان.

كنا 250 مجندا مجمعين في ثكنة "لوري-مارينيي"، وكلنا من عمالة وهران. فقد ألحقنا بالفرقة العشرين من العمال المستخدمين العسكريين التي كانت تخضع لمصلحة الدعم المرتبطة بالسلك العشرين من الجيش بالجزائر العاصمة. أعتقد أنها أول مرّة يستدعى فيها الأهالي في مصلحة الدعم ما عدا القناصة (ترايور) والسبايس. فهي حسبهم فعل جميل للجنود الأهالي.

في الثكنة اتصلنا بمواطنين من مدن أخرى من ناحية وهران. بعد التعارف تبادلنا الأفكار وبدأت علاقات الصداقة تنشأ بيننا حتى ولو أن هناك بعض التنافرات التي أعتبرها طبيعية. فالتلمسانيون كانوا يعرفون بعضهم جيدا وكنا نشكل فوجا متماسكا. في المرقد كانت أفرشتنا متقاربة. كنا نتشاور في كل وقت ونقسم الحلويات التي تصلنا من تلمسان. كان أصحابي يتكلمون الفرنسية نوعا ما ولكنهم لم يذهبوا إلى المدرسة. في وسطهم كنت أظهر على أنني شاب جاد ومتعلم ومتدين. كنّا محبوبين ومقدرين من طرف كل الفوج ولو أن بعض المواطنين كانوا يظهرون الغيرة تجاهنا ظانين بأننا مدللين شيئا ما.

بقيت متمسكا بالعبادة إذ كنت أقوم بتأدية صلواتي الخمس كل يوم. كنت أتدخل أحيانا لتقريب الناس أو تبديد عدم التفاهم. وبعد شهر، كنت جيد التفاهم مع كل الناس. كنا نخرج مع بعض كل يوم على الخامسة بعد الزوال. هذا وقد كان في الفوج بعض الفلاحين من ناحية تلمسان. كانوا يأتون للاستعلام لدى جماعتنا حول المشاكل ذات الاهتمام المشترك، وكانوا في حاجة إلى مساعدتنا لكتابة رسائل إلى أهلهم أو إلى إدارة بلديتهم إلخ. في الثكنة كانت أشغالنا تتمثل في التمارين أو القيام بالحراسة أو التقشير أو العيادة الطبية أو غسل ثيابنا. كنا في التدرب قبل الذهاب إلى فرنسا. فإن المتفطنين كانوا يقولون وهم يمزحون أن الجيش يسمننا قبل أن يرسلنا إلى المذبح.

ففي بداية ربيع سنة 1918 كنت أشعر بأني مستريح وبشوش في هذه المدينة وهران الفائقة البهاء والعظيمة والكثيرة الحركة. كنت أذهب للقيام بجولات طويلة أيام السبت والأحد وأيام العطل. كنت أحب على وجه الخصوص الذهاب إلى شاطئ البحر على الرصيف. وكان بصري ينطلق بعيدا، بعيدا حتّى أشعر أني أحلق في مهب الريح. كنت أقترب من الأمواج وأتركها ترشني قليلا ولا أركب طريق العودة إلاّ مع اقتراب الليل وأتوقف أحيانا لمشاهدة عودة الصيادين وأنا أتلذذ بجو السّلم.

وكان يقع أن نتحدث بين التلمسانيين وبصفة عفوية في موضوع السياسة عن تطور الحرب. إن مواطنيّ كانوا يطلبون مني أحيانا إن كنت لا أفكر أن النزاع سينتهي قبل ذهابنا إلى فرنسا. كانوا قلقين من فكرة قطع البحر خاصّة وأنه مملوء بالغواصات الألمانية. وكانوا كلهم يعرفون أن هذه الحرب لم تندلع بالضبط للدفاع عن "الحق والحضارة". كانوا لا يجهلون مصير تركيا وكانوا يعرفون نوايا القوات الغربية التي كانت تعتزم توزيع إفريقيا والبلدان المتوسّطية فيما بينها. فالفائدة الوحيدة التي نتحصل عليها من هذه الحرب هي أننا سنتعلم كيف نفعلها في المستقبل، كما كانوا يقولون. إن الجنود الكبار الذين كانوا معنا كانوا يقولون لنا لطمأنتنا أننا نذب إلى فرنسا بدون شك ولكن ليس إلى ساحة المعركة لأننا ننتمي إلى مصلحة العتاد.

أعطونا إجازة بثمان وأربعين ساعة لنزور فيها أهلنا. وهذا علامة لسفر قريب ولكن كنا رغم هذا فرحانين لأننا سنستطيع استنشاق هواء مدينتنا من جديد. مباشرة بعد هذا الإعلان كتبت إلى والدي علما بأن هذا سيروح كثيرا على أمي. كل عائلتي كانت تنتظر وصولي في محطة تلمسان. أمي التي بكت من الفرح عندما علمت بزيارتي كانت في هذا اليوم هادئة ومشرقة مثل السماء بعد الزوبعة. فتجاذبنا الحديث حول ما جرى منذ ذهابي عندهم وعندي، ثم استرسلت السهرة وتواصلت إلى غاية الفجر. أختي خيرة كانت تضحكنا دائما بتدخلاتها وهي مبتهجة ولطيفة وخفيفة الروح.

ومن الغد كان علي أن أزور العائلات المصاهرة والأصدقاء لأحكي لهم الحياة العسكرية. كانوا في كل مكان يقولون بأني كبرت وأني بصحة جيدة. بقيت كل الوقت في البدلة العسكرية خلال هذه الإجازة. وكان هذا يضحك البعض ويجعل البعض الآخر يتنهد. كانوا يطلبون مني إذا كان من الممكن توقع نهاية الحرب ويسألونني عن أمور الشرق.

ثم دخلت إلى وهران تصحبني رزمات مملوءة بالأكل والحلويات المتنوعة. إن الذهاب إلى فرنسا الذي كان كل الناس يتحدثون عنه بدون انقطاع كان لا يخيفني. كان يسوؤني من أجل تخوفات عائلتي التي كانت تخشى أن تفقدني. كنت أريد أن أبقى في حياتي وفي علاقاتي مع أمثالي في اتفاق تام مع المبادئ الإسلامية التي كانت بالنسبة لي شيئا مقدسا. ولكن لا شيء يمنعني من أن أشعر براحتي. فقد لاحظت أن الناس الذين كنت أعيش معهم في الثكنة كانوا يكنون لي الاحترام والتقدير والمحبّة. كنت أحب الحياة. كنت أحب المزاح والضحك والمناقشة. كنت أحب القراءة والتعلم والسماع والفهم. كنت أفكر بأن الحياة ستعجبني في فرنسا. كنت أتهيّأ أن أكتشف هناك الكثير من الأشياء وأن أستول على محبات جديدة.



الفصل الثاني

1918 - 1925

اكتشاف فرنسا

"لم نكن نعرف أن المشاعر
الوطنية كانت تحركنا"

"قد قال الله، في ما معناه، أنه يجب فعل أي شيء
فالله لا يحب المتقوقعين واليائسين".

إن الإدارة العسكرية جعلت من تاريخ الذهاب أمرا سريا إلى آخر دقيقة. وفي يوم من الأيام طلب منا تحضير أدواتنا والقيام بآخر مشترياتنا.

لم يمر وقت طويل على ذلك، وفي صباح من النصف الثاني من أفريل أخبرنا أننا مودعون من الآن فصاعدا في الثكنة. يومان بعد ذلك، نزلنا إلى المرسى وأوراقنا وشنطاتنا في أيدينا ويرافقنا جنود كبار. ثم اقتيادنا إلى رصيف الإبحار حيث كان تنتظرنا السفينة الشهيرة "سيدي براهيم" التي تخلصت عدة مرات من الغواصات الألمانية. فقد كانت السفينة مخصصة كليّة للعساكر. وضعونا في ظهر السفينة وفي بطنها ونظمونا في أفواج لضمان خدمة جيّدة في الوجبات والقهوة إلخ. وقد كان معنا الكثير من الذين أمضوا الإجازات وهم عائدون إلى فرقهم والقناصة كانوا هم الأكثرون.

بينما كنا نحط أوزارنا في السفينة، أعلم الإنذار أن غواصة ألمانية تحوم على بعد بعض الأميال من مرسى وهران. فوقعت فوضى حقيقية في السفينة فأدخلونا إلى بطن السفينة لنبقى فيه ما دامت الغواصة في هذه النواحي. وفي الواقع، علمنا فيما بعد أنه ليس هناك أيّ غواصة بل كان ذلك مناورة من قائد السفينة ليدربنا على احتمال وقوع هجوم.

دام العبور ثلاثة أيام. للوصول إلى مرسيليا كانت سفينة "سيدي براهيم" تسير إلى جانب الساحل الإسباني وهي تتقدّم مطفئة أضواءها. فقد كان التدخين ممنوعا على ظهر السفينة إذا لم تخدعني ذاكرتي. كل الفوج كان مصابا تقريبا بداء البحر. أنا كذلك كنت أتألم كثيرا ولم أستطع أكل أيّ شيء ما عدا القليل من القهوة. قبل الإبحار كنا فكرنا في هذا الاحتمال. فكنت مع أصحابي قد حملنا معنا دواء منزليا وهو أن نستنشق حزمة من البصل بكل بساطة. ولكن هذا الدواء قد أبدى عدم فعاليته. فقد كانت ريحة البصل، بالعكس، تضاعف آلامنا. إن البعض كان يتوسل إليّ مساعدة سيدي عبد القادر الجيلاني باعتباره مَلِكَ الأراضي والبحار. فقد تم جمع

مبلغ من الدراهم سترمى في الماء على أنها هدية وكل ذلك لتتحقق نذورهم. إن هذا الدواء المعجز قد كان له مفعول أقوى من حزمات البصل. وعليه فقد كان ذلك قضية إيمان. وأخيرا وصلنا. إن أحدهم جاء من ظهر السفينة ونزل إلى بطنها وهو يصيح: "مارسيليا ! مارسيليا! مارسيليا !" إن هذه الصيحة قد كانت بمثابة نفس من هواء. فقد كنا متعبين ومنهكين.

إذا ما نزلنا إلى الأرض كان الرأس دائخا وكانت خطواتنا ينقصها التوازن. فقد ذهبنا إلى البراد ونحن في هذه الحالة. والبراد وهو مخزن كان علينا أن نرتاح فيه ممددين على أخشاب عارية. لقد نمنا فيه عشر ساعات بدون حراك.

فحسب إشاعة كان علينا أن نذهب إلى بوردو. وقد تحققت هذه الإشاعة ودام السفر أكثر من أربع وعشرين ساعة إلاّ أن القطار الذي يختلف تماما عن قطارات الجزائر البسيطة كان مريحا. فأثنا كل المسافة كنا نستطيع أن نتمتع بجمال البلاد والغابات والأنهار العديدة والقطعان والملكيات الكبيرة والكروم. كان هذا اليوم يوما بديعا. ولم نستطع أن نمنع أنفسنا من مقارنة هذا البلد الجميل والغني ببلدنا الذي هو دائما حاضر في ذهننا رغم البعد. ففي كل محطة كانت تصعد إلى العربات آنسات وسيدات جميلات جدّا ولابسات زيّ الممرضات ومن يقدّمن القهوة والبطاقات البريدية والورق والظروف لنكتب لآبائنا. لكن يتحدثن معنا ويسألننا إن كنا فرحين بالقدوم إلى فرنسا. "كنا فرحين، حقا". هذا هو جوابنا في حديثنا معهن، ونحن مسحورون بجمالهن ولهجتهن المملوءة بالنضارة.

هكذا بدأنا نتعرف مع فرنسا. في الجزائر كانت الحياة اليومية تضطرنا إلى اتصالات مباشرة مع المعمرين الفرنسيين ولكنها لم تكن دائما سعيدة. كنا نظن أن الاتصالات التي سنعقدها مع شعب فرنسا قد تكون أحسن وأكثر بشرية. كانت هذه الافتراضات هي موضوع حديثنا في القطار. ابتداء من مدينة مارماند طلب منا ضباطنا ترتيب حوائجنا وأن نكون مستعدين. فبينما كانت نهاية السفر تقترب، كنا نتساءل قلقين على ما يفعل بنا ونحن أجانب هذا البلد البعيد. طلع النهار على الخامسة وذلك قبل الوصول بقليل. كان البرد لاذعا ومنعشا. عندما توقف القطار في محطة بوردو، كان هناك حركة كبيرة مع تواجد الجنود تقريبا في كل مكان. كان ضباطنا يوبخوننا لنستيقظ تماما: "هل مازلتم نائمين ؟".

فبمجرد وصولنا إلى الثكنة، قام الملازم باستعراضنا. نظرا للحالة التي كنا فيها، أمر مرؤوسيه أن يرسلونا إلى المرش ثم إعطائنا لمجة جيدة وأن نعطى أربعا وعشرين ساعة من الراحة، وهكذا فإنه ربح محبتنا وامتناننا. وفي الحقيقة كنا فعلا في حاجة إلى راحة من السفر. كان علينا استرجاع قوانا وتنظيم أمورنا وأفكارنا.

فأثناء هذه الراحة لمدة أربع وعشرين ساعة، رتبنا أمورنا في المراقد في ثكنة نهج كورسول وفي الطابق الثاني من البناية القديمة. ثم كان علينا أن نفكر في صلواتنا التي قطعناها مدّة الأيام الستة من السفر وبالتالي القيام بوضوء جدّي. كان لدينا كلنا أسرّة من حديد وأغطية وجهاز كامل. أخذوا عنا البدلات التي سلمت لنا في وهران وسلموا لنا بدلات زرقاء زرقة الأفق، مثل كل المجندين الجدد في تلك الفترة. وبما أننا مررنا من الفصيلة العشرين في وهران إلى الفصيلة 18 في بوردو، فقد وجب علينا عيادة طبية جديدة للالتحاق. كانت ثكنتنا توجد تقريبا في وسط المدينة وفي أحضان الإدارات المدنية والعسكرية. ولكننا لم نستطع الخروج إلى المدينة قبل بعض الأيّام لأننا كنا مودعين.

كان ينبغي لنا أن نستأنف التمارين التي بدأناها في وهران. ومن ناحية أخرى متابعة الإجتماعات التي كان نقيبان فرنسيان يلقنان لنا خلالها الحياة العسكرية. كانا يشرحان لنا أهمية الدفتر العسكري والإنضباط. كانا يعلمان لنا التحيات العسكرية التي كان علينا أن نؤديها لأصحاب الدرجات عندما نلقاهم في المدينة أو في القهوة أو في أمكنة أخرى. وفيما بعد عينوا من بيننا مسؤولين ومن ضمنهم أنا. كنا نقوم بوظيفة عريف دون تقاضي راتب على ذلك. وكي يسمحوا لنا بالإستفادة من الإعتبار لدى الجنود فقد أعطونا ساعدة نجعلها في ذراعنا الأيمن. وهكذا فقد كنا نمارس مسؤولية ثقيلة وشاغلة ليل نهار. فقد طلبت بسرعة إلى الملازم الذي كان مكلفا بنا إذا كان لا يمكن أن نعطى بعض الحقوق الخاصّة لمكافأتنا على مجهوداتنا. وفي جوابه قال لي: "إن هذه الوظيفة لا تضمن لكم أيّ حقّ، فلا تضمن لكم إلاّ القلاقل".

أعطي لنا بنادق من طراز قديم. فتعلمنا تنظيفها ثم فيما بعد استعمالها. إن هذا التوزيع للأسلحة قد أحدث فرحة كبيرة لدى الجزائريين. وفي المرقد مساء يأخذ كل واحد بندقية ويقبلها ويعانقها ويبذل لها كلمات من الحب. فقد كانت الحفلة.

في كل ليلة بعد المناداة، كان بعض الرفاق يتناولون بندقيتهم ويضعونها عند رأس سريرهم وآخرون يضعونها في فراشهم، قربهم وكأنها متزوجة شابّة. كنا نتحدث عن

أهمية الأسلحة في حياة كل واحد. بالسلاح نستطيع أن نحتمي من السراق في رأي أحدهم ونذهب إلى الصيد. وقال آخرون أن السلاح يسمح بالدفاع ضد الطغاة، ضد الذين يدوسون "العدل" بالأقدام. ورفاقنا أبناء الفلاحين كانوا يقولون أن البندقية شيء جيد لمواجهة القياد ونهمهم. والبعض الآخر كانوا يؤكدون أننا نستطيع أن نفكر ما نريد ولكن "أبدا لن يسمح لنا المعمرون أن يكون لدينا بندقية بكل حرية لأنهم منعوا علينا حتى حمل العصي في اليد في يوم السوق". كان الجزائريون يذهبون مستعجلين إلى تمارين استعمال السلاح ولكنهم كانوا كذلك يحبون الرياضة وخاصة الملاكمة والمصارهة. كان أصحابي يودون كذلك تمارين الرماية والمناورات وطلب البعض منهم أن يدمجوا في سلك المحاربين حيث يرون أنه المكان الوحيد الذي يتم فيه تعلم مهنة الجندي.

عندما انتهى التعليم، سمحوا لنا بالخروج بعد العشاء. كنا نذهب في أفواج مكونة من خمسة أشخاص برفقة جندي فرنسي كان علينا أن نطيعه حتى لا نضيع في مدينة بوردو الشاسعة. وفي يوم من الأيام قمنا جماعة بجولة في الضاحية الصغيرة لبورد ولنتعرف على البلد. ولكن وبسرعة تركونا أحرار في تحركتنا. وهذا مما سمح لنا بالقيام بجولات كبيرة. كنا نركب الترام الذي كان يدفع فيه فلس بالنسبة للجندي في تلك الفترة. ثم إني عاودت قراءة الصحافة فقد كنت أشتري مرّة "لاجير وند الصغيرة" و"لافرانس" وهما جريدتان لبورد وكذلك "لوالتان" و"جريدة جيناف" الشهيرة التي كانت تنشر أخبارا عن الجزائر.

كانت علاقاتنا مع الجنود والضباط والسكان المدنيين متميزة بالأدب واللطف. عندما كان يحصل لنا أن نطلب معلومات للرجال أو النساء أو حتى الأطفال كانوا كلهم يستعجلون لخدمتنا. كلما تبادلنا مع هؤلاء الناس بعض الكلمات كانوا يقولون لنا "أنتم" و"سيدي". لم نكن متعودين على مثل هذا الإعتبار في الجزائر. كانت النساء تقلن بينهن أحيانا: "إنهم ما زالوا شبابا هؤلاء الصغار ربما أنهم يتألمون من كونهم أتوا من بعيد جدّا". كان بيننا وبين سكان هذا البلد المحبة والفضول. حقيقة قد كانوا لطفاء، معنا في وهران ولكن القاعدة في الناحية الأخرى من البحر الأبيض كانت المخاطبة بصيغة المفرد والشتم والكلمات البذيئة والعنصرية.

إن موقف سكان بوردو تجاهنا قد غمرنا بسرور لا يوصف. فكأنهم قد نزعوا عنا وزنا ثقيلا من فوق القلب. في المساء كنا نتحدث عن هذا في المرقد قبل انطفاء

الأضواء. فقد كنّا متفقين بالإجماع على ملاحظة الفرق الكبير الموجود بين سلوك المعمرين في الجزائر وسلوك الشعب الفرنسي. ولهذا فإني قد أوصيت رفاقي أن يكون لهم سلوك جيد عرفانا بالجميل للفرنسيين. وبهذه الكيفية بدأنا دون أن نشعر بذلك بإعلام الشعب الفرنسي بالوضعية المؤلمة التي كنا نتعرض لها في بلدنا. فالخدمة العسكرية الواجبة التي فرضت على الجزائريين وأبكت أهلنا قد تصير خيزا في المنظور السياسي.

عن قريب كان علينا أن نغادر ثكنة كورسول إلى معسكر بكلام، في وسط معامل السلاح وأحواض ورشات تصليح السفن. كنا بعيدين عن وسط بوردو وللذهاب إليه كان علينا أن نركب في الترام. فبينما كنت في الغالب أذهب في الصباح إلى الساحة الخماسية الأضلاع لألعب كرة القدم، فقد تعودت على التجوال للتأمل في الأشياء التي لم أرها من ذي قبل. فقد كنت أعبر شارع لانتنداس وساحة غانبيطا وشارع فيردان وممرات توري إلخ... كنت مسحورا بثروات بوردو ومغازاتها الكبرى ومسارحها وظرافة سيداتها وجمال بناتها اللآئي كن يبحثن عن بيع الحبّ ومطاعمها الكبيرة ومقاهيها الكبار. كنت أشعر أن كل كياني ينفتح للذة. كنت أحب الكلام مع الآخرين وأحب الحياة، كل الحياة. لم أكن أحببت أي إنسان ولكن ينبغي القول أني كنت أحب كل الناس. كان يبدو لي أني أسبح في السعادة والحرية. وتساءلت لماذا لم يكن هكذا في تلمسان والجزائر. فقد يتحقق هذا ربما في يوم من الأيام. وبعد فإن الله قادر على كل شيء ويكفي أن نكون نحن مخلوقاته أهلا لذلك.

في معسكر بكلام تعرفت على السيد أليس. إن هذا الضابط الفرنسي كان رئيسي وسيصير مربيا لي ومستشاراً وصديقا حقيقيا. فقد قدم لي كل عائلته وأخذني معه إلى أركشون حيث استطعت السباحة لأول مرّة في المحيط. كان لي معه محادثات عديدة في كل المواضيع وهكذا علمت أنه يكسب معرفة جيدة بالإسلام فقد كان محبّا للأتراك وللإسلام. فقد علمني أشياء كثيرة ووجهني خاصّة إلى القراءة. هو الذي أطلعني على كتاب فرنسيين مثل ألفراد دي موسي وخاصّة بيار لوتي الذي كتب العديد من الكتب المخصصة لتركيا وهو الذي نصحني بقراءة أحد هذه المؤلفات وعنوانه: تركيا المريضة. وقرأت كذلك من نفس الكاتب "أزيادي" و"المخلصين من السحر" و"رواية سبايس" وأخيرا "صياد ايسلاند".

كانت هذه القراءات تأسرني وتلهب مشاعري وذلك نظرا لمظهرها السياسي ومحتواها العاطفي. إنها كانت في الحقيقة تهيجني. "قرازيبيلا" و"أزيادي" و"الليالي" و"لا نستهزئ بالحبّ" و"نزوات ماريان" قراءة هذه العناوين في العشرين من العمر معناه التعرض للعذاب وللمشاعر السّارة والحنان والأوجاع. كنت كذلك أحب كثيرا سماع الموسيقى. فقد تذوقت مباشرة المغنين الواقعيين الفرنسيين الذين كانوا يحركون أعماقي. كما أني كذلك اكتشفت المسرح الغنائي. وذوقي للموسيقى العربية كان ثابتا وتستطيع القول أنه تطور، فقد كنت أبحث في المدينة عن دكاكين الأسطوانات لأستمع إلى الموسيقى العربية الأندلسية.

كان في بوردو مسرحان: "الفرنسي" و"المسرح الكبير". فالآنسة روك والآنسة دوبوي وهما موظفتان في مكاتب المعسكر، نصحتاني بالذهاب إلى "الفرنسي" لمشاهدة مسرحية "مينيوه". إن هذه المسرحية الهزلية حسبهم كانت مستوحاة من غونًا وموسيقاها كانت ساحرة. لأوّل مرّة في حياتي كنت أصعد درجات مسرح. إن الزخارف والمقصورات والرقصات والموسيقى والغناء والجو نفسه كل هذه الأشياء الجديدة بالنسبة لي قد أبهرتني. لم أفهم المعنى العميق للمسرحية ولكني كنت أقول في نفسي : المهم أن كل هذا قد مسني في أعماقي.

كلما تقدمت في اكتشاف المجتمع كلما كنت في حاجة إلى مراجعة معلوماتي الصغيرة. لكي أتقدم أكثر قررت الرجوع إلى النحو الفرنسي والقيام بكتابة بعض الصفحات. ثم إني انصرفت إلى القراءة بكثرة وإلى الحديث مع الناس بدون تردد وإلقاء الأسئلة عليهم. ثم إني ذهبت لتسجيل نفسي في جامعة بوردو كمستمع حر لأتابع دروس العربية والحضور في بعض المحاضرات والدروس العامّة.

جاء شهر جوان بشمسه وأزهاره وفرحة الحياة. بالنسبة لنا نحن المسلمين كان وقتها رمضان شهر نزول القرآن الكريم والذي نقضيه لأول مرّة فوق التراب الفرنسي. وقد كان لي في هذا الشأن لقاء مع السيد أليس. فقد نظرنا في كل المشاكل التي كانت من الممكن أن تطرح باعتبار الضغوطات الدينية. يجب أن نعترف بأن الإدارة قد قامت بمجهود حقيقي للإستجابة لطلباتنا المتعلقة بالعمل والأكل والصلوات. فالأيام بدون أكل كانت طويلة ومضنية ولكن لم يشتك أحد من ذلك. فرغم أنه لم يكن أي واحد ملزما الذي تحدثت به إذا كان مريضا أو على سفر فقد صمنا كلنا باستعجال وتقوى. فندمنا الوحيد هو بعدنا عن البلد والعائلة بهذه المناسبة.

كنت قد تصادقت بسرعة مع البنتين الفرنسيتين اللتين كانتا في مكتب المعسكر الذي تحدثت عنه كانتا من عائلتين متواضعتين ومحترمتين فكانتا ظريفتين ومؤدبتين ولهما تربية جيدة، كل يوم أحد كانت إحداهما في المداومة في المصالح الإدارية. وهكذا فإني استطعت أن أنفرد بهما. وفي هذه المحادثات ينشأ نوع من الألفة التي تدفع المتحادثين إلى مسارات غير متوقعة وأحيانا إلى عناقات غير مفاجئة. إن هذا لم يقع أبدا مع الآنسة ميت روك والتي كنت معها في الواقع صديقا حميما. وبالعكس فإني قد انجذبت بسرعة إلى إيزابيل دوبوي. عيناها الجميلتان، كان لها نظرة لطيفة حتى عندما كانت في حالة غضب ? وإن سحرها قد تملكني. شيئا فشيئا بدأنا نتجوّل مع بعض كثيرا. كل يوم بعد العمل، كنا نذهب معا في الترام قبل أن تدخل عند أهلها، كنا نذهب للجلوس على مقعد أمام حوض صغير في الحديقة العمومية القريبة من ساحة "الكوينكوس". هنا كنا نقضي تقريبا ساعة نتحدث فيها وأقبلها خلالها. كنت أشعر بأني شاب سعيد وفي صلواتي كنت أشكر الله. إن أصحابي الذين كانوا على علم بعلاقاتي مع الآنسة ديبوي كانوا يهزؤون مني بلطف. والسيد أليس كان يقول: "حذار يا صاحبي! ففي عمرك لا نعرف ما نفعل". عندما كانت صديقتي غائبة كنت أذهب لسماع أغانٍ حنينة في "صوت سيّدة" في الباتوفون.

كنا نرى وصول جنود مجازين ومجروحين يأتون إلى المعسكر للقيام بأعمال غير متعبة في انتظار نهاية الحرب. كانوا لاذعين يخبروننا بأشياء مرعبة عن حرب الخنادق والقنبلات ونتائج دخول الطيران في الميدان. ورغم كل هذه البشاعات، كان الحديث دائما عن قرب السلم. كل الناس كانوا يتحدثون عنه ولكنهم لا يعتقدون ذلك كثيرا.

في يوم من أيام أكتوبر 1918 وفي آخر النهار كنت في شارع الأنتاندانس قرب المسرح الكبير لبوردو أقرأ "لابتيت جيراند" وإذا بي أقرأ فجأة أن تركيا بدورها قبلت شروط السلم التي فرضها المتحالفون". كنت مبهوتا وكان حلقي وقلبي منقبضين. وحتّى استرجع أنفاسي، مشيت إلى غاية ساحة "الكوينكونس" حيث جلست على مقعد. هنا وبكل راحة أعَدتُ قراءة المقال عدّة مرات مع أمل اكتشاف توضيحات تزيد الخبر دقّة. مع الأسف فقد كانت فعلا استسلاما. ولم يبق لي إلا الرجوع إلى الله والتوسل إليه لتكون هذه الفاجعة التي وقعت على الإمبراطورية العثمانية فترة سيئة في حياة الإسلام. فرغم الواقع، كنت أتهم في أعماقي الجريدة بالكذب. فبالنسبة لي فإن الأتراك لا يمكن أن يهزموا. وكنت أقول من حين لآخر ولكن بصوت منخفض قليلا

حتى لا يسمعني المارّة: "الله أكبر، الله أكبر" . كان هذا ينفس علي وينفعني كثيرا. وبعد كل هذا كنت أقول في نفسي قد يكون هذا الضرر الكبير متبوعا بخير كبير.

كانت رغبتي كبيرة في أن يشاطرني أصحابي هذا الحزن في المعسكر. وبعد رجوعي سألوني كالعادة : "هل من جديد في العالم وفي بوردو ؟" حينئذ استطعت أن أتكلم بصوت عالٍ عن كل ما كنت أخمن تقريبا في كل العشية. إن أصحابي مثل مئات الآلاف من الجزائريين كانوا أميين في الفرنسية والعربية. كل ما كانوا يعرفونه هو أن تركيا قوة إسلامية عظمى والقسطنطينية هي عاصمتها. ولكن كانوا مؤمنين، يؤمنون بالله. فقد كانت ردة فعلهم بعد سماعي هادئة ومتفائلة. فقد قال أحدهم: "قد وقع هذا الحادث لأن سلوكنا لم يكن سلوك رجال ومسلمين صالحين ووطنيين" . وقد أضاف آخر: "اليوم لهم وغداً لنا، وبعد الليل يأتي النهار" . وقال ثالث: "ماذا تريدون؟ إن الله يختبرنا. فلنكن موحدين ولنكن عادلين ولنساعد الفقراء ونحمي اليتيم وسيأتي يومنا." هذه الكلمات "وسيأتي يومنا" قد سمعتها العديد من المرات فيما يخص تركيا والإسلام منذ سنة 1908 ولم يكن في عمري وقتئذ إلا عشر سنوات. وفي اليوم التالي قال لي السيد أليس: "إن الشعب التركي له ماضٍ كبير، فهو الآن يخضع لضربة من المصير ولكنه سيعرف كيف يتخلص من كل هذا" .

كان يوم التوقيع على الهدنة هو يوم الثلاثاء إن لم تخنّي الذاكرة[1] . كان الجو صافيا وكانت الشمس في الموعد ولكن الهواء كان بارداً. قد وصلنا الخبر في المعسكر في الصبيحة ومباشرة بعد ذلك تم تسريحنا لبقية اليوم. إن وجبة اليوم في الثكنة تم تحسينها وتم كذلك توزيع خمر البوردو. شيئا فشيئا بدأ الناس يغنون الأناشيد الوطنية ويطلقون صيحات مختلفة. بعد الشعار المعروف والمكرر منذ مدّة "سنقضي عليهم" فقد جاء دور شعار آخر: "قضينا عليهم في كل الأعراض" .

وفي العشية مباشرة بعد الأكل وبعد شيء من التنظيف ذهبت إلى ساحة "الكوينكونس" التي كانت مملوءة إلى حدّ الطفو. كان هناك النساء والأطفال والضباط والجنود البسطاء، والسود والصفر والكل يمشي عرضا وطولا يحرك الأيدي في الصياح والنشيد. من "لامادلون" إلى "لامارسياز" فكل الأناشيد الوطنية تغنى. إن

---

(1) إن هدنة ريتوند قد تم التوقيع عليها في ليلة 10 إلى 11 من نوفمبر 1918 و11 نوفمبر هو يوم إثنين.

مجموعات من المدنيين والجنود كانوا يجرون في كل الإتجاهات ويتوقفون أمام النساء ليقبلوهن بلطف. وقد ساهمت بقلب منشرح في هذا اليوم وجزءا من الليل في هذه الإحتفالات التي تذكر بالتخلص من حرب قد دامت زمنا طويلا وخلفت العديد من الضحايا. ولكن عند اقتراب الصباح ومع دخولي في المعسكر قلت في نفسي: "ها إن الحرب قد وضعت أوزارها والفرنسيون فرحون وسعداء وكذلك حلفاؤهم. فهل يجب أن أكون مثلهم وأن أفرح بنفس الكيفية؟ لا!" إن ردة الفعل هذه قد أتتني في نفس الوقت مع أفكار حول مصير تركيا. ماذا ستصير بعد هزيمتها؟ إنّي أتصور دخول الجيوش المتحالفة في القسطنطينية. ونحن الجزائريون، ما هو مصيرنا ؟ من يفكر فينا خلال المفاوضات التي ستتبع الهدنة ؟.

فبفضل عودة السلم فقد صار من حقي في فبراير من سنة 1919 الرجوع إلى الجزائر. إن هذه الإجازة الأولى كانت مبدئيا محدودة إلى 12 يوما ولكني تحايلت لإطالتها قليلا. فقد كنت مغمورا بالفرح عندما أخبرت بذهابي القريب إلى درجة أني كتبت في الحين إلى عائلتي وقلت لهم أن اليومين الأولين أريد أن أنام بين أمّي العزيزة وأبي الطيب لأكون أقرب ما يمكن إليهما. إن ردة الفعل هذه قد تكون مفاجئة من طرف شاب عمره عشرون سنة ولكن حبّ الوالدين لا يناقش.

فمنذ الأيام الأولى قد كان لي محادثات كثيرة مع والديّ ومع أصدقائي في الزاوية. فخلال سهرة سألني أبي عدّة أسئلة: "ما هي فرنسا ؟ ما هي الهدنة ؟ ما هو مصير تركيا؟" كان خاصة يريد أن يعرف إذا كانت فرنسا قوّة عظمى وإذا كان الفرنسيون لطفاء وماذا يفكرون عن العرب وعن تركيا. وفي هذا الموضوع الأخير أجبت أبي أن الفرنسيين كأفراد ليس لهم حقد على تركيا ولكن يتأسفون لدخولها في الحرب إلى جانب الألمان. لم يكن أبي راضيا بجوابي إذ أكمل الحديث بقوله: "إن يد الله فوق خصوم تركيا". أما أصدقائي في الزاوية فقد كانوا من جهتهم مقتنعين بأن تركيا ستنتعش وتسترجع مكانة كبيرة بين الأمم. وكنت متفقا مع رأيهم. كانوا كذلك يسألونني عن الحياة في فرنسا. وكانوا قد وافقوا على سلوكي وارتباطي الوثيق بالمبادئ الإسلامية. إن ممارستي الدينية لم ترتخ أبدا وبالفعل خلال إقامتي بفرنسا. فإني كنت مندهشا في بوردو عندما أسمع الشتائم وبعض الإنتقادات في حق الله وعباده تخرج من أفواه الفرنسيين.

فقد رأيت كذلك رفاقي في القسم. إن مصير ومستقبل تركيا كان يهمهم كثيرا هم كذلك إلى أقصى درجة. ولكن وكما كان من المنتظر لأن الشباب لهم اهتماماتهم فقد سألني البعض يعني المتهورين عن الفرنسيات وهل كن جميلات وإذا لم يكن لهن رأيا اعتباطيا تجاه الجزائريين. وبعد هذا زرت رفاقا فرنسيين من نهج سيدي بلعباس. فقد كان الحديث يذهب من موضوع إلى آخر على طريقة الأقدام السود: "هل أنت فرحان في فرنسا؟ هل لك السرّ للنجاح في الجيش؟ متى ستكون عريفا أو جنرالا؟ والبنات، هل أنت مرتاح هناك؟ قد يكون لك هناك إمرأة صغيرة. أنت محظوظ بذهابك إلى فرنسا."

أصحابي اليهود من الحيّ كانوا لا يتفاعلون مثل الفرنسيين لأنهم كانوا متدينين وممارسين. فقد كانوا أكثر احتراما للأعراف. خلال لقاءاتنا الجماعية أو الفردية كان الحديث يدور حول صحتي ووضعيتي المدنية والعسكرية ومدّة إقامتي في فرنسا والآفاق المستقبلية بعد نهاية الحرب: والنساء اليهوديات اللاتي رأينني طفلا في الحيّ كن يأتين أمامي لتحيتي باستعجال ويقلن لي كلمات طيبة وتحدثت إحداهن عن ولدها داود وهو صديق في الصبا وأخبرتني أنه خياط وهي شخصيا قد كانت تبيع التبن وزوجها كان إسكافيا في نهج سيدي بلعباس. والنساء اليهوديات كن يلبسن تقريبا مثل العربيات. وقد كانت علاقاتنا مع اليهود بصفة عامّة إنسانية وودية حتّى ولو كان هناك شيئ من الإنزعاج بسبب مرسوم كريميو الذي أعطى لليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية سنة 1870.

أما خلال لقاءاتي مع أصدقائي الحرفيين الذين خصصت لهم يومين من الزيارة وقد كان سؤال غالبا ما يكرر: "ماذا يفكرون عنا في فرنسا الآن وقد انتهت الحرب ؟ أنت الذي قضيت سنة في ذلك البلد، ماذا تعرف عنه؟ وهل فرنسا ستعترف بحقوقنا؟" إن هذا السؤال عن "حقوقنا" إذا صار فيه إلحاح ليس جديداً. فقد سمعت الحديث عن هذا المطلب منذ سنة 1910-1911. لم أستطع ألا أقول شيئا. بينما كان يقدم لي الشاي بالنعناع والسفنج إكراما لزيارتي في الدكاكين أو المصانع، كنت أجيب أن هذا المشكل المعلق "بحقوقنا" لم يكن في الوقت الحاضر في جدول الأعمال ولكن الحكومة الفرنسية ستطرحه في يوم من الأيام.[1]

(1) في هذا التاريخ، قد منع البرلمان الفرنسي للمسلمين الجزائريين إصلاحا حول التجنيس والتمثيل. وقد اعتبرها المعمرون غير مقبولة: "قانون جونار المسوّوم المؤرخ في 4 فبراير 1919".

ففي أي مكان كنت أذهب، كانوا يسألونني عن "حقوقنا" وعن الندوة حول السلام التي كانت منعقدة في فرساي بحضور الرئيس الأمريكي ويلسون منذ شهر يناير. هذه المحادثات كانت موضع افتراضات وكان التلفون العربي يشتغل بكل قواه. فبمجرد ما يرسل أحدهم خبرا ما يتعلق بندوة السلام، فإن هذا الخبر كان يلف بالمدينة في ظرف قصير جدًا. كلما قذف أحدهم كذبة أضاف إليها "هذا رسمي". فقد نسب إلى رئيس الولايات المتحدة إرادته للتدخل لصالح تركيا والعرب وإفريقيا الشمالية. فقد كان عاديا أن تسمع الناس يعلقون على "الأربعة عشر نقطة للرئيس ويلسون" التي كانت تتحدث عن حق الشعوب في تقرير مصيرها. فإن مواطني كانوا يعتبرون رغباتهم حقيقة، إلاّ أن المشاركة العامّة في المناقشات السّياسية تثبت أن مستقبل الجزائر كان يهمهم إلى أقصى درجة.

وإذا كان علينا أن نحكم حسب ما يجري في مدينتنا الصغيرة تلمسان، يمكن أن نفترض أن ذلك يجري بنفس الحدة وعلى سلّم أكبر في الجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران. إن المطالب والاحتجاجات وآمال هؤلاء وأولئك تنتشر بسرعة عبر البلد لأن الجزائريين، خلال الحرب وبصفة كثيفة بعدها، صاروا يسافرون بكثرة. ففي الوقت الذي كانوا يتعاملون فيه تجاريا فإنهم كانوا ينشرون الأفكار. إن الحرب قد ألحقت الضرر بكل الناس بما في ذلك الجزائريون الذين خلفوا مئات الآلاف من أبنائهم وإخوانهم في ساحات المعارك في فرنسا وغيرها[1]. ولكنها، أعني الحرب قد ربطت بين ملايين البشر من أجناس وديانات مختلفة وفي المستوى الاقتصادي فإنها ساهمت في إنشاء بورجوازية جديدة. كل شيء كان يتحرك معًا، حركات الأفكار والتجارة والحرب. في مدينتنا تلمسان صار بعض الفلاحين والحرفيين والبقالين الصغار والطباخين في ظرف بعض سنين رجال أعمال يسافرون ويبيعون ويشترون السلع وراء الجبال المحيطة بتلمسان. إن هذه البرجوازية الصغيرة ستعطي فيما بعد أجيالا تلتحق بسرعة بالمدرسة الفرنسية أو العربية بالحركات السياسية.

إن الجزائريين في تلك الفترة كانوا يضعون كل أملهم في الله خاصّة. كنا نقول أن الله وحده أو معجزة يستطيعان إخراجنا من وضعيتنا. وفيما يخص المعجزات، كان الكبار يؤكدون أنه في كل مائة عام يأتي رجل لتخليص العالم الإسلامي.

---

(1) حسب وزارة الدفاع، فإن عدد المسلمين الجزائريين الذين ماتوا من أجل فرنسا قد بلغ 19075 وعدد الذين فقدوا 6096 أي مجموع 25171. وحسب دراسة إدارية فقد جرح 72035 شخصا من بينهم 8779 مهطوبا.

فشعراؤنا الأموات والأحياء كانوا يثبتون ذلك. كنا إذن نأمل دائما مجيء هذا الرجل الذي يحرر مخلوقات الله المظلومة.

وخلال إجازة ثانية إلى تلمسان في أغسطس 1919، لاحظت أكثر من المرة الأولى نموّ البرجوازية. ليس لي أي مأخذ على البرجوازية. فوجودها هو مظهر إقتصادي له أثره مثل غيره في حياة الشعب. فهي ليست غير عادية وليست مستهجنة بل بالعكس، إنها تعكس تطورا وتقدما اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا قد يكون له أثر سعيد ومحرض على المستقبل. ومع هذا فلا ينبغي أن نضيع من بين أعيننا في بلد مثل الجزائر أن البرجوازية الناشئة تميل نحو الإدارة الاستعمارية خوفا على فقد وضعيتها وثرواتها سواء تم جمعها بنزاهة أولا. ولهذا فإنها كان عليها أن تتحرك ضد الريح.

وفي شهر أغسطس يرجع العديد من التلمسانيين المقيمين في الخارج إلى مدينتنا حيث تطيب الحياة. فالأساتذة والمعلمون والطلبة والقضاة والمفاتي والتجار المهاجرين في الشرق الجزائري وفرنسا أو في المغرب، كلهم كانوا سعداء بانغماسهم من جديد في جو مسقط رأسهم. كنا نراهم يتجولون في المدينة وفي الحدائق العمومية وعند أصدقائهم من التجار. كان الطلبة يتجمعون بكثرة في ساحة البلدية. كنا ننظر إلى هؤلاء الرجال بإعجاب وتقدير. كانوا يمثلون نخبة مدينتنا وكنا نفكر أنهم يستطيعون الدفاع عنا لأنهم كانوا في الغالب موظفين. نحن نعتقد بقوة أن المشاكل التي كانت تشغلنا كانت كذلك موضوعا لمناقشاتهم. كنا بعيدين عن الواقع لأن هذه النخبة كانت تفكر في نفسها. فمن المؤكد أنها كانت تناقش المشاكل الحالية عن تركيا والعالم الإسلامي مثل سواد الشعب. ولكن قبل كل شيء كان كل واحد يريد الدفاع عن وضعيته في الإدارة والمحافظة على تجارته.

في هذا الوقت تم التفكير في منح حق الاقتراع إلى شرائح جديدة من السكان لانتخاب ممثليهم في المجلس البلدي وفي المجلس الجهوي وفي المفوضيات المالية. إن هذه المبادرة التي اعتبرناها حدثا تاريخيا تم تقديمها من طرف الحكومة على أساس أنها مكافأة للأهالي الذين تصرفوا كالأبطال خلال الحرب 1914-1918. إن هذه الالتفاتة اللطيفة التي لم يكن لها أهمية من المنظور السياسي إلاّ أنها أحرزت أثرا عميقا في كل القطر الجزائري[1]. فالشعب الذي أعطى لهذه اللفتة قيمة تفوق المستحق، ظن

(1) إن الهيئة الانتخابية في البلديات ذلت الممارسة الكاملة مرّت من 000 57 إلى 000 90 وتبلغ 000 103 لانتخاب المستشارين العامّين والمفوضيات المالية مقابل 090 5 قبل 1914. في المجموع ستبلغ الهيئة الإنتخابية البلدية، بما في ذلك المنتخبون للجماعة في البلدية المختلطة، في المجموع 000 421 رجلا.

أن هذا الإجراء قد ينهي كل الجور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي الذي كان ضحيته. بدأ يرى أن التعامل سيتم على قدم المساواة بينه وبين الأوربيين. وهكذا فإنه سرعان ما تصيبه خيبة الأمل. فالمعمرون الذين لا يريدون تحسين وضعية الجزائريين قد كانت ردة فعلهم عنيفة على هذه اللفتة التي قامت بها الحكومة. فالمعمرون والمستعمرون ولأسباب متعارضة أظهروا إذن غضبا كبيراً.

وفي بداية 1920، عينت عريفا. ولكن عملي الرسمي ليس ما تمليه الدرجة وإنما صرت بطبيعة الحال ترجمانا ومراقبا. في العديد من المرات كانت تتم مناداتي هنا وهناك في مختلف المصالح لأذلل الصعوبات المتعلقة برفاقي. ثم بعد مدّة عينت في درجة رقيب وقد سرني التعيين فقد تَحسَّنَت وضعيتي ولم أعد أنام في المرقد مع رفاقي فقد صار لدي الحق في بيت لوحدي فيه مكتب صغير. لم أعد آكل في الجفنة إذ صرت أتناول وجباتي في مطعم الضباط الفرعيين. وفي مخزن الملابس، أعطيت لي ملابس فيها شريط الرقيب وأحذية وحافظات الساقين المخصصة للرتباء. فبعد عملي صرت الآن حرّا إلى غاية منتصف الليل. وكان عليّ أن أقوم مرّة أو مرتين في الشهر بخدمة رقيب الأسبوع.

فقد صار لي أصحاب بين الرتباء الفرنسيين. فقد أخبرتهم بعدم رضاي تجاه الظلم الذي كنت ضحيته وأخبرتهم بنيتي في رفع احتجاج إلى السلطات العسكرية. فبعد تعييني رقيبا، لاحظت أني لا أتقاضى راتبا مثل الفرنسيين. كنت أتقاضى فرنكا ونصف بينما رفيقي الفرنسي من نفس العمر يتقاضى سبعة فرنكات. فقد شجعتني الجماعة الصغيرة من الرفقاء على الكتابة إلى الجنرال قائد الفوقة 18 من الجيش في بوردو فحضرت نصا ولكنهم وجدوا أني كنت أستعمل لهجة غير لائقة. قالوا لي بأن هذا قد يغضب الإدارة العسكرية. وبالتالي فإني أدخلت تغييرات طفيفة على رسالة الاحتجاج. وقد تسلمت شهرا بعد ذلك جوابا: فقد كان عدم قبول الدعوى محررا طبق القوانين العسكرية ولكن دون عنف. فقد قيل لي إن صفتي كأهلي تمنعني من التمتع بكل حقوق الفرنسيين. إن بعض رفاقي الفرنسيين قالوا لي وقتها أنهم يستنكرون هذه العدالة التي لها أوزان وأثقال مختلفة. وفيما يخصني لم أر غرابة في ذلك.

بعض الأيام بعد ذلك وبعد تفكير عميق جمعت بعض المواطنين وأخبرتهم بالمساعي التي قمت بها لدى السلطات العسكرية والنتائج النهائية لتلك المساعي. فقد كانت ردة فعلهم حادّة إلى درجة العنف. وإن أصدقائي الفرنسيين خارج الثكنة

ردّة فعلهم جميعا واضحة جدّا. كانوا يقولون لماذا قمنا بهذه الحرب ولماذا نكتب فوق الجدران: "حرية، مساواة وأخوّة"؟ وفيما يخصني فقد صعب علي فهم معاني قانون الأهالي الذي كبدني هذا الظلم. كل هذا كان يزعجني. وعند عدم وجود شرح يرضيني كنت أظن ببساطة: قد أحدث قانون الأهالي ليطبق علينا نظاما خاصا وكأننا برص وذلك لا لشيء إلاّ لأننا عرب ومسلمون.

في أحد أيام ربيع 1920، وقع نظري على عناوين كبيرة لجريدة لم أكن قرأتها من ذي قبل، "اليومانيتي". فقد لسعني فضولي لسعة حادّة، فاشتريت الجريدة وذهبت لارتاح في حضيرة العلف لأطلع عليها. وكنت مستعجلا لقراءتها لأن العناوين التي جلبت انتباهي كانت تخص تركيا وسوريا بلاد فارس ونواح أخرى من الشرق. وكان كذلك الحديث فيها عن مصطفى كمال وعدم التفاهم بينه وبين الحلفاء الذين اقتسموا أجزاء من تراب الامبراطورية العثمانية، "الرجل المريض" في الشرق. فقد صعب عليّ فرز هذا الخليط لأفهم الوضعية بوضوح ولكن كل هذه الأنباء كانت تثيرني.

منذ ذلك الوقت صرت أقرأ "اليومانيتي" ثلاثة أو أربع مرات في الأسبوع. وفي يوم من الأيام وأنا أمام دكان الجرائد العادي قرب محطة الجنوب، وبعد أن انتظرت دوري، طلبت بصفة طبيعية إلى بائعة الجرائد: "من فضلك سيدتي ناوليني "اليومانيتي"" فبمجرد النطق بهذا العنوان، التفت كل الأشخاص الذين كانوا هنا ليحدقوا فيّ باندهاش. وكان هذا قد أزعجني ولكني لم أتوصل لفهم سبب موقفهم هذا. ومنذ ذلك الوقت كنت كلما أذهب لشراء جرائدي، أحدثت نفس ردة الفعل عندما أطلب "اليومانيتي". فانتهى بي الأمر إلى الحديث بذلك مع محيطي. فقد كانت الآراء منقسمة ولكنها كانت كلها تذهب نوعا ما إلى نفس الاتجاه. كانوا يقولون لي: "إن ضابطا من الرتباء ليس له الحق في قراءة جريدة تتحدث دائما عن الاضرابات وتشتم الجيش الفرنسي". أو: "هذه جريدة اشتراكية وهي ضدّ الوطنية والذي يقرؤها يمكن أن يعاقب أو أن يخلع من رتبته". وكان آخرون يؤكدون أن "اليومانيتي" كانت جريدة الشعب والعمال والمساكين. هاتان الكلمتان "العمال" و"الفقراء" كان لهما صدى في مسمعي. ومنذئذ كانت مودتي مكسوبة لتلك الجريدة ولو أن قراءتها كانت صعبة. ولهذا كنت أقرأ فيها الأعمدة المتعلقة بالشرق العربي الإسلامي.

فقد كثر اهتمامي باضراب السكة الحديدية في ربيع سنة 1920. "اليومانيتي" وهو لسان طبقة العمال كان يتحدث بإسهاب عن مطالب المضربين. فبالنسبة

للجزائريين إن إضراب السكة الحديدية هذا كان يمثل بالنسبة لهم شيئا غير مسبوق البتة. لم نحضر أبدا إلى حركة مثل هذه، خاصة وأن أغلبيتنا من أصل ريفي وأنه أمام المعمرين لم يكن أبدا في الحسبان أن يرفع سلاحا مثل هذا.

فقد كنا لا نفهم بالضبط ماهية الإضراب. كنا نعرف فقط أن المضربين توقفوا عن العمل للحصول على زيادة في الأجور. كنا نجهل كل شيء عن الفكر النقابي إذ كنا نعتقد بكل بساطة أن العمال يتوقفون من تلقاء أنفسهم عن العمل، دون أن يكونوا في حاجة إلى مسيرين أو إلى منظمة كاملة. يبدو لي أني أتذكر أننا وضعنا في ثكنة بريان تحت التصرف مدة الاضراب وأن بعض رفاقنا قد أرسلوا، مسلحين والخوذات على رؤوسهم، إلى الأرصفة وفي المخازن لحراسة أمتعة الجيش.

كنا نظن أننا وحدنا كجزائريين نتألم من السلطات الفرنسية. إن حكايات المضربين وزوجاتهم قد كذبونا. إن جريدة "اليومانيتي" التي كانت تدافع عنهم، كانت تشرح مصير المساكين من الطبقة الشغيلة وخيبات أملها منذ نهاية الحرب. قيل أن العمّال كانوا منخدعين. كانوا يعتقدون أنهم بعد كل الشقاوة التي تحملوها خلال السنين العديدة قد يكون بدورهم لهم حياة محتشمة وعادلة. وبالفعل فقد كنا لا نفهم لماذا لم تتخذ فرنسا موقفا متفهما أكثر ومتسما بالعدالة وعرفان الجميل تجاه أبنائها الذين حاربوا بشجاعة لتخليص وطنهم وذلك مدة أربع سنين.

عندما انتهت اضرابات السكك الحديدية[1]، تحدثنا فيما بيننا عن هذا المشكل مع أصحابي في غرفتي. إن أحدنا استنتج خلاصة متشائمة من هذا الحدث: "إذا كان هؤلاء العمال الفرنسيون الذين لم يمض زمن طويل عن حربهم للدفاع عن ترابهم وعن حرياتهم في ظروف بشعة، قد تحتم عليهم القيام بإضراب عام للحصول على حقهم، علينا نحن، مع كوننا أهال، أن نتوقع عدم سماعنا البتة". ولكن أحد إخواننا ردّ عليه بلهجة فيها شيء من الغضب بعد وقت من الصمت: "إن العدل بين يدي الله الواحد ورب العالمين، إن مخلوقاته عليها أن تتحرك لتكون أهلا لكرمه ولعدله. إن هذا التدخل قد سمح للمواطنين بمتابعة حديثهم دون الالتجاء إلى التشاؤم.

(1) إضراب عمال السكك الحديدية الذي كان يرمي إلى "تأميم النقل بالسكك الحديدية" بدأ رمزيا أول مايو وكان مدعوما بالعديد من الاتحاديات العمالية إلى غاية 21 مايو. ورجع عمال السكك الحديدية إلى العمل يوم 28 مايو.

فقد كنت مع رفاقي معجبين في الجرائد الملونة التي كنا نشتريها في فرنسا بالجنود الأتراك في زيهم الحربي وبصورة مصطفى كمال. كنا نقطع صورهم بفرح متزايد ونحملها فوقنا وكأنها حروز. عندما كنا نلتقي أثناء تجوالنا في بوردو مع مواطنين جنود من فرق أخرى كنا يُقبل بعضنا بعضا ونفرح باللقاء. وبهذه المناسبة كنا نتوجه إلى المقهى لنشرب قهوات ونتبادل الأفكار ونُعَبِّر عن سرورنا بهذا اللقاء. كنا لا نشعر بأن المشاعر الوطنية تحركنا. ففي محادثاتنا في فرنسا، كنا لا نستعمل أبدا كلمة "الوطنية" كنا نقول فقد وللتعبير عن مشاعرنا خلال المناقشات: "حب الوطن من الإيمان". فبعد ثلاث سنين من الإقامة في فرنسا، في نهاية سنة 1920، لم أعد أنا مصالي الحاج الذي كان قبل الحرب. فقد صرت شخصا آخر. وقد تبدّى لي حينها أن مدينة تلمسان الصغيرة لا يمكنها أن تكفيني كفضاء. ففي بوردو قد صارت لي عادات جديدة. بالإضافة إلى الصحافة كنت أقرأ كتبا بانتظام وأتابع دروسا في اللغة بصفتي مستمعا حرّا. كنت أحب الاستماع إلى الموسيقى والذهاب إلى المسرح وقراءة الشعر والسفر في نواحي بوردو. وقد صرت كثير الاهتمام بالشرق. كنت أتخيل جاذبيته وسحره من خلال قصة ألف ليلة وليلة وكتب بيار لوطي. كنت أتابع الأحداث السياسية الدولية كما أهتم بصفة خاصّة بتقسيم العالم العربي الإسلامي وإلى الوضعية في شمال إفريقيا. فالرياضة بصفة عامّة ما زالت تجلبني ولكنها لم تبق هوى يشد النفس.

كنت دائما فقيرا ووالدي كذلك ولكن لم يكن لي أيّ مركب في هذا الموضوع. فدون البحث عن عالم الثرء، لم أرد الاستسلام أو التخلي عن ملذات الحياة وعن حصتي من السعادة في هذه الأرض. لم يكن لدي حينئذ أي طموح بعينه ولكني كنت أشعر أني مليء بالشجاعة وكان لدي استعداد قوي للمقاومة. لم يكن لدي أيّ شيء من "ابن أبيه" (أي المدلل). فقد كنت حساسا جدّا وعاطفيا. وبالتالي فقد كنت أرد الفعل مباشرة عند التعرض لأيّ ظلم. وقد صرت أحب النساء أكثر فأكثر، وأحب دردشتهن ومجتمعهن. لقد عشت عشقا عابرًا مرارًا ولكن دون حبّ.

بَدأت مع أصحابي تحضير عودتنا إلى الجزائر التي أخبرنا أنها قريبة. فقد ذهبنا لشراء بعض الحاجات في مغازات نهج سانت كاترين وفي سوق الخردة حيث لاحظ بعض أصحابي أن بعض الأشياء للبيع كانت تستهويهم كثيرا. والمقصود بذلك اللكمة الأمريكية وسكاكين ذات فتح خاص ومسدسات. ربما كانوا يفكرون أن هذه الأشياء كانت ذات فائدة لهم على أساس أنها وسائل دفاع. وفيما يخصني كان عليّ

أن أتم مراسلاتي. فقد كانت فعلا هامّة جدّا إذ أنه بالإضافة إلى الرسائل التي كانت تعطي الأخبار لعائلتي، كنت أتبادل الرسائل مع أصدقاء فرنسيين. إن هذه المراسلة كانت تمثل في ذهني كيفية مريحة لتعلم الفرنسية.

فقبيل ذهابنا بقليل تم انتخاب رئيس جمهورية جديد لتعويض بول ديشانيل. فكانت صحافة بوردو تتحدث بإسهاب عن هذا الحدث الذي تلا الحادث الذي نعرفه[1]. وقد تم انتخاب السيد ميليران بانتصار عظيم حسب قولهم. كنا نأمل أن يتحرك بكيفية أسعد من سابقه للدفاع عنا وصدّ مطالب المعمرين الفرنسيين.

في نهاية سنة 1920، تركنا الحياة الهادئة التي كنا نعيشها لنعود إلى الجزائر. عند وصولنا إلى وهران أحسسنا بما تركناه خلفنا في الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط: ثلاث سنين من شبابنا وذكريات وحبّ وآمال كبيرة. فقد كنت مدللاً من طرف عائلتي مدة شهر كامل وكذلك من طرف أقربائي الآخرين وأصدقائي ورفاقي. في الواقع كنت في إجازة ما قبل الخروج ولهذا كنت أخرج من حين لآخر بزي الرقيب[2]. إن بعض رفاقي كانوا فخورين برؤيتي في البدلة العسكرية وكانوا يقولون بأني أشبه الجنود الترك التابعين لمصطفى كمال باشا. أما الفرنسيون والفنرسيات الساكنات في الحي والذين كانوا يعرفونني، كانوا ينظرون إليّ بنوع من التطفّل. وفي المدينة كانوا يظنون بأني أوربّي.

عاودت قراءة الصّحافة لمتابعة الأحداث جيّدا لأتمكن من خدمة أصدقائي. إن الحرب قد انتهت في فرنسا ولكن الوضعية بقيت متحركة في الشرق وفي المغرب حيث بدأ الفرنسيون يتكلمون عن "دخول مسالم". كان عليّ أن أجد عملا. كانت أمّي تريد ان أعود إلى منصبي كعامل في المغازة، حانوت الحاج الدين. لكن كان لدي أفكار أخرى في الذهن. كنت أريد السفر رؤية البلاد والذهاب إلى الشرق أو إلى باريس. وبما أن ذلك لم يكن ممكنا في الأجل القصير، قررت البقاء في تلمسان ولكن دون القيام بأي عمل بالضبط. فانتهزت فرصة الوقت الفارغ لمساعدة أهلي وخاصّة أبي. ثم رجعت كذلك للرياضة وللتردد أكثر فأكثر إلى الزاوية.

---

(1) بعد العديد من النوبات العصبية، انتهى الأمر بديشانيل إلى تقديم استقالته يوم 21 سبتمبر 1920 ولم يمت إلا في سنة 1922.

(2) حسب ملفه، فإن "مصالي بي احمد بن الحاج" قد تم تجنيده يوم 27 فبراير 1918 وحرر يوم 23 فبراير 1921 بدرجة رقيب.

أثناء الأشهر الأولى من سنة 1921 رجع إلى تلمسان عدد من العائلات التي كانت هاجرت سنتي 1910-1911 للاحتجاج ضد الخدمة العسكرية. كان هؤلاء الناس محروسين من طرف الشرطة ولكن هذا لا يمنعهم من كثرة الحديث عن سحر الشرق وعن القوة المعنوية لتركيا وعن نهوض العالم العربي. كانوا يتحدثون بتفاصيل صغيرة عن حرب 1914 في الشرق وكانوا يبرزون قوة الإسلام وعظمة مستقبله. كان هؤلاء المهاجرون ينتمون تقريبا إلى كل العائلات التلمسانية ودون أن يعلموا بذلك فإنهم كانوا ينشرون الأمل في أحضان كل السكان. إن جولاتي في أعالي المدينة وترددي على قهوة بن سماعيل قد سمحت لي بلقاء عدد من هؤلاء المهاجرين. فقد ربطت علاقة صداقة خاصّة مع ثلاثة منهم: محمّد ذيب وجلول ذيب ومحمد بادسي. إن هذا الأخير كان قد تزوج من تركية قد رافقته عندما رجع إلى تلمسان. كان هو وزوجته قد ضجرا من الجزائر وكانا يفكران في الرجوع إلى سميرن (إزمير).

كان البرد قارسا في تلمسان في هذا الشتاء. كانت الثلوج تسقط حتى لو كانت السماء ليلا مقمرة وصافية. كانت منازلنا باردة جدّا لأنه لم يكن لدينا تسخين. كان طعامنا يطهى على فَحْم الخشب في نوع من المجامر ولم يكن لنا إلاّ الجمر من المحروق ليسخننا. لحسن الحظ كان لدينا جلود أغنام وزرابي من صوف وحصائر من الحلفة وبطانيات دافئة وعندما يقترب الشتاء كان يتم تغطية جدران الغرفة الجماعية. وبفضل بُسْتان الصفصاف كانت لنا مدّخرات لكل السنة. كانت تغذينا من تين جاف وجوز وزيت الزيتون وخضر مصبرة وشعير ودقيق الدرة. وكان كذلك لدينا القديد، يعني اللحم المجفف الذي هو ذو بنة جيدة. إن هذه التغذية الجيدة كانت تساعدنا كثيرا على مقاومة ضراوة البرد القارس.

بقي في الدار أربعة أفراد. فباستثناء أختي الصغيرة والجميلة زليخة وأنا، فالأطفال الآخرون قد تزوجوا كلهم ولديهم هم بدورهم أبناء. فقد رحل والديّ عندما كنت في فرنسا، ونحن الآن نسكن في الحيّ الذي ولدت فيه منزل هو ملك لـ "باردينو" وهي عائلة كبيرة وشريفة كانت تحبنا جيدا. كنا ندفع 20 فرنك في الشهر وكان أبي يجد هذا السعر مرتفعا. ولكن نستعمل ضوء الكهرباء لأول مرّة في حياتنا.

لقد أصبت بوباء الزكام الاسباني الذي فتك بالناس في هذه السنة. داوتني أمّي وأخواتي وحدهن. لم أتناول أيّ دواء ولم آخذ أيّ عناية من طبيب فرنسي. إن إدوية النساء التي عالجتني بها انتهت إلى شفائي. فقد كان في تلمسان على الأقل عشرة

موتى في اليوم وكان الناس مفجوعين بهذا المرض الذي تطور كالصاعقة. كنا نعتبر أن المريض الذي يتجاوز حدّ ثلاثة أيام بعد ظهور الأعراض قد تخلّص منه.

ثم كان هناك في مدينة تلمسان وباء الطاعون. وكانت الإدارة قد قررت إدخال كل المرضى إلى المستشفى للقضاء على العدوى وطُلبَ من التلمسانيين التصريح بسرعة بالأشخاص المصابين. ولكن لم يمتثل أي واحد لهذا الطلب لأن السكان لم يكن لهم الثقة في المستشفيات. لأن الإشاعة كانت تقول أن المرضى كان يقضى عليهم بمجرد دخولهم المستشفى. كان الممرضون يمرون في أحيائنا ويقرعون الأبواب طالبين إن كان هناك مرضى. ولكن الناس كانوا يبقون أبوابهم مغلوقة ويجيبون من الداخل: "ليس عندنا مريض!".

إن انتخابات المجلس البلدي والمجلس الجهوي والمفوضيات المالية كان ينبغي أن تندرج قريبا. وكان هذا الحدث ينبئ بحملة انتخابية كبيرة في الأشهر القادمة. كانت هذه الانتخابات فيها مواجهات بين جماعات. والشعب الذي ليست له أي معلومة يتبع هذه الجماعة أو تلك. إن المنافسة الانتخابية لا توقظ انقسام السكان فقط ولكنها ستعيد إلى السطح المسألة الخالدة للنزاع بين الكراغلة والحضر.

والكراغلة[1] كما يقولون هم من أصل عربي وتركي في نفس الوقت. ولم يكن هناك أي شيء مدهش لأن الأتراك قد تربعوا في شمال إفريقيا لإدارة البلاد باسم الخلافة[2]. في الوقت الذي عوضوا فيه الخلافة العباسية التي بدورها قلبت الخلافة الأموية. وهكذا فإن الامبراطورية العربية قد التبست بالامبراطورية العثمانية إلى غاية مجيء مصطفى كمال باشا. منذئذ لم يبق هناك امبراطورية عربية ولكن فقط دول متفرقة. والكلمة العربية حضري تعني ببساطة ساكن المدينة مقابل الكلمة بدوي. فالمعارضة بين الكرغلي والحضري كانت حقيقية إلا أنها سطحية. ولم تعد المسألة إلا بمناسبة الانتخابات أو عندما تكون هناك فوائد في الساحة. وفي بقية الوقت لا تكون المدينة إلاّ عائلة واحدة.

(1) الكلمة من أصل تركي وتشير إلى الأطفال الناتجين عن زواج الجنود العثمانيين بنساء جزائريات.
(2) فالمغرب وحده هو الذي لم يكن تحت الحكم العثماني.

في كل العائلات ليس هناك كلام إلا على النجاح الذي أحرزه الأتراك ضد اليونان. كان الناس يحملون في محافظهم صورة الأبطال الأتراك مصطفى كمال وعصمت باشا. كان مسافرون راجعون من تونس يحكون أن هناك مظاهرات طافت بصور لمصطفى كمال وكان السكان يرشون هذه الصور بالعطور ويلقون عليها الأزهار. وكانت المساجد ملآ بالمصلين الذين كانوا يقومون بصلوات خاصّة من أجل انتصار الجيوش التركية. إن المعركة الكبرى التي كانت تدور رحاها على هضبة الأنضول منذ عدّة أسابيع. في كل مكان في البلدان الإسلامية، كان الناس ينتظرون نهايتها بقلق كبير. كان التلمسانيون رجالاً ونساء وأطفالاً يتوسلون بدعواتهم إلى الله لصالح الأتراك الذين كانوا يكافحون من أجل تحرير بلادهم. كانت هذه التظاهرات تقع على مرأى ومسمع كل الناس وكانت السلطات الفرنسية لا تجهل شيئا من ذلك. ثم جاء انتصار السكشير الذي كان منتظرا كثيراً[1]. فقد أدّى هذا إلى أفراح دامت عدة أيام. في سنتي 1920 و1921 قد عشنا حدثا خارقا للعادة. ففي الوقت الذي كان فيه مصطفى كمال باشا أعلن الانتفاضة التركية، كان الأمير عبد الكريم الخطابي يوقع هزيمة مدوية على جيش إسباني قوامه 60000 ألف رجل مدججين بالسلاح[2]. إن هذا الانتصار اللامع قد أدهش العالم كله وارتجفت له أوربا والمسيحية. فقد صارت مثالا وتولد عنها التشجيع لكل الشعوب الإسلامية المضطهدة. ففي الشتاء الذي تبع تحريري من الجيش، تعودت على لقاء أصدقائي مساء في مقهى تيزاوي حيث كانت جوقة الحاج العربي بن صاري تمارس الموسيقى الأندلوسية والتلمسانية بالرباب والعود والدربوكة. كنا نشرب الشاي بالنعناع ونستمع إلى الموسيقى. وطبقا لعادات البلد كان في استطاعة المشاهدين أن يطلبوا من الجوق أن يلعب لهم القطعة المفضلة لديهم. ففي سهرة من هذه السهرات سمعت لأول مرة صوت الشاب رضوان الذي كان عمره لا يتجاوز الحادية عشر سنة.

كنا في القهوة ليلة كالعادة ومن حولنا، كان الناس يتهامسون بصوت منخفض أخبار اليوم التي أعطتها "جريدة جيناف" فالأغاني المطلوبة من الجوقة كانت كلها

---

(1) يتحدث الأتراك عن انتصارين لإينونو في شمال غرب السكشير أيام 14 يناير و31 مارس 1921. وكات المعركة الفاصلة التي شدت أنفاس سكان تلمسان وقعت من 23 أغسطس إلى 13 سبتمبر وانتهت بانتصار كامل للأتراك.

(2) معركة أنوال (21-26 جويليا 1321) انتهت بالهزيمة الاسبانية. والعدد الرسمي للموتى بما في ذلك الذين كانوا في معسكر مونتي آرويت، قد بلغ 12.000 .

تشير بكيفية أو بأخرى إلى الحرب اليونانية التركية. كانت السهرة منشطة والجو المحيط كان جيدا كما كان الأمر دائما وفجأة دَخلت مجموعة من الضباط الفرنسيين الفرحين والمبتسمين. فصاحب المحل ومعاونون قد أسرعوا بإعطائهم أحسن الأماكن. وبعد مدة من الصمت الناتج عن الدهشة، انطلقت السهرة من جديد مثل ما كانت عليه من قبل. ولكن المشاهدين كانوا يتساءلون عمّا أتي بكل هؤلاء الضباط الفرنسيين بيننا. أكان ذلك للتجسس علينا؟ أم ليتعلموا الحياة العربية ؟

منذ دخول هؤلاء الضباط، فكرت ولا أعرف لماذا أنه يجب فعل أيّ شيء. وبعد التفكير تبادر لذهني ما يلي: لماذا لا نصيح بصوت عال باسم مصطفى كمال ؟ تساءلت مدّة دقائق وطلبت من نفسي إن كانت هذه الفكرة جيّدة. أليس هناك شيء آخر أحسن من هذا علينا فعله؟ كنت أشعر بشيء كأنه الضيق وصعوبة في التنفس. وانتابتني كذلك الحرارة من الأقدام إلى الرأس. وفي وقت ما فكرت: "ما هو مكتوب سيقع ولن يستطيع أحد أن يمنعه". أجلت النظر حولي فرأيت طاولة فارغة. كان حينها الضباط يتحدثون ويدخنون ويشربون الشاي. وفي نفس الوقت توقفت الجوقة للاستراحة. وعليه ففي ظرف لحظة واحدة صعدت على الطالولة وصحت بكل ما لدي من قوة: "يحيا كمال باشا".

كل الأعين توجهت نحوي بما في ذلك عيون الضباط. وكان الناس ينظر بعضهم إلى بعض وهم مندهشون وقلقون. ولكسر السكوت المهيمن تناولت الجوقة بسرعة ما تبقى من برنامجها. ولكن لم يعد هناك حماس أضف إلى هذا أن السهرة اقتربت من نهايتها. فيما يخصني فإني أشعر أنّي تحررت من ثقل ثقيل. إلاّ أنني كذلك أتساءل عن التبعات الممكنة لذلك الحدث. أخبر الضباط أنهم ليسوا شخصيا معادين لمصطفى كمال. وأخبرني أصدقاء أنّ عونا من أعوان الشرطة كان أمام باب المقهى ولكن ليس هناك أي داع للقلق. في الوقت الذي هممت فيه بالخروج خاطبني العون قائلا: "انتظر هنا لحظة، ستتبعني للمحافظة". فكل الشبان الذين حضروا السهرة الموسيقية أحاطوني في انتظار ما يفعله عون الشرطة. فبمجرد ما طلب مني أن أتبعه، أسرعوا إليه وقالوا له بلطف أن مصالي الحاج لم يفعل شيئا خطيراً وأنه عليه أن يتركه ليذهب إلى منزله. فبعد فترة من التردد تركني أذهب ولكنه أنذرني: "على كل حال سيكون عليّ أن أقوم بالتقرير غدا صباحا إلى المحافظ وعليه هو أن يحكم في هذه المسألة".

،

تم استدعائي يومين بعد ذلك إلى محافظة الشرطة على الساعة التاسعة صباحا تقريبا. ولم أقل شيئا بعد لوالدي حتى لا أزعجهما. وفي طريقي مررت على حانوت الحاج الدين حيث وجدت بن خالي عبد الله الذي أخبرته بالحادث فقال لي: "اذهب ولا تخف، لا يريد الله بك إلاّ خيراً". فسألني المحافظ إن كنت أعرف تركيا أو إن كان هناك أصدقاء للعائلة. كان يريد معرفة السبب الذي جعلني أصيح "يحيا مصطفى كمال"، أو إذا كنت أقصد إنسانا بعينه. أعترف بأني كنت مرتبكا بعد هذا السؤال. وبدون عمق تفكير قلت له بأني لم أقصد أي شخص وإنما صحت "يحيا مصطفى كمال" لأني كنت تحت تأثير الموسيقى التي ذكرتني بالفترة الجميلة للأندلس العربية. فقد دامت المساءلة ربع ساعة تقريبا. فالمحافظ، قبل أن ينهي هذه المساءلة. فبصفتك رقيب قديم في مصالح الدعم فإنك تعرف جيدا أن الانضباط والنظام ينبغي أن يحترما في الحياة العسكرية وكذلك في الحياة المدنية."

فالقضية سرعان ما انتشرت في تلمسان. فإن هذا كان يعجبني ويقلقني في نفس الوقت فأثناء بعض الأسابيع كنت أنتظر في كل يوم أن يتم توقيفي. إن بعض الأقارب والأصحاب طلبوا مني ألا أظهر في ساحة البلدية كثيرا وكنت أذهب هناك لشراء جرائدي كل يوم. كان الناس خائفين عليّ وكل واحد كان ينصحني بشيء ما ليقول لي أن أجعل الإدارة تنساني. ولم يكن ذلك ما كنت أريد القيام به.

كانت عائلتي وأقربائي وأصحابي يتساءلون بدون شك لماذا لم أبحث نهائيا إلى إحداث وضعية وأتزوّج في مدينتي ومسقط رأسي. لابدّ من القول بادئ ذي بدء أني بحثت على إيجاد مهنة. لقد ذهبت لرؤية العديد من أرباب العمل وقد عملت عند خمسة منهم لفترة زمنية ولكني سرعان ما تأكدت لي خيبة الأمل. لماذا ؟ فقد قلت قبل هذا أنّي أنوي الهجرة ولو أن أفكاري في هذا المجال ليست ثابتة ولكن كذلك المناصب التي كانت تمنح لي في تلمسان كانت لا تناسبني. كنت أرى أن الأعمال متعبة وأن ظروف العمل كانت مخالفة للقوانين النقابية ولا تحترم حقوق العمّال. وبالفعل، لم يعلمني أبدا أيّ ربّ عمل في بداية الاستخدام بمبلغ الأجرة التي تمنح لي في اليوم أو الأسبوع أو الشهر، كما لا يعلمني بساعات العمل ويوم الراحة. إن البعض منهم كان يطلب مني أن أبدأ العمل مباشرة بعد صلاة الفجر. أمّا الأجرة المدفوعة فعليا فقد كانت زهيدة. ثم إن العمال سواء قبل أو بعد الحرب كانوا يعتبرون كمية قابلة للإهمال. فأنا الآن ثائر على هذه الوضعية الشيء الذي يحملني على بغض مجتمع بلادي. والشيء الذي كان يصدمني كثيرا هو أن أرباب العمل كانوا يتلذذون طول النهار بالمبادئ الإسلامية.

ولكن كان هناك أكثر من ذلك فقد لاحظت جيدا في تلمسان وفي كل القطر الجزائري أنه لم يكن في الإمكان التعبير بحرية والاحتجاج ضد الظلم دون أن تتعرض لصلابة قانون الأهالي. إن هذه المسألة ما زالت تسكنني. فالمسألة التي كنت قد تعرّضت لها في محافظة الشرطة بتلمسان لم تكن أمرا مهمّا ولكن لا بد من انتظار قمع فعّال في وقت ما وأنا أشعر بذلك.

فقد شعرت شيئا فشيئا أنه يجب على أن أختار نهائيا بين الهجرة أو المكوث في تلمسان. لم أكن أنا الوحيد الذي يتساءل في هذا الشأن. فإن الشبان وحتّى من هم أكبر سنا قد هاجروا مدينتنا، فالبعض منهم للذهاب إلى المغرب أو إلى تونس والآخرون في سيدي بلعباس وفي وهران وفي مدن أخرى من العمالة. إن هذه الهجرة قد شجعها التزايد السكاني. وكان السكان الريفيون من الضاحية الصغيرة والضاحية الكبيرة للمدينة يأتون للسكن في المدينة حيث كانوا يتعاطون لمختلف التجارات. فتلمسان لم تستطع أن تغذي كل أبنائها.

فرغم كل همومي فقد تكوّن لدي حبّ حقيقي للموسيقى. لم يكن في رأسي كل النهار إلا الموسيقى العربية والموسيقى الفرنسية. أمّا الفرنسية فإنّي كنت أفضل فيها الأغاني الشعبية والمسرح الغنائي (الأوبريت) المرح مع اهتمام أقل بالمسرح الغنائي الدرامي (الأوبرا). وبالتالي قررت تعلم السولفاج وتوصلت إلى شراء رباب الشيء الذي حملني بعض المصاريف... وبعض الصعوبات. إن كيس الرباب كان مخفيا عند أختي فاطمة لأني كنت لا أريد أن يعرف الناس أني كنت أتعلم الموسيقى الفرنسية. على الرغم من أن الناس كانوا يحبون هذه الموسيقى فإنهم كانوا يعتبرونها بابًا مفتوحة على الفساد. فالأيام التي كنت آخذ فيها دروسًا في الموسيقى، كنت أمر عند أختي حيث أتناول علبة ربابي التي كنت أخفيها تحت برنسي وهكذا فإن المظاهر كانت سليمة.

ففي هذه الفترة جرت الانتخابات نهائيا. فقد برزت شخصيتان في هذه المناسبة وقد شدت الانتباه خلال كل الحملة. الأول هو السيد عبد السلام بن طالب وكان محاميا لدى محكمة تلمسان، والآخر هو السيد بن طامي أو بن ثابت وهو من أعيان تلمسان الكبار وكان تاجرا. فقد كان الاثنان يتابعان نفس الكفاح من أجل سعادة التلمسانيين ولكن كل واحد حسب طريقته.

إن السيد عبد السلام الذي كانت له ثقافة كبيرة في اللغتين، العربية والفرنسية، قد قام بغلطة بالغة الخطورة عندما تجنس. وإن عملا مثل هذا كان من الأشياء التي لا تغتفرفي نظر الجزائريين وهذا مما كان يلعب ضده بطبيعة الحال. فإن استطاع أن يتبوأ مقعدا في المجلس البلدي لتلمسان وفي المجلس الجهوي بوهران وفي المفوضيات المالية في الجزائر فإن ذلك يرجع بدون مراء إلى جديته وموقفه المضاد للاستعمار في كل المجالس الجزائرية[1].

لماذا تجنس ؟ كان أنصاره يقولون ليستطيع أن يدافع في محاكمة هامّة وبصفة أعمّ ليستطيع الدفاع عن قضية الجزائريين في كل المجالس. فغالبا ما كنا نحضر في المحكمة للاستماع إليه وهو يرافع في تلمسان وكنا معجبين به. كان ينتمي إلى عائلة كبيرة كانت تشغل وضعيات هامّة في القضاء الاسلامي والتعليم والتجارة. إلاّ أن المستعمرين كانوا لا يُحبُّونه ولا يمتنعون عن نقده وتعييره وهذا ما كان يكبره في أعين السكان المسلمين.

وإلى جانب هذين الزعيمين الكبيرين كان هناك جماعة من الشخصيات كانت تتمتع هي الأخرى بنفوذ كبير في مدينتنا. وإحداها السيد محمد بن رحّال الذي يستحق ذكرا خاصّا. إن هذا الرجل الذي كان يبلغ من العمر ستّين سنة تقريبا، كان رئيس عائلة كبيرة ومشهورة في الجزائر والمغرب. كان كبير القامة، طلق المحيا، له ثقافة عربية وفرنسية واسعة وقد كان له أناقة رئيس عربي حقيقي وكان يعتقد في كل الأوساط بأنه عالم ووطني كبير. والآخرون كانوا ينقسمون إلى اتجاهين فواحدة منهما موالية للادارة والاخرى ليست لا موالية ولا ضدها وتتقدم ببساطة للدفاع عن مصالح السكان.

إن الفترة الانتخابية قد دامت في الواقع من نهاية 1920 إلى بداية 1923[2]. فخلال الحملة بلغت الشحناء أوجها وقيل كل شيء من جهة ومن أخرى. إن مسألة الكراغلة والحضر قد تم تجاوزها بسرعة وقد ترك الاتجاهان خسائر في الميدان. وبأسرع مما كان منتظرا تركت مناقشة الأفكار مكانها للتعبير الذي ليس له أي مكان في المشاكل

(1) طالب عبد السلام، مستشار بلدي ومستشار جهوي كان يعتبر شابا جزائريا محبّا لفرنسا. فلم ينتخب مفوضيا ماليا إلاّ في سنة 1935 (المقاطعة الخامسة من عمالة وهران). وفي سنة 1920 تحدث بصراحة عند عقد "مؤتمر للأهالي" قد أوصى به الأمير خالد.

(2) إن الانتخابات من أجل المفوضيات المالية قد جرت في أفريل 1910 في مجموع المقاطعات. وانتخابات أفريل 1923 لم تجرِ إلاّ لتجديد نصف النيابات الخاضعة للتجديد.

السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لقد وقعت ظاهرة لم يكن أحد ينتظرها قد أثارت استياء عميقا في معسكر من هم ضد الإدارة والتي أنتمي إليها.

فخلال الحملة، إن بعض المترشحين المنتميين إلى المعسكر المضاد للإدارة قد ربحتهم هذه الإدارة فتحوّلوا من معسكرهم. وإن هؤلاء الناس الذين هم أعضاء عائلات تلمسانية كبيرة، قد وجدوا أنفسهم منتخبين بفضل الإدارة. فصاروا هم وأهلهم مهزلة وصاروا كلهم موضوع نقد لاذع. لم يستطع التلمسانيون الاقتناع بأن منتخبين ينتمون إلى عائلات كبيرة. يقدرون على خيانته. إن هؤلاء الناس ليسوا في حاجة إلى الادارة لأنهم أغنياء جدّا. كانوا يقولون بأن هؤلاء الناس يملكون الأراضي والديار والدراهم في البنوك وكان بعضهم عضو مجلس الإدارة في البنك الجزائري.

إن الغضب ثم النقد ثم خيبة الأمل، كل هذا كان يطبع المناقشات ثم صار الناس ينقلبون بحرارة أقوى إلى أحداث الشرق وإلى مصطفى كمال. كانوا يقولون: لا يمكن الاعتماد إلاّ على الكماليين لمساعدتنا على الخروج من هذه المصيبة وهذا العار. إن هذا النوع من التفكير لم يحصل على موافقة الجميع. فقد أجبت أنا شخصيا العديد من أصدقائي أننا في كل الظروف يجب علينا قبل كل شيء الاعتماد على الله القدير ثم على أنفسنا. لأنه لا ينبغي أن ننتظر كل شيء من غيرنا حتّى لو أننا نستطيع أن نستوحي من الأمير عبد الكريم ومن مصطفى كمال وفي حقيقة القول كنا ننتظر والكثير من رجال تلك الفترة وكنا نعتقد خاصّة نحن الشباب أنه يكفي أن نحسّن وحدتنا في حملة انتخابية للاستيلاء عَلى كل الحقوق. أمّا الأشخاص المسنون فإنهم كانوا حذرين.

ففي الفترة الهادئة التي تلت الانتخابات قرأت كتابا خارقا للعادة قد أدهشني كثيرا. والمقصود هنا: "ثلاثون سنة عبر الإسلام" وهو كتاب ذكريات لليون روش[1]. إذا كان ما يحكيه الكاتب حقيقة، فقد كلف بمهمة الحصول على فتوى من الرؤساء المسلمين وهي أن يُنَادَى الجزائريون إلى توقيف الحرب. وحسب قوله فإنه قد تحصل على الموافقة وذلك بفضل قطع نقدية ذهبية من نوع (لويز) وهكذا استطاع أن يتغلب على كل مقاومات شيوخ الطرقية. إن قراءة مثل هذا الكتاب كانت تثير غضبي سواء فيما كان يقوله عن الاستعمار أو فيما يخص الموقف الفاسد للشيوخ الدينيين وغيرهم من المسيرين الذين يزيح عنهم الستار.

---

(1) إن مذكرات ليون روش قد تم نشرها سنة 1884 تحت عنوان: اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام.

عندما قرأت هذا الكتاب لأصدقائي الحرفيين الذين كانوا يستمعون إلى وهم يعملون فقد أبدوا اندهاشهم وغضبهم. إن ذكر تاريخ احتلال الجزائر كان يثير عند مستمعيّ الاسكافيين والبلاغجية والنجارين والطرازين والنساجين ردات فعل مناهضة للاستعمار. إن هذا قد شجعني كثيرا. فقد انتبهت إلى أن الدعاية الكلامية تأخذ شكل سَهْرَةٍ وكان لها مفعولها الكبير على العمال. ولسوء الحظ كذلك، انتبهت إلى كون الخيانة المؤلمة التي قامت بها البورجوازية والتي ظهرت للعيان اثناء الانتخابات لم تترك أثرا في الأذهان. فقد واصلت إذن خلال سهريات رمضان إلى الذهاب من حانوت إلى حانوت لأحكي لأصدقائي الأحداث التاريخية الماضية.

فبعد مؤلف ليون روش، وجدت كتبا أخرى في مكتبة تلمسان قد سمحت لي بإرضاء المستمعين إليّ. وهناك كتابان قد لفتا انتباهي، الأول لـ غوستاف لبون وعنوانه "حضارة العرب في اسبانيا" والآخر وهو للويس برتراند. وقد صعب علي قراءة الثاني من كثرة تعنيفه للعرب. أمّا كتاب غوستاف لبون، بالعكس، فقد كان تحفة وهو مؤلف موضوعي بدرجة كبيرة. في الليل عندما أنام كنت أحلم بأني متواجد في قرطبة أو في غرناطة. أو في الحمراء أو في المساجد الجميلة. كل هذا كان يثري خيالي ويلون حكاياتي وقصصي عند الحرفيين وعند أصدقائي.

كنت أرى بصفة منتظمة مثقفين أعضاء جمعية أصدقاء الكتاب. إن هذه المجموعة الصغيرة كان مكان لقائها قبالة محافظة تلمسان. إن الجمعية كانت مسيرة من قبل معلمين وكان أغلبهم أصدقائي أو أقاربي. في هذه الاجتماعات كنت استمع وأسجّل لا غير. كنت أنظر باهتمام كبير إلى كيف كان المعلمون الشبان يتناولون الكلمة ويشرحون للمستمعين موضوع المحاضرة. ودون أن أشعر بذلك فإني كنت اتعلم فن الخطابة وقواعد المناقشة. فبفضل المسافرين، كانت أخبار مشجعة تبلغنا من كل جهة. ففي الجزائر، إن الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر، بطل الجزائر الكبير، كان يشغل الآن مقدمة المشهد السياسي. كان يجمع وراءه البرجوازية والشعب في العاصمة وأنشأ جريدة اسمها "إقدام". وفي قسنطينة بدأت بوادر تيار إصلاحي ترتسم كذلك وكان يقوده منتخبون كنت اجهل أسماءهم. وفي باريس فإن محمد بهلول وهو أستاذ مبرز في الجامعة وقد أنشأ هو بدوره مجلة دورية.

كنا نشعر بأن توجّها سياسيا ما بدأ يتشكل شيئا فشيئا. كلهم كانوا يقدمون المطالب التالية: إلغاء قانون الأهالي، عزل الممارسة الدينية عن الدولة الفرنسية وحرية

السفر. وبالفعل فإن الجزائريين لم يكن لهم الحق في السفر بحرية عبر المتوسط دون رخصة مكتوبة من السلطات. وفيما بعد فإن هذا الإجراء الاستثنائي قد اشتد لأن المسافر كان عليه أن يترك مبلغا من المال يغطي مصاريف إرجاعه المحتمل إلى الوطن. فقد كان التعامل معنا في بلدنا وكأننا أجانب. كان الجزائريون يقولون بأنه قد تم استعمالهم كمرتزقة في الحرب العالمية الأولى وفيما بعد أرجعوا إلى قرارهم ليبيعوا أنفسهم إلى المعمرين بأسعار زهيدة.

ففي بداية سنة 1922 بدأ الكلام هنا وهناك في تلمسان عن الشيوعيين وكانت كلمة بولشفيك تنطق ولكن هذا لم يعن شيئا بالنسبة لنا. لم أفهم هذه النظرية بل كانت تظهر لي صعبة التناول. إن آباءنا الشيوخ كانوا لا يحبون البتة روسيا سواء كانت قيصرية أو بَلشفية لأنها حاولت عدة مرات عبر تاريخها اقتلاع بعض الأراضي الحدودية من تركيا. إلا أن رجال الدعاية كانوا يبسطون الأمور ويروّجون لهذه الحملة البسيطة: "إن الشيوعيين مع المساكين والمستَغَلّين وضحايا النظام الاستعماري". إن الشيوعية بدأت وكأنها دين جديد مع أنها ضد كل الديانات. فمثل الكثير من المواطنين، كنت أعطي محبتي وثقتي للشيوعيين ولكن على أساس أن أراهم في العمل كالبنّاء أمام الجدار. لا أعتقد أن هذه السنة 1922 قد رأت وجود فرع للحزب الشيوعي في تلميسان.

فقد أخبرنا أحد أصدقائنا يوما أن النائب بول فايان كوتوريي عضو الحزب الشيوعي سيأتي قريبا جدّا بين طهرانينا ليلقي محاضرة[1]. إنّ هذا الخبر الذي مرّ تحت البرنس قد انتشر كالغبار في أحياء المدينة وحتّى في ضاحيتها الكبيرة. كنا ننتظر هذا الوصول بفضول عميق. فقد تمت محاضرة فايان كوتوريي في شهر مارس 1922 في سينما في نهج المسرح الصغير. فقد امتلأت القاعة بسرعة وبقي الكثير من الناس وقوفا. فقد كان هناك تقريبا نفس العدد من الفرنسيين والعرب وحتى النساء الفرنسيات.

إن بول فايان كوتوريي كان مصحوبا بأصدقاء أتوا سواء من باريس أو وهران. فقد كان خطيبا كبيرا لأنه كان محاميا لدى محكمة الاستئناف في باريس وقد كان بشوشا

(1) فايان كوتوريي منشط لجنة الدراسات الاستعمارية في الحزب الشيوعي جاء في مارس 1922 للقيام بدورة دعائية دامت اثنين وعشرين يوما وقد عرض انطباعاته في تسع مقالات في جريدة اليومانيتي من 14 أفريل إلى 9جوان.

ومتسما بكثير من الصراحة. فقد بدأ يعرض أفكار حزبه مدّة ساعة ونصف على الأقل بإيمان وعمق وقد عرّى كل مساوئ الاستعمار، وتوسع في موقف الحزب الشيوعي تجاه الشعوب المستعمرة، وتحدث عن الإتحاد السوفياتي ودعمه لقضية كل الشعوب المضطهدة. كل هذه الشروح كانت تقطعها تصفيقات جنونية. كانت مدينة تلمسان لم تر أبدا هذا الخطيب في هذا الزمن، علما بأن مواطنينا حساسون للخطابة ويحبون الكلمات المصوّرة. فلشرح استغلال الجزائريين من طرف الاستعمار الفرنسي يقول مثلا: "فالشعب الجزائري باعتبار استغلاله مرمى على الأرض، ثم ارتمى عليه القائد وارتمى على القائد الحاكم وعلى الحاكم ارتمى الجهاز الإداري بكل أثقاله". قبل أن يختم أن كل ثقل الاستعمار يتحمله الفلاحون والعمال.

أعترف بأن أغلب المشاكل التي تناولها كانت صعبة بالنسبة لمعارفي وأظن أني لم أكن الوحيد في هذه الوضعية. ينبغي لي أن أقضي عشر سنوات في باريس لأبدأ بفهم ما جرى في روسيا وكيف استطاع هذا البلد الكبير أن يقوم بثورته. ولكن القليل الذي كنا فهمناه كان كافيا لينيرنا ويرضينا لأن الشعب الروسي يعلن بأنه صديق كل الشعوب المستعمرة. إن بعض أصحابنا كانوا يتساءلون كيف سيعمل الشيوعيون الفرنسيون والإتحاد السوفياتي ليدافعوا على الشعوب المستعمرة. وآخرون كانوا يقولون أنه من الأحسن أن يكون لنا أصدقاء فهو أحسن من ألا يكون لنا البتة.

في صباح من شهر مارس 1922، ماتت أمي الطيبة فجأة بمرض غير معروف. كنت وقتئذ أعيش معها ومع أختي الصغيرة زليخة في غرفة تملكها عائلة بندمراد، لأني أبي كان دائما في ضريح سيدي عبد القادر. جاءتنا كل العائلة في الحين لترانا وحتى الأهل البعيدين. كل الناس كانوا يبكون. إن أخواتي بدأن يضربن أنفسهن. أما أبي فقد كان يعانقنا أنا وأختي الصغيرة محاولة منه لتهدئة آلامنا. في المساء بعد غروب الشمس، زارنا علماء الدين لتلاوة آيات من القرآن الكريم. بقي يوم الدفن هو أتعس يوم في حياتي. كنا، أقصد أنا وأختي الصغيرة، عاجزين عن تقبل العزاء. إن أخواتي بقين معنا أسبوعا حتى لا يتركونا وحدنا مع آلامنا في غرفتنا. اقترح علينا أبي وأخي أن نعيش معهم. فقد كانت أختي الصغيرة مخطوبة وكانت تحضر جهازها ومثلي فإنها كانت تفضل البقاء في غرفتنا. ولكن في الأسابيع الأولى عندما كان الحزن مخيما علينا، كنا نذهب للنوم في الدار التي كانت تسكنها في نفس الوقت أختي الكبيرة خيرة وأختي فاطمة وأخي الغوثي.

فمنذ رجوعي إلى تلمسان، عدت إلى التردد إلى التلمسانية. وهكذا وفي ربيع 1922، قررت تحضير المسابقة الرياضية في وهران وهذا يعني بأنّه كان عليّ أن أقوم بتدريبات مكثفة مدة أكثر من شهر. كنت أتدرب حتّى في المنزل لأني كنت أريد أن أكون ممتازا في المجال الذي أدافع فيه عن ألوان الجمعية. إن أخواتي وأبي والجيران كانوا يضحكون ويستهزئون عندما رأوني من جديد أقوم بالتمارين والقفز باستعمال أغصان الكروم عند عدم الأخشاب المتوازية.

قد جرت المسابقة الرياضية في وهران آخر أفريل وبداية ماي 1922. في مدة هذه المسابقة أي عشرة أيام، كنا نسكن في مدرسة بجانب بلدية وهران. وكانت فكرتي وقتئذ وبهذه المناسبة أن أجد حلولا لبعض المشاكل التي كان من المحتمل أن تعترضني إذا قررت العودة، إلى فرنسا. فقد اتصلت خصوصا برفقاء يهود وعرب قد وعدوني بمساعدتي على الركوب في الباخرة إلى مرسيليا إذا أردت ذلك. وكان ذلك ضروريا لأن حرية السفر بين الجزائر وفرنسا، كما ذكرت ذلك سابقا، كانت غير موجودة في تلك الفترة بالنسبة للجزائريين. كما استطعت كذلك رؤية السيدة "كويتو" التي كانت تعيش في ضواحي وهران، ولكنها كانت تتهيأ للذهاب إلى باريس لتستقر بها.

إن المسابقة الرياضية بوهران كانت قد تم تنظيمها في عاصمة العمالة لإحداث نشاط بمناسبة الزيارة الرئاسية للسيد ميليراند. إن هذا الأخير وبصحبة عدد كبير من الوزراء والشخصيات السامية من عالم الفن والآداب ومن الأخصائيين في القضايا العربية، كان ينتقل عبر المغرب والجزائر وتونس. عندما وصل الموكب الرئاسي حملونا مع عدد من أصحابي الرياضيين إلى قاعة واسعة كانت توجد خلف مقهى "غليوم تيل". إن وزير التعليم العمومي، ليون بيرار كان سيلقي خطابا وكان علينا أن نشكل الحرس الشرفي حوله. وفي المدينة وفي هذه المناسبة كنا نرى الكثير من القياد والبشغوات وكلهم مبالغون في زينة برانسهم الحمر وقنانيرهم الكبيرة. ومن المحقق أن الرئيس الفرنسي كان ينبغي أن يسمع الخطب التي تضمن له الاخلاص من نوع "خدمة القضايا الأهلية". فكل البني وي وي في الفترة كانوا يؤمنون لرئيس الدولة الفرنسية مدى تعلق الأهالي الجزائريين وثقتهم. إن لقاء رئيس الجمهورية مع الأمير خالد قد كان مضطربا نوعا ما. وأشخاص مثل سي محمد بن كحال وسي عبد السلام بن طالب منتخبي تلمسان وندرومة قد وجهوا كذلك بهذه المناسبة إلى رئيس الجمهورية مطالب لم تعجبه في النهاية.

وفي تلمسان كثر الحديث عن هذا السفر الرئاسي الذي أثار الآمال مثل ما كان عليه الحال بعض السنوات قبل هذا والنقاط 14 التي وجهت للرئيس ويلسون، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي كان يدافع عن حقوق الإنسان. فالشعب كان يتعلق بكل شيء ولا يريد أبدا أن ييأس حتى لو تحقق أن الأخبار المنشورة غير صحيحة. وعندما تغلق كل الأبواب يقول: "غداً سيأتي يوم جديد". إن خيبة الأمل التي شعر بها الجزائريون بعد سفر رئيس الجمهورية الفرنسية قد حركت مع هذا الجيل الصاعد وخاصّة المثقفين. إن الشعب، يعني الفلاحين والعمال والناس البسطاء يميلون عادة إلى الانتظار. كانوا يعتبرون وقتئذ أن الأطباء والمحامين ورجال الأعمال والموظفين على أنهم هم وحدهم القادرون على الدفاع على مصالحهم لأنهم، حسب ما كانوا يقولون، مثقفون ويعرفون القانون ويتكلمون جيدا لغة المنتصر. إن الشعب كان يعتقد أن العائلات الكبيرة الحضرية والخيمات الكبيرة والمرابطين الكبار سيساعدونهم على استرجاع حقوقهم.

في صباح جميل من صيف سنة 1922، علمنا أن الأمير خالد سيأتي لإلقاء محاضرة في بلدية تلمسان. لم يكن التاريخ ولا ساعة وصوله مضبوطان. إن الأصدقاء الذين بلغونا هذا الخبر الذي لا تخفى أهميته على أحد، قد قالوا لنا في شكل نصيحة: "حذار، انتبهوا! لا تتكلموا عن هذا إلاّ لأصدقاء مضمونين!" إن عائلة الأمير عبد القادر ما زالت تتمتع بنفوذ كبير في جميع القطر الجزائري. ولهذا فإننا كنا ننتظر بفارغ الصبر مناسبة رؤية حفيده لنتبادل معه بعض الأفكار.

كنا نفكر بسذاجة الذهاب لاستقباله في محطة مدينتنا. لسوء الحظ وصل الأمير خالد بكيفية غير معلن عنها في الليل. وعرفنا فيما بعد أنه نزل عند عائلة شلبي، إحدى عائلات تلمسان الكبيرة، كما أنه كان أيضا ضيفا لدى عائلات تلمسانية أخرى كبيرة. في الحقيقة إنه كان ضيف البرجوازية الكبيرة التي احتكرته. وفي المدينة تم استقباله عند التجار الكبار مثل السيد الغوثي بن قلفاط الذي كان يكسب بازاراً في ساحة المشور. لم نستطع نحن الشبان رؤيته لنرحب بقدومه ونعبر له عن إعجابنا مباشرة وكان هذا يؤلمنا. في نظرنا كان عليه هو شخصيا أن يبحث عن مجتمع المساكين الذين كان لهم الكثير من الأشياء ليقولوها له. عند عدم استطاعتنا لقاء زائرنا الكبير فقد كنا مجبورين على اتباعه عبر المدينة في تنقلاته لرؤيته أقرب ما يمكن ذلك. إن هذه الوضعية المؤسفة قد قادتنا وقتها إلى القيام بمقارنة بين زيارته وزيارة فايان كوتوريي. فرغم أنه ينتمي إلى البرجوازية الفرنسية، إنه كان يبحث عن

لاتصال مع الفقراء. كنا نحب الأمير خالد، كنا نحترم شجاعته والماضي التاريخي جدّه ولكننا أصابتنا خيبة أمل. إن محاضرة الأمير جرت في قاعة الحفلات بالبلدية. كان جالسا في وسط المشهد، محاطا بالشخصيات المهمة في مدينتنا. كان لابسا لباسا أبيض وكان لونه الأسمر ولحيته السوداء هما اللذين يضفيان على شخصيته عظمة قائد عربي سام ونفوذه. فبمجرد رؤيته وسماعه كانت الثقة تتسرب إلى أعماقنا فيما يخص المستقبل. كانت القاعة مكتضة بالناس. وفي الخارج، حول البلدية، كان هناك المئات من الأشخاص الذين لم يجدوا مكانا في الداخل. وكان الشباب يسود من حيث *العدد والحماس*.

بدأ الأمير خالد الكلام في وسط سيل دافق من التصفيق. كان الناس يهللون ويرددون "تحيا الجزائر حرّة" . إن السكوت رجع بسرعة. في أكثر من ساعة ألقى الأمير خطابا فصيحا وبعربية صافية جدًا فأعطى لوحة شاملة عن وضعيتنا مشيرا إلى قانون الأهالي ومعرجا عن الفقر المدقع والظلم والجهل الذي كان يرزح تحت نيره الشعب الجزائري مثل تزوير الانتخابات. وعرض مطالبه لتحسين الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. تحدث عدة مرات عن الاتحاد مدعما كلامه بآيات قرآنية ولم يدع إلى تكوين منظمة. مدّة قصيرة بعد ذلك أي في خريف 1922 سمعنا أن شخصية إصلاحية أخرى، السيد أحمد بهلول، قد يقوم بدورة ليعرض فيها أفكاره حول القضية الجزائرية. كان يقال أن هذا الأستاذ المبرز في الفيزياء كان رجل علم وصاحب معرفة كبيرة. إن نموذجه يؤكد أننا كنا مثل الأوربيين قادرين على تحصيل المعارف والمسؤوليات العالية في كل مجالات الفكر. كنا نعتقد، نحن الشباب أن أحمد بهلول كان في المكان الجيد للدفاع عن قضيتنا، ولكن كذلك لاقناع الحكومة الفرنسية أن تأخذ في الاعتبار مطالبنا.

عرف الاجتماع في قاعة الحفلات نجاحا كبيرا. إن الخطيب وأصدقاءه قد ألقوا خطبا بالفرنسية. إن أستاذ الفيزياء الذي كان ذا أصل متواضع جدًا، كانت له قامة كبيرة وكان بشوشا وطلق المحيا. كان يلبس السترة والشاشية. ومن الناحية السياسية فقد كان ممن يريدون إصلاحات وتمثيلا برلمانيا جزائريا. وعلى عكس الأمير خالد فإن أحمد بهلول قد اتصل ولو بصفة محدودة مع بعض التلمسانيين وهذا ما أفرحنا. إن استعادة القسطنطينية وسميرن (إزمير) والدردنيل والبوسفور من طرف الأتراك ثم تصريح المجلس الوطني من أنقرة الذي كان يشكر مصطفى كمال ويعلنه غازيا كبيرا فوق كل شيء وفوق كل القوانين، كل هذا قد أثار حماسا خارقا للعادة في كل بلدان

الإسلام. وفي تلمسان تم الاحتفال بالحدث في الأفراح والصلوات والأناشيد. لم نكن نعرف كيف نعبر عن السعادة والفخر. إن الثورة الكمالية وحرب الريف التي قادها عبد الكريم قد نتج عنهما صدمة نفسية في كل القطر الجزائري. فقام شعراؤنا بإنشاد مدائحهم. أمّا المجندون الشباب الذين قضوا فترة الخدمة العسكرية في فرنسا أو في سوريا كانوا يحملون لنا أخبارا ثرية في ألوانها وأحداثها وكانت تلمسان تهتز.

إذا لم تخنى الذاكرة، أظن أن زواج أختي الصغيرة جرى في خريف سنة 1922. ذهبت مع زوجها حمادى بغدادي لتستقرّ في سيدي بلعباس حيث يستطيعان تسيير حمّام. وعليه فقد وجدت نفسي وحيدا مدة عدة أشهر الشيء الذي كان صعبا جدّا. إن إحدى أخواتي التي شاركتها أسراري قالت لي ذات يوم خلال محادثة أنه يجب علي ألاّ أخاف من الزواج بفرنسية إن كانت هذه هي نيتي: "أفضل هذا على رؤيتك بدون دار. فالفرنسيات مثلنا مخلوقات الله. الشيء الذي يخشى حقيقة هو أنهن أكثر تسلطا وأكثر خفة من النساء الجزائريات"..

في الواقع، إن أفكار الذهاب هي التي كانت في دماغي. كنت قد عاهدت نفسي ألا أغادر تلمسان قبل زواج أختي حتى لا أتركها وحدها. والآن جاء وقت القرارات. فقد قمت بجولات طويلة في أعالي سيدي بومدين لأفكر في مستقبلي. فبعد أن وزنت كل معطيات الوضعية، قررت الذهاب إلى باريس في وسط السنة 1923.

وللذهاب إلى فرنسا، كان علي أن ألبس كالأوربي. لكن منذ تحريري من الخدمة العسكرية في فبراير 1920، رجعت إلى ملابسي العربية التي كانت غير غالية. إن وسائلي المالية لم تسمح لي بمواجهة مصاريف كبيرة. ولهذا قررت تحديد مشترياتي إلى بدلة سوداء على المقاس وإلى قبعة باسكية وحذاء ذي ساق عالية. كما اشتريت معطفا قديما ومخمّلا وحقيبة كبيرة وبعض الحاجات الأخرى التي أتت على آخر مدخراتي. ولكنّي رغم هذا أريد أن آخذ معي شاشيتي الجميلة التي كنت أحبها لأنها كانت على مقاسي وبدلة عربية! إن دراهم الجيب لنفقاتي الأخيرة ولأوراقي ومصاريف السفر قد تكلف بها أبي وأخواتي وبعض الأصدقاء والأقارب. كل شباب حيّي كانوا يتزاحمون حولي ليبدوا لي أسفهم على مغادرتي للمدينة. كلما اقترب الذهاب، صارت تلمسان، وطني الصغير عزيزا عليّ.

شهرين قبل المغادرة، ذهبت إلى المقبرة إلى قبر أمي لأترحم عليها وأدعو لها وأبكي. فيما يخص أبي كنت أذهب كل يوم لأراه وأساعده وأقرأ له الجرائد التي

تعالج أمور الشرق العربي الإسلامي. اجتمعت كذلك مع المجموعة من المثقفين الذين كنت أعاشرهم بانتظام لأناقش معهم ذهابي المقبل. وبهذه المناسبة. أهديت لصديقي محمد بن قلفاط طاقما من المجلات التركية التي نشرت في باريس بالكماليين أنفسهم. كانت التحضيرات لا تنتهي. هناك دائما موانع خارجة عن إرادتكم ولا تنتهي إلا في آخر دقيقة. مثلا بدلتي الأوربية الوحيدة ما زالت عند الخياط. فالتجار لا يقولون دائما الحقيقة وخاصّة عندما تكون بالدفع المؤجل كما هو الحال بالنسبة لي. فقد كان هناك مجموعة من المساعي الإدارية التي كان يجب القيام بها. هذه المساعي كانت تستلزم، حسب الموظفين وقتا غير مضبوط خاصّة إذا تعلق الأمر بالأهالي. وفي البلدية كذلك، ينبغي أن يكون السلوك لطيفا والامتناع عن رفع الصوت وعدم الاحتجاج.

في يوم من أيام أكتوبر 1923، وجدت نفسي أخيرا في باريس، في محطة ليون وكأني شجرة بدون عروق. وبما أنني كنت مثقلا كان عليّ أن أجد فندقا قريبا. فتوجهت نحو باب الخروج وبقيت هنا ربع ساعة طويلة أتساءل كيف أتناول باريس. كنت هنا واقفا، شديد التأثر بالحركة وذهاب وإياب المسافرين والضجيج حيث طلبت ارشادات. وهكذا فإن سائق طاكسي قال لي بلطف: "انظر على يسارك الفندق الصغير لمحطة ليون، هو جيّد ورخيص، إنه على خمسين مترا من هنا". ثلاث دقائق بعد ذلك كنت في الفندق حيث تحصلت على غرفة. ثم طلبت من خادم الفندق أن يرافقني إلى المحطة ليساعدني على حمل حقيبتي.

إن الغرفة الصغيرة التي نزلت بها كانت لها واجهة على المحطة وشارع ديدرو. كانت الساعة وقتها السابعة صباحا وكان الضباب كثيرا والبرد قارسا ولكن غرفتي مدفّأة. فكأن مئات الحدادين كانوا حول الفندق وكانوا كلهم يضربون بالمطرقة على السندان وبقوة ما زالت تتضاعف. إن الليلة الأولى لم أتوقف خلالها عن الدوران في سريري وكأني مشوي فوق النار. لم أستطع إغماض عيني إلا مع الساعة الثانية صباحا ولبعض الساعات. لم أنس أبدا الليلتين أو الثلاثة التي قضيتها في هذا الفندق نظرا لشدة الضوضاء. فرق كبير مع تلمسان، مدينتي الصغيرة وهدوئها الربيعي! فلماذا غادرتها للمجيء إلى هذا الجحيم ؟

في الحين تبادرت إلى ذهني فكرة زيارة مفاجئة للسيدة "كويتو" التي كنت أعتبرها أمي الثانية. كانت تسكن في نهج الراحة في حيّ الأب لاشيز في الدائرة

العشرين. فقد سلمت علي قائلة : "لا تعرف كم أنا فرحانة لرؤيتك" . لم تمض عشر دقائق حتى أخبرتها بوضعيتي وخاصّة على رغبتي في وجود عمل: "لا تقلق يا ولدي سأتكلف بك ابتداء من الغد" . هذا كان جوابها السريع.

بينما كنا نتبادل الأفكار قرع أحدهم الباب قائلا: "هذا أنا" . فاسرعت السيدة "كويتو" إلى الباب استجابة للقرع وقالت وهي تضحك: "ادخلي، ادخلي صغيرتي، سأقدم لك واحدا كنت قد كلمتك عنه مرارا والذي قلت لك أنني لا أندهش من رؤيته هنا في يوم من الأيام" .

إن التي سمتها السيدة "كويتو" صغيرتي كانت فتاة جميلة لم تبلغ بعد العشرين. كان لها لون جميل وشعر كذلك جميل ذو لون بلاذر وقامة جذابة. كانت تلبس في يديها قفازا وكيسا جميلا ومطرية صغيرة وكانت لها نظارتان مثبتتان بسلسلة ذهبية خلف الأذنين. إن هيأة المركيزة التي تظهر بها تليق بها جيّدا. إن هذه الزيارة المفاجئة دامت ربع ساعة، ثم انسلخت الفتاة بكثير من اللطف لتذهب إلى غرفتها التي كانت محاذية لغرفة السيدة "كويتو" .

إن السيدة "كويتو" التي دعتني على العشاء كلمتني بعبارات جيّدة عن جارتها الصغيرة: "أنا متأكدة أنها فرحانة جدّا بمعرفتك. إن هذه الصغيرة لها أوضاع حسنة لأنها بائعة في "المغازات المتحدة" في ساحة الجمهورية" ثم تحدثت عن مستقبلي: "ستغادر غدا غرفة محطة ليون وتحمل أمتعتك وتأتي لرؤيتي على التاسعة وسأقول لك ماذا ينبغي أن تفعل للحصول على غرفة في فندق صغير في هذا الحيّ ثم وجود العمل" .

ما كدنا ننتهي من تناول العشاء حتى ضُرب الحائط. هذه إشارة تعلن أن الآنسة ستنضم إلينا قريبا. لقد دعيت لتناول الشاي معنا بعد الأكل. فأسرعنا في تنظيف الطاولة من أجل الشاي. فالآنسة إميلي بوسكان التي سمعت اسمها الآن، حدثتنا عن يومها الطويل في العمل في المغازات المتحدة. تصف لنا محلّ بيعها وتحكي عن المنحة على نسبة المبيعات وهي كلمة لم أسمعها من قبل. والسّيدة "كويتو" التي كانت خيّاطة ماهرة تعمل في دارها، تحدثت لنا عن الخياطة الراقية الفرنسية وإشعاعها في العالم. وأثناء المحادثة سئلت عن الجزائر وعن الإسلام. حدثتنا الآنسة إميلي بوسكان عن مدينة نانسي عن نوف ميزون البلدية الصغيرة التي ولدت فيها. كنا نتكلم ونضحك ونشيد المشاريع. لقد تقررت خرجة ليوم الأحد القادم لزيارة البانتيون.

أحسست بأن مودّة تجمعنا كلنا، أقصد الثلاثة، في هذه الغرفة في الطابق السادس من نهج الراحة. وهكذا فإن فتاة شابة من اللورين وسيّدة جدّة تسهران عليّ وتحيطاني بصداقتهما. في الحقيقة لم أستطع التمني أكثر من هذا.

بين الآنسة إميلي بوسكان وبيني بدأت الأمور تتطوّر في ربيع سنة 1924. شيئا فشيئا وبصفة سرّية التحقت بها في نهج الراحة وسكنت معها. وُضِعَ كل الناس أمام الأمر الواقع وهو سلوك أطلق الألسنة مدّة من الزمن ثم عاد الجوّ إلى الصفاء. ونتيجة لذلك، صارت الآنسة بوسكان تدعى السيدة مصالي الحاج دون أن نكون متزوجين رسميا أمام المجتمع. لقد تم النكاح إسلاميا بدون ضوضاء. إن السيدة "كويتو" قد تفاجأت ولكنها لم تظهر لا غضبا ولا فرحًا.

يوم الاثنين 20 أكتوبر 1923 كان بالنسبة لي يومًا كبيرا. إذ لأول مرّة في حياتي وجدت نفسي في معمل في باريس وفي وسط ألف وخمسمئة عامل وعاملة وكلهم مندهشون برؤيتي بينهم. لم أكن عاملا يدويا بين الألف وخمسمئة عاملا فرنسيا. بالنسبة للكثير وحسب المظهر فأنا عربي، سيّد يعني مشاكس وغضوب يمكن أن يلعب بالموسى. لا فائدة من التدقيق بأني لم أخرج أبدا موسى وأن المشاجرة عندي قد أخذت دائما شكل شرح ومحادثة. بطبيعتي كنت أحبّ الكلام حول الدين والسياسة والتاريخ ولكن هذا فقط.

لم أكن أشبه كل الناس بالفعل لأنني منذ الأيام الأولى من استخدامي ظهر وأني لم ألبس أبدا مثل العمال الفرنسيين. كان هؤلاء في المعمل يلبسون كلهم بدلة عمل تتركب من سترة صغيرة سوداء وقصيرة وسروال من نفس اللون. أما أنا فكنت ألبس قبعة بسكية وسترة كاكي دافئة وسروال ملون وحذاء بساق صاعدة وقفازات (ميتان) في اليدين. فالبعض كانوا يجدونني جيّدا هكذا والآخرون لا يفهمون كيفيتي في اللباس وأما غير المكترثين أخيرا فقد كانوا يقولون أنه ينبغي أن نتركه يعيش حسب ذوقه ووسائله. على كل حال فقد صرت بالنسبة للآخرين موضوع حديث أي رجلا غريبا. عليّ أن أقول مع هذا أن إدارة المعمل والرؤساء لم يقولوا لي شيئا عن المسألة اللباسية.

كان هذا المعمل ملكا لشركة موريس فرينغس وشركاؤه، وكانت تتكلف بتحويل الأقمشة. ففي المحل الذي كنت أعمل فيه، في الدائرة العشرين، نهج فيتروف. كنا متخصصين في الأعمال النهائية. ولهذا بدون شك نجد أن اليد العاملة النسوية أكثر

من الرجالية. في البداية ومدة شهر تقريبًا، كنت أقوم بسدّ الحاجة". وفيما بعد دخلت مصلحة الاستقبال والتغليف.

مادمت سداد الحاجة، كان في الإمكان إرسالي في الشاحنة مع بعض رفاقي إلى محطة لاشابيل لارسال أكياس كبيرة من المنتوج الكامل الصنع والرجوع برزم كبيرة من القطن الذي لم يتم تحويله بعد. وكان هذا عملا صعبا خاصّة وأني غير متعوّد عليه. كان رفاقي الفرنسيون يضحكون على قلة مهارتي فأوّل مرّة بعثوني في منتصف النهار للقيام بإرسال، كان رفاقي العمّال المجربون يخرجون مخلاة أكلهم ويأكلون. أمّا أنا فلم أقدر شيئا من هذا. فناداني أحد العمّال: "تعال تأكل معنا، يا صاحبي" قال هذا بلطف بعد أن أخذ بيدي. إن هذه الحركة قد كان لها الأثر البليغ في كياني. قبلت كل ما أعطيت إلا الخمر ولحم الخنزير. وتحدثنا فقال أحد رفاقي: "إن لم ترد الموت بعد ثلاثة أشهر، لا بدّ أن تأكل جيّدا وأن تشرب لترك من الخمر في اليوم وإلاّ فسوف لن تتجاوز الشتاء". وواصل رفيق آخر قائلا: "إن هذا العمل ليس لك، لن تستطيع تحمله طويلا. لابد أن نضعك في الكتابة. عندما ندخل سأخبر رئيس الفوج". فقد شكرتهم كثيراً على هذه الخدمة وعلى الكلمات الجميلة وأكدت لهم أني في صحة جيدة. وقلت لهم أنه ينقصني قليل من الخبرة والعادة. وخلال النهار كنا نتحدث عن العمل وحقوق العمال و"القرد" _ وهي كلمة يقصد بها ربّ العمل" _. وقد كانت محادثات ساخنة حول بلادي وديني وأخلاقي ومصير المرأة العربية. ولاحظت أن العمال الفرنسيين يجهلون تقريبا كل شيءٍ عن وضعيتنا وعن حضارتنا وعن تاريخنا. إن وصولنا إلى غاية بواتيي سنة 732 كانت تعتبر على أنها غزوة.

شيئا فشيئا بدأنا نتفاهم ويقترب بعضنا من بعض. ولكن في البداية كانوا يطلبون مني لماذا أتيت إلى فرنسا مع سابق تفكير يقصد به أني أستولي على منصب شغل لعامل فرنسي وعندما لا يريد الذي أناقشه فهم شروحي كنت أرجع له الكرة: "وأنت وذووك لماذا أتيتم عندنا؟". لم تكن هذه المناقشات عديمة الفائدة. كانت تسمح لي بمعرفة تفكير رفاقي الفرنسيين كما تسمح بالتدريب على الكلام وعلى المناقشة وعلى الدفاع عن قضيتنا. ثم إني كلما تحدثت تعلمت الفرنسية وكلمات جديدة. كنت في بعض الأحيان أتكلم عن الدين وبالتالي عن الإسلام وعن معرفتي المحدودة في هذه المادّة. كان من يتحدث معي يندهش من قوة تديني. وكنت كذلك مندهشا بدوري أنهم كانوا ينقدون الكنيسة والكهنة بوقاحة لا أقبلها.

إن التلمسانيين الشبان في باريس كانوا قد تعودوا على الاجتماع في شارع ديدرو في مقهى اسمه : "مقهى السيدة بوشا" باسم ربّة المحل كما كانوا يقولون. كانوا يشربون القهوة تقريبا بدون انقطاع ويدخنون كثيرا. عندما ذهبت لرؤيتهم، استقبلوني بلطف كبير وسألوني عن أخبار أقربائهم في تلمسان. وقال أحدهم وهو يضحك: "كما ترون، هذه هي محطة ليون هنا أمامنا فإذا ما عاودني الحنين، فإني لن أتردد في الذهاب حينًا" . كنت أعرف الأغلبية منهم لأنهم نادرا ما يتجاوزون الثلاثين.

إن المواطنين قد اشتكوا أمامي من أعمالهم وأجورهم وكذلك من بعض العنصرية من طرف الفرنسيين. ثم مررنا إلى السياسة، إلى قانون الأهالي، إلى حرب الريف وإلى مصطفى كمال. وقد تناقشنا خاصة عن الانتخابات في تلمسان وعن السياسة الاستعمارية. إن البعض كان يبدي الرغبة في الانضمام إلى صفوف الأمير عبد الكريم. كنا نتحدّث منذ زمان عندما رأيت مجيء تلمسانيين آخرين جاؤوا لزيارة أصدقائهم. وهؤلاء كانت لهم هيأة جيدة ومظهر بشوش. وكان البعض منهم تصحبهم صديقاتهم الفرنسيات وكن ودودات جدّا. وكان يبدو عليهن أنهن مسرورات باقتسام حياة مواطنيّ. قالت لي إحداهن بلهجتها الباريسية : "إن صديقي لطيف، إنهْ غضوب وانفعالي نوعا ما، ومع هذا له قلب طيب ومزاجه لا يدوم طويلا" . إن هذه الزيارة للجالية التلمسانية قد كان لها مفعول طيب علي. فقد سمحت لي بالانغماس في وسط هو غال عليّ.

وفي يوم من أيام ديسمبر 1923. كنت متواجدا في المعمل في نهج فيرتوف وكنت منهمكا في العمل وأنا أُسَمِّرُ أكياسا، فإذا بالسيد هيلي، نائب المدير، مرّ في مصلحتي للقيام بمراقبة عادية. فتوقف لحظة وسألني إذا كنت فرحانا بعملي. فأجبته أن كل شيء على ما يرام في المعمل ولكني أحس بالوحدة تستولي علي منذ بعض الوقت. وقلت له بأني أحبّ أن أعرف مكانا يلتقي فيه المسلمون للقيام بالصلاة والاحتفال معا بالأعياد الاسلامية. قبل كل شيء طلب منّي ألا استسلم للوحدة، ثم ضمن لي أن الأيام الجميلة سترجع مع شمس الربيع ثم قال لي بأنه سيتكلف بالمسألة الثانية. وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى أعطاني عنوانا لجمعية، "الأخوة الاسلامية" . كان مقرها في رقم 19 من نهج "بلانش" في قاعة المهندسين المدنيين في باريس وكانت تجري اجتماعاتها كل أيام السبت في نهاية النهار.

ثمانية أيام بعد ذلك وعلى الخامسة بعد الزوال كنت أمام القاعة، لابسا ثيابي ومن بين من وصلوا في الأول. فأدخلوني في قاعة صغيرة وجميلة ومكسوة بالزرابي. أوّل آية قرآنية قرأها السيد شارفيس وهو شخصية فرنسية سامية دخلت الدين الإسلامي. ثم قلنا دعاء نستجدي فيه فضل الله ورحمته. وبعد ذلك بدأ الأشخاص الحاضرون في تبادل السلام بصوت منخفض. بمجرّد ما رجع الهدوء قمت وقدمت نفسي: "سيداتي، سادتي أنا جزائري مسلم وصلت إلى باريس منذ شهرين. وأنا الآن أعمل في حيّ الأب لاشيز حيث أسكن. لست حرّا إلاّ في يومي السبت بعد الظهر والأحد. أود لقاء المسلمين مثلي من وقت لآخر لنستطيع الصلاة معا ولكي نتساعد حسب مبادئ ديننا". فرحب بي السيد شارفيس وشرح لي هدف الجمعية في هذه العبارات: "حب الله والتعاون والصلاة والاحتفال بالأعياد الإسلامية واللقاءات في كل خمسة عشرة يوما في هذا المكان بالذات".

فقد لاحظت خلال هذا الاجتماع الأول حضور بعض النساء من طبقة عالية والمقصود بهن أميرات مصريات كن بدون شك مارات بباريس. فقد كنت من المحقق العامل الوحيد في المعمل وسط هذا العالم الكبير المكون من باشاوات قدماء وشخصيات فرنسية وجزائرية مسلمة من بينهم المدعو كسوس الذي كان من دون شك من عائلة كبيرة من الجزائر العاصمة. وأثناء الاجتماعات الأخرى التقيت بكثير من الناس. فقد عرفت بصفة خاصة السيد ديني، هذا الفرنسي الذي اعتنق الإسلام كان فنانا كبيرا ويرسم بروعة العرب في حياتهم الصحراوية. و هو نفسه كان يعيش في بوسعادة في الجنوب الجزائرية حيث كانت له ملكية جميلة جدا. فقد أدى فريضة الحج في مكة المكرمة وكتب مؤلفا يذكر فيه احتفالات البقاع المقدسة. كانت الشخصيات العربية الإسلامية التي تمر بباريس تؤدي أحيانا زيارة إلى جمعيتنا ويساعدونها ماليا.

فبعد انتسابي إلى الجمعية لم أتغيب ولو مرة واحدة. فقد كان هذا بالنسبة لي اتصالاً ودّيا و مفيدا وكيفية للبقاء في الإتصال المباشر مع الشّرق العربي الإسلامي الذّي كان يسحرني. فقد كنت مندهشا عندما رأيت ألا أحد يتكلم عن محاضرة لوزان[1] عن حرب الريف بينما كانت الصحافة منشغلة بهذين الحدثين العظيمين. ولم يتم الحديث عن الانتخابات في الجزائر ولا على أحداث تونس. كنت أفكر بسذاجة أن هذه المشاكل سيتم تناولها في وقت أو في آخر.

---

(1) هذه المحاضرة في سنة 1923 قد أدت إلى عقد معاهدة تسمح خاصة لتركيا أن تسترجع الأراضي التي خسرتها في حرب 1914-1918.

ففي يوم من الأيام كان علينا أن نناقش تسيير الجمعية و تجديد مكتبها. كل هذا استغرق ساعتين. فالرئيس شارفيس صرح إذن جدول الأعمال قد نفذ. وقبل أن يرفع الجلسة، أراد أن يعرف إن كان هناك من له شيء يقوله. لم يتكلم أحد، فتسلحت بالشجاعة وقمت بالتصريح التالي: "سادتي إخواني في الإسلام الأعزاء، أنا مسرور جداً لجمعية الأخوة الإسلامية وباجتماع اليوم كنت أظن أننا ننحني على مصير الجزائريين سواء في فرنسا أو البلد فنحن وجمعيتنا هنا في باريس نستطيع القيام ببعض المساعي لصالح إخواننا الذين هم بؤساء حقيقة غادرت بلدي للمجيء إلى فرنسا لأنني ظننت أن في باريس نستطيع أن نجد نوابا ورجالا ذوي نوايا طيبة للتدخل لدى السلطات لتأخذ وضعيتنا في الاعتبار".

كان هذا المطلب قد تم بهدوء حتى تخال انه بلهجة دعاء. إلا أن هذا قد أثار زوبعة. إن بعض الجزائريين قد غضبوا كثيرا. فضغطوا علي بالأسئلة وطلبوا مني أن أوضح موضوع تدخلي في محاولة لخلط أفكاري، إن السيد شارفيس الذي كان ساكتا حتى الآن تدخل بلباقة وطلب مني هو كذلك أن أقول ما أريد أن تفعله الجمعية لصالح الأهالي الجزائريين. على أن أعترف أن هذا السؤال قد سهل مهمتي لأنني كنت منفعلا من ردة الفعل العنيفة من طرف مواطنيّ و التي لم أكن أنتظرها. فطلبت إذن أن يتكون وفد من الجمعية ليطلب من الحكومة إلغاء قانون الأهالي وإعادة حقوقنا. ولكن هذا التدخل أثار ثائرة أعنف عند "البني وي وي". فأحدهم وهو تاجر كبير في الفحم وكان واقفا ورائي انحنى وقال لي بصوت مرتفع أننا من غير فرنسا في الجزائر سنأكل البلوط.

وفي هذا الوقت أخذني السيد شارفيس من يدي وحكا لي مايلي : "منذ بعض الأشهر عند إقامتي بالجزائر العاصمة حدثني بعض الأصدقاء المسلمين عن الوضعية المأساوية للأهالي ورجوا مني أن أتدخل لدى الحاكم العام لأطلب منه أن يفعل شيئا ما للاعتراف للأهالي الجزائريين بحقوق مكافأة لهم على سلوكهم في الحرب. فطلبت من أصدقائي العاصميين بأن يكونوا وفدا واقترحت عليهم أن أقوده شخصيا عند الحاكم العام. حدد الموعد وعين اليوم. فصدفني إن شئت فلم يأت أحد للموعد لأسباب واهية وبقيت وحدي في وضعية صعبة للغاية و مؤلمة أمام الحاكم والرأي العام".

مما كان يخاف برجوازيونا الجزائريون الذين تخلفوا عن الموعد للذهاب في وفد إلى الحكومة العامة ؟ من الاستعمار الذي لا يريدون الإساءة إليه؟ فالحركات

الإصلاحية في تلك الفترة كانت تكتفي بالقليل بينما كان الشعب ينتظر مطالب جوهرية. فالواقع في ذلك الوقت أنهم كانوا يبقون على الخوف بالتهديد والوعيد. فلهذا ولا شك في ذلك أني كنت الوحيد في جمعية الأخوة الإسلامية الذي يدافع على حقوق الشعب الجزائري. فقد سمح لي هذا التدخل أن أقدر استعداداتي أي نقائصي واندفاعي. فقد شعرت بالارتباك الذي استولى علي عندما قمت بالتدخل. لم أكن متأكدا من نفسي وهذا راجع في جزء كبير إلى نقص معلوماتي. فقررت أن أبدأ العمل لأتعلم وأقرأ بكثير من الانتباه.

في الأوساط المغاربية في باريس، كنا نتحدث بشغف عن أحداث الريف وعن شخصية الأمير عبد الكريم. إن العمال الجزائريين كانوا جميعا يحتفظون في جيوبهم بصورة الأمير وبقصاصات الجرائد التي تتحدث عن شجاعة جيشه. إن اليسار في فرنسا وخاصة الحزب الشيوعي كانوا يساندون الثورة الريفية.

كان الشيوعيون ينظمون تجمعات كبيرة. في سنة 1924، حضرت في الصيف في أحد هذه التجمعات الذي كان يندرج في قاعة كبيرة في "بورت مايو"[(1)] ومن بين الخطباء، كانت هناك امرأة جميلة جدا وشهيرة في الحزب الشيوعي قد ألقت خطابا هاما وذا المدى سياسي عمال. إن سحرها وفصاحتها كانا يزيدانها جمالا. وكانت الجماهير تقاطع خطابها بتصفيقات حارة. أمّا الجزائريون فكنا نرتشف كلامها وردودها الجميلة.وفي نهاية التجمع، حاولت أن أتوصل إلى رؤيتها والتعجب منها عن كثب. كانت محاطة ببعد كبير من المناضلين الشيوعيين الذين كانوا يسهرون على امنها.

كان بودي لو شكرتها مباشرة على كل ما قالت لصالح القضية المغربية. فابتداء من هذا اليوم صارت جريدة "اليومانيتي" جريدتي المفضلة حتى ولو أنني كنت أشتري كذلك "لوتان".

فقد حضرت لأول مرة في انتخابات تشريعية في العاصمة الفرنسية في مايو 1924. كان شعب باريس شغوفا بهذه الانتخابات. ثلاث مجموعات سياسية كانت تتنافس فوق الحلبة على البرلمان والحكومة. فمن جهة كان التجمع اليساري الذي

(1) أول عمل من جملة الحزب الشيوعي الفرنسي لصالح عبد الكريم كان تلغرام التهنئة الذي وقعه ديريو وسنمار نشرته جريدة اليومانيتي بتاريخ سبتمبر 1924

كان يجمع الحزب الراديكالي الاشتراكي، والحزب الاشتراكي الفرنسي والحزب الشيوعي الفرنسي. ومن الجهة الأخرى نجد اليمين الذي كان يجمع عدة حركات سياسية معروفة جدا لدى البرجوازية الفرنسية. ثم في جهة أخرى منعزلة نجد العمل الفرنسي الذي كان في برنامجه السياسي العودة إلى الحكم الملكي. كانت الحملة تندرج في اجتماعات عمومية غالبا ما تكون في المدارس وكذلك عبر الصحافة. وكان كذلك يتم توزيع المنشورات و الكتيبات.

في تلك الفترة كنت أسكن في الدائرة العشرين حيث يعيش جنبا إلى جنب طبقة عمالية هامة وحرفيون وبرجوازيون في طريق النمو. وقد كان كذلك هناك جالية جزائرية لم يكن لها الحق في التصويت. فقد كنا وقتئذ أناسا فرنسيين خاضعين لقانون الأهالي أي علينا القيام بكل الواجبات دون أن يكون لنا أي حق. إن رفاقنا الشبان كانوا لا يعرفون شيئا و يطلبون منا ما هي أفكارنا حول الانتخابات الجارية ولمن سنعطي صوتنا. والذين كانوا أكبر سنا فإنهم كانوا لا يجهلون وضعيتنا المأساوية وكانوا يقترحون علينا في النهاية الانخراط في الحزب الشيوعي لتحطيم الرأسمالية شاربة دم العالم.

إن هذه الشروح مع سكان حيّي كانت تعجبني وكانت تحثني على المشاركة في الحملة الانتخابية لأتعلم. وهكذا وبالاتفاق مع صديقتي الصغيرة قررنا الحضور في الاجتماعات التي كانت ثورية.

إن انتخابات 11 مايو 1924 قد مثلت بالنسبة لي، دورة تدريبية في الإعلام والتربية السياسية. كنت كذلك أقرأ الصحافة والمناشير والكتيبات وكل ما يقع تحت يدي. كنت أحب هذه الأشياء كما نحب بعض الرياضة أو لعبة الشطرنج.

كانت تسود التجمعات الشيوعية أخوة كبيرة وكلمة "رفيق" كانت تأخذ كل معناها البشري. فقد وجدت أن هذه الكلمة لها شيء من المعاني الدينية. فالمتدخلون الأوائل كانوا دائما بسطاء، فصحاء و لاذعين. كانوا يعالجون المشاكل مثل وضعية الجرحى ومعطوبي الحرب والمنح والبطالة والرواتب الضعيفة وإعادة بناء الجهات التي دمرتها الحرب. كانوا كذلك يتحدثون عن الرأسمالية وعن استغلال الإنسان وعن الظلم الاجتماعي وعن الضرائب وعن الأربعين ساعة في الأسبوع. إن الخطباء الكبار مثل ديكلوا وغابان كوتوريي وكاشين ودوريو وغابريال باري يعالجون بصفة خاصة كبريات مشاكل الساعة : الاعتراف بالاتحاد السوفياتي والسياسة

الكارثية للحكومات السابقة وانتخابات 11 مايو المقبلة. كانوا يناقضون بكل قوة السياسة الاستعمارية التوسعية للحكومة الفرنسية. فقد كنت مندهشا من معرفتهم الدقيقة للمشاكل الاستعمارية. كانوا يقولون: " نحن الشيوعيين الفرنسيين نوافق استقلال الشعوب المستعمرة ولهذا نحيي هنا مولد الجمهورية الريفية لعبد الكريم". ووجهت نفس التحيات لتركيا الجديدة. كما كان كذلك للجزائر وتونس والمغرب مكان في خطبهم الانتخابية.

وذهبت كذلك إلى اجتماعات أحزاب أخرى. لم يأت ذكر المشاكل الاستعمارية في أي وقت من خطبهم. كان الخطباء في هذه التجمعات يذكرون بانتصار فرنسا وبرجوع الألزاس/لوران إلى الوطن الأم ويذكرون بالسلوك البطولي لجنودنا أثناء العدوان وشجاعة الأهالي من مستعمراتنا. كل هذا كان يبدو لي كئيبا ومملوءاً بالنفاق.

ففي يوم من الأيام وعند خروجي من العمل توقفت أمام ملصقات جداريه ولوحات إعلانية لقراءة تواريخ الاجتماعات الانتخابية وأسماء الخطباء وانتمائهم السياسي. وفجأة رأيت اسما عربيا في القائمة الحاج علي عبد القادر كان متقدما للانتخابات كمترشح شيوعي فرنسي. فقد كنت مندهشا ومسرورا، فقد ذهبت إلى الاجتماع الذي أقامه في مدرسة من ساحة لاريونيون قرب المعمل الذي أشتغل فيه. فسمعته يعرض البرنامج السياسي لحزبه ولاحظت بأنه في مستوى ترشحه. وعندما كنت استمع إليه كنت مغمورا بالأنفة والسرور الكبيرين. فقد صفقت عليه كثيرا. وفي نهاية التجمع اقتربت منه وسلمت عليه بالعربية وهنأته على تدخله الذي ندد فيه بالظلم وبقانون الأهالي. فتبادلنا بعض الكلمات وبعض التمنيات ثم افترقنا بعد أن اتفقنا على تاريخ موعد فيما بعد.

ثلاث أسابيع بعد الانتخابات التقيت بالحاج علي عبد القادر في داره في نهج "الشجرة اليابسة". إن دكانه لبيع الخردوات كان على مشارف الأسواق (لي هال) قرب المغازات الكبرى للسمريتان. بقينا معا جزءا كبيرا من الصبيحة. الحاج علي عبد القادر حدثني خاصة على أهمية الاتحاد السوفياتي ودوره في تحرير الشعوب المستعمرة. وأضاف: "لهذا السبب، يجب أن ينخرط المغرب العربي في الدولية الثالثة، فهي لوحة النجاة الوحيدة التي نملكها للتخلص من الامبريالية"

قد ظهر لي الحاج علي في صورة شخص متأثر كثيرا بالاديولوجية الشيوعية التي كان يستعملها بكثير من المهارة. أصله في نفس الوقت من معسكر ومن غيليزان،

فقد كان ذكيا ومهذبا ومحبا للحياة. إن إقامته الطويلة في فرنسا وانتهاءه إلى الحزب الشيوعي الفرنسي لم تحدث تغييرا لا في عروبته ولا في عقيدته الإسلامية. قبل أن أنصرف قدّم لي زوجته التي كانت بروطون. ثلاثة أشهر بعد ذلك صرنا أصدقاء، بل كانت صداقتنا جيدة.

سمعنا في جوان 1924 أن الأمير خالد الذي كنت أظن أنه في المنفي في دمشق، سيعقد اجتماعا عموميا في باريس. وإن لم تخني ذاكرتي فإن هذا الاجتماع قد انعقد في قاعة دار المهندسين المدنيين في نهج "بلانش"[1] كانت القاعة مكتظة. كان الحضور من متكونا من الرجال والأطفال سواء مغاربيين أو فرنسيين. كان هناك عدد كبير من الصحافيين الفرنسيين والأجانب. والشخصيات الجزائرية من جمعية "الأخوة الإسلامية" كانوا من بين الحضور. فقد عرفت خصوما في القاعة السيد أحمد بهلول والسيد دمرجي والحاج علي عبد القادر والسيد أحمد بغلول والسيد قاجة باش ومثقفون آخرون لم أكن أعرف أسماءهم. كان الشيوعيون متواجدون بكثرة ومن بينهم تعرفت على الأستاذ آندري بروتون. كنت مع مجموعة من التلمسانيين حيث كان السيد أحمد تيزاوي وزوجته وبنته التي مخطوبة من حسين بن عاشنهو وأصدقاء آخرون.

وبالتالي فقد ظهر الأمير خالد في وسط حفلة جزائرية حقيقية. إن لونه الأسمر ولحيته السوداء وعينيه السوداويين كلها كانت تبرز بصفة قاطعة بياض ملابسه. كان مفعما بالوقار والشرف. وعندما وقف لالقاء خطابه وقف كل من في القاعة في نفس الوقت وصفقوا له مدة عدة دقائق. فبعد كلمات التحية،ألقى خطابا مكتوبا بالفرنسية مدة ساعتين تقريبا. كان يلعب بصوته حسب المشاعر التي كانت تحركه وكأنه لاعب بيانو يلعب باللمسات على لوحة المعازف ليعبر عن انفعالاته وشعوره ووطنيته. كانت القاعة تستمع إليه بهدوء وباحترام كبير. وفي فترة الخطاب أرسلت السيدة أحمد تيزاوي زغردة وصيحة فرح كسرت الصمت وأثارت حماسا لا مثيل له، مثل ما نسمعه في أوقات الفنطازية. فقبل أن يواصل خطابه هتف الأمير: "هذا من علامات السعد ويدل على أن الذي نفعله في هذه القاعة وفي قلب باريس إنما هو

---

(1) الأمير خالد الذي كان منفيا في مصر. صرح في اليومانيتي بتاريخ 3جويليا مجيئه إلى فرنسا بصفته مدافعا عن قضية الأهالي. فقد ألقى يوم 12جويليا محاضرة تم نشرها تحت عنوان "وضعية المسلمين في الجزائر" .وقد ألقيت نفس المحاضرة يوم 19جويليا.

شيء من الخير لأن المقصود منه الحرية وهي مفتاح الرفاهية والتقدم، لكن سيدتي العزيزة ولتحية زغردتك كما يقتضي الحال كان ينبغي أن يكون حصاني وبندقيتي لنفسح المجال للغة البارود وهو أحسن الأجوبة في حياتنا وفي تقاليدنا العربية" .

إن البرنامج السياسي للأمير خالد هو نفس برنامج الإصلاحيين. المقيد أنه يطلب إلغاء قانون الأهالي وتحسين الوضعية الاقتصادية وتمثيل برلماني من ستة نواب وثلاث أعضاء في مجلس الشيوخ. ولكنه لم يتكلم عن مشكل استقلال الجزائر. لم ينطق بالكلمة ما تكلم أحد عن هذا في الحقيقة لأن المطالب الأكثر تهوراً حينئذ كانت تطالب أن تتم معاملتنا على قدم المساواة مع الفرنسيين.

وفي باريس كنت أعاشر الحاج علي أكثر فأكثر. كان يكلمني كثيرا عن لينين وعن قيمته وعن معلوماته. كان يقول لي بأنه كان لا يجهل شيئا عن أي مشكل فوق كوكبنا. الحاج علي كان كذلك يشرح لي أهمية الدولية الثالثة و الكتب التي ينبغي قراءتها عن الإيديولوجية الشيوعية وقد تفطنت إلى أن الحاج على كان يلعب دورا هاما في صفوف الحزب الشيوعي[1].

وفي نهاية العام 1924، كان لي معه محادثة على انفراد دامت عشية كاملة استمع إلي باهتمام كبير وألقى عليّ أسئلة كثيرة وطلب مني بعض المعلومات على حرب الريف وعلى الفكرة التي تكونت لدى التلمسانيين عن الحزب الشيوعي الفرنسي. وبعد هذا غالبا ما كنا نرى بعضنا وهو بدوره أعطاني العديد من المعلومات المفيدة. كنت أظن وأحسب بأن الحاج علي مهتم بي كثيرا. كان يقول الكثير من الأشياء وأحيانا كان يسرّ لي الكلام حقيقة.

لاحظت في محادثتنا أني لا أرى الأشياء كما يراها هو الذي يحكم على كل شيء فقط بصفته شيوعيا وماركسيا، وهذه كيفية لتقدير الأشياء وتحليل الأحداث لم أكن أعرفها. ومن بين الجزائريين الذين يعاشرون الحاج علي واحد كان مشغوفا باللينينية وكبار الماركسيين الروس والألمان والفرنسيين. في الواقع كنت أشعر بأني ناقص أمام هؤلاء الرجال. وفي يوم من الأيام استدعيت من طرف أحد أصدقائي إلى تناول القهوة في نهج أوردنار، في الدائرة الثامنة عشر. وهنا وجدت كذلك أربع جزائريين قد تم

(1) كان الحاج على عضوا في اللجنة الاستعمارية للحزب الشيوعي الفرنسي التي كانت، في يناير 1924 تتكون من عشرة أشخاص ومن بينهم ثلاثة جزائريين. ليربان السكرتير الأول وعبد العزيز منور السكرتير الثاني كانا يمثلان اللجنة لدى اللجنة المديرة.

تقديمي لهم كصديق للحاج علي. وانتهى الكلام إلى الحديث عن الوضعية في الجزائر والحزب الشيوعي الفرنسي. إن مواطنيّ الأربعة أفادوني بأن المقهى كان شيوعيا وأننا نستطيع الكلام بدون خوف. وقد تمت محادثات أخرى في عدة مناسبات في هذا المقهى ودون أن أعرف ذلك كنت أتوجه بهدوء ولكن مباشرة إلى منهج الشيوعية.

في ذلك الوقت أي في أكتوبر 1924 قد كانت لدي انشغالات أخرى وهموم أخرى. فبالاتفاق مع صديقتي قررت أن أجد عملا آخر غير بعيد عن منزلنا في نهج الراحة لأكون مفيدا أكثر ولأربح قسطا زائدا من الدراهم. كما كانت رغبتي الاقتراب أكثر من وسط باريس الذي كان يجلبني كالمغناطيس. فأعلمت رؤسائي في المعمل من نهج فيرتوف بأني أبحث عن وضعية جديدة وبالتالي فإنني سأتوقف عن العمل ابتداء من 1نوفمبر 1924.

ووجدت بالفعل بضعة أيام بعد ذلك عملا في معمل جديد عند "مولار و"روجار"، قريبا من نهج الراحة في شارع فيليب أوقست. كان بعض المواطنين هنا يقوم بأعمال قاسية لإذابة المعدن وقولبة أجهزة الحنفيات. إن الورشات التي يتم فيها هذا العمل كانت تشبه جهنم. وليكون هؤلاء العمال مرتاحين في حركاتهم كان عليهم أن يعملوا عراة الصدور. لم أبق هنا إلاّ شهرين لأنني لم أتوصل إلى التفاهم مع رئيس العمل . ومباشرة بعد ذلك وجدت عملا في دار للقبعات كانت توجد أمام مقهى انجلترا في شارع بواسونبار ولكنهم أخذوني فقط إلى غاية أعياد نهاية السنة. ثم بعد ذلك دخلت كعون لتسلم البضاعة عند "لانسال" وهي دار كبيرة في شارع الإيطاليين. كنت أتقاضى 500فرنك في الأسبوع بالإضافة إلى المكرومات. كنت أستطيع الخروج لأي نوع من الأسباب وأنتقل عبر طرقات باريس. كنت أحب هذا. وقد كان مفيدا لي جدّا. وبالفعل فابتداء من شهر مارس 1925، بدأت أستقبل مواد أهلية كان يرسلها لي صديقي عبد الرحمان. كان علي بيعها في باريس لتحسين مداخلي.

في سنة 1925 مازالت حرب الريف تأخذ حيّزًا هاما في الصحافة وفي انشغالات الرأي العام. فالمنتخبون الاشتراكيون أنفسهم كانوا منقسمين في المسألة. فالحكومة الفرنسية بينما كانت تتحدث عن السلم وحتى عن المفاوضات مع الأمير عبد الكريم، كانت تربح الوقت لإنهاك الريفيين بغية تحطيمهم وذلك بالاتفاق مع الأسبان. كان منتخبون شيوعيون يتناولون الكلمة في الاجتماعات العمومية الكبرى ليشرحوا للشعب الفرنسي النوايا السيئة للرأسمالية التي كانت تريد عبر حرب الريف

والبعثات الحربية إلى سوريا توسيع استغلال الشعوب في الشرق وفي شمال إفريقيا. ذهب شيوعيون - ومن بينهم دوريو وهنريات وبيار سيمار- إلى الجزائر لمحاولة الاتصال مع الأمير عبد الكريم وتبليغه مودة وتضامن الفلاحين والعمال الفرنسيين. ثم أرسلوا دعوات إلى الجنود الفرنسيين يطلبون منهم المؤاخاة مع المحاربين الريفيين ضد الاستعمار والرأسمالية. أرسل شابان مسيران من الشبان الشيوعيين إلى الجزائر العاصمة للقيام بالكفاح في عين المكان ضد الحرب في الريف ومحاولة ربح ثقة الجزائريين[1] هذان الشابان قد سجنا في سجن بربروس حيث قاموا بالإضراب عن الطعام فتحصّلوا على النظام السياسي وهو فائدة كبيرة لهم ويجب أن نعترف بذلك. إن شجاعتهم وإصرارهم قد أثار إعجاب شعبنا سواء في الجزائر أو في فرنسا.

فقد كان من الإنسانية بمكان أن الجزائريين من جهتي البحر الأبيض المتوسط قد وجهوا آذانهم إلى الشيوعيين وإلى دعايتهم. ومع ذلك ورغم الذهاب إلى الشيوعية من دون إيديولوجيتها، فإن العمال المغاربيين كانت ثقتهم أكثر في الشيوعيين المغاربيين أكثر من الشيوعيين الفرنسيين أو الأوربيين فقد كنا نثق في الحاج علي أكثر من بيار سيمار السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي.

إن اجتماعا للعمال المغاربيين قد تم تنظيمه في ربيع سنة 1925 في دار النقابات من طرف الحزب الشيوعي وقد حضره النائب الشيوعي دوريو، قد جاء المغاربيون بكثرة لأن التجمع قد نظم يوم الأحد. وقد كان في جدول الأعمال ثلاث نقاط: وضعية العمال المغاربيين في فرنسا والمشكلة النقابية والوضعية في الجزائر. لم يكن الحاج علي حاضرا ولكن حضر جزائريون آخرون وهم خطباء جيدون تقريبا ومتشربون شيئا ما بالشيوعية وكانوا يتحدثون بجدية كبيرة.

فمن بين الجزائريين المئتين الحاضرين لم أكن أعرف إلاّ خمسة عشر. فقد تحدثنا كثيرا عن ثمن الانخراط في الكنفدرالية العامة الموحدة التي أصبحت موضوع مساومة حقيقية وهو الشيء الذي نفهمه جيدا. إن العامل الجزائري كان له أجر زهيد. أضف إلى هذا أنه كان مجبرا أن يرسل إلى أهله أكثر من نصف مداخليه. ولكي يواجه هذه الوضعية كان عليه أن يمتنع إلى درجة أنه يمرض أحيانا أو يموت. فكل الجزائريين تقريبا كانوا حاضرين وكانوا لابسين أشياء نظيفة ولكنها توحي بفقر شديد.

---

(1) في الحقيقة أرسل الحزب الشيوعي ثلاثة نواب عنه إلى الجزائر العاصمة وقد تم إيقافهم وهم يحملون تعليماتهم في منتصف يوليو. وشهران بعد ذلك استطاع الحزب إدخال شابين دائمين: لويس وآندري شنيدر.

قد ذهبت إلى هذا الاجتماع لأستعلم وأتعلم لا لإلقاء خطاب ولكنه قد تم النطق باسمي واستدعاني رئيس الجلسة أن أصعد إلى المنبر. أعترف بأنني قد تفاجأت في أعماقي ولم أدر ما أقول ولا كيف أبدأ. وهاهو ما ارتجلته وقتئذ: "إخواني الأعزاء أنا مسرور لوجودي بينكم اليوم. أعتقد أن هذا اليوم يوم عظيم نعيشه.إن الله معنا وأتمنى أن يكون دائما معنا. إننا نريد العدل والحرية لبلادنا. وفي تاريخنا قد كان لنا خليفة عظيم قد نصر العدل كل العدل وهذا الخليفة العظيم هو عمر بن الخطاب. فقد كان ومازال محترما من طرف جميع المسلمين فقد كنا امبراطرية كبيرة تنطلق من الأندلس في اسبانيا إلى الصين. واليوم نحن بؤساء ومفرقين وفقراء. نحن في ديارنا أقل قيمة من الأجانب. لماذا هذا؟ لأننا ابتعدنا عن الله وعن المبادئ الإسلامية. لابد أن نرجع إلى الله إلى حضارتنا وإلى ماضينا التاريخي. ولذا لنحب بعضنا ولنتّحد على الله الباقي. هنا في فرنسا نجد أن بعض الفرنسيين الذين يفهموننا والذين هم مستعدون لمساعدتنا مثل رفاقنا الشيوعيين وآخرين. إخواني الأعزاء، إن الله قال بأنه يجب عليكم أن تتحركوا ولابد أن تفعلوا شيئا. إن الله لا يحب المتحجرين ولا يحب اليائسين".

إن المواطنين الذين يعرفونني والآخرين صفقوا عليّ وهنأونني. كان البعض يفضل أن أعالج المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية ولكن هذه المسائل كان سيقوم بتحليها دوريو وجزائريون شيوعيون. فبمناسبة هذا الاجتماع في دار النقابات قد تعرفت على عدد كبير من الشبان الجزائريين. فقد تآخينا وتعاهدنا أن نلتقي لمناقشة مشاريعنا ودراستها معا. كنت في هذا اليوم التلمساني الوحيد الذي حضر ولهذا قررت أن أزور أصدقائي الكثيرين لأعطيهم تقريرا ملخصا عن الاجتماع.

ذهبت مع صديقتي الصغيرة بعد ذلك بقليل إلى برونواي، إلى مزرعة الحاج علي. لقد استدعاني لنتبادل الأفكار عن الاجتماع ولنتكلم عن ذهابي القريب إلى تلمسان والذي تم تحديده قبل هذا الوقت، فاستقبلنا هو وزوجته بلطف كبير وذهبنا معا إلى غابة سينارت حيث قطفنا الأزهار الوحشية وزنبق الوادي. فقد كان الحاج علي على علم من تدخلي وبالتالي على المفاجأة التي أحسست بها. فهنأني ثم قدم لي بعض الملاحظات قائلا :"فقد كان التدخل بالنسبة لبعض الآذان موجبا نوعا ما إلى الدين وإلى ماضي الامبراطرية العربية. لابدّ من القراءة كثيرا لتعرف بعمق عدد من المشاكل الأخرى. ينبغي كذلك الحضور إلى العديد من الاجتماعات العمومية للحزب ولحركات سياسية أخرى للتأكد من الشاعر والمعارف. لابد من التحدث بل لابد من إثارة الحديث ولكن كذلك الاستماع إلى الآخرين".

لم أتجرأ أن أطلب من الحاج علي من قرر إعطائي الكلمة. ولكنني فيما بعد علمت بأن هذا قد جاء من الهيئات العليا للحزب الشيوعي. كانوا يريدون معرفة ما عندي في البطن و في الرأس. فبادئ ذي بدء لم أتقبل هذه الكيفية التي يشتم منها رائحة الشرطة، ولكن حياتي النضالية قد علمتني أن هذا النوع من التحقيق أمر عاد. يوم قبل ذهابي إلى تلمسان، زارني محمود بن لكحل وهو عضو في الحزب الشيوعي وقد جاءني من طرف الحاج علي ليبلغني بعض التوصيات وخاصة أن ألاحظ وأن أسمع ردّات فعل الجزائريين أمام الشيوعية.

فخلال إقامتنا في تلمسان، إن صديقتي الصغيرة كانت مدللة من طرف كل أعضاء عائلتي وجيراني وحتى كل حيي. ولم يكن أبي في هذا المجال هو الأخير. كان يحب مناداتها والكلام معها وإهدائها دائما بعض الأشياء الصغيرة التي تفرحها. كان يحمل لها البيض الطازج والفواكه من بستاننا والزبدة. كان يسهر على تغذيتها علما منه بأنها ليست متعودة على تغذيتنا. كان يقول لأخواتي: "بما أنها بعيدة عن بلادنا فلها الأسبقية على أيّ واحد. فإذا خدمناها وأحببناها وسهرنا عليها فإننا نفلح عند ربنا بأعمال صالحة جدا" . قد تصورنا صورا عائلية قد تم تصويرها فيها ببدله عربية وفي ديكور يشبه "الألف ليلة وليلة" . وقد أعطتها أخواتي اسما عربيا جميلا "جنينه" الذي يعني الحديقة الصغيرة. وإذا كان من ناحيتي ما زلت أناديها "صديقتي الصغيرة" وأنا أتحدث عن زوجتي، فإنني أعترف بكل طيبة أن هذه الكيفية في التعامل لا تتفق مع التقاليد واللياقة ولكني وجدت في هذه التسمية شيئا من اللطف والحلاوة.

أردت رؤية مجموعات أصداقي، الواحدة تلوى الأخرى لأقدر درجة الفهم والفائدة التي كانوا يعلقونها على الأحداث. فقد ظهروا لي كلهم في المستوى. قد حدثوني كلهم عن الدعاية الشيوعية وطلبوا مني ماذا يمكن أن ننتظر من هؤلاء الناس. في مقهى بن سماعيل قد خصص لي أصحابي القدماء استقبالا حارّا. ولاحظت أن الرياضة بدأت تتطور في البلاد بسرعة كبيرة. ولكن المشاكل السياسية الحالية هي التي كانت تشغل كل التلمسانيين خاصة وأن ميدان المعركة الريفي كان على بضع مئات الكيلومترات من هنا.

كما رأيت كذلك مجموعة المثقفين الذين كانوا يعتزمون الاغتراب معي ثم عدلوا عن ذلك. فقد صاروا الآن في عشية التخرج كمعلمين. كانوا يرون بأن الشيوعيين يستطيعون فعل شيء ما جديا لصالح الأهالي الجزائريين. فوضحت

لهم: "لابد أن يتم مساعدة الشيوعيين في أنشطتهم وإلا فلم تكن هناك أيّ نتيجة" فبعد مناقشة كبيرة اتفق أصحابي أن تفكيري صحيح.

كنت أريد لقاء أعضاء الزاوية الكبيرة التي كنت أنتمي إليها. ولكنه لم يكن بالإمكان خوض مناقشة سياسية في الزاوية، لأنها مكان مخصص للصلاة والتقوى والتأمل. فقد يكون من المفضل استعمال كيفيات أخرى وهي زيارة كل واحد على حدة في داره وفي كنف السر والهدوء. إن مريدي الطريقة الدرقاوية كانوا منظمين وجديّين ومنضبطين. إنهم يخضعون إلى قواعد وممارسات ولا يفعلون شيئا باستخفاف. فكنت إذن أذهب معهم في خلفيات دكاكينهم للغداء معهم أو شرب الشاي والتحدث طويلا عن كل مشاكل عصرنا قبل كل شيء كنت أقوم بعرض عام عن الوضعية في فرنسا ثم عن إقامتي في باريس ولقاءاتي مع مواطنينا وناس الحزب الشيوعي كانوا يستمعون إلي بانتباه حاد ثم يسألونني عن بعض التفاصيل، مثلا كانوا يريدون معرفة ماذا يفكر فرنسيو فرنسا وخاصة سكان باريس عن الوضعية في الجزائر وعن بروز مصطفى كمال وعن ثورة الريف. في الحقيقة كان مواطنونا بصفة عامة ينتظرون الكثير من فرنسيي فرنسا وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. كان يصعب علي أن أقول لهم كل الحقيقة في هذا الموضوع وأخيب أملهم.

فلكي أقوم بتأدية مهمتي في تلمسان فقد سبرت أعماق أفكار أصدقائي ومدى استعدادهم. كما فكرت أنه كان علي أن آخذ بعض العناوين لتسهيل المراسلة والاتصالات والمعلومات. كل هذا تطلب مني بالطبع أكثر من عشرة أيام من اللقاءات والمحادثات. عبر هذا التحقيق كنت أرغب في معرفة ما إذا كانت المشاعر الوطنية تحرك مواطنينا وكذلك هل هم قادرون على الانتماء إلى جمعية ما للدفاع عن مصالح وعن حقوق بلادنا ؟ هكذا فإن السيد محمد بن قلفاط الذي سيعين معلما في تلمسان بالذات قد أخبرني بصفة سرية أنه خلال عطلة 1926، سيأتي مع مجموعة من التلمسانيين لرؤية باريس. وهناك تلمسانيون تجار ورجال أعمال قد أخبروني بزيارتهم لباريس.

إن الزواج بين الأهالي الجزائريين والفرنسيات كان نادرا للغاية في هذه الفترة[1] فقد كانوا في الندرة على الأقل مثل التجنيس. في سنة 1925 في تلمسان كنا نعد فرنسية

(1) في الجزائر من 1939 إلى 1953 يعني في 15 سنة، تم تعداد 229 زواج جزائريين مسلمين بفرنسيات و153 زواج فرنسيين مع جزائريات مسلمات (المجموع 382) وفي وهران على التوالي 75 و39 (المجموع 114). وفي فرنسا تم تسجيل 400 زواج مختلط في السنة.

أو اثنتين متزوجتين مع جزائريين. إن الشيء الذي كان يفكر به الأوربيون عن زواجي مع فرنسية من فرنسا وخاصة من اللورين بلد جان دارك سهل للتخيل. كانوا يرون هذا الزواج بعين غير راضية وكانوا يعتبرونها مساسا خطيرا بنفوذهم وبكرامتهم كجنس متعالٍ. إن البعض من هؤلاء السادة ومن هؤلاء السيدات كانوا يقولون بغضب أن هذه الفرنسية يحتمل أن تكون سارقة أو عاهرة في الأحياء. كل الأوربيين الذين كانوا استعماريين–وقد كانوا كذلك في الأغلبية– كانوا يقولون أشياء قبيحة عن أيّ واحد يقوم بخطوة أو عمل محبوب نحو رجل من الأهالي. ومع هذا فإني لا أريد أن أنسى أن أصحابي الفرنسيين واليهود من تلمسان كانوا هم الأوائل لتهنئتي على زواجي من فرنسية. كما يجب علي أن أقول أيضا أن أثناء إقامتي في تلمسان وأثناء تنقلاتي مع فرنسيتي الصغيرة لم ينطق أيّ واحد لا فرنسي ولا يهودي بأيّ كلمات مزعجة تجاهنا.

فحين رجوعنا بعد إقامة دامت ثلاثة أشهر في تلمسان، كان علي أن أرى صديقي الحاج علي لأقدم له تقريرا عن سفري. فدعينا إلى برونواي وقضينا مرة أخرى يوما بين ملكية الحاج علي وغابة سينارت. فخلال هذه الجولة الريفية قمت بعرض تقريري. فقد سرّ الحاج علي بما قلته له، وأخبرني أن "أصدقاءنا" لهم الآن نية حسنة تجاهنا ولكنه قد يكون مهما جدًا كي تمشي الأمور في المدار الحسن أن أنخرط بصفة محب في الحزب الشيوعي الفرنسي. قال لي: " هذا يكون مفيدا لك ويسمح لك باكتساب المعلومات الضرورية لكل مناضل."

فقبلت وأرسلت إلى خلية في حيّي كانت تجتمع في محلٍ في نهج بلفورت في الدائرة الواحدة والعشرين. فقد كنت فيها مدة بعض الأشهر الجزائري الوحيد. ففي رأيي إن عمل الخلية كان مفيدا جدا حتى ولو كان بعض كيفيات التفكير تظهر لي صعبة الاستيعاب والمواضيع الخاضعة للمناقشة معقدة فمن حين لآخر كنا نستقبل شخصية، أستاذا أو معلما ليقدم لنا نحن المناضلين الشبان في ثلاث أرباع ساعة لمحة عن الوضعية الدولية في مجملها. كنا نتحدث دائما بهذه المناسبة عن دور الاتحاد السوفياتي وكان هذا يملأ قلوبنا فخرا. كنت مع رفاقي معجبين باقتسام قصور سياسي سيفرض نفسه إن عاجلا أو آجلا على كل مجتمعات الأرض.

فبعد انخراطي بقليل في الحزب الشيوعي، بدأت أحاط برفاق جدد من أصل جزائري. وهكذا فإنني عرفت سي الجيلاني ومعروف وبوخرط وغيرهم، أما معروف

وهو من مواليد مدينة الأصنام(الشلف) كان عضوا دائما في نقابة(C.G.T.U) الكنفدرالية العامة للعمال الموحدين. فدون أن يسألنا عن رأينا راح يسجلنا كمنخرطين. كان مرتبطا بعلي بوخرط الذي جاء من شرق فرنسا حيث كان يعمل في مصنع.

كان مواطنينا مثلي محمد مؤيدين للحزب الشيوعي ولكن دائما من غير فهم إيديولجيته، فقد انتابنا بسرعة نوع التعصب الذي غالبا ما كان يؤدي بنا إلى معارضة رجال ذوي قيمة كبيرة لأن هؤلاء لم يكونوا شيوعيين. فقد كنا سكارى حتى الأعماق بهذا الانتماء السياسي الذي كنا مستعدين لمواجهة كل الآلام من أجله. في الحقيقة إن كل شيوعيي هذه الفترة كانوا ملتزمين بأرثوذكسية عميقة. كنا نرى ذلك في نمط حياتهم ولباسهم وحديثهم عن عقيدتهم الجديدة. كانوا في هذا يشبهون المسيحيين الأوائل. ولكن فيما يخصني لم أصل إلى هذه المرحلة الأخيرة فالإسلام كان دائما يملأ قلبي و يحرك كل ذاتي.

بعد أن التقيت بالحاج علي وأصدقائي الجدد، استأنفت اتصالي مع رفاقي الجزائريين في نهج أوردنار الذي كنا نتردد إليه منذ أكثر من سنة. كان هؤلاء ينتظرونني بفارغ الصبر ليعرفوا أخبار البلد. فقد وجدوا أن سفري طال كثيرا. فمثل ما فعلت مع الحاج علي فقد قمت بعرض عام عمّا رأيت وعما تعلمت وعما سمعت. فقال أحدهم وهو شابٌ حكيم ومجرّب: "الآن يجب أن نفعل شيئا بأنفسنا ولأنفسنا، شيئا ملموسا وعمليا. لابد أن نسرع بإحداث هيأة وباختراع علم سنحارب باسمه من أجل كرامتنا وحريتنا واعتقادنا. إن رفاقنا الشيوعيين يقولون في اجتماعاتهم وفي صحافتهم وحتى في المعمل أنهم مستعدون لمساعدة المضطهدين. ربما هذا صحيح ولكن علينا قبل كل شيء أن نعتمد على أنفسنا فقد جعلنا الله فوق الأرض من أجل مهمة فعل الخير وإسعاف اليتامى والأرامل والمرضى والعيش الكريم أو الموت."

انعقدت عدة اجتماعات من هذا النوع بعد عودتي من تلمسان وهذا إلى غاية سنة1925 . إن صاحبتي التي رجعت فيما بعد إلى المغازات الموحدة وأنا، لم يكن لدينا عمل. كنت قد قمت ببعض التعويضات قصيرة المدى. وكنت مع هذا أواصل تجارتي الصغيرة بالمواد الأهلية. فبينما كنت أبحث عن منصب عمل، كنت كذلك أقرأ الكتب عن فترة ما بعد الحرب وصعوبتها وعن الأحداث التي كانت تندرج في

شمال إفريقيا وفي الشرق العربي الإسلامي. لتجنب اختلال توازن ميزانيتنا الصغيرة كنت أذهب لقراءة الصحافة في وكالة هافاس المركزية وكنت أصل إلى نهج الراحة دائما قبل صاحبتي لتحضير الغداء والعشاء، ثم أذهب لانتظارها في الميترو.

في نهاية العام1925 أو في بداية اللاحق، أخبرني الحاج علي بذهابه القريب إلى موسكو وطلب منّي أن أعوضه في دكانه للخردوات والأدوات الحديدية لمساعدة زوجته. إني اعتبرت هذا الاقتراح علامة ثقة وصداقة. لقد ذهب مع مستعمرين آخرين بيض وسود وصفر. كلهم كان عليهم أن يتصلوا بموسكو مع السوفياتيين للحديث عن المشاكل المتعلقة بالشعوب المضطهدة، إن هذا السفر إلى موسكو كان له مفعوله الخاص في عيون المناضلين ورؤسائهم، فالحاج علي بمجرد رجوعه إلى باريس أفهمنا من خلال حديثه أنه كان منبهرا بما رأى كذلك من محادثاته مع رؤساء روسيا السوفياتية، كل شيء كان جديدا وكل شيء كان كاملا ولا شيء يستحق الملاحظة وأقل من ذلك الانتقاد. لقد بدا لنا الحاج علي وكأنه حاج عاد من البقاع المقدسة وفي جيبه الحجر الفلسفي[1].

كنت أذهب بانتظام إلى خليتي في نهج بلفور وكنت أساهم في المناقشة بصفة متزايدة أتذكر أنني خلال العام 1925 كان في جدول أعمال الخلية مشكلة قد نوقشت طويلا قبل أن تعرض على التصويت. كان علينا أن نعرف إذا كان عضو الحزب الشيوعي عليه أن يكون في نفس الوقت منخرطا وجوبا في الكنفديرالية العامة للعمال الموحدين. أن البعض كان يرى أن ذلك ثقيل نوعا ما على المنحة الصغيرة للعمال. وكان الآخرون يرون أن هذا الإجبار هو في حد ذاته خرق للحرية. وفيما يخصني وبعد أن استمعت إلى هؤلاء و أولائك، اخترت أن يكون الانخراط بصفة آلية في النقابة التي كانت أقرب ما يكون إلى مصالح الطبقة العاملة وبالتالي فهي الـ (C.G.T.U). في الخلية نناقش اقتراحات مضبوطة تأتينا من فوق، ويجب في الأخير أن تتم الموافقة عليها لأنها تمثل تعليمات الحزب. فالخلية كبنية قد شدت انتباهي بعمق. كانت تذكرني بالأفواج الصغيرة والعديدة للمناقشة التي كنت أحضرها في تلمسان.

---

(1) أي الحجر الذي له القدرة على تحويل المعادن العادية إلى ذهب.

الفصل الثالث

1925 - 1936

على رأس نجم شمال إفريقيا

" لا شيء أصعب في الحياة من بدايات الأمور".

" إن مدينة تلمسان كانت سعيدة وفخورة في نفس الوقت أن يكون أحد أبنائها قد تجرأ على رفع صوته".

خلال اجتماع جمع الحاج علي وسي جيلاني والمتكلم وبعض الآخرين أنشئت في مارس 1926 جمعية مسماة "نجم شمال إفريقيا"، فقد كان هذا ثمرة لمناقشات ومشاورات دامت عددا من السنين، فمنذ نشأة هذه الهيأة الجديدة عينت رئيسا لها. فقد قررنا مباشرة بعد ذلك عقد عددٍ من الاجتماعات في المقاهي الصغيرة من الدائرة التاسعة عشر من باريس لنقدم للجزائريين ولجميع المغاربيين جمعيتنا الجديدة.

فقد عرفت هذه الاجتماعات الأولى نجاحا معينا للفضول إلى حد الآن لم توجد لا في فرنسا ولا في الجزائر منظمة مثل منظمتنا. لذا شرحنا كيف توصلنا لإحداث هذه الجمعية ولأي هدف. فمواطنونا كانوا حقيقة فرحين جدا ولكنهم كانوا حذرين كذلك لأننا لسنا معروفين. لم نكن في البلاد لا مستشارين بلديين ولا قيادا وليس فيها حتى ممرنا في المدارس الأهلية، فمثلا بيننا وبين الأمير خالد كان هناك فارق كالنهار والليل. رفاقي كانوا يعملون في المصنع وأنا شخصيا كنت وقتها جرسون مغازة في دار خياطة.

بكل وضوح صعب علينا إحداث جو للتفاهم، لا شيء أصعب في الحياة من بدايات الأمور، حسب مثل عربي، فالحاج علي شخصيا وقد كان معروفا في بعض الأوساط المغاربية، لم يستطع حينئذ تحريك أهلنا بدون صعوبات من كل نوع. إن مواطنينا كانوا في الواقع يظنون أننا نريد عزلهم، كانوا يظنون أننا رجال من النقابة وكان يلتبس فعليهم الأمر بيننا وبين الشيوعيين، فلكي نثمن أنفسنا ونحدث الثقة، كنا نعلق خلال الاجتماعات على الأحداث الحالية وكنا نحترس من طلب أي مساعدة مالية ولكن هذا لم يكن كافيا.

في البداية لم يكن للجمعية محل قار وكنا نستعمل المقاهي والمطاعم الشيوعية لنجتمع، ينبغي أن نعترف أن الشيوعيين كانوا ظرفاء معنا وخدومين لنا. وكل هذا يبدو مخلصا ونزيها، ففي الرقم 120 من نهج لافيات حيث يتواجد المقر المركزي للحزب الشيوعي كنا نستقبل جميعا بلطف وكنت كذلك في غالب الأحيان عند

الحاج علي في نهج " الشجرة اليابسة" لدراسة الوضعية، فمادام مسموعا من الحزب الشيوعي ومن لجنته الاستعمارية، فقد كان يساعدنا على تسوية الصعوبات. نشأت بيننا أخوة وثقة كانتا تكبران يوما بعد يوم حتى وأنه كان يساعدنا بسرور فإن الحاج علي كان يوبخنا أحيانا بلباقة، فمنذ إنشاء " نجم شمال إفريقيا" صرت أقرأ الصحافة بانتباه كبير لأفهم جيدا تطورات الأحداث، لهذا كنت مداوما على الذهاب إلى اجتماعات خليتي في نهج بلفور وكنت كذلك أفعل كل ما في وسعي لحضور التجمعات العمومية التي كانت تعالج المشاكل الموروثة عما بعد الحرب 1914-1918. إن صديقتي الصغيرة كانت كما يجب ذلك، لا تجهل شيئا عما جرى. فقد صارت بطبيعة الحال مساعدتي الأكثر ضمانا وتفانيا.

إن بعض المشاكل التي كانت تبدو لي صعبة كانت بالنسبة لها سهلة الحل، قد ولدت في ناحية من فرنسا ثورية ووطنية في نفس الوقت في " نوف ميزون" قرب نانسي. إن هذه البلدية الصغيرة التي كانت غنية جدا بالمعامل وبالمناجم وبالصناعات التي تشغل آلاف العمال وخاصة الأعضاء العشرة من عائلة صديقتي الصغيرة، فالمصنع كان المكان الذي يربح الجميع فيه خبزه ولكن هذه القطعة من الخبز كان العمال ينتزعونها بصعوبة من أرباب العمل. وفي غالب الأحيان كانوا عندما لا يرضون بوضعيتهم الحزينة، يخرجون في الشارع للاحتجاج بغضب. أحيانا يخلف العمال أمواتا على قارعة الطريق، ففي جو مثل أجواء "زولا" كانت السيدة مصالي قد ولدت وكبرت، كانت تقول لي: " إن حياة العمال والإضرابات والمظاهرات ولجان الإسعاف وتوزيع الحساء في الأنهج والتجمعات وهجومات الشرطة القاتلة كلها أحزان ولدت في وسطها مع أهلي وعشنا فيها إلى الآن. كن مطمئنا ي زوجي العزيز فستجد لدي المناضلة ولو أنني لم أنتم إلى أي حزب، فالحياة وضرورات العمل هي التي جعلت منا كذلك مناضلين" .

فمع الكمشة الصغيرة من مسيري نجم شمال إفريقيا، كنا نجتمع غالبا لتحليل الوضعية وتنظيم الجمعية وإعداد برنامج صغير في أدنى ما يكون. فيما يخصني وبعد تفكير معمق، حضرت وحدي مخططا لشرح نشاطنا وأبقيته عندي وكان من شأنه أن يخدمني في محادثاتي الفردية مع الناس ومع المناضلين، وهذا المخطط هو:

1- ذكر الماضي التاريخي للإمبراطورية العربية باختصار.

2- شرح عظمة الحضارة الإسلامية وإشعاعها في العالم وذكر الحضارة العربية في إسبانيا والعرب في بواتيي.

3- احتلال الجزائر، المقاومة الجزائرية وملحمة الأمير عبدالقادر وأبطالنا.
4- شروح حول انتفاضة الأمير عبد الكريم، شجاعته وروح التضحية لديه.
5- إبراز عظمة الثورة الكمالية وشخصية مصطفي كمال المرموقة.
6- المبادئ الإسلامية والكفاح من أجل الاستقلال.
7- يقظة العالم العربي الإسلامي.
8- الوضعية في الجزائر.
9- كيف توصلنا إلى الاحتلال والخضوع إلى نظام قانون الأهالي والاستعمار.
10- ماذا تريد نجمة شمال إفريقيا ؟

لسوء الحظ لم أكن أعرف أغلب هذه النقاط إلا بكيفية سطحية ولهذا قررت دراستها.

فبمجرد ما بلغت نجم شمال إفريقيا ثلاثة أشهر من الوجود قررنا تنظيم تجمع شعبي كبير لنعرف بصفة واسعة بجمعيتنا وإعطائها طابعا رسميا، فقد انعقد هذا التجمع يوم 26 يونيو 1926 في دار النقابات بشارع بلفيل. وقد جمع آلاف الجزائريين والرفاق الفرنسيين وبعض الصحفيين ومن بينهم مصري. كنت أرأس التجمع وألقيت خطابا هاما، فقد كان هذا اليوم كبيرا. إن الصحافة وخاصة " اليومانيتي" قد كانت صدى لهذه التظاهرة المغاربية الكبيرة. ورغم هذا فإن بعض الجرائد قد نقدتها.

يجب أن نلاحظ المصادفة المأساوية والسعيدة في نفس الوقت. وبالفعل فالضبط في الوقت الذي قام فيه الأمير عبدالكريم بمعركته الأخيرة على المستوى العسكري ضد تحالف الإسبان والفرنسيين في ذلك الوقت بالضبط دخلت جمعية نجم شمال إفريقية في الأحياء الفقرة في باريس إن ههنا شيئا ملحوظا حتى لا نقول ربانيا. هناك في كل هذا مصير من قدر الله ويد الخالق في هذا الموضوع قال الأمير عبدالقادر: "عندما يموت رجل تحت رصاص العدو، ينهض آخر" كأن نجم شمال إفريقيا قد أنشئ لاستئناف كفاح الأمير عبدالقادر والأمر عبد الكريم.

فبصفتي شيوعيا مغاربيا، كنت احضر بعض اللقاءات في محل اللجنة الاستعمارية في نهج "باتريارش". هنا كنت أقرأ جريدة " لوباريا" [1]. كانت هذه الجريدة تعالج

(1) لوباريا منبر لسكان المستعمرات، كانت جريدة شهرية لإتحاد مابين المستعمرات وهو ينشر منذ أول أفريل 1922، وآخر عدد لسنة 1925 كان تحت رقم 37.

المشاكل البلدان الإفريقية والآسيوية والأقيانية وتكرس عملها كليا للشعوب المضطهدة. والشخص الذي يكتب للجزائر كان يوقع مقالاته باسم علي أو الجزائري. في نهج " باتريارش" كنت التقي كذلك بمناضلين من البلدان الآسيوية والإفريقية. صاروا فيما بعد قادة في بلدانهم. كان هؤلاء الناس يحملون أسماء مستعارة ويتكلمون قليلا ويقرؤون كثيرا وكان يبدو أنهم لا يثقون في أحد.

صار شغلي الآن ينحصر في الإشعاع في كل دوائر باريس لأعرف بنجم شمال إفريقيا. في ثلاثة أو أربعة أيام كنت أرى الحاج علي الذي كنت أقدم له تقريرا عن النتائج وعن الصعوبات التي كانت تعترضني خلال طوافي. وبسرعة أخبرني أنه يجب علي أن أعتبر نفسي دائما في الجمعية وعلى هذا الأساس سأتقاضى أجرة شهرية في كل شهر. وطلب مني أيضا أن أواصل الحضور في اجتماع خلية الحيّ للحزب الشيوعي قائلا: "لأن ذلك ينفعك من وجهة النظر التنظيمية والمنهج السياسي."

في آخر سنة 1926، كنا نريد استخدام مناضلين ومنخرطين من شأنهم أن يكونوا الإطارات. وهكذا فإني تحدثت مع معلمين جزائريين شبان متخرجين من مدرسة المعلمين ببوزريعة. وهنأني الحاج علي عن ذلك وأعلمني كذلك أن أصدقاءنا في الـ"120"، يعني المقر المركزي للحزب الشيوعي الفرنسي، كانوا فرحين جداً ومستعدين لمساعدتنا.

في بداية سنة 1927 اشتغلنا بتحسين جمعيتنا وذلك بعقد عدة اجتماعات في محل نهج "سيف الخشب" وكان صديقنا الحاج علي معنا تقريبا دائماً. كان أكبرنا ومستشارنا ولكنه لم يشغل أي مسؤولية فعلية. قد كان وسيطا بيننا وبين الشيوعيين وكان مسموع الكلمة ومحترما سواء عندنا أو عند الشيوعيين.

بعد ذهاب الأمير عبد الكريم إلى جزيرة لاريونيون في الإقامة الجبرية وضوضاء الصحافة الكبيرة، ارتفع عدد الشيوعيين نوعا ما. الكثير منهم كان شيوعيا ونجمويا يعني وطنيا. كان مواطنيّ يكثرون الأسئلة حول أحداث الريف. كانوا يتألمون من موقف الصحافة الكاره للعرب والذي كان يضرب بقوة على "الأسياد والعرب". وكانوا يقولون تحت وطأة الغضب: "نعرف جيدا أن الفرنسيين لا يحبوننا، إنهم يودون رمينا في الجحيم ولكن لكل واحد فوق الأرض دوره. اليوم يوم أبيض وغدا يوم أسود. لكن على كل حال سيكون لنا نحن كذلك يومنا. إن الله يعذب كل الذين يفعلون الشر."

كنت أواصل مهمتي الدعائية عبر كل المقاهي الجزائرية وكنت أوسع مجال تنقيبي فيما وراء دوائر باريس. شيئا فشيئا صارت لوفالوا بيري بالنسبة لنا قاعدة عمل. كنا نتحكم في بوتو وكوربفوا وكليشي وكلينيونكور ولاشابيل وسان أوان وسان دوني وأوبار فيليي. كانت في بعض الأحيان بعض المنازعات والمنافسات القبلية تصعب مهمتي. في جانفيليي اتصلنا بإخواننا المغاربة[1]. كان هؤلاء المغاربة لهم عمر معين ولا يريدون فعل أيّ شيء دون موافقة "سيدنا" يقصدون السلطان مولاي يوسف. إن أرباب المقاهي الجزائريين من جهتهم كانوا لا يرون إلى نجم شمال إفريقيا بعين الرضا وكانوا يعرقلون نشاطي.

فمنذ أن أخذت مهمتي كدائم، استطعت أن أوسع اتصالاتي بشكل كبير. وهذا ما قادني إلى معرفة عدد من الطلاب في الحيّ اللاتيني في التسجيل في بعض المدارس من الضفة اليسرى. أما نهج الراحة فقد بدأ يُعرف ويجلب الكثير من الزوار سواء الجزائريين أو الفرنسيين. وعدد أصدقائنا صار يكبر. فمع العائلة والأصدقاء من تلمسان كنا نتبادل كذلك الكثير من المراسلات المهمة التي كانت تزعج بوابنا. وقد علمت لا أدري كيف أن شرطة المخابرات العامة كانت تزوره.

في بداية سنة 1927، كنت في نفس الوقت رئيسا وأمينا عاما للحزب في انتظار من يأتي ليخلفني في إحدى المسؤوليتين. نصحني الحاج علي بأن أحتفظ بالأمانة العامّة وأن أتخلى عن الرئاسة لأحد الأصدقاء. في ذلك الوقت، استقبلنا عدة مرّات زائرا تونسيا السيد الشادلي خير الله الذي كان وقتئذ عضوا ذا نفوذ في حزب الدستور التونسي الذي كان يرأسه الشيخ الكبير الثعالبي. وكان هذا الأخير رجلا قيما ووطنيا شجاعا. كان ينتمي إلى عائلة كبيرة كانت لها، حسب ما يقولون، علاقات مع أوساط الباي. فكرنا في إعطائه الرئاسة حسب رأي الحاج علي.

وفي نهاية جانفي 1927، أخبرني الحاج علي أن مؤتمرا ذا أهمية عالية سَينعقد في بروكسال ابتداء من 27 فبراير 1927: المؤتمر من أجل الكفاح ضدّ الامبريالية ومن أجل استقلال الشعوب المضطهدة. سيجمع حسب قوله: "شخصيات سامية فرنسية وألمانية وانجليزية وبلجيكية وإيطالية ولكن كذلك زعماء كباراً للحركات السياسية المنتهية إلى الشعوب المستعمرة." ثم أضاف: "واعتقد أنك أنت أيضا

(1) العمال المغاربة الذين تم إحصاؤهم في عمالة "لاسان" كان عددهم 9204 في نهاية 1924 و5087 في نهاية 1926 و6640 في سنة 1928.

ستذهب لتمثيل نجم شمال إفريقيا. علينا أن نبدأ بالعمل لتحضير وثائق جيدة ولإعداد برنامج سياسي سنعلن عنه في تصريح والشادلي خير الله سيمثل فيما يخصه الدستور التونسي باسم نجم شمال إفريقيا.

الذهاب إلى بروكسال والحضور في المؤتمر والاتصال بالطبقة العليا والعيش في العاصمة البلجيكية عشرة أيام، كل هذا كان يعجبني ولكن الخوف قد استولى على أعماقي وكنت قلقًا. ولهذا وحتى أكون في مستوى مهمتي، بدأت العمل. ولتحضير برنامجنا السياسي كان لي مع الحاج علي عدة لقاءات انفرادًا جمعنا اللجنة المديرة أيّاما قبل الذهاب لنلقي نظرة معا على أشغالنا ونأخذ قرارات. كل الأعضاء الحاضرين في هذا الاجتماع كانوا فرحين لرؤية أن نجم شمال إفريقيا سيقدم مطالب في مؤتمر دولي.

ذهبت مع الحاج عل إلى بروكسال يوم 26 فبراير 1927. وحجزنا غرفتين في فندق متوسط من الحيّ المسمى " شوسي ديكسال". قصر إغمونت حيث سينعقد المؤتمر كان جميلا وفخما وهو مزين بالرخام من ألوان مختلفة. فقد وجدت أن هذا القصر الكبير كان لا يتماشى مع بساطة الشيوعيين والثوريين وقلت ذلك. قال لي الحاج علي بعد أن أزعجته بملاحظاتي: "سنتحدث عن ذلك بعد المؤتمر".

ففي يوم وصولنا دعينا إلى حضور اجتماع أوّل حيث ينبغي أن يقوم كل رئيس حركة سياسية بتصريح قصير أمام الصحافة. تحتم علي أن أرتجل. عالجت ما ينبغي أن يكون التعليم في الجزائر. شرحت بأن هناك عشرون ألف طفل عربي لا يستطيعون التمدرس لعدم الأماكن. ونددت بالنظام الاستعماري الذي جعل من لغتنا العربية لغة أجنبية. وفي الغد كانت الصحافة الدولية الحاضرة في المؤتمر قد نشرت كل التصريحات بما في ذلك تصريحي.

كانت القارات الخمس ممثلة بوفود وشخصيات سامية. كانت الهند ممثلة بالبانديت نهرو واندونيسيا بمحمد حطة والصين بالجنرالات الشيوعيين الذين أتوا من ميادين القتال في ماندشوريا. البكري وهو محارب سوري كان يمثل المقاومة السورية واليابان كان ممثلا بكتاياما. أما أوربا الغربية فإنها أوفدت شخصيات من عالم النقابة ومن عالم الآداب وكتابا كبارًا من بينهم هانري سانغور الذي كان من كبار معطوبي حرب 1914–1918. كان مسلما وتعاطفنا معه في الوقت لأنه مسلم ولأنه كان مضطهدا مثلنا من طرف الاستعمار. وقد جرى حادث عنصري خطير جدًا عندما رفض فندق كبير أن يعطيه غرفة لأنه أسود. كنا نمثل نجم شمال إفريقيا والدستور

وكنا ضمن الوفد الفرنسي للحزب الشيوعي بسبب التسهيلات المتعلقة باللغة. إن وثائقنا الخاصّة وخطبنا قد سرقت منا في الوقت الذي كنا نتأهب لمراجعتها ووضع اللمسات الأخيرة. لم نعرف أبداً الأدلة على من قام بهذه السرقة. ومن يعرف ذلك فقد يكون ماهراً. فعكفنا على العمل. عندما ألقيت خطابي الذي دام ربع ساعة تقريبا، تم الاستماع إليه باهتمام كبير. وقد صفق علي الحاضرون وخاصّة عندما وصلت إلى البرنامج السياسي لنجم شمال إفريقيا، المتعلق بالجزائر التي كانت تطلب قبل كل شيء المساواة في التعامل مع الفرنسيين وإلى أمد، إلى الاستقلال[1].

إن مواطنينا والمسلمين مثلي أعني السوريين والأندونوسيين والهنود والمصريين والسنغاليين والتونسيين قد هنأوني بحرارة وكذلك مؤتمرون آخرون غير عرب وغير مسلمين. والبعض منهم قد سألني في الأيام التالية إذا كان برنامجي السياسي لم يثير غضبا كبيرا في الأوساط الحكومية إلى درجة أنه يثير حملة اضطهادٍ في كل البلاد. إن الوفد الأندونوسي الذي كان يرأسه محمّد حطّة دعانا في نفس الوقت مع البكري ممثل سوريا لتناول الشاي وتبادل أفكارنا. رأيت البانديت نهرو عدّة مرات وكذلك شخصيات أخرى من العالم الآسيوي. ورأيت كذلك عدة مرات فيلسيان شلاي وأصدقاء فرنسيين آخرين.

كنت مع الحاج علي والشادلي خير الله مغمورين بالفرحة. بينما كنا نترشف قهوتنا كنا نقول في أنفسنا وباعتقاد قوي أن هذه الأيام كانت أياما كبيرة نعيشها في العاصمة البلجيكية. ومع هذا نستطيع التساؤل: من أخذ مبادرة عقد هذا المؤتمر وما هو الهدف المنشود منه كان يتبدى لي أن المبادرة قد أخذها الشيوعيون. أمّا الصحافة الدولية فإنها استنتجت أن يد موسكو قد شدت كل الخيوط وكانت تتساءل إذا لم يكن مؤتمر بروكسال معلنا عن خطة جديدة للشيوعيين باستعمالهم للشعوب المضطهدة ضد الامبريالية.

فبالنسبة لنجم شمال إفريقيا لم أستطع أكثر من أن أكون مسرورا. فبمجرد ما ولدنا تم الإعلان عن برنامجنا للاستقلال السياسي ووحدة شمال إفريقيا وذلك بكيفية عالمية. فحتّى لو سلمنا أننا لم نكن كشعب مضطهد إلاّ وسيلة ضغط تخدم الإتحاد السوفياتي، فإننا لم نخسر شيئا في المبادلة. مباشرة بعد رجوعنا من بروكسال،

---

(1) انظر في الملحق برنامج نجم شمال إفريقيا كما تم تقديمه في هذا الخطاب.
ملاحظة : ليس هناك ملحق مطبوع في هذا الكتاب وربما سيطبع في طبعة قادمة.

تشاجر الشادلي خير الله مع اللجنة المديرة. إن امتيازه وثقافت وشخصيته كان بارزا أكثر من اللاّزم في وسط العمال الجزائريين. وهكذا رجع إلى تونس. فهو شخصيا لم يكن مرتاحا بيننا[1].

في محل نهج "السيف الخشبي" كنا نستقبل زيارة الطلبة المغاربيين وحتّى بعض الشخصيات من المغرب العربي. كان هؤلاء المواطنون يأتون لرؤيتنا بعد الاتصال المباشر أو غير المباشر مع الحزب الشيوعي الفرنسي. كانوا يرسلون إلينا من طرف تونسي يسمى دباب الذي كان يقوم منذ 1927 بالمداومة في اللجنة الاستعمارية في مقر الحزب الشيوعي الفرنسي. ومن ناحية أخرى، نظم لنا الشيوعيون ندوة كبيرة للإعلام خاصّة بنجم شمال إفريقيا في بداية أفريل 1927 دامت على الأقصى ساعتان ألقيت فيها خطابا لأعرض فيه في بادئ الأمر المعطيات التاريخية ثم التنديد بجور الاستعمار الفرنسي قبل أن أفصّل في الأخير مطالب نجم شمال إفريقيا.

إن اللجنة المديرة لنجم شمال إفريقيا كانت تتركب في تلك الفترة بالإضافة إليّ من السيد الحاج علي والسيد الجيلاني صبّاح والسيد شبيلة والسيد السعيد والسيد بوطويل والسيد نقروس صبّاح والسيد علي وأربعة أو خمسة رفاق آخرين لم تحضرني أسماؤهم في هذا الوقت. بناء على النجاحات المتحصلة في بروكسال وفي باريس خلال الندوة الاعلامية، اجتمعنا من جديد في وسط سنة 1927 لتحضير إقلاع جديد وتكثيف الدعاية. فيما يخصني عاودت مرّة أخرى الجولات الكبيرة في المقاهي والفنادق والمطاعم الجزائرية لأحاول بواسطتها تجنيد مناضلين جدد. صار هذا العمل أكثر صعوبة لأن الشرطة وأعوانها بدأوا يخوفون أرباب المقاهي والتجار الصغار المحيين.

إن تدشين مسجد باريس جرى خلال صيف 1927. أتذكر أن هذه المبادرة اتخذت بعد التوقيع على معاهدة فارساي. في مدينتنا القديمة تلمسان التي هي مركز إسلامي وثقافي هام، كان الحديث عن هذا قد بدأ منذ سنة 1922. كان يطلب من الجزائريين جمع اشتراكات لبناء هذا المسجد ولكن الكثير من الناس كانوا غير موافقين لأن الاشتراك المطلوب وقتئذ كان فوق الطاقة المعيشية لأرباب الحوانيت الصغار. وهناك الكثير من التلمسانيين الذين أعطوا مبالغ مالية هامّة ولكن ذلك كان

(1) الشادلي خير الله تم في الواقع طردة من فرنسا يوم 27 ديسمبر 1927 ثم حكم عليه وسجن في تونس.

بسبب الخوف. وبالفعل كيف نستطيع بناء مسجد في باريس وفي نفس الوقت إرسال جنود مغاربيين لمحاربة إخوانهم في سوريا ؟

وعليه فإن نجم شمال إفريقيا قد عارض الغوغاء القائمة حول تدشين مسجد باريس. كانت تندد بواسطة مناضليها هذه المناورة البديئة التي تجرح كرامة المسلمين وأطلقت الشعار: "مدارس في الجزائر. يسقط الاستعمار والظلامية."

وفيما بعد طلبنا احترام المسجد على أنه مكان للصلاة والتأمل. وبالفعل لقد ألصق في المسجد حمّام وسوق ومطعم فيه موسيقيون حيث الزبائن والزبونات يتخذون هيئات لا تقبل لا مسيحيا ولا إسلاميا. فقد نظمنا حملات من الطلبة والعمال الجزائريين لإجبار الزبائن على احترام هذه الأماكن المقدسة للإسلام التي كانت تنتهك وكأنها دور الخنا.

وفي نفس الوقت كنا نندد علنا بما فرض على رؤساء البلديات الفرنسيين برفض تسجيل الأسماء العربية للمولودين الجدد من أمهات فرنسية متزوجات مع عرب على سجلات الحالة المدنية. إن بعض الجزائريين تركوا أبناءهم بدون أسماء ليرفضوا الخضوع إلى هذا التمسيح المحتم. فقد استلزم ذلك خمس سنين لإلغاء ذلك التدبير. كنا كذلك نحتج ضد تدابير عنصرية أخرى مثل جواز السفر الخاص الذي كان يحدث صعوبات كبيرة ويجعل التنقلات غالية عبر البحر الأبيض المتوسط أو إحداث مستشفى مخصص للمغاربيين في بوبينيي وكأنهم مصابون بالطاعون.

فبالإضافة إلى المشاكل المادية التي يواجهها نجم شمال إفريقيا لينظم نفسه، فقد صار يواجه في 1927 مجموعة من الصعوبات. أولا كان عليه أن يواجه منافسة حزب أحدثه ربّ فندق جزائري، السيد منصوري. إن هذه المنظمة المصرح بها لدى عمالة الشرطة، كان مستشارها محاميا ونائبا شيوعيا، الأستاذ بيرطون[1]. إن بعض أصدقائي كانوا يظنون أن هذه المعارضة قد تم دفعها من طرف جهات ثالثة دون أن نعرف من هي. ومن ناحية أخرى بدأ الناس يخشوننا ويخافون منا. فالتجار الجزائريون كانوا يرون أننا خطر. كنا منافسين يستحوذون على زبنائهم. كانوا يريدون أن الجزائريين

(1) الحزب السياسي الذي أحدثه منصوري كان يسمى "جامعة الدفاع المغاربيين". وقد صار لهذا الحزب لسان حال صحفي عنوانه "الشعب الجزائري" الذي ساهم فيه خاصّة الإشهاري عمار نارون والمهندس المعماري آيت علي.

يواصلون بكل بساطة اللعب بالدومينو أو الأوراق في خلفيات الدكاكين. ثم تقدم أعوان مدنيون للشرطة إلى مناضلينا وحاولوا تخويفهم أو إرشاءهم لإبعادهم عن جمعيتنا. إن الانطلاقة التي بدأنا بها بدأت تضيع من اندفاعها.

في ربيع 1927، أخبرني الحاج علي أن "أصدقاءنا الشيوعيين" لم يعد في استطاعتهم مواصلة مساعدتنا ماديا ولكنهم سيواصلون في مجالات أخرى أن يفيدونا. أخبرني إذن أني أستطيع أن أتكلف بنفسي وأنه علي أن أبحث على عمل. فبعد أيام من التفكير، جمعت اللجنة المديرة التي بقيت مرتبطة بي كما كان الحال في الماضي وصرحت لهم أنه علما بالوضعية والصعوبات الكبيرة التي تحيط بنا من كل ناحية، قررت أن أبحث عن عمل لأتمعّش منه. ثم أضفت أني أحافظ على منصبي كمسؤول أوّل عن نجم شمال إفريقيا وأني أواصل مهمتي بمساعدة اللجنة المديرة. قررت كذلك أن أبقى شيوعيا وأواصل حضوري في اجتماعات خليتي.

واصلنا الاجتماع في محلات الحزب الشيوعي وكانت علاقتنا معهم لا يظهر عليها أيّ أثر. ومع هذا حاولت أن أفهم موقف الحزب الشيوعي الذي أنهى مهامّي كدائم. كنت أحس منذ زمن بعيد أن الحزب الشيوعي كان لا يجدني على مذاقه. ورغم هذه الشكوك كنت أقول في نفسي أنه يجب علي أن أنتظر قبل أن أحكم. إن علاقاتي مع الحاج علي بقيت وواصلت بمعية زوجتي، مثل ما كان الحال في الماضي، الذهاب إلى برونواي لقضاء نهايات أسبوعنا. ولكنني كنت أحس، ولو أني أبقى في حدود اللياقة، أنه كان منزعجا وغير مرتاح. كنت غير مُلِحٍّ.

بدأت أبحث عن العمل ولكن الزمن كان خريفا وكانت التجارة في ركود. كان علي انتظار الإعلان عن أعياد نهاية السنة لوجود عمل أو تعويض. وحتّى لا أضيع الوقت، قررت البدء مباشرة في دورة على الحوانيت لأضع عند أصحابها المنتجات الأهلية في الأحياء الجميلة من باريس لم أكن تعيسا ولكني كنت متأثرا.

فبعد عدة محادثات مع مواطنيّ ومع الحاج علي، علمت أخيرا أن الشيوعيين كانوا ببساطة يريدونني أن أكون على رأس نجم شمال إفريقيا. سياستي كانت لا تعجبهم وكانوا ناوروا لقذفي خارج النجم. في هذه القضية لم يكن الحاج علي إلاّ آلة بصفته عضو في اللجنة الاستعمارية للحزب الشيوعي الفرنسي وأظن أن هذا قد خلخل موازينه بصفة جدّية. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقع فيها نزاع بين الشيوعيين والمناضلين من البلدان المستعمرة. أتذكر أني حضرت في الـ "120"

وذلك سنة 1926 بدون شك إلى اجتماع بين موريس طوراس واللجنة الاستعمارية من جهة ومسيرين سود وصفر ومغاربيين من جهة أخرى. لقد وقعت مشاجرة كلامية، لأننا وجدنا أن الشيوعيين يتدخلون كثيرا في منظماتنا.

عندما قررت أن أشتغل في التجارة لوجود مقومات الحياة وفي نفس الوقت يكون لي فائض من الوقت لأتعلم وأُسَيِّر قدر المستطاع نجم شمال إفريقيا، لكل هذا اخترت الأسهل وبعبارة أخرى ما لا يتطلب مني مبالغ كبيرة لأني لم أكن أمشي على الذهب. فبعد أن أخذت رخصة من "أرصفة غْران أوغيستان"، اشتريت قليلاً من السلعة من البياض وبدأت أجوب الأسواق في نواحي باريس: لوبيرو ونوجان سيرمان وفونتني سوبوا... وبما أني كنت ما أزال أبيع المنتوج الأهلي التلمساني سواء في باريس أو في ضاحيتها، فقد كان ذلك عملا متعبا جدّا. كان علي أن أستيقظ باكرا وأن أنقل رزمي الكبيرة وصُرر مهما كانت الظروف الجوّية ورغم رداءتها في الشتاء.

إن هذا النشاط كبائع متجول ورحّال قد أعطاني كما كنت أتوقع وقتا لأتعلم. فقد سجلت نفسي كمستمع حرّ في المدرسة الوطنية للغات الشرقية. أعطيت لي بطاقة وأخبرت أنه كان باستطاعتي أن أقترض الكتب وأن أعمل في قاعة المطالعة. تابعت دروساً في العربية الفصحى والتاريخ العربي. في قاعة المطالعة كان يلصق على الجدار برنامج المحاضرات التي كانت تلقى في كولاج دي فرانس وفي الصوربون وفي قاعات أخرى من الحيّ اللاتيني. فالبعض منها كان يتعلق بالمغرب وبالمشرق وحتى بالشرق الأقصى. وكنت أحاول أن أتابعها.

في سنة 1928، صارت جمعيتنا في سهاد نسبي مع مواصلة نشاطها ودعايتها. كنا لا نبرح مكاننا ولكن المهم بالنسبة لنا هو ألا ننقرض. إن النزاع القائم بيننا وبين الحزب الشيوعي الفرنسي هو السبب في ذلك . كان للشيوعيين مخطط يريدون فرضه علينا ولكن الأغلبية منا لم تكن موافقة. فتحرك الحزب الشيوعي بكيفية تجعل من حركتنا تتعطل ليفرض علينا فيما بعد نظامه. كان يبحث كذلك على ربح المناضلين ولم لا أعضاء الهيأة المديرة. كنا نشعر بأن الشيوعيين يبذلون جهدهم لشل نشاط حركتنا. فالشيوعيين الجزائريون أنفسهم كانوا يبدون استياءهم منا ويذمّونا.

ومع هذا فلا نحن ولا الشيوعيون، لا أحد منا يريد إنهاء علاقاتنا. واصلنا الاجتماع في محلاتهم وكانوا لا يغلقون أبوابهم علينا حتى لو أنهم لا يمررون فرصة لإبداء

غضبهم لنا. فقد كان يقع في اجتماعاتنا للهيأة المديرة أن نتحدث بحضور مواطنين كانوا يميلون إلى الشيوعية. فكنا نلاحظ أن هؤلاء ليسوا مقتنعين. يكفي أن نتحدث قليلا ليعودوا إلى واقع الأمور. فالجزائريون الذين يعيشون في فرنسا لهم نمط من العيش ومن الكفاح ومن التحرر الذي يناسب ذهنيتهم ودينهم وكان لا يشبه أنماط المجتمعات الأخرى. إن المناوشات التي تبعدنا عن الشيوعيين الفرنسيين كانت لا مفرّ منها. كنا نريد المساعدة والتعاون ولكن دون أن نكون خاضعين. كنا نريد أن نتحكم في مصيرنا.

إن إشاعات تتحدث عن تحضير اضطهادات كانت تجوب شوارع باريس منذ بداية العام 1929. وكان ذلك في أذهاننا يعني السجن. لم نكن نفكر في تلك الفترة أنهم يستطيعون ضرب جمعيتنا فقط، نجم شمال إفريقيا. فكم كانت دهشتنا كبيرة عندما علمنا أن النجم ملاحق أمام المحكمة المدنية التي طلبت حل الجمعية طبقا لقانون 1901. ولنتحصل عن المعلومات القانونية لهذه القضية التي لم نكن ندري عنها شيئا التجأنا إلى الأستاذ آندري بيرطون، المحامي لدى مجلس باريس ونائب عن الحزب الشيوعي.

في يوم الجلسة جئت مع أربعة أعضاء من الهيأة المديرة. لم نكن وحدنا فقد وجدنا هناك كل المسؤولين عن الجمعيات الهند صينية والسوداء التي كانت ملاحقة لنفس الأسباب مثلنا. عندما أعلن عن جمعيتنا قام الأستاذ آندري بيرطون ووقف بالمنبر وهو ينظر إلى ملفه. وقد عبّر عن احترامه الكبير وسامي اعتباراته للمحكمة. وفي خلال مرافعته، غالبا ما ذكر نجم شمال إفريقيا ومصالي الحاج ودافع عن البرنامج السياسي لحزبنا. وحسب ما فهمنا من المناقشة فإن كل الجمعيات السياسية التي يمكن أن تمس بالوحدة الترابية للوطن الفرنسي يجب أن تنحل[1]. كل هذا جيد وجميل ولكن كذلك من المفروض أن نعرف أين تبدأ وأين تنتهي الوحدة الترابية. ألم يكن الاستعمار الفرنسي هو الذي مس بالوحدة الترابية الوطنية للجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان والهند الصينية وإفريقيا السوداء؟

---

(1) إن المادة 3 من قانون 1 جويليا 1901 التي تقول: "تكون ملغاة وبدون فعّالية كل جمعية (...) تهدف المساس بوحدة التراب الوطني".

تم حلّ الجمعية يوم 24 أفريل 1929 في وقت كنا فيه كلنا في وضعية يرثى لها. ومن نافلة القول أن صعوباتنا والمالية منها خاصّة تفاقمت. لم يكن الحزب الشيوعي الفرنسي يجهل وضعيتنا ولكنه لم يفعل شيئا لمساعدتنا جديا. فقد تركنا مع تخميناتنا وضجرنا. أما الجزائريون الشيوعيون قد تخلوا عنّا تماما ولا شك أن ذلك كان تطبيقا لأمر. فالوضعية صارت في أدنى دركات السوء إلى حد أن أحد منخرطينا وهو الأعقل والأكثر إخلاصا، اقترح أن نحل الحزب بأنفسنا وننهي الموضوع.

إن هذا اليوم الحزين وجدني مع عشرة من المناضلين في الـ 49 نهج بريطانيا، في مقهى مسمى "الطيف الأحمر" إن صديقنا الذي أراد أن ننهي موضوع نجم شمال إفريقيا طلب منّي أن آتي بالأرشيف وما تبقى من الدراهم لنوزعها على المناضلين. ولكني تدخلت لأعارض هذا الاقتراح وطلبت إرجاء الاجتماع إلى تاريخ آخر. إن الزمن سيسمح لهؤلاء وأولائك أن يفكروا ويقدروا مسؤولية كل واحد أمام القرار الذي سنتخذه فبمجرد افتتاح الجلسة التي استدعيت للإنعقاد ثمانية وأربعين ساعة بعد ذلك فقد ظهر للعيان أن الجو كان أحسن. ولهذا أعلنت لأصدقائي أني سأقدم مخطط عمل ونشاط من خمس نقاط:

1- كل أيام السبت، يجب أن يتحرك مجموعات مركبة من ثلاث مناضلين في المقاهي المغاربية لربط الحديث مع مواطنينا لترغيبهم في نجم شمال إفريقيا وبرنامجها السياسي. لكن ينبغي لهؤلاء المناضلين أن يعملوا بلطف وبدون إلحاحٍ.

2- إن هذه المجموعات المتكونة من ثلاثة مناضلين ينبغي أن تتم تربيتهم وتحضيرهم.

3- يجب أن تَسهَر لجنة على حسن سير كل هذه المبادرات.

4- يجب أن تعقد اجتماعات شهرية ابتداءا من الآن في نهج بريطانيا وكذلك في الضاحية.

5- يوصى المناضلون الشيوعيون وغير الشيوعيين بالمحافظة على علاقاتهم مع الحزب الشيوعي الفرنسي.

بادرت مع أصدقائي البحث على معرفة أكثر عدد ممكن من الشيوعيين وغير الشيوعيين الفرنسيين وخاصة في الحي اللاتيني لتوسيع عدد معارفنا والخروج بهذه الكيفية من عزلتنا. فقد انتبهنا شيئا فشيئا أنه لم يكن ممكنا أن نكتفي فقط بالكلام

في كل شيء عن الإستقلال، إن هذا الموقف كان يخيف تقريبا كل الناس ماعدا الشيوعيين، إلا أنه كان علينا أن نشرح وضعيتنا وأن نقنع ونربح محبة الرأي العام الفرنسي. وعليه فإننا أخذنا بنصيحة رفاقنا الفرنسيين من مختلف الآراء الذين كانوا يشجعوننا على القيام بالكفاح السياسي حول مطالب مستعجلة وأن ننظم أنفسنا طبقا لمقتضيات هذا الهدف. وهكذا فقد رجعنا إلى خطتنا في البداية فمنذ بداية سنة 1929 بدأنا في تحضير الرأي العام الفرنسي والدولي لإحتفالات الذكرى المئوية للاحتلال العسكري لبلادنا. فبدون شك، كان هذا هو السبب الذي حمل حل نجم شمال إفريقيا وجمعيات أخرى من المستعمرات الإفريقية والهند الصينية. في الجزائر كانوا يعملون كل شيء وأي شيء لإشراك الأهالي في هذه المهزلة الاستعمارية. إن بورجوازيتنا ومثقفينا ومصلحينا كانوا كلهم مدعوين للمساهمة في الاحتفال، إن القياد والآغوات والبشاغوات وحراس الغابات والجنود والجمعيات من كل نوع كلهم مدعوون لتحضير بدلاتهم أو برانسهم الحمراء لحفلات المئوية. فالنواب والشيوخ والوزراء والموظفون السامون والتجار والعديد منهم وصلوا من فرنسا للحضور في الميدان إلى الحفلة العظمى. فالصحافة التي سخنت إلى درجة عالية كانت تعنون: " الجزائر، هي النجاح الكبير" و" الجزائر هي فرنسا" و" الجزائر هي التواصل لفرنسا" و" الجزائر هي صديقة فرنسا".

إن هذا الضجيج قد دام عدة أسابيع كانت الحافلات والسيارات تقطع المسافات في كل الاتجاهات هاتفة هنا وهناك بالعمل الحضاري لفرنسا الكبرى. كانوا يغنون ويلعبون ويرقصون وهم يشربون ويأكلون أمام شعب خاضع لنظام قوانين الاستثناء.

إن إخواننا كانوا يشعرون بأنهم مداسون ومهانون ومثارون ومحطمون في كرامتهم ومشاعرهم ودينهم فقد كانوا أقل من الأجانب وهم على أرضهم يفرض عليهم أن يحتفلوا بقرن من الاستعمار والآلام والاستغلال والظلامية، من لم يفكر أحد من العالم الرسمي في أن كل الحفلات تمزق مواطنينا. العالم الرسمي ليس لديه روح.

كنا نريد في هذه المناسبة أن نقيم محاكمة القرن من الاستعمار واشراك مواطنينا في عملنا هذا وكذلك الرأي العام الفرنسي والدولي، فقررنا إذن أن نعقد تجمعا كبيرا وتم ذلك في نهج " لا غرانج أوبال" رقم 33. ولنرفع من شأن هذه التظاهرة ولنحرز لها نجاحا باهرا أعلنا في منشور أن الأمير خالد الذي عيناه رئيسا شرفيا لنجم شمال

إفريقيا سيكون حاضرا شخصيا في هذا الاجتماع الهام. ثم نظمنا عددا من الأفواج من مناضلينا على أن يطوفوا بباريس وضاحيتها الصغيرة لجلب أكبر عدد ممكن من مواطنينا ودامت هذه التحضيرات أكثر من خمسة عشر يوما.

وفي اليوم الموعود إن قاعة "لاغرانج أوبال" التي تتسع لعدة مئات من الأشخاص كانت مملوءة ودام التجمع ثلاث ساعات. إن عددا من الخطباء أقاموا محاكمة للاستعمار ونددوا بمهزلة المئوية للهيمنة الاستعمارية. أما الأمير خالد فإنه، بالعكس، لم يجب دعوتنا وكان غيابه ملحوظا ومأسوفا له إذ إنه تسبب في بعض الغضب. كان الجزائريون يعتقدون أنه سيأتي من وقت لآخر ثم قالوا لأنفسهم لقد اعترضه مانع جاد ولكنه لم يبعث رسالة اعتذار.

وفي الغد، بعد التجمع، استقبلنا السيد أحمد بلغول، ممثل الأمير خالد، وقد أبلغنا أن الأمير كان غاضبا على بروز اسمه في المنشور الذي يدعو إلى التجمع، ثم أضاف أنه هو شخصيا قد بادر بالكتابة إلى وزارة الداخلية ليخلي مسؤولية الأمير خالد. فاندهشنا من ذلك لأننا لم نكن ننتظر موقفا مثل هذا. وعلمنا في نفس المناسبة أن الأمير خالد قد أعطى لأحمد بلغول توكيلا مكتوبا ليمثله لدى كل الجزائريين، ومن ذلك اليوم لم نر قط الأمير خالد.

كما علمنا بواسطة الصحافة أن لجنة سورية فلسطينية لها مقعد في عصبة الأمم للدفاع عن قضية إخواننا العرب، قلت في نفسي مادامت عصبة الأمم أنشئت لتكون هيئة تشبه محكمة دولية فربما استطيع أن أبلغ لها مذكرة لأعلمها بالوضعية التي يوجد فيها الشعب الجزائري، وفي نفس المناسبة أستطيع أن أرفع إليها احتجاجا قوي اللهجة ضد الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر.

وفي نهج الراحة، استغرقت ثلاثة أيام مع السيدة مصالي لأكتب الشكل الأول لهذه المذكرة التي أعدناها مرتين. فظهر لنا أنها كانت ناجحة ولكنني ألححت كثيرا لدى الرفيق الكاتب على الآلة كي يراجع النص ويصحح كل الأخطاء، إن هذه المذكرة التي قرأناها وأعدنا قراءتها أمام الهيأة المديرة لنجم شمال إفريقيا ومسئولي المنظمة قد أرسلت في جانفي 1930. كان النص يندد بقرن من الاضطهاد والاستغلال كما كان هذا يطرح مشكل الاستقلال. صحيح أن الاستقلال لا يعطى بل ينتزع. ولكن المسألة كانت دائما في حاجة إلى أن تعرف من طرف الجمهور الواسع وكذلك أن يوافق عليها أغلبية الجزائريين.

صارت علاقتنا مع الحزب الشيوعي الفرنسي تتدهور أكثر فأكثر كان يريد منا أن نكون شيوعيين قبل أن نكون وطنيين ولم يتوقف عن إخبارنا بذلك. إن البعض من مواطنينا قد ربحتهم الشيوعية وهجرونا مع أنهم حاولوا الرجوع عدة مرات إلى اجتماعاتنا ليحاربونا ويشتمونا بكلمة "بورجوا" . إن الحزب الشيوعي بقي يجذب الخيوط ويوهمنا بأنه يريد أن يرجعنا إلى العقل. إن اجتماعاتنا الداخلية قد تم تشويشها مدة أشهر. كانوا يظنون في الـ"120" أنهم سيتغلبون علينا بالتقادم وصرت شخصيا غريمهم اللدود ولم يتوقفوا عن إحداث العراقيل في طريقي. على الرغم من كل هذا، كنا نتابع عملنا ونحاول أن نبقي علاقات جيدة مع الحزب الشيوعي الفرنسي ومواطنينا الذين صاروا معه، كنا في حاجة إليهم لأن الإطارات تنقصنا. وكنا كذلك نريد ربح الوقت لنتمكن من تدريب أكبر عدد من مواطنينا الذين هم معنا، ويأتي الوقت فيما بعد للقيام بفراق متفق عليه مع الحزب الشيوعي الفرنسي.

الحاج علي صار من يوم إلى يوم نادر الحضور، لم يعد يتكلف إلا بدكانه للأدوات الحديدية في نهج "الشجرة اليابسة" وبملكيته في برونواي، كنت مازلت أذهب مع زوجتي لقضاء نهاية الأسبوع في ملكيته عندما يدعونا. فأثناء زيارة كهذه علمت أنه طرد من الحزب الشيوعي لأنه ترشح للانتخابات البلدية، كما يمكن أن يشك في ذلك فإنني فوجئت واندهشت. فإنني أكدت للحاج علي عرفاني على كل الخدمات التي قدمها لنا من قبل أثناء وبعد إنشاء نجم شمال إفريقيا، وعليه فقد أخبرته أن مكانه مازال قائما بيننا وتحت تصرفه.

في سنة 1930 كنا نعيش كالبدو الرحل. فبعد أربعة أعوام من النشاط ليس لنا مقر اجتماعي وليست لنا وسائل التعبير. كانت تنقصنا الإطارات والدراهم والمنخرطين وكنا نخشى أن ننقسم ويواجه بعضنا البعض الآخر بإيعاز من أعدائنا. لم يأت عند أي طالب ليمنح لنا قلمه ومعارفه، فلا الطلبة ولا البرجوازيون ولا التجار لم يأت أحد منهم ليتجرأ على قرع بابنا. وفي فرنسا كان هؤلاء السادة غير مكترثين بجمعيتنا وبنشاطنا. وفي الجزائر كانوا يتحركون نحو الإصلاحيين حتى لا نقول " البني وي وي" . في المغرب وفي تونس فإن الطلبة والبورجوازية والمثقفين هم الذين أمسكوا بمصير الشعب، فبينما كان الكفاح متواصلا من أجل المطالب المضبوطة، فقد كانوا لا يختفون لطلب الاستقلال لبلدانهم. وفي الجزائر فإن هذا الشرف الكبير للدفاع عن الوطن كان على عاتق العمال والفلاحين والطبقات الصغرى من مجتمعنا.

إن إرسال مذكرتنا لعصبة الأمم أعطاني فكرة في إنشاء وسيلة للتعبير لنعرف بنشاطنا وببرنامجنا السياسي بصفة أحسن.

فبعد تفكير عميق اخترت أن تكون الجريدة دورية. والاسم الذي اخترته هو الأمة يعني الشعب واصطدمت في الحين بصعوبتين كبيرتين: أين أجد الدراهم الضرورية ؟ وكيف نكتب ونصنع جريدة في الواقع؟ بدأت أفكر في هذه المشاكل وأبحث عن الحلول قبل أن أتكلم إلى أي واحد.

ففي هذا التاريخ وفي دارنا كنا ننتظر حدثا عائليا، يعني ولادة مولود جديد. فالحزب والمسيرون والمناضلون كلهم كانوا على علم بذلك الحدث. إن أصدقاءنا وأقرباءنا في بيرو كانوا يعرفون كلهم أننا نريد طفلا وقد اخترنا له اسما وهو علي. فالسيدة مزالي رغم تعبها الكبير من الولادة تحتم عليها أن تحتج ليتم تسجيل إبنها في سجل الحالة المدنية تحت اسم علي.

كانت زوجتي وأنا برفقتها لا نعرف كيف نقمطه ولا كيف نحضر الرضعة ولا كيف نرقده. كان الطفل يرفض الحليب وهذا كان يقلقنا، فما العمل يا رب ؟ فقالت أمه ينبغي أن نشتري له حليب الغبرة فأسرعت إلى الصيدلية لوجود حليب الغبرة ورجعت بسرعة لمساعدة زوجتي التي كانت تهدهده في ذراعيها ولم يتوقف عن البكاء. وأخيرا نام بهدوء في سلته الصغيرة التي كانت موضوعة عند قدم السرير الذي كان يشغل نصف البيت السطحي تحت سطوح باريس. وفجأة بدأنا نبكي بكاء حارا وذلك لأننا وحدنا مع ولدنا وهذا كان يحزننا فقد كنا يتيمين من الأم وبعيدين عن عائلاتنا.

سرعان ما تساءلنا عما ينبغي أن نفعل بالطفل بما أن أمه تعود إلى العمل فقد وجب علينا وضع سيدي علي في الحضانة. وأنا الذي صرت تقريبا أمه لأن مهنتي كانت تسمح لي أن أتكلف به. كان علي أن أوصله إلى الحضانة كل صباح وأن أرجعه منها على الخامسة بعد الزوال. وبالتالي فإنني أتسوق في الصباح وفي العشية كنت أذهب إلى دروسي وأتكلف بالحزب. فقد تحتم علي أن أحذف البعض من أشغالي.

فلوجود الدراهم اللازمة لإحداث جريدتنا، نظمت اجتماعا في سبتمبر 1930 في نهج "غرانج أوبال" . وهنا أخبرت عددا من التجار وسائقي سيارات الأجرة الذين دعوتهم، برغبتي في إعلام البلاد والرأي العام العالمي عن نشاطنا وفي التنديد

بالأكاذيب التي يروجها التاريخ الاستعماري. فقلت لهم: " المطلوب منكم أن تكتتبوا لبعث جريدتنا، الأمة، التي ستصدر ثلاث أو أربع مرات في السنة" فتناول الكلمة التجار وسواقوا سيارات الأجرة ليقولوا أنهم سيفعلون كل ما هو ممكن لإعطاء الحياة لهذا المشروع الكبير.

بعثنا الفكرة ولكن كان علينا أن ننتظر وقتا لتصير حقيقة[1]، فرغم علاقاتنا السيئة مع الحزب الشيوعي الفرنسي فقد التجأت إليه لتسهيل بعض المساعي الإدارية.

وبالضبط تحصلت على مساعدة جزائري، شيوعي مقتنع ورجل ذي قيمة كبيرة لا أعرف إلا اسمه: علي. كان بشوشا وخدوما وهادئا وكانت له تربية جيدة. في بعض الأحيان يتوارى لمدة طويلة ليظهر بعد عدة أشهر. كانت قيمته عالية في الجهاز الشيوعي كنت أحبه كثيرا لحديثه وذكائه. كان يحسن الرسم جيدا ويتكلم عدة لغات أجنبية. كانت مقالاته موقعة "الجزائري"[2].

غالبا ما كنا نقول لأنفسنا في ذلك الوقت أنه من الممكن أن نطرد من الحزب الشيوعي ليرتاحوا منا. وفي هذا الوقت بالذات فإن شبيلة الذي كان عضوا في الهيأة المديرة والذي كان عليه أن يحضر في المؤتمر الثاني ضد الامبريالية في برلين وقف ضدنا. والتحق بصفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، ولم يمض وقت طويل حتى رجع باكيا لأن الشيوعيين قد رموه بعد أن استعملوه. كنا حقيقة نتساءل لماذا الحزب الشيوعي الذي يتردد في إقصاء الحاج علي مازال لديه موقف آخر معنا. كنا نفكر وقتها أنه بعد ثلاثة عشر سنة من الوجود والحياة الصعبة إنه يحس بمصاعب ضخمة على المستويين الداخلي والخارجي.

وما هي إلا أربع سنوات بعد استسلام الأمير عبدالكريم، حتى أعلن الاستعمار الفرنسي عن الظهير البربري الشهير الذي كان عليه أن يعيد اللغة البربرية وهي مرحلة أولى إلى عملية تمسيح ثلاثة أخماس سكان المغرب، كانوا يريدون بوسيلة منحرفة القضاء على الإسلام لدى السكان المغاربة. إن هذا العمل السيئ الذي بدأ في الجزائر كان عليه أن يتواصل وينتشر في تونس مع المؤتمر الفَخَارِسْتِي وانتصاب صنم

---

(1) الأمة رقم 1 في اكتوبر 1930 ورقم 2 في سبتمبر 1931 ثم إصدارات غير منتظمة في 1932.

(2) كل هذه المعطيات يبدو أنها تشير إلى علي منور. ومع هذا وحسب الشرطة، فالمقصود هو الحاج علي الذي أخذ سهما كبيرا في إنشاء الأمة. في أكتوبر 1930 كان هو مدير الجريدة ثم اختفى اسمه في سنة 1931.

للكاردينال لافيجري مؤسس مدارس الشرق والآباء البيض. اتحد السيف والصليب لمواصلة الحروب الصليبية والاستيلاء على المغرب العربي إلى الأبد.

ولكن الظهير البربري قوي في الواقع، التضامن بين المغاربيين وحتى بين المغرب والمشرق. كل المشرق العربي الإسلامي وملوكه في المقدمة كانت له ردة فعل ورفع احتجاجات خلال هذه القضية.

إن هذه الحملة المناهضة للاستعمار قد سبقت بقليل المؤتمر الإسلامي العالمي الذي كان عليه أن ينعقد في القدس في ديسمبر 1931.

إن هذا المؤتمر الذي كان له أصداء كبيرة في كل البلدان العربية الإسلامية عبر العالم تم انعقاده لينادي بوحدة كل المسلمين في الأرض. إن مشكل وحدة الحركات الوطنية وحركات الكفاح من أجل الاستقلال كان إذن في وسط المناقشات.

في الوقت الذي ارتفعت فيه الاحتجاجات ضد أفعال الاستعمار من كل جهة إلى درجة أنهم ظنوا أنهم يعملون عملا جيدا في الطبقات العليا بتنظيم معرض استعماري في غابة فانسان في باريس. إن هذه المبادرة للجنرال ليوتاني هي متابعة للضوضاء الضخمة التي جلبتها حفلة الذكرى المئوية للاحتلال العسكري للجزائر. إن الباريسيين وفرنسيي المقاطعات الداخلية كانوا مدعوين للمعرض ليتفرجوا على الأهالي وأنماطهم المعيشية كما نتفرج على الحيوانات في حديقة الحيوانات. إن نجم شمال إفريقيا أظهر عداوته في الحين لهذا المعرض كما فعلت ذلك العديد من الجمعيات. أما الحزب الشيوعي الفرنسي فإنه ندد قبل كل شيء بهذه المهزلة الاستعمارية قبل أن يقيم حملة واسعة للتشنيع بها. إن الحزب الشيوعي الفرنسي والكونفدرالية العامة للعمال الموحدة قد أنشأوا معا معرضا استعماريا مضادا في دار النقابات في باريس. إن منظمي هذا المعرض المضاد قد تسلموا مواد وتحفا ذات قيمة تاريخية عظيمة وقد جاء الكثير من الزوار للتمتع بمشاهدتها. وهكذا فإنه كان باستطاعتهم أن يستنتجوا أن الأهالي قادرون على أن يعيشوا أحرارا ومستقلين وأن الضوضاء التي أقيمت في غابة فينسان ليس إلا دعاية لتغليط الفرنسيين فيما يخص بشاعات الاستعمار.

إن أصدقاء من جماعات المناقشة في تلمسان أخبروني بأن جوقة كاملة من موسيقيي البلاد ستشارك في المعرض ليلعبوا الموسيقى العربية. إن هذه الجوقة كانت تحت إشراف السيد محمد بن اسماعيل، أستاذ عربية في المغرب ورئيس الجوقة كان

عمر بخشي وهو مختص في العود الأندلسي، فلكي استطيع لقاء الموسيقيين بمجرد وصولهم كنت نظمت نفسي على أن أكون كل يوم في المعرض مع زوجتي وعلى الذي كان عمره أكثر من عام. وهكذا استطعت أن أتصل بهم دون أن يعرف الأستاذ شيئا وأخبرتهم بأني أرغب في دعوتهم لسهرة وأننا نستطيع أخذهم بعد تأديتهم مهمتم مساءا.

تكلف أصدقائي بحجز قاعة في دار النقابات لاستقبال جوقة تلمسان. ومن ناحيتي فقد تكلفت بالباقي بما في ذلك الحافلة التي تحملهم إلى هنا. عندما وصلوا قدمنا لهم وجبة عشاء باردة ومشروبات مبردة، ثم استمعنا إليهم مدة ساعة تقريبا مع انتباه حاد. كانت الموسيقى تسكرنا. كانت تذكرنا بالبلد والعائلة والأصدقاء وشبابنا. فتناولت الكلمة فيما بعد لشكر الجوقة على تلبيتها دعوتنا شكرا حارا كما ذكرت بالهدف الوطني من هذه السهرة. كان ينبغي أن نقول رأينا في المعرض الاستعماري وأن نعرف بنشاطات نجم .شمال إفريقيا وبرنامجها. إن هذه السهرة السياسية الموسيقية قد جلبت جزائريين كنا تركناهم في عزلة عنا إلى حد الآن ومن بينهم راجف بلقاسم وهو أحد القادة الكبار للحزب في المستقبل.

انطلاقا من نهاية المعرض الاستعماري الذي استمر إلى أكتوبر 1931، بدأ نجم شمال إفريقيا يرجع للحياة شيئا فشيئا. كان أكثر فأكثر حرية واستقلالا في حركاته وفي أنشطته مع الإبقاء على علاقات "الصداقة" مع الحزب الشيوعي الفرنسي. كان المقر الاجتماعي دائما في 49 نهج بروتاني في باريس. كانت الهيئات المسيرة في سنة 1931 حسب الترتيب: المكتب السياسي والهيئة المديرة والفرع المحلي والفرع الجهوي والفرع المركزي. وكان هناك كذلك المالية العامة، لجنة الحسابات ولجنة الانضباط. وجريدة الأمة كانت تسيرها هيئة للصحافة والتحرير. إن جمعية عامة كانت تنعقد مرة في السنة وكأنها مؤتمر لتنظر في نشاطاتنا وتعيد انتخاب قادة الحزب. في الحقيقة، كانت كل هذه الهيئات غالبا ما تراجع وتصحح وتؤقلم حسب الحاجة والتجارب التي تتم خلال العمل.

كنا نريد بناء الحزب وتحكيم الانضباط وفرضه على الجميع وبعبارة أخرى كنا نريد أن تصير جمعيتنا كاملة معصومة. اجتمعنا عند أصدقاء لتعديل القانون التأسيسي وغلق الباب مرة واحدة على أي تدخل في أمورنا الداخلية، وهكذا فإننا منعنا ازدواجية الانتماء يعني الإمكانية التي كانت للشيوعيين الجزائريين أن ينخرطوا

في نجم شمال إفرقيا وحتى أن يكونوا أعضاء في قيادتها. فإن هذا بالطبع لم يعجب الحزب الشيوعي الفرنسي. ولكن الشيوعيين مصريين ولا يتخلون عن الشيء بسهولة. ولهذا كنا دائما على حذر معهم.

خلال سنة 1932 بدأت حملة جديدة من الدعاية قد قادتنا لأول مرة وخلال أعياد باسكال إلى المقاطعات الداخلية "رُوَان" و" لوهَافر"، حيث دعينا من طرف مواطنين. ولكن هدفنا الرئيسي كان الحصول على مقر مركزي خاص بنا نستطيع أن نتقدم كحزب سياسي مستقل تماما. كنا كذلك نبحث عن مدخل إلى الحزب الاشتراكي ورابطة حقوق الإنسان والتجمعات السياسية اليسارية لنكسر وضعية الانفراد مع الشيوعيين.

إن جريدتنا الأمة قد استقبلت بفرح كبير سواء في فرنسا أو في الجزائر، ولكن الشيوعيين وحتى لا يبقوا بمعزل عن هذا فإنهم أحدثوا جريدة باللغة العربية أسموها " العمل"[1]. حاول الحزب الشيوعي أن يحرمنا من الانفتاح على المستويين الداخلي والخارجي، ففي 1931 و1932 منعنا هكذا من الحضور في مؤتمرات دولية مثل مؤتمر هيئة أمستردام ربلايل، حيث تم مناقشة المشاكل الاستعمارية. نستطيع القول وهذا يفهم بسهولة، أن حملات الشيوعيين خلال هذه الفترة كانت أوجعتنا أكثر من تهجمات الاستعمار.

أضف إلى هذا أن السلطات الفرنسية كانت لا تنام. فقد قررت إحداث ما يساوي بلدية مختلطة جزائرية في قلب باريس. نصبت في هذه البلدية المختلطة في نهج لوكنت في الدائرة الثامنة عشر. فقد وضعت تحت إشراف متصرف إداري قديم لبلدية مختلطة في منطقة القبائل، السيد جيرولامي. كان عليها، حسب ما ورد في الصحافة المتعاطفة مع الاستعمار، أن تكون في خدمة الأهالي الجزائريين من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والصحية. كما كان عليها أن " توسع مزاياها" حتى إلى تسوية الأمور والمنازعات التي تطرأ بين العمال الجزائريين والإدارة الاستعمارية في الجزائر. وليس كل هذا إلا غطاء تختفي تحته أهداف أخرى للإدارة. كانت تريد أن تجلب العمال الجزائريين لتعزلهم عن هيمنة نجم شمال إفريقيا.

---

(1) عرضت هذه الجريدة على أنها لسان حال الكونفدرالية العامة للعمال الموحدة وكان مسيرها معروف ومترشح الحزب الشيوعي الفرنسي في ماي 1932.

إلى هذا اليوم كان الكثير من الأمور كالبطالة وأمور الحالة المدنية أو الاستشارة في المستشفيات، نعامل فيه مثل معاملة رفاقنا الفرنسيين. ومن الآن فصاعدا سنرسل إلى مصالح نهج لوكونت الشيء الذي يصعب من حياتنا. فلم يعد لنا الحق في الذهاب إلى مستشفى بوبينيي. ذهبت لزيارة مناضلين كانوا مقبولين في المستشفى على إنهم مصابون بمرض السل، كانوا يقولون بأن معالجتهم تتم على أحسن وجه من طرف الأطباء الذين كانوا يلاطفونهم كثيرا ولكنهم يتألمون على العزلة التي فرضت عليهم وكأنهم مصابون بالطاعون. قامت البلدية المختلطة لباريس بإنشاء مصلحة للشرطة مكونة من رجال شرطة فرنسيين وجزائريين وهم مكلفون " بتأطيرنا" . إن عدد رجال الشرطة الذين تم توظيفهم ارتفع بسرعة وهكذا تم تكوين فرقة شمال إفريقية متعاونة مع الشرطة الفرنسية[1] .

كان هؤلاء الشرطيون يتحركون في الأحياء المسكونة من الجزائريين وكانوا يترددون على المقاهي والمطاعم بحثا عن الاتصال بالعمال الأهالي. كانوا يعدونهم بما يعجز الخيال عن وصفه: "كلما تحتاجون شيئا فعليكم بنا ولن ينقصكم شيء" هذا ما كانوا يقولون إلى أصدقائنا. حاول الشرطيون عدة مرات أن ينصحوا بعض إخواننا أن يتخلوا عن نجم شمال إفريقيا. كانوا يقولون لهم: "لا تتبعوا مصالي الحاج فهو عربي بينما أنتم قبائل فخورون بجبالكم وبذكائكم وبشجاعتكم" .

السيد جيرولامي ترك بسرعة منصبه إلى شاب متباه جاء مباشرة من وزارة الداخلية، السيد غودين. فأبوه الذي هو مستشار بلدي في باريس غداة الحرب العالمية الأولى كان حسب ما قيل صديقا للأهالي الجزائريين. إن البلدية المختلطة في نهج لوكونت صارت وبكل وضوح شرطة خاصّة من شأنها تأطير العمال اليدويين والمثقفين الجزائريين في فرنسا. فعندما لم ينجحوا بالكيفية الظريفة استعملوا التهديد والتخويف والفساد.

إن الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي موريس توراز ذهب ليطلع بنفسه سنة 1932 على الوضعية الشيوعية في الجزائر. بمجرّد ما انتهت هذه الجولة، دعت جريدة "اليومانيتي" العمال للحضور إلى اجتماع يقوم خلاله موريس توراز بعرض تقرير عن سفره. أقيم التجمع في نهج كامبرون في محل نقابي. كنا تقريباً عشرة مناضلين من

(1) إن رجال شرطة نهج لوكونت تركبوا من 37 مفتشا أو ضابطا وعدد متغير من الأعوان الجزائريين البسطاء، كانت المصلحة تستعمل العديد من العملاء.

نجم شمال إفريقيا في الموعد وكان البعض منا متمركزاً عند مدخل قاعة التجمع ليبيع جريدتنا "الأمّة". كانت خدمة النظام في أيدي جزائريين شيوعيين ومن بينهم الرفيق معروف وهو من أكبر الانبطاحيين (بني ويوي) في الحزب الشيوعي الفرنسي والكونفدرالية العامّة للعمال الموحدة. عارض بيع جريدتنا ثم تسبب في حادث يزعج التجمع فقد رفضوا حضورنا في التجمع وثارت ثائرتنا. عندما أقلقته هذه المشاكسات، تدخل موريس توراز شخصيا ليتركونا ندخل.

وبمجرد ما جلسنا، طلب مني الصعود إلى المنبر. لم أكن أنا شخصيا طلبت شيئا وما أتيت إلى هذا التجمع إلاّ للسماع إلى الرفيق موريس توراز. ومع هذا فإني ذهبت إلى المنبر لأعلم كل من هب ودبّ أن هذا لا يخيفني. طلبت أن يتوقف الحزب الشيوعي عن وضع العراقيل لنا. إن خطابي وهذا كان غير منتظر صفق عليه بعض الرفاق. ثم قام موريس توراز بتقديم تقريره ولم يجب شيئا. لماذا لم يقل هذا الأخير شيئا؟ كنا مترددين وبعد زمن ما تساءلنا عمّا إذا لم يكن الحزب الشيوعي الفرنسي في منعرج جديد. وبالفعل فإن موريس توراز هو نسبيا جديد على رأس الحزب وربما أعاد النظر في موقف "120" تجاه نجم شمال إفريقيا. وفي الحقيقة إن الحزب الشيوعي كان قادراً على كل شيء. يمكن أن يعبد الله ويحطمهُ أياما بعد ذلك ثم العودة إليه ثانية دون أي حياء. كل هذا حسب الأوامر التي تمليها موسكو.

ولكن مع الأسف، إن فرضيتنا كانت مخطئة فكل المدفعية الثقيلة ما زالت موجهة نحوي. كانوا يحاولون أن يُقدموني كغني أو بورجوازي مبتذل أو كمغامر. ولكن الشيوعيين لا يتعبون أبدا. عندما يرون أنهم لم ينجحوا فإنهم يغيرون الخطة والرجال. فتم التغيير في اللجنة الاستعمارية للحزب الشيوعي الفرنسي. إن من يسمى آندري فرات صار هو المسؤول عنها. شاب وبشوش وذو تربية جيدة، إن هذا المثقف كان أقل خشونة من سابقيه. فرغم كل هذه الصفات، فإنه بقي شيوعيا. ولكنه كان يظهر لنا أحسن من الآخرين أو على الأقل في الظاهر.

في ذلك الوقت كانت باريس تعيش أزمة سكن فأيّ محل كان ثمنه لا يطاق. وكانت وسائلنا المالية لا تسمح لنا حقيقة بوجود مقر اجتماعي في الدائرة الخامسة أو السادسة. وأخيرا فإن أحد مناضلينا أخرجنا من هذا المأزق واقترح علينا محلا في الرقم 19 من نهج داغير. إن هذا الرفيق بنون عاكلي، عضو الهيئة المديرة لنجم شمال إفريقيا، كان متزوجا مع فرنسية كانت تريد أن تكري لنا غرفتين في دار قديمة. إن

الباب المخصص للعربات يفتح على فناء مليء بالعربات الجوالة المستعملة من طرف باعة الفواكه والخضر. وبعض الأشهر بعد ذلك أخبرت مجلة اسمها لو أو فو (Lu ou Vu) في تحقيق لها أن الرقم 19 من نهج داغير كان قد سكنه لينين أثناء حياته السرية. ففكرنا أن هذه المصادفة السعيدة إنما هي تعبير عن بركة الله.

إذًا ففي هذه الدار الفقيرة التي يسكنها الفنانون وباعة الفصول الأربعة، في هذه الدار الفقيرة علقنا العلم الأبيض والأخضر والمرسوم عليه هلال ونجمة حمراء. إن هذا المكان الموجود على عشر دقائق مشيًا من مقهى "لاكوبول" صار مقرنا الاجتماعي ومقر لسان حالنا المركزي "الأمّة". فعندما أقدمنا على الضفة اليسرى سهل عليَ متابعة دروسي وقراءة الصحافة الدولية والحضور إلى بعض المحاضرات. شيئا فشيئا استطعت الاقتراب من جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين التي كانت مقيمة بنهج رُولين والتي يرأسها السيد محمّد الفاسي.

إن صديقنا السيد أحمد بلغول كان قد فتح مقهى ومطعمًا في نهج "موسيو لوبرانس": "الهقار" وصار محله ملتقى للمغاربيين. ها هنا عرفت فرحات عباس في يوم كان يتحدث فيه مع واحد أو اثنين من الاشتراكيين الفرنسيين.[1] لم نكد نبدأ دخولنا في الحي اللاّتيني وإذا بنا نلتقي بكثير من الناس المواطنين منهم والفرنسيين. من بين الفرنسيين تعرفت على دانيال غيرين وهو عضو اللجنة الاستعمارية في الحزب الاشتراكي. حدثني عن بلفرج وعن جان روبارت لونغي الذي صار فيما بعد مُحاميًا.

قبل وصولنا في نهج داغير، عقدنا يوم 28 مايو 1933 في الـ 49 نهج بروتاني في الدائرة الثالثة جمعية عامّة هامّة لنقدم من جديد لمناضلينا برنامجنا الذي كتب في بروكسال وأخيرا تم التصديق عليه من طرف كل الحاضرين. كنا نقول إن هذا البرنامج سيعتبر من الآن فصاعدا على أنه ميثاق وطني يربط مجموع السكان المسلمين الجزائريين. ثم أضفنا: "من أجل سلامتنا ومن أجل مستقبلنا ومن أجل شغل مكان كريم ولائق لجنسنا في العالم، ولنقسم كلنا ويدنا على القرآن أن نعمل بلا هوادة على إنجازه وانتصاره في الأخير!"

إن هذا البرنامج قد تم عرضه بصفة واسعة وشرحه والتعليق عليه في جريدتنا "الأمة" التي كانت ترسل إلى الجزائر منذ 1932. كانت تصلنا الرسالات من كل

(1) فرحات عباس كان مسجلا في بطاقات الشرطة بأنه مشترك في جريدة الأمّة.

مكان لشكرنا وإعلامنا بآمال شبابنا. كانوا يقولون لنا أن "الأمّة" تمر من يد إلى يد. إني أتذكر دائما السرور الذي كان يغمرني عندما أذهب إلى المطبعة لتسليم النسخة وحضور ترتيب الصفحات والتصحيح. إن نقابيين اشتراكيين أو شيوعيين كانوا يتعاطفون معنا ويساعدوننا كثيرا للتغلب على المشاكل التقنية.

في هذه السنوات 33 – 1934 كان السلم العالمي مهدداً في نفس الوقت من طرف الاستعمار من جهة ومن الفاشية الإيطالية والألمانية. ثم هناك حركة مناهضة للفاشية والامبريالية تنتشر في الطبقة العاملة اليسارية الفرنسية. ففي باريس بدأت الشبيبة الوطنية تتظاهر أمام الصوربون وشارع سان جرمان، بينما صار هتلر مستشارا. فقد جرت في 6 فبراير 1934 مواجهات بين المتظاهرين ضد الفاشية وقوات الشرطة كما جرت المحاولات للاستيلاء على مجلس النواب وسقط الأموات والجرحى من الطرفين. في اليوم التالي للمظاهرات ذهب الباريسيون نساءا ورجالا وأطفالا ذهبوا إلى ميدان لاكونكورد للوقوف على مدى الخسائر. وكنت من ضمن الطفيليين الذين جاؤوا ليروا بأعينهم آثار هذه الانتفاضة لأنه كان عليّ أن أقوم بتقرير على ذلك للمكتب السياسي لجمعيتنا وتحرير مقال لجريدتنا "الأمّة".

نعرف أن مواجهات جديدة وقعت وأن مظاهرة ثانية جرت يوم 9 فبراير 1934 في ميدان الجمهورية، ثم ثالثة يوم 12 فبراير 1934 في شارع فانسان. ذهبت راجلا إلى هذه المظاهرة الأخيرة. في هذا اليوم كانت المقاهي والدكاكين مغلقة كلها وكانت الأنهج فارغة. لكن عندما نصل إلى حافة ساحة "لانسيون" رأيت رجال شرطة في الزي المدني يتحركون في كل الاتجاهات. ومن هنا إلى غاية باب فانسان كان عشرات وعشرات الآلاف من المتظاهرين. كان الناس يتكلمون في جماعات ويلحون على ضرورة اتحاد اليسار. كان الناس يهتفون بالشعار: "وحدة العمل". كان هناك كل القادة والمنتخبين من الحزب الاشتراكي ومن الحزب الشيوعي الفرنسي ومن الحزب الراديكالي وجمعيات أخرى يسارية كانت حاضرة. لقد ألقيت خطابات من طرف بلوم وبول فور ومرسال كاشين ودوكلو. وبعد هذا تحرك موكب المظاهرة على وقع الأناشيد الثورية.

كل هذا خلاني أفكر. فنجم شمال إفريقيا أخذ شكل حزب سياسي مع بنيات أكثر فأكثر متانة. ولهذا قلت في نفسي أن مكاننا لا يكون إلا قرب الشعب الفرنسي الاشتراكي الديمقراطي. بالفعل فإن البروليتاريا لا يهتم قط بمطالبنا الوطنية ولكن

رغم هذا هناك إمكانيات في وسط اليسار للمرافعة على قضيتنا أمام الرأي العام. تم اجتماع المكتب السياسي والهيئة المديرة والجمعية العامة على التوالي فوافقوا على هذا الموقف. إن الانفراد مع الشيوعيين انتهى نهائيا. صرنا نتعامل اليد في اليد مع مختلف التجمعات اليسارية الفرنسية وانفتحت لنا آفاق جديدة. حانت الساعة لإعطاء نجم شمال إفريقيا كل الوسائل لتسريع نموه. لهذا قرر المكتب السياسي إحداث منصبين دائمين وعيّن فيهما عماش عمار وأنا شخصيا.

وهكذا فقد نزلت الشرطة إلى منزلي لأوّل مرّة قام بها قاضي التحقيق ومحافظ الشرطة. فعينت الأستاذ جان لونغي محاميا. ولم يعجب الحزب الشيوعي الفرنسي هذا الاختيار. وعوضا عن هذا، بدأ الحزب الاشتراكي يفتح لنا أبوابه ويعير اهتماما أكثر لوضعيتنا وبدأ نفوذنا يسمو بصفة هائلة لدى الطلبة والعمال الجزائريين.

صرنا نعقد في كل أسبوع اجتماعات صغيرة للتربية والإعلام من الجمعة مساء إلى غاية الأحد في منتصف الليل. فقد عقدت هذه الاجتماعات في بوتو وكوربفوا ولوفالْوَا بيري وكليشي وسانت أوان وكلينيا وحانفيليي وسان دوني وبولوني بيانكور وبانتين ومونتراي...إلخ... توصلت هكذا إلى إحداث حزام أخضر حول باريس مثل الحزب الشيوعي. كانت هذه الاجتماعات تقع أحيانا في محلات الحزب الاشتراكي وأحيانا أخرى في محلات الحزب الشيوعي. كانت لا تجمع أكثر من خمسين إلى مائة شخص. كان هذا العمل يرمي إلى إحداث إطارات صغرى ووسطى لبناء الحزب من القاعدة إلى القمّة.

وقد شعرنا في ذلك الوقت حاجتنا إلى تكلم لغتنا العربية بصفة جيدة. فبمجرد إقامتنا في نهج داغير بدأنا تعريب حزبنا. في اجتماعاتنا النظامية والسياسية كنت أتكلم في نفس الوقت بالعربية والفرنسية. كنا في كل حركاتنا نرجع إلى الأصل المنعش والمنشط لماضينا التاريخي. إن بطاقاتنا للانخراط وعناوين رسائلنا وجريدتنا "الأمّة" ومناشيرنا، كلها كانت تحمل كتابة بالعربية وفي بعض الأحيان آية قرآنية تدعو المسلمين إلى الاتحاد والعمل.

في يوم 05 أغسطس أكثر من ثمانمائة جزائري حضروا جمعية عامّة للمنظمة وكان الاجتماع يكتسي أهمية كبرى لأنه وللمرّة الأولى تقدم العلم الجزائري" أخضر وأبيض وفي وسطه هلال ونجمة بالأحمر. وكان لي الشرف أن ألقي كلمة الافتتاح أمام هذا العلم المرفوع عاليا والمحفوف بحرس شرفي. إن رؤية هذا المشهد العظيم

جعلت الجزائريين يقفون كرجل واحد وهم ينشدون ويصفقون. إن صيحات: "تحيا الجزائر" و"يحيا الاستقلال" و"يحيا نجم شمال إفريقيا" قد انبثوا في كل القاعة. إن حفلة كهذه لم تقع أبدا منذ السنة 1830 وهي السنة التي سُلِبَ فيها وطننا. إن هذا الخبر قد انتشر في فرنسا وشمال إفريقيا وكأنه ذرّ من غبار الشيء الذي جعلنا نستقبل مراسلات كثيرة وهامّة.

في وسط سنة 1939، كان حزبنا ما زال متكونًا من مجموعة من الرجال والعمال الذين ليس لهم موارد كبيرة بحكم انتمائهم إلى شرائح اجتماعية متواضعة. لم يكن مناضلو نجم شمال إفريقيا مبرّزين ولا حائزين على شهادات جامعة الأزهر وليس أكثر مما كان عليه أعضاء المكتب السياسي والأمانة العامّة للحزب والهيئة المديرة[1]. لم تكن مهمتي سهلة. إذا كان الجزائريون سليمي القلوب وشجعانا ومحبين للوطن ومستعدين لكل التضحيات فإنهم على العكس من ذلك سريعو الغضب وحساسون. فلا ينبغي اللعب مع العدالة والشرف والكلمة المعطاة: فبصفتي رئيسا لحزب كان لدي العديد من النزاعات التي يلزمني تسويتها ومن التوفيقات التي ينبغي القيام بها. فالصعوبات كانت لا تأتي من القاعدة، بل كانت في أغلب الأحيان عند القادة. فالقضية كانت مسألة خلق وإحساس وفي بعض الأحيان غيرة وطموح. لا بدّ من العيش كثيرا مع الناس لمعرفتهم وفي انتظار ذلك لا بد التحلي بكثير من اللباقة لقيادة السفينة إلى المرفأ.

فإن الرفيق آندري فرات رئيس لجنة المستعمرات في الحزب الشيوعي الفرنسي جاء لرؤيتي شخصيا في المقر بنهج داغير وكان ذلك مفاجئا بالنسبة لي. فباعتبار خطورة الوضعية الدولية والتهديد الذي تلوح به النازية ضد السلم فقد كان من الأهمية بمكان حسبه أن تعمل على توحيد كل القوى الديمقراطية. "فالحريات الديمقراطية الغالية لدينا جميعا هي الآن في خطر. نستطيع، نحن والآخرون، أن نختلف وألا نتفق على هذا التصور السياسي أو ذاك، فهذا ليس مهما في حدّ ذاته فالمهم أن ننظر إلى مجموع الأحداث وخطورتها والالتحاق بصفوف اتحاد القوات الديمقراطية". تحدثت عن هذا اللقاء مع أصدقائي في المكتب السياسي والهيئة المديرة وفيما بعد مع مناضلينا. فقررنا إذن الرجوع إلى علاقاتنا مع الحزب الشيوعي

---

(1) إن المكتب السياسي، كما يوضح ذلك مصالي الحاج، كان يتضمن في تلك الفترة الأعضاء الخمسة: سي جيلاني وعماش عمار وراجف بلقاسم وبنون آكلي ومصالي الحاج.

الفرنسي مع أخذ احتياطاتنا. ففي هذه المرّة كنا مسلحين بأربع سنوات من التجربة وبالتالي فقد كنا مرتاحين.

فبعد ذلك بقليل عزمنا على عقد تجمع كبير في قاعة "لاموتيالتي" بساحة موبار. فقد كان علينا قبل كل شيء تقديم طلب مكتوب إلى عمالة الشرطة مع الإشارة إلى المحل والتاريخ والساعة واسم الجمعية. وقد كان مضبوطا أنه ليس من الضروري انتظار الجواب عن هذه الشكلية للذهاب إلى الفعالية. ومع هذا فإن التجمع كان ممنوعا يومين بعد طلبنا. فقد نصحنا أصدقاء لنا بألا نرجع إلى منازلنا لنتجنب أن يبلغ لنا المنع من طرف الشرطة. ونتيجة لذلك قررت بمعية سي جيلاني وواجف وعماش أن نختفي. ولكن رغم كل الاحتياطات استطاعوا أن يبلغونا بأن قاعة "لاموتيا ليتي" كانت ممنوعة علينا.

فبدون تضييع الوقت، طلبنا من جمعة المجتمعات العلمية أن تكري قاعة وهنا كذلك بلغنا بالمنع. لكن تأخرنا كثيرا. فالجزائريون الذين كانوا يأتون من كل مكان كانوا يملأون الأماكن المجاورة للقاعة والشرطة كانت تتحرك في كل مكان بين قاعة لاموتيا ليتي ونواحي مقر المجتمعات العلمية. وبما أن الوضعية بدأت تتأزم، أخذت طاكسي لجزائري فقادني إلى شانتي مالابري لأطلب من محامينا الأستاذ جان لونغي أن يتدخل لدى العمالة. فركب معي في الطاكسي ووصلنا معا إلى مقر الحزب الاشتراكي في نهج فيكتور ماسي. ذهب الأستاذ لونغي لرؤية الأستاذ بلوم وقدمني إليه. وقد استقبلني هذا الأخير بكثير من الترحيب وقال للونغي بعد أن استأذن منا: "اذهب من طرفي إلى السيد بروسي في العمالة".

وبعد ذلك أخذت الطاكسي وحدي لأرجع إلى مقر المجتمعات العلمية. كانت الساعة الخامسة بعد الزوال وكان هناك الكثير من الناس والكثير من الشرطة الذين كانوا يقولون للناس: "يمكنكم الذهاب فإن الاجتماع لن يعقد" وفجأة ظهر أمامي راجف بلقاسم وقال لي إنه وجد قاعة في الدائرة الخامسة عشر. فقلت: "أنا موافق" وكان الجزائريون قد انصرفوا إليها: فالبعض في الميترو البعض في الطاكسيات التي يسوقها الجزائريون. إن هذا كان بطاكسيات لامارن. إن بعض المواطنين كانوا قد ذهبوا راجلين من نهج دانتول إلى نهج كامبرون في الدائرة الخامسة عشر.

عندما علمت الشرطة بذلك، كان كل الناس قد أخذوا أماكنهم في القاعة، نهج كامبرون. كانت الجموع تتدفق في الأروقة. كان هناك أكثر من ألف شخص ومن

بينهم جنود بأزيائهم كانوا قد جاؤوا من مدرسة عسكرية بباريس. كل المشاكل المتعلقة بوضعيتنا في فرنسا وفي شمال إفريقيا قد تم الحديث عنها. في الخطب كان الخطباء يلحون في طلب استقلال شمال إفريقيا ووحدتها. وأنهيت التجمع قائلا: "إن هذه التظاهرة سيشهد لها التاريخ بالنسبة لنا. إن هذا التجمع فد انعقد رغم أنه منع مرّتين وهذا بفضل كل الجزائريين الذي جاؤوا".

إذا كان لابد من ذكر تجمع فإن الذي انعقد بتاريخ 19 أغسطس 1934 الذي جرى في نهج "لاغرانجوبال" بعد تحدّي قسنطينة الذي تواجه فيه اليهود والعرب. إن هذا التجمع كان يهدف إلى التنديد بالحملات الاستعمارية وإحباط مخططات التفرقة والحقد وقد عرف نجاحا باهرا[1]. وقد تقرر فيه إرسال مهمة تحقيق مكونة من الأستاذ لونغي والبشير طالب عضو الهيئة المديرة ثم تم التصويت بالإجماع على لائحة هذا نصها: "إن المسلمين المغاربيين المجتمعين وعددهم 3500 شخصا يوم الأحد 19 أغسطس 1934، يوافقون وبدون تحفظ على عمل نجم شمال إفريقيا ويصرحون بأنهم مستعدون على تدعيمه بكل الوسائل. إنهم يندددون بقوة بالتحدي الامبريالي الفرنسي الذي تمخض عنه في قسنطينة مأساة دامية. إنهم يؤكدون تضامنهم الفعلي والفعال مع ضحايا الاضطهاد. ويصرحون بأنهم يوافقون بالكامل الموقف الفخور لإخوانهم المسلمين الذين رفعوا التحدي وردوا على تدنيس المسجد وشتم المصلين والنبي الكريم. ويرفعون احتجاجا عاليا ضد سجن عدة مئات من إخواننا المسلمين الأبرياء ويؤكدون الطلب على الإفراج الفوري عنهم ورفع حالة الحصار ويفترقون بهتافات: يسقط قانون الأهالي المرذول! تسقط قوانين الاستثناء! تسقط البلدية المختلطة للمساومات في نهج لوكونت ! يحيا الكفاح الانعتاقي لمسلمي شمال إفريقيا ! يحيا الإسلام !"

في هذا الوقت كان مواطنونا من وسط فرنسا يطلبوننا بإلحاح. إن أحد مناضلينا الذي كان يذهب دائما إلى ليون حضّر لي سفرا بدأ يوم 24 أغسطس 1934. أربعة وعشرون ساعة بعد وصولي، كنت أحس أني متواجد في هذه المدينة منذ عدة أشهر الشيء يفسّر الجو الأخوي الذي عقدنا فيه تجمّعا يوم 26 أغسطس. ثم نظم اجتماع خاصّ نظم لشكر أرباب المقاهي الجزائريين. فقد تحتم علي تمديد إقامتي بكيفية غير منتظرة لإلقاء خطاب ثالث: "ما هو التنظيم في المنظور الإسلامي". ثم ذهبنا إلى

(1) حسب الشرطة فقد حضره تقريبا 1800 شخصا.

سانت اتيان وكلير مونفران. فقد قمت في المدينتين بعرض عن حوادث قسنطينة والتحرش الذي قام به الاستعمار وناديت إخواننا إلى التنظم في الحركة الوطنية.

إن مواطنينا الذين كانوا يسكنون المناطق التي زرتها كانوا منتسبين إلى كل مناطق الجزائر. ولكنني لاحظت أنهم يتفاهمون جيدا وأن الشعور الوطني الذي كان يسكنهم كان عاليا. فقد توصلوا في ليون إلى إنشاء جمعية للعمال بول بارت. إن قادة هذه الجمعية الذين التحقوا بحزبنا كانوا: بدك محمد وعلي بننون وزيري تونسي وباردي وقدور وآخرون لم أتذكر أسماءهم اليوم. والذي أدهشني أكثر هو أنهم استطاعوا التخلص من هيمنة الحزب الشيوعي الفرنسي الذي ألحق بهم الآلام حسب ما ذكروا لي.

إن نجاح هذه الخرجة الأولى بعيدا عن مقاطعة باريس كانت قد شجعتنا على القيام بدورات دعائية في نواح أخرى كان يتواجد فيها مواطنونا. فبعد اتصال أول مع ليل، ذهبت مع رفيق اسمه يحياوي إلى روباي ودواي ولوبن لاديل وفي العديد من القرى الصغيرة من شمال فرنسا. كنا نذهب من مقهى إلى مقهى بحثا عن مواطنينا. إن هؤلاء المساكين كانوا يتواجدون في الغالب بعيدين عن الزنك في المعمل وهم يستنشقون جوّا مسموما من الروائح الكريهة الكيميائية. لم نعقد اجتماعات هامّة ولكننا تنقلنا مشيا على الأقدام مدة ثلاثة أيام إلى مناطق كاملة ونحن نزرع حبوب الوطنية الجزائرية. كنا مقتنعين بأن المواطنين الذين لقيناهم هم الذين سيكلفون شخصيا بإعلام إخواننا.

بعد الشمال قصدنا بلجيكا ووجهتنا فيها شارلروا. ذهبنا قبل كل شيء إلى مقهى لمواطن. وجدنا فيه خمسة أو ستة جزائريين خصصوا لنا لقاء أخويا للغاية وكذلك ربّ المقهى الذي أسرع في تقديم خدماته لنا. كنا نريد الذهاب إلى منجم متواجد على بعد خمسة عشر كيلومتر عن شارلروا. هنا كل شيء كان أسود. كان هذا المكان يشبه زاوية من زوايا جهنم. فقادنا شخص إلى نوع من المكتب هو على ملك جزائري وزوجته الفرنسية. فبعد التحيات المعهودة وبعد إخبارهم بأسمائنا وباسم نجم شمال إفريقيا، أخبرنا برغبتنا في عقد اجتماع لتحية مواطنينا وللتعريف بجمعيتنا.

ففي انتظار الجواب الذي سيعطى لنا، بدأت أرتب على المكتب بطاقات انخراط ونسخ من جريدة الأمة ومنشورات عن أحداث قسنطينة. بقينا وحدنا يحياوي وأنا وبالتلاعب بالمرايا كنا نرى كل ما يجري في مكتب آخر على يميني. فالجزائري

وزوجته كانا يتكلمان بأصوات منخفضة وبحركات مخيفة. ونصف ساعة بعد ذلك وصل شرطيان فدخلا في المكتب وجلسا بعد تحيتنا. ثم طلبا منا أوراقنا واطلعا على كل الوثائق التي كانت معروضة فوق الطاولة. ثم قال أحدهما: "أتريدون إخبارنا بموضوع زيارتكم هنا لهذا المنجم ؟" فقلت "جئنا نعقد اجتماعا باسم حزبنا" فأجابني: "المنجم ليس مكانا للاجتماعات ولا للدعاية، فوجودكم هنا غير شرعي. فأنتم أجانب وليس لكم الحق أن تقوموا بأيّ عمل سياسي. لدينا اتفاقيات مع فرنسا ونحن حريصون على احترامها. والآن نطلب منكم أن تغادروا حالا المنجم والتوقف عن كل دعاية. خارج هذا فأنتم أحرار ولا أحد يقلقكم.

عندها رجعنا إلى شارلروا في المقهى الذي انطلقنا منه. أراد إخواننا أن يعاقبوا من خدعنا وكان عليّ أن أتحاور معهم مدة لتهدئة كل الناس. قضينا السهرة هنا من والغد أخذنا القطار إلى لياج. ففي هذه المدينة كان لنا محبون كانوا يسكنون حيّا صغيرا حيث كانوا يعيشون مطمئنين في ثلاثة أو أربعة مقاهي، مطاعم وفنادق. فقد عقدنا هنا أربع اجتماعات عرضنا فيها ما هو نجم شمال إفريقيا. لما رجعنا إلى باريس، بقي لنا لإنهاء حملتنا الدعائية قبل البرد الكبير أن نعقد اجتماعا كبيرا في أكتوبر 1934 في قاعة "غرانجوبال". كان ينبغي أن نسمع عرض تقرير الوفد الذي أرسلناه للتحقيق في المؤامرة الاستعمارية في قسنطينة. إن الجزائريين قد دفعوا اشتراكات لدفع نفقات هذا التحقيق. فقد كان من العدل والنزاهة أن نقول لهم كيف استعمل هذا المال. إذن لقد قمنا بدعاية مكثفة لأننا كنا نريد بعون الله أن يكون تجمعنا معلما في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. فقد فكرنا في إضافة قاعة ثانية في دار النقابات بشارع ماتورين مورو في حالة وجود عدد كبير من الناس.

إن عشية انعقاد الاجتماع أخبرونا بأن محامينا الشاب روبرت لونغي بعد رجوعه من قسنطينة مرض مرضا ألزمه الفراش. كنت مع أصدقائي نخشى غضب مواطنينا وخيبة أملهم ومن كثرة البحث عن حلّ اتفقنا على أن نطلب من السيدة روبرت لونغي زوجة محامينا أن تتفضل بحضور تجمعنا وأن تطلب العذر لزوجها المريض والملازم للفراش. فبعد وقت من التردد قبلت في النهاية اقتراحنا. إلاّ أنها حذرتنا بما أنها لم تتكلم قط من قبل أمام الجمهور أن تكتفي بكلمات قليلة.

جاء يوم التجمع ووضعنا مصلحة النظام ابتداء من منتصف النهار لنضمن خفية الانضباط وألا تترك الناس يتجولون من قاعة لأخرى وتجنب الاتصال مع الشرطة التي

وصلت بحافلاتها ودرّاجيها. واتخذت مركزها بين نهج "غرانجوبال" وشارع "ماتورين مورو" كانت تريد أن ترد المناضلين وتنهي التجمع بأسرع وقت ممكن[1]. إن القاعتين كانتا مملوءتين إلى جد الاكتضاض. تكلمت أنا الأول في المكانين ولكن عند خروجي من تجمعي في ماتورين مورو تم إيقافي وحملي إلى حافلة للشرطة. إن السيدة لونغي التي وصلت وكانت تبحث عليّ، عَلِمَت بما جرى لي وتقدمت إلى أحد رؤساء الشرطة وشرحت له أنها جاءت لحضور التجمع عوضا عن زوجها المريض وأنها تطلب إطلاق سراح مصالي الحاج لأن توقيفه غير شرعي. إلى حدّ أنها هددت أن تهتف إلى حموها السيد بلوم إن لم يطلق سراح مصالي الحاج. وأخيرا نجحت في سعيها ومباشرة بعد ذلك قدتها إلى التجمعين وقدمتها إلى الجمهور الذي تناولت الكلمة أمامه لتعتذر عن زوجها المريض. ثم أخذت الكلمة وشكرتها عن شجاعتها.

يومين بعد ذلك تقريبا كل الصحافة الباريسية تكلمت عن تجمعنا بعبارات عنيفة جدًا. كانوا يتهموننا بكل أنواع الجنح حتى لا نقول الجرائم. كانت الجرائد تطلب أن يُحلّ نجم شمال إفريقيا المجيد وإلقاء القبض على كل قادته. كانوا يصفونني بمشوش وبشيوعي وإسلامي. إن الصحافة الباريسية كانت تعرف بأن جمعيتنا كانت حرة تماما وكانت تعرف بأننا في خلاف مع الحزب الشيوع الفرنسي الذي كان يبحث عن التسرب إلى صفوفنا. إن الاستعمار الفرنسي بالاتفاق مع "120" فضّل أن يرانا نختفي في دواليب الحزب الشيوعي عوض أن يقبل استقلاليتنا كوطنيين جزائريين. ولكن كانوا يصرون على اتهامنا دون أن يأخذوا في الاعتبار الحقائق. حتى المجالات والجرائد الأكثر جدية صاروا يطلبون من الكتاب والمفكرين وحتى من المستشرقين الذين كانوا في أغلبيتهم موافقين على وجود "أكبر إمبراطورية فرنسية". إن الأسماء الكبرى لهذا الجيل كانوا لا يريدون الكلام على أيّ شيء يشبه من قريب أو من بعيد تحرير الشعوب المضطهدة وكانوا يكررون النداء إلى الاضطهاد.

إن يوم التوسان في فرنسا يوم عطلة يعني يوم راحة. إن فاتح نوفمبر 1934، فكرت مع زوجتي أن نبقى في الاسترخاء قليلا على أن نذهب في العشية عند أصدقاء لنا. ولكن على السادسة صباحا دق على بابنا مفتشان لشرطة الاستخبارات العامّة. فتحت الباب بعد أن لبست شيئا ما فسلم لي أحدهما تفويض بالتوقيف بعد أن قرأه بصوت

---

(1) يوم 13 أكتوبر 1934، طلب وزير الحرب المَرشال بيتين منع التجمع. حسب وزير الداخلية، إن الحاضرين قد نقلوا بطاكسيات جزائريين في قاعة أخرى.

عالٍ. "البس ثيابك، نحن في انتظارك في الرواق". إن زوجتي التي كانت قد نهضت، سلمت عليّ وأوصتني بألاّ أقلق. "سأتحرك في الحين وأنذر أصدقاءنا". هذا ما قالت لي وهي واثقة من نفسها. نظرت إلى ابني علي الذي كان نائما وقبلته ثم ذهبت مع المفتشين الذين اقتاداني إلى عمالة الشرطة. كانا في الطريق جادين وتحدثا معي قليلا. "إن مهمتنا أن نوصلك إلى قاضي التحقيق". هذا ما قالا لي.

في العمالة وضعاني في قاعة كبيرة كان فيها "كراس وأرائك وطاولات وخزائن مملوءة بالأرشيف". فطلب مني المفتشان أن أجلس على أريكة. على يساري رجلان قد أغلق عليهما وراء شباك حديدي وكانا قاعدين وكأنهما قردان. كانا ينظران إلي بفضول وهما يتحركان. ففكرت: لماذا قبض على هذين المسكينين؟ أليست هذه مهزلة تهدف إلى التأثير في وإلى ترهيبي؟ إن قاضي التحقيق بلغني باتهامي وطلب مني إذا كنت أريد الجواب على الأسئلة أو ألا أفعل ذلك إلا بحضور محاميّ. فاخترت الثاني وعينت الأستاذ جان لوغي مدافعا عنّي. فاقتادوني إلى سجن الانتظار. وما هي إلاّ ساعة بعد ذلك حتى أخذوني إلى سجن لاسانتي. هنا وبعد عمليات تكاد لا تنتهي، أخذوني إلى الدوش. وأخيرا كان علي أن أسلم كل حاجاتي قبل الذهاب إلى الزنزانة. هذا نهار لا أنساه أبداً. جاءت زوجتي لرؤيتي مع ابني علي الذي صار عمره أربعة سنين. فاحتجت بقوة على بقائي مع مساجين الحق العام وبدأت تحضر نفسها لرؤية السيد هيريو[1]. لقد قام محاميّ بمساع لدى حافظ الأختام ليمنح لي النظام السياسي طبقا لتقليد فرنسي يقارب المائة سنة، ثم أخبرني بأن تجمعا كبيرا كان يجري تحضيره وأعطاني أخباراً عن الحزب والأصدقاء. ثم تبادلنا الأفكار عن الوضعية السياسية في فرنسا. فقال لي في هذا الموضوع أن شيئا جيدا هو الآن في حيز التحضير. فقد بدأ الحديث في بعض الأوساط السياسية اليسارية عن تكوين جبهة مشتركة.

وفي يوم من الأيام أخبرني أحد الحراس أن قضيتي كانت سياسية وأني سأنقل إلى القسم السادس في الحي الخاص بالسجن. وبالفعل يومان بعد ذلك أخبرت بأني سأغير الزنزانة. استقبلت هذا الخبر بسرور. بين نظام الحق العام والنظام السياسي فرق لا يقارن. فكأنه عودة إلى الحياة العادية. في الحي السياسي وجدت رفاقا جاؤوا نحوي بسرعة لا للترحيب بي ولكن ليقولوا لي محبتهم وإعجابهم بنجم شمال إفريقيا وبي

(1) السيد إدوارد هيريو كان وقتئذ وزير دولة.

شخصيا. وكانوا لاجئين سياسيين يوغسلافيين تم اعتقالهم بعد اغتيال الملك ألكسندر ولويس بارتو وزير خارجية فرنسا. لم كن لهم أي دخل في هذا الموضوع ولكنهم تم توقيفهم كمشتبه فيهم. ومن بين المعتقلين السياسيين كان هناك شخصيات وحتى وزير سابق. في يوم وصولي دعوني إلى اجتماع واقترحوا عليّ رئاسته مع قولهم أن هذا كان من حقّي. ليس من نافلة القول أني قبلت. فبعد أن فتحت الجلسة ألقيت كلمة قصيرة شكرتهم فيها. ثم باختصار عرضت عليهم ما هو حزين ولهذا تم توقيفي. بعدي قام أحد اليوغسلافيين وأعطى نظرة عامّة عن وضعيته الخاصّة.

ثلاثة أيام بعد ذلك جاءني أحد الحراس واقتادني إلى مكتب مدير سجن لاسانتي. "رتب أمورك، سيأتي أحدهم ليعيدك إلى الحق العام. فالعربي ليس له الحق في النظام السياسي". هذا ما قاله لي. وأحسست أن هذه الكلمات التي نطق بها ببرودة كانت بمثابة ضربة بالموسى. كنت مغتاظًا جدّا ولم أستطع الامتناع عن رفع احتجاج. فرد عليّ المدير قاطعا كلمتي: "ستقول هذا لمحاميك في المحكمة". إن زوجتي بعد أن تم إعلامها من طرف الأصدقاء اليوغسلافيين. وتم كذلك إخبار الصحافة الباريسية. إن بعض الجرائد قد وافقت على الإجراء العنصري. وآخرون سكتوا. أما صحافة اليسار فقد رفعت احتجاجات قوية. إن محامينا وأصدقاءنا وضعوا القضية أمام لجنة حقوق الإنسان. وتجند الحزب ليستغل جيدا توقيفي واتهام عماش عمار وراجف بلقاسم اللذين بقيا أحرارا.

تبعا لكل هذه الحملة وبفضل مساعدة اليسار، فإن النظام السياسي الذي كان إلى حدّ الآن ممنوعا على العرب، قد اعترف به لي والتحقت بالحيّ السياسي. هنا كان بإمكاني استقبال زوجتي بكل حرية وولدي علي ومحاميّ وعدد من الأصدقاء. ومن ناحية أخرى كان بإمكاني قراءة الصحافة والكتب. وفي الحقيقة لم يبق لي وقت للقلق. خلال النهار وخارج وقت الزيارات كان عليّ أن أكتب لـ "الأمّة"، دون أن أنسى السهر من بعيد على حسن عمل الحزب. وفي المساء بعد أن يغلق عليّ في الزنزانة كنت أقرأ جريدة "لوتان" وبالزاك إلى غاية منتصف الليل.

لم يفت زمن طويل حتى تم اقتيادي إلى "لاكونسيارجوري" وهو سجن مشهور يغلق فيه على المحكوم عليهم بالإعدام في زمن الهول. التحق محامون آخرون شيوعيون واشتراكيون بالأستاذ لونغي لمساعدته على الدفاع على المتهمين الثلاثة

لنجم شمال إفريقيا. ثم التحق بعد ذلك محام آخر الأستاذ آلكسندر زيفايز وطلب شخصيا الدفاع عنا. فهو مؤرخ للجمهورية الثالثة وقد كان صديقا لجورج كليمانصو في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير اشتراكيا وصديق بلدية باريس.

كانت السيدة مصالي تأتي تقريبا كل يوم بمعية ابني علي لتزورني وتعلمني بكل المشاكل. كانت تقول لي بأن معنويات القادة والمناضلين كانت جيدة. إن الجزائريين في منطقة باريس كلها والذين هم في المراكز الصناعية الكبرى كانوا كلهم كثيري الإعجاب برئيس نجم شمال إفريقيا.

إن اندلاع الاضطهاد ضد حزبنا قد عظّم شأن نجم شمال إفريقيا وشأن نفوذ قيادييه. والحزب الشيوعي قد تأثر بذلك. ولكن نظرا لكونه انتهازي وصاحب مهارة فقد جاء ليقرع بابنا لاستئناف العلاقات. وهكذا فإن آندري فيرات جاء ليزورني في لاسانتي. وكان لنا حديث مطول على كل المشاكل التي تمس شمال إفريقيا والجالية الجزائرية في فرنسا. فقد كنت أحس بأن الحزب الشيوعي الفرنسي كان يتهيأ حقيقة لمنعرج سياسي. ولكن لم أفهم إلى أي ناحية عليه أن يتوجه. ففي شهر ديسمبر 1934 استلمت رسالة وكذلك رزمة من الكتيبات والمجلات والكتب من طرف هيأة المساعدة والدعم للحزب الشيوعي، التي صارت فيما بعد المساعدة الشعبية الفرنسية وعلمت أن رزمة من اللعب قد أرسلت لولدي علي. فقد كان هذا من طرفهم اهتمام مشكور للمساعدة وأفعال الخير وفي نفس الوقت عملية دعاية لفائدة الحزب الشيوعي الفرنسي. إن هذا الأخير له الفن والكيفية في جلب الناس إليه وإقناعهم بمهمته السامية.

كان معي في صحبتي في السجن عضو من الحزب الشيوعي الفرنسي الذي حكم عليه عدة مرّات على أساس أنه مسير لـ "اليومانيتي". إن الرفيق كوتان كان رجلا كبير السن إذ يتراوح عمره بين 65 و70 عاما. فعندما ألقي عليه القبض كان في ملجأ للعجزة في الناحية الباريسية. فقد ظننت لحظة من الزمن أنه "عين" وضع إلى جانبي ليحرس ما أفعل وما أقول لزواري ولعائلتي ولمحاميّ. ثم انتبهت إلى غلطتي عندما رأيت فيما بعد أنّه يستقبل زوّارا من الحزب الشيوعي الفرنسي. منذ ذلك الوقت صار الأب كوتان، كما ينادونه، مرافقا وحتى صديقا للعائلة. كان يكمن عن مارسيل كاشين وفايان كوتوريي وبيار سيمار وبلدية باريس ومظاهرات حائط المتكيلين بحرارة كبيرة.

إن جمعيتنا كانت قد حلت كما قلنا ذلك منذ يوم 29 نوفمبر 1929 بحكم الغرفة الأولى للمحكمة المدنية لباريس. والأستاذ جان لونغي نصحنا حينئذ أن نواصل نشاطنا ونغير اسم شمال إفريقيا الذي صار نجم شمال إفريقيا المنتصر. عندما مثلت أمام الغرفة 14 للجنح، صرحت بأننا نواصل كفاحنا باسم نجم شمال إفريقيا المنتصر. ولكن الرئيس أجابني بنوع من الغضب: "ياما أجملها من قضيةص! إن حيلتكم تبعث على الضحك والعدالة لا يمكن أن تقبل هذه الكيفية من التحيل" فحكمت علي المحكمة يوم 5 نوفمبر 1934 بستة أشهر سجنا وبألفين فرنك غرامة لأنني أعدت تركيب منظمة منحلة وحكم على إخواني عماش عمار وراجف بلقاسم بنفس العقوبة.

إن قساوة هذا الحكم وخاصّة هذه الغرامة قد كان لهما الأثر العميق على المناضلين. ستة آلاف بالنسبة لنا نحن الثلاثة تعتبر مبلغا هائلا من الدراهم. الأجر المتوسط للعامل الجزائري كان حينئذ ثلاثون فرنكا في النهار لتسع ساعات عمل. فقام الحزب باكتتاب ليخفف من مفعول المصاريف الجديدة التي جاءت لتجفف ماليتنا الضعيفة. إن هذا الاكتتاب انطلق بسرعة وبدون أن نأخذ الوقت للاستشارة لدى الحقوقيين. فقد كانت مخالفة للقانون واستلمت السلطات القضية لتهديد مناضلينا وربما لإيقافهم بمجرد ما ينطلقون في طلب المساهمة إلى العمال المغاربيين. فقد كان علينا أن نغير عنوان أسباب الاكتتاب لتجنب مخالفة القانون. لم تكن مصلحة نهج لوكونت تضيع أي فرصة لتخويف مناضلينا. إن فرقة شمال إفريقيا اتهمت أخانا راجف بلقاسم بالاحتيال في البطالة لأنهم وجدوهُ واقفا أمام مقرنا. فخشينا أن تكون حياة حزبنا مهددة بصفة نهائية. فقررت إحداث جمعية أخرى قد رأت الوجود في ديسمبر 1934 في سجن "لاسانتي". وأعطيتها اسم جمعية مسلمي شمال إفريقيا وكان مقرها الإجتماعي 19 نهج داغير، باريس[1]. فخمسة عشر يوما بعد ذلك، جاءني مفتشان من شرطة الاستخبارات العامّة إلى سجن "لاسانتي" لاقتيادي عند قاضي التحقيق. فقد وجهت إلي تهمة أخرى بعنوان الدعاية ضد التجنيد العسكري من أجل هدف فوضوي[2]. فؤفعت احتجاجا قوي اللهجة وصرحت

---

(1) حسب الشرطة... إن تسمية هذه المنظمة التي أعلن عليها يوم فيفري 1935، كانت: "الإتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا".

(2) إن القادة الثلاثة للنجم كانوا متهمين بحث الجنود على عدم الطاعة، بعد الكلام الذي وجهوه للجنود الجزائريين خلال اجتماع يوم 14 سبتمبر 1934.

بأني لن أجيب عن الأسئلة إلا بحضور محاميّ. فحينئذ أشار القاضي إلى المفتشين باقتيادي إلى السجن. وفي الطريق صرح لي بجدّ وبنوع من التلذذ أنني يمكن أن يحكم علي بخمس سنين حبسا وغرامات قوية. كانا يحاولان في الظاهر إهباط معنوياتي. إن هذا الإتهام الجديد يهدف إلى إثقال وضعيتنا وتخويف كل مناضلينا. ومع هذا فإننا استأنفنا الحكم الصادر ضدنا في نوفمبر 1934 . إن هذه الدعوى الثانية قد أثارت موجة من المحبة لدى الجزائريين. فقد جاؤوا بعدد كبير إلى قصر العدالة للحضور إلى الجلسات. كان حراس القصر يتدخلون لصد مواطنينا الذين كانوا يقاومون ويهتفون في ردهات هذه البناية الكبيرة. وبما أن الحراس كانوا تقريبا كلهم من معطوبي الحرب، فقد كانوا لا يستطيعون الجري وراء مناضلينا الشبان. فقد كانوا يشتكون ويقولون بغضب واضح: "إن هؤلاء الناس من نجم الشمال، لا يمكن فعل أي شيء معهم"، الشيء الذي كان يضحك الصحافيين ويعطي شيئا من الملوحة للدعوى.

لقد تم اقتيادي إلى المحكمة بالأغلال في يديّ ثم أحاط بي إثنى عشر دركيا وجلسوا حولي وفي هذا الوقت فقط أزيحت أغلالي. ومن بين الشهود المضادين لي كان هناك السيد غودين، مدير مصالح نهج لوكونت. فقد قضى وقتا سيئا بين يدي محامينا الذين أمطروه بالأسئلة سواء حول مصالحه أو حول الحجج المقدمة ضدنا. فقد فقد في عدة مرات هدوءه. وبعد هذا قرأ أحد المحامين رسالة من صحافي فرنسي كبير ذكر على أساس شهادته الخلقية لصالحي. ثم جاء دوري. فلامني رئيس المحكمة على إعادة تكوين منظمة منحلة وعلى المساس بالوحدة الترابية لفرنسا وعلى أنني أنشر سياسة مناهضة لفرنسا. كان جوابي مختصرا جدًا. فقلت: "أبدا وحسب معرفتي، لم يحل نجم شمال إفريقيا ولم أبلغ بذلك أبدًا. فلو تم ذلك لاستأنفت بدون شك. ومن ناحية أخرى فإني لم أمس بالوحدة الترابية لفرنسا أكثر من اني طلبت حقوقا وحريات لبلوغ انعتاقنا". إن أخواي راجف بلقاسم وعماش عمار قد دافعا بدورهما عن مصالح شعبنا بقوة كبيرة وتحكم كامل. بفضل مرافعة محامينا مرّت القضية الجزائرية من قصر العدالة إلى الحي اللاتيني وحتّى خارج باريس. فهل كان لنا أن نأمل منبرًا أحسن من هذا ؟ ولهذا فبعد الحكم الجديد علينا قررنا الذهاب إلى محكمة التمييز[1].

(1) إن محكمة الإستئناف قد أعطت حكمها يوم 24 جانفي 1935: ستة أشهر حبس لمصالي الحاج وأربع لعماش وثلاثة لراجف ومئتا فرنك غرامة لكل واحد منهما (عوض 2000 فرنك في الحكم الإبتدائي).

خرجت من السجن في فاتح مايو 1935 بعد ستة أشهر من السجن. إنّ الإفراج عنّي قد احتفل به في نجم شمال إفريقيا والعديد من الحركات السياسية. شخصيا فقد خرجت من السجن بنفوذ كبير. إن مدينة تلمسان كانت في نفس الوقت سعيدة وفخورة أن أحد أولادها تجرّأ على رفع صوته. فقد وصلتنا برقيات ورسائل ومجلات وصور من هناك. كما وصلتني مراسلة ثرية من أصدقائي من فرنسا وبلجيكا.

فمدة بعض الأيام ورغم انشغالي بالعديد من الأعمال، فقد وجدت نفسي فاقدا لصوابي. فقد كنت ما زلت تحت طائلة العدالة. كان عليّ أن أتقدم إلى دعوى ثانية لأنهم اتهموني بالدعاية ضد التجنيد والعسكرة لدى الجنود المغاربيين القاطنين بباريس. ثم هناك دعوى في ليون حيث كنت بعد اجتماع مسست بالسيادة الفرنسية في الجزائر. إن مجلس الإستئناف العاشر في باريس قد حكم علي بسنة سجنا وبغرامات[1]. إن محكمة ليون أفرجت عنّي. وقليلا بعد ذلك أخبرت أنه يجب أن أذهب إلى آميان أمام غرفة الإستئناف ليعاد الحكم. فقد كانت العدالة تبذل ما في جهدها لأكون دائما تحت ذمتها وكأنها تريد أن تمنعني من القيام بمهمتي في نجم شمال إفريقيا. فقد كان هذا فعلا تحرشا.

إن أغلبية المغاربيين في فرنسا من العمال والطلبة والتجار الصغار كانوا موالين لليسار. وبما أن الانتخابات البلدية في مايو 1935 أعطت انتصارا باهرا للجبهة الشعبية وجلبوا كل الفرنسيين المترددين إلى الإنضمام إلى الجماهير الشعبية. إن هذا الإنتصار الذي لم يكن منتظرا حمل كل الناس إلى التفكير. فعلمت من أصدقائي في أوساط المحامين أن الحزب الشيوعي بدأ يتهيأ، كما كنت أتوقع ذلك إلى منعرج سياسي كبير. كان يريد تسهيل توسيع الجبهة الشعبية إلى عناصر ديمقراطية أخرى[2].

كنت مستدعيا بمعية عماش عمار وراجف بلقاسم أمام غرفة الإستئناف في آميان يوم 6 مايو 1935. للمرّة الثالثة كان عليهم أن يحكموا مسألة حلّ نجم شمال إفريقيا. بعد وقت قصير من افتتاح الجلسة تم استدعاؤنا واقتادونا أمام المجلس. فطلب منا الرئيس أن نقترب أقرب ما يكون ذلك ممكنا. فمنذ الكلمات الأولى،

---

(1) مصالي، حكم عليه من طرف غرفة الجنح 14 إلى ستة أشهر سجنا لإثارته الجنود على عدم الطاعة، قد رأى حكمه مثقلا يوم 14 مايو 1935 من طرف الغرفة العاشرة للإستئناف سنة حبسا و200 فرنك غرامة.

64 إن انتخابات 5 و12 مايو 1935 قد عبرت خاصّة عن الدفعة الشيوعية (إن عدد البلديات الشيوعية في المدن التي فيها أكثر من 5000 ساكن مرّ من 38 سابقا إلى 90).

أهاننا وذهب إلى حدّ القول: "إن العرب كانوا كذابين". فعند سماع هذه الكلمات لم نستطع المحافظة على الهدوء والتحكم في الأعصاب. فرددت الفعل أمام هذا الشتم مصرحاً: "ما دام العرب كذابون فلماذا تسألوننا ولماذا تحاكموننا ؟ ولهذا نرفض أن نقول أيّ شيء، وما عليكم إلاّ أن تحكموا علينا بما تريدون من الأحكام".

وانتهت الجلسة بسرعة وانسحبنا للدخول إلى باريس وإخبار مدافعينا بعنف اللهجة من قبل الرئيس. ثم هيأنا لذلك بعثة سلمية للإحتجاج. إن ما يقرب من مائة وخمسة وعشرين مناضلا جزائريا تمّ حملهم في حافلات جاؤوا من باريس إلى آميان واندفعوا داخل قاعة الجلسة وقتا قصيرا قبل مرافعة المدافعين عنا الأساتذة جان لونغي وإدوارد دنبرو والأستاذ حاجي وابن لونغي. كل شيء مرّ على ما يرام. إن محامينا تكلموا عن الحضارة العربية وإشعاعها في اسبانيا في كل المواد العلمية والفنية والأدبية والجغرافية والشعرية. مقابل عنف الكلام من طرف الرّئيس، أجابه المحامون بذكر عظمة الشعب العربي الذي ترك الناس تتحدث عنه مدة ثمانية قرون في كل الحوض المتوسطي وفي أوربا وحتّى الصين.

وبالفعل فإن مجلس الإستئناف لم يصرح بحكمه بسرعة. لأننا عارضنا إجراء حل نجم شمال إفريقيا الذي لم نبلغ به أبداً وهذه القضية موجودة في انتظار صدور الحكم امام غرفة المحكمة المدنية لـ "لاسين". وفعلا ففي الثالث من جويليا 1935 ألغت هذه المحكمة كل المتابعات واعترفت رسميا بالوجود الشرعي لنجم شمال إفريقيا[1]. يا له من انتصار ! إن الخبر الذي لم يكن منتظرا انتشر كذرّ الرماد بين كل العمال الجزائريين المقيمين في فرنسا. إن عودة جمعيتنا العزيزة إلى سالف عهدها قد جرت تحيته كما يلزم. فيوم 3 أوت 1935 في قاعة غرانجوبالب ويوم 10 أوت 1935 في قاعة الحفلات بلكيشي نظم نجم شمال إفريقيا خفلتين رائعتين على شرف الإعتراف بها بصفة شرعية من طرف العدالة.

ففي ذلك الوقت إن شبانا تونسيين كانوا ما زالوا طلبة الدكتور بن سليمان والهادي نويرة كانوا يمثلون في باريس الحزب الدستوري للحبيب بورقيبة الذي كان منفيا في الجنوب التونسي مع عدد من رفاقه. أما المغاربة من ناحيتهم فقد كانوا مجتمعين حول حزب يسمى وقتها العمل المغربي[2]. وقادتها كانوا خاصّة سي حسن الوازاني،

---

(1) إن الحكم الصادر في يوم 20 نوفمبر 1929 قد صُرّحَ بأنه لاغ وغير معمول به لأنه لم يلق أيّ تنفيذ في آجال ستة أشهر التي تضبطها المادة 156 من قانون الإجراءات المدنية.

(2) حزب يسمى وقتها العمل المغربي. بالضبط لجنة العمل المغربي والتي كانت جريدتها تسمّى: عمل الشعب.

سي عمر بن عبد الجليل وسي محمد بلفرج. كلنا كنا نعرف لونغي ودانيال غيرين ودوبرو ومارسو بيفار وشخصيات أخرى من الحزب الإشتراكي. فكان هؤلاء يفعلون كل شيء للدفاع عن قضيتنا المشتركة. والقضية الجزائرية كانت هي الأصعب لأن بلادنا كانت تعتبر ترابا فرنسيا. ورغم هذا فإننا بدأنا منذ تلك الفترة نوحد جهودنا ونتبادل وجهات نظرنا لنضع القواعد الأولى للمغرب العربي الكبير.

فبعض الأيام بعد خروجي من السجن، تعرفت على السيدة ليبو وانير من الحزب الشيوعي. كانت مرفوقة بصديقتها الآنسة غيلبار وهي معلمة شابّة ومناضلة شيوعية.كانت مهمتها حسب اعتقادي وبدون شك في الإتصال بالمغاربيين والحديث على مشاكلهم في إطار الحيّ اللاتيني. فأعلنتا لي إذن أنهما كانتا على وشك إحداث لجنة وأني سأدعى للمشاركة في أنشطتها. وفي يوم 22 جوان 1935 استلمت الدعوة التالية: "إننا ندشن يوم الأربعاء26 جوان على الساعة الثامنة والنصف مساء في قصر "لاموتياليتي" ناديا وديا لدراسة المسائل الإستعمارية محاضرة لأندري فيرات حول مشكل السلم في المستعمرات. والجلسة القادمة ستكون يوم الأربعاء 10 جويليا ستخصص لدراسة الحركة الدستورية يقدمها الدكتور بن سليمان. إن هذه العروض ستتبعها مناقشات حرّة وبودية كاملة.نحن متأكدون بأنكم ستكونون بين ظهرانينا، فإننا نوجه لكم أيها الرفيق مشاعرنا الأخوية."

فقد أجبت هذه الدعوة من السيدة ليبو وانير ودعوات أخرى فيما بعد. وصرنا رفيقين جيدين وكنا نلتقي للحديث عن مشاكل المغاربيين وعن الجبهة الشعبية وعن مشاعرنا الحاضرة والمستقبلية. لم يكن هناك شيء خاصّ إلى هذا الحد. ولكن انتبهنا فيما بعد أنّ دخول السيدة وانير والآنسة غيلبار وكذلك إحداث اللجنة المعنية كان عليهم جميعا أن يستعملوا في تطبيق التغيير السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي. كانوا يطلبون منا بواسطة صديقتنا أن نكون متفهمين وأن نعمل من أجل الوحدة حول الجبهة الشعبية لنقطع الطريق على النازية والفاشية سواء كان ذلك داخل فرنسا أو خارجها.

حقيقة لقد كنا ضد الفاشية وضد النازية ولكننا كنا قبل كل شيء ضد الاستعمار وضد الامبريالية. كان هذا هو الشعور العام لدى كل المغاربيين. كنا لا نريد أن نحارب لتقوية القدرة الاستعمارية للامبرياليين. كنا ننتظر إحداث الجبهة الجبهة بصفة رسمية بفارغ الصبر لننخرط فيها ولكن كذلك لنعرض فيها برنامجنا السياسي.

خلال صيف 1935، إن إيطاليا موسوليني أظهرت مطامعها التوسعية في إثيوبيا، فأخذ نجم شمال إفريقيا موقفا مواليا لأديس أبيبا والشعب الإثيوبي. فقد وضعنا تحت تصرف أصدقائنا السود مقرنا المركزي وجريدتنا الأمّة لإعلام الرأي العام الفرنسي والمغاربي والأجنبي. وقد كنا اتصلنا مع منظمة هيئة الدفاع عن الجنس الزنجي ونظمنا معا تجمّعا ضخما يوم 22 أغسطس 1935.

كنا نعيش دائما في غرفتنا في الطابق السادس من نهج الراحة. إن هذه الدار السطحية صارت كثيرة الزيارة منذ فاتح نوفمبر 1934 وهو التاريخ الذي بدأ فيه حجزي تقريبا بدون انقطاع. هنا كنا نعيش ثلاثتنا السيدة مصالي وولدي علي البالغ خمسة سنوات وأنا شخصيا. كانت زوجتي تشتغل دائما كبائعة وكان ابني يذهب إلى المدرسة. كانت السيدة مصالي كلها في الحركة وكذلك ابني علي الذي كان يكرر ما يسمعه في الإجتماعات والمظاهرات، مثلا: "شباب أوبوتوا".

في شهر جوان 1935 تم الإعلان عن التكوين الرسمي للجبهة الشعبية التي كادت تسمى جبهة مشتركة. كنا ننتظر هذا على أنه حدث خارق للعادة وكان الأمر كذلك. إن المغاربيين والمستعمرين الآخرين في الإمبراطورية الفرنسية كانوا ومن دون أن نؤكد ذلك في قمّة الفرح. إن الدستور والعمل المغربي ونجم شمال إفريقيا تشاوروا لإتخاذ موقف موحّد تجاه أحزاب اليسار. أرسل حزبنا تعليمات لفروعنا في المقاطعات في فرنسا وفي الجزائر. كان شعارنا أن ننخرط في الجبهة الشعبية وأن نتآخى مع الطبقة العاملة والشعب الفرنسي.

إن السيدة ليبو وانير مثل آندري فيرات وهما الاثنان لهما مكانة مرموقة في الحزب الشيوعي الفرنسي، قد أظهرا نيّة حسنة تجاه حزبنا. وفي الحقيقة لم نكن دائما متفقين على كل شيء ولكن هناك تفاهم من الجهتين وإرادة حسنة متبادلة. قد أخبرتني ليبو وانير مسبقا أنه ستكون هناك مظاهرة في 14 جويليا 1935. كنا نستطيع أن نحضر وأن نكون حاضرين في أحسن الظروف. ولكن الحزب الشيوعي الفرنسي كان يرغب بقوة، حسب ما فهمت أن الوطنيين والشيوعيين الجزائريين يتظاهرون معا في موكب واحد. لم نوافق على ذلك، كنا نريد أن يحافظ حزبنا على شخصيته واستقلاليته.

يوم 14 جويليا 1935، انطلقت المظاهرة من ساحة "لابستيل" في اتجاه باب فانسان مرورا بفوبورغ سان أنطوان. كان أكثر من مائة ألف متظاهر. كان نجم شمال

إفريقيا في المظاهرة في موكبه الخاص بإعلاناته وشعاراته ومطالبه وعلمه مثل كل المنظمات الأخرى والأحزاب السياسية. أثناء التظاهرة جاء الشيوعيون الجزائريون بشعاراتهم وعلمهم ليندمجوا في موكبنا وهكذا يخلقون حادثا تم ترقيعه مباشرة برجوعهم إلى مكانهم.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي شاركنا في مظاهرة من هذا الحجم وبهذه العظمة. ففي موكبنا الذي كان يضم ثلاثين ألف جزائري[1]. كانت الشعارات: "استقلال شمال إفريقيا" وكانت هذه الكلمات قد هتف بها مناضلونا العديد من المرات وقد صفق علينا الشعب الفرنسي عدة مرّات. وهكذا فإن المطالب الجزائرية التي كانت مجهولة لدى السواد الأعظم من الجماهير الفرنسية قد علمت لدى الملايين من الأشخاص.

بعد هذه التظاهرة، دعاني أندري فيرات لزيارة رقم 120 نهج لافيات. وتكلمنا عن الحادث الذي جرى في الموكب والذي نتأسف له معًا. وحتى لا يتكرر أبدا، طلبت أن يتميز الأفواج عن بعضهم البعض في المظاهرات القادمة وأن يحتفظ كل واحد باستقلالية. إن السيدة ليبو وانير قد كلمتني عن الحادث وطلبت مني بلطف أن نتجنب مثل تلك الأشياء في المستقبل وهذا حسبها في مصلحة الجميع. إن رفاقنا الشيوعيين كانوا حقيقة منظمين جيدا فقد كانوا يعرفون كيف يضربون كلهم على نفس المسمار حتى يقتلعوا القطعة.

بلغنا أن مؤتمرا إسلاميا سينعقد في جينيف. إن البعض من مناضلينا في الدائرة 18 من باريس تَم الاتصال بهم من طرف شخصية إسلامية سامية وسلمت لهم كتيبا أخضر عن المؤتمر وقد تحمسنا لمحتواه. فاتصلنا بالمنظمين لهذه المبادرة العظيمة[2]. ثم عينا وفدا كان عليه أن يكون حاضرا في جينيف يوم 12 سبتمبر أي يوم افتتاح المؤتمر.

---

(1) حسب الشرطة قد جمع النجم أكثر من ثلاثة آلاف متظاهر بينما لديها 2500 منخرط تقريبا.

(2) هو اللجنة التنفيذية الدائمة للمؤتمر الإسلامي للقدس الذي اجتمع في ديسمبر 1931 والذي أخذ هذه المبادرة وعين لجنة تحضيرية معتبرة على أنها جزء من المؤتمر العام الإسلامي والكتيب هو من أغسطس 1935.

ففي الوقت الذي كنا نحضر فيه بفعالية سفرنا المقبل، دعيت لحضور اجتماع للجبهة الشعبية مع مشكلة إثيوبيا في جدول الأعمال. وكان على هذا الإجتماع أن يقرر إرسال وفد إلى جينيف لدى عصبة الأمم باسم الجبهة الشعبية لرفع احتجاج شديد اللهجة ضد التهديدات الإيطالية الفاشية. وقد كانت مصادفة سعيدة لم اكن أنتظرها.

تم سفر وفد الجبهة الشعبية إلى جينيف أسبوعا قبل افتتاح المؤتمر الإسلامي الأوربي. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أطأ فيها التراب الهلفيتي (السويسري). كل ما كنت أعرفه أن سويسرا كانت بلدا مشهور بالملجإ الذي تمنحه للملتجئين السياسيين.

فخلال العشية التقينا في مقر عصبة الأمم. إن مسؤولينا أعلمونا بالمساعي التي كانت جارية للحصول على لقاء مع رئيس عصبة الأمم. فقد تحدثنا قليلا لتعيين من يجب أن يتكون الوفد منهم للقاء الرئيس. ثم عينا كذلك الذين كان عليهم تناول الكلمة، الواحد تلو الآخر لمصاحبة تسليم احتجاجنا. لقد لاحظت بسرعة أنهم كانوا يريدون إبعادي. إن هذا الموقف التعصبي أزعجني وأغضبني. ولم أستطع التحكم في الغضب الذي استولى عليّ. فتناولت الكلمة بدون أن أطلبها. فقلت إني أمثل في الوفد إفريقيا الشمالية وأنه كان عليّ مثل رفاقي أن أتناول الكلمة عن مشكلة إثيوبيا التي كانت قبل كل شيء مشكلة إفريقية.

إن هذه الكلمات التي تم التلفظ بها بصرامة ولكن مع الإحترام، قد تسببت في سكوت كبير. ثم إن أعدائي قد ردّوا الفعل باجتناب الحقيقة وبكلمات فارغة ليحاولوا أن يشرحوا لي ما لا يمكن شرحه. فرددت عليهم بكلمات صارمة. وبعد هذا انتهى الاجتماع. في الأروقة سمعت كلمات تهجمية تخصني وموجهة إليّ على لسان شبان من الحزب الشيوعي. وتبين لي فيما بعد أن هذه المؤامرة قد تم تحضيرها قبل الإجتماع وأنهم اتفقوا مبدئيا على ألاّ يمنحوني الكلمة. وفي الحقيقة فإن الوفد المسمى بالجبهة الشعبية كان في الحقيقة مركبا تقريبا في مجمله من الحزب الشيوعي الشيء الذي يفسر كل شيء.

إن يوم الاستقبال من قبل الرئاسة، كنت حاضرا ومقررا أني سأتدخل في الوقت المناسب. بمجرد ما انتهت السيدة فرانس التي كانت تمثل الحزب الاشتراكي الراديكالي من تدخلها القصير تناولت الكلمة بدوري لأعبر عن مشاعري فيما يخص

الإعتداء الفاشي الإيطالي على إثيوبيا. وشرحت أنه بالنسبة لنا نحن الأفارقة فإن استقلال إثيوبيا كان رمزا وأملا حيا لاستقلالنا الشخصي لأن الشعب الإثيوبي كان الوحيد الذي ما زال حرّا ومستقلا في القارة كلها. إن رفاقي من الوفد لم يكونوا فرحين بهذا التدخل. كانوا لا يريدون منّي أن أقوم بواجبي. كانوا يقولون أنه، من خلال تدخلي إنما كنت أبحث عن فوز شخصي وشهرة أخرى لنجم شمال إفريقيا. ودعت رفاقي من وفد الجبهة الشعبية وكأنه لم يحدث بيننا أي شيء مؤسف ولم أبق علاقات إلا مع السيدة فرانس التي دافعت عنّي. كانت تعرف جيدا مدينة جينيف وكانت بمثابة الدليل الذي أرشدني خلال بعض الأيام. إن هذا كان يبعدني عن مؤامرات الشيوعيين. السيدة فرانس لم تكن إمرأة سياسية متحمسة، فقد كانت ثابتة ومتزنة في حركاتها وأقوالها. كان لديها مودة تجاه نجم شمال إفريقيا ولكنها كانت تقول لي أنه في نظرها ما زالت أمامنا مراحل عديدة لا بدّ من قَطعها قبل أن نتمكن من طرح مشكلة استقلال شمال إفريقيا.

ولتحضيري مهمتي الثانية يعني مشاركتي في المؤتمر الإسلامي الأوربي، حددت موعدا مع مُنَظِّمه، سعادة الأمير شكيب أرسلان الرجل العظيم الذي كان يعيش في المنفى في جينيف منذ احتلال وطنه سوريا. فقد جرى لقاؤنا يوم 7 سبتمبر 1935 في نزل فيكتوريا قرب حديقة الانجليز وبحيرة ليمان. عندما أدخلت قاعة الإستقبال، قام الأمير شكيب وتوجه نحوي وشد يدي قائلا بلطف وبالعربية: "مرحبا بك". ثم جلسنا وانطلقت المحادثة حول كل المواضيع الراهنة.

إن الأمير شكيب أرسلان كان كبيرا وقويا ويبدو عليه أنه يتمتع بصحة جيدة. لم يكن عمره يتجاوز الـ 55 إلى 60 سنة[1]. كان بشوشا وإنسانيا وكان ألمعيا جدا في المحاورة. كان يتحدّث ثلاث لغات[2]. فدعاني إلى مشاركته في وجبة الغداء ثم أن أشرب الشاي معه. فقد كانت الساعة الرابعة بعد الزوال عندما غادرت نزل فيكتوريا. قبل أن أفترق مع الأمير أخبرني بأننا سنتغدى غدا معا وبصحبة صديقي الأستاذ جان لونغي.

إن هذا الغداء جرى في الموقع الرائع للمطعم الكبير من حديقة المياه الحية لجينيف. الأمير شكيب أرسلان والأستاذ لونغي كانا يعرفان بعضهما منذ زمن طويل.

---

(1) في الحقيقة كان الأمير شكيب أرسلان ولد في لبنان يوم 5ديسمبر 1869 وعمره إذن 66 سنة.

(2) شكيب أرسلان الذي كان يحيى على أساس أن الأمير البيان، كان يتكلم التركية والانجليزية والفرنسية.

إن الأمير كان له علاقات مع كثير من الشخصيات في فرنسا وفي البلدان الأخرى. كان له كذلك العديد من الخصوم الذين كان يتبادل الرسائل في الأمّة العربية[1]. إن الحديث دار حول مشاكل اليوم. فحسب صاحبيّ في الطاولة، إن المشاكل السورية واللبنانية والفلسطينية والليبية كان من الممكن أن تعرف حلولا تذهب من الإستقلالية إلى الإستقلال. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لشمال إفريقيا وخاصّة الجزائر. لأن فرنسا لن تقبل أبدا أن تفارقها. فتدخلت وقتها للقول بأن كل هذا كان قضية كفاح وإرادة ووقت.

فتحدثنا عن حركتنا فكان الأمير ولونغي يتوقعان لها مستقبلا زاهرا. وقد أضافا "ولكن صديقنا الشاب مصالي الحاج يجب أن يقود حزبه كما فعل ذلك إلى غاية اليوم لأنه عليه أن يتوقع صعوبات جديدة". فقد تم كذلك التطرق إلى إندلاع حرب عالمية ثانية. فقال الأمير: "هذا هو الوقت بالنسبة لفرنسا أن تقوم بأفعال كبيرة لصالح تحرير الشعوب العربية لتكسب صداقتهم وثقتهم. لا نعرف ماذا يمكن أن يدخره المستقبل". وكان الأستاذ لونغي يوافق على ذلك قائلاً: "هذه هي نظرتنا ولم نتوقف عن الدفاع عنها في أحضان الحزب الاشتراكي وفي البرلمان الفرنسي". وبما أننا تحدثنا عن موسيليني وعن أطماعه في شمال إفريقيا قلت بدوري: "إن كل هذه الاعتبارات تناضل لصالح مطالبنا. إن فرنسا التي يهددها تموقعها الجغرافي يجب عليها أن تعترف بطموحات كل الشعوب المستعمرة لتربح ثقتهم وتعاونهم في مستقبل قريب. فهل يمكن غدا أن تكون الجبهة الشعبية قادرة على المبادرة بالحوار؟" فأجاب الأستاذ لونغي أنه يجب علينا أن نتأمل الحوار وأن حكومة الجبهة الشعبية كان في استطاعتها أن تدشنه. ثم أضاف: "ولكن السؤال هو معرفة على أيّ سياسة ومع أيّ الأحزاب ستبقى مفتوحة". وعلى هذا انتهت المحادثة.

إن المؤتمر الإسلامي الأوربي الذي كان مؤجلا عدة مرات كان منتظرا بفارغ الصبر. إن كل المدعوين إلى هذه التظاهرة الإسلامية الكبيرة، تقريبا سبعون شخصا تقريبا، كانوا حاضرين في الافتتاح. كان البعض قادمين من إفريقيا ومن آسيا وكان الآخرون مسلمين ينتمون إلى دول أوربية (يوغسلافيا وألبانيا وتركيا...). إن الأمير شكيب أرسلان بعد تعيينه رئيسا للمؤتمر، ألقى عرضا عن وضعية المسلمين في

---

(1) إن شكيب أرسلان قد أسس في سنة 1928 في جينيف، مكتبا لإعلام الفلاحين وأنشأ في مارس 1930 مجلة باللغة الفرنسية، "الأمة العربية".

العالم بعد الحرب العالمية الأولى. ثم تناول الكلمة كل المشاركين على التوالي مدّة عدّة أيام. وفيما يخص تدخلنا فهذا ما قالته الوثيقة الرسمية للمؤتمر: "إن ثلاثة مغاربيين قاطنين في فرنسا: مصالي الحاج وعماش عمار ومحمد بداك قد تناولوا الكلمة فيما بعد بالفرنسية ليصفوا الوضعية المزرية لمواطنيهم القاطنين في فرنسا وخاصّة في الناحية الباريسية حيث يعيش أقرب من 60000 ألف منهم. إن التعليم العربي والديني وتربية الأطفال والزواجات المختلطة والحالة المدنية ومسجد باريس إلخ... كل هذه القضايا قد عولجت من قبل الخطباء بكيفية مدهشة في الدقة في نفس الوقت".

إن إحسان باي الجابري الذي نظم المؤتمر الأمير، عرض المشكل الفلسطيني في نهاية التدخلات متهما الصهيونية التي كانت تكثف هجرة الإسرائيليين وشراء الأراضي في فلسطين. وأخيرا أثناء الجلسة التاسعة والأخيرة للمؤتمر، قد تقرر إحداث مكتب إسلامي دائم في جينيف. إن هذه التظاهرة الإسلامية قبل أن تكون مؤتمرا فقد كانت بالفعل منبرا لإسماع صوت وطموحات العالم العربي الإسلامي الخاضع لقوانين الامبريالية الغربية.

فمباشرة بعد اختتام المؤتمر أقمنا دعوة على شرف رؤساء الوفود لحضور حفلة شاي. وخلال هذا الاجتماع الذي انعقد في قاعات فندق فيكتوريا فقد قمت بمعية عماش عمار وبادك بعرض عام حول نجم شمال إفريقيا وبرنامجه السياسي. كما صرحنا أننا متضامنون مع كل حركات التحرر الوطني والشعوب المستعمرة، ولكن وضحنا أننا ضد كل التدخلات في الشؤون الداخلية للحركات السياسية. إن عددا كبيرا من شخصيات المؤتمر ومن ضمنها الأمير شكيب أرسلان قد لبوا دعوتنا. فقد كان الأمير راضيا كل الرضا ومتفائلا. فقد قال لي قبل انصرافي: "فقد زرعنا والآن علينا أن نحرك العقول للحصول على محصول كبير".

عند رجوعي إلى باريس، كانت العاصمة الفرنسية مليئة بالنشاط. إن الجبهة الشعبية صارت مركز اهتمام كل حركات اليسار بما في ذلك المستعمرين. فتوجهت لرؤية أصدقائي الدكتور بن سليمان والهادي نويرة والسيدة ليبو وانير والآنسة غيلبار والسيد آندري فيرات. فقد كان في استطاعتي أن أستقي المعلومات لديهم، وربما حتى "آخر الأنباء".

ومع هذا فقد كان لي بمعية أصدقائي هما آخر. فقد استأنفنا ضد الأحكام الأخيرة. فماذا سيحدث ؟ مع الأعضاء الآخرين من الأمانة العامّة للحزب، يعني سي الجيلاني، عماش عمار وراجف بلقاسم كنا قد قررنا أن نبقي الاتصال دائما لنستطيع اتخاذ التدابير اللازمة مهما يقع من الأحداث.

فخلال زيارة للأستاذ روبارت لونغي، أخبرني أن غرفة الاستئناف قد رفضت طلبنا لتكسير الحكم: "إن الطريق مفتوح الآن لإيقافكم أنت وراجف وعماش. أضف إلى هذا أننا نخشى متابعات قضائية. قصد حلّ جديد لنجم شمال إفريقيا". وأضاف في نهاية المحادثة : "فإن كنتم لا تريدون الإيقاف مع أصدقائكم فالوقت كاف لقراركم".

عندما غادرت الأستاذ روبارت لونغي، كان الليل قد أرخى سدوله على باريس فذهبت مباشرة إلى عند صديق مناضل وكلفته بإخبار عماش وراجف أن طلبنا للاستئناف قد رفض ليتخذا احتياطاتهما. ثم طلب من هذا المسؤول أن يتفضل بالذهاب إلى أهلي ليخبرهم ويحمل إليّ حقيبة فيها الضروري من الأشياء.

فحتى هذا اليوم لم نمارس أبداً السرّية. ولكنها فرضت علينا. فمن الناحية النفسية إن توقيفنا ما كان ليفهم من طرف أنصارنا والرأي العام. فقد قررنا إذن متابعة أنشطتنا دون أن نتركهم يلقون القبض علينا. فقد قررنا أن نتنكر لنلتقي لأول مرّة ذات صباح في غابة بولوني. ولكن نظاراتنا وقبعاتنا وقفازاتنا وكيفية لباسنا كانت تجلب إلينا أنظار المتجولين. وبما أننا كنا نظن أن الشرطة تحرسنا فالتقاءاتنا المتكررة تكفي لجلب انتباه الناس. في نهاية الصبيحة وجدنا مكانا لنأكل فيه بكل هدوء وارتياح وتبادل أفكارنا عن هذا العمل السري الأول. في هذا المقهى لم يكن هناك أيّ شخص ما عدا الملاكين لأن الوقت كان باكراً. إن ربّ المقهى وزوجته وأولادهما وخادماهم دخلوا كلهم في مؤخرة القاعة خوفا لرؤيتهم تنكراتنا وسماعهم كلامنا المنخفض في خليط من الفرنسية والعربية. ولإنهاء هذا الجو وإحلال الثقة، ناديت الخادمين وكلمتهما طالبا منهما مشروبات وأكلا خفيفا قبل أن أطلب منهما ما هو أقرب ميترو لغابة بولوني. إن هذا التدخل قد أنهى وضعية الشك المزعجة.

---

(1) راجف سلم نفسه وأقام إضرابا للجوع للحصول على النظام السياسي.

فبعد هذه التجربة الأولى، قررنا باتفاق جماعي ألاّ نخرج أبدا معا وألا نكثر من التنكر وأن نلتقي ليلا عند أصدقاء. قد وجدت ملجأ على التولي عند أصدقاء تلمسانيين في فندق صغير من شارع باستور، ثم في حيّ ليتوال وشارع فاغرام. والمحبين والأصدقاء ومحامينا وحتى بعض رفاقنا من الجبهة الشعبية بدخولنا في وضعية السرية.

بدأت الشرطة تتحرك لمحاولة معرفة مكان اختفائنا. فالسيدة مصالي الحاج وابني علي كانا منذ ذلك الوقت تحت الحراسة ومتابعة الشرطة في أبسط تحركاتهما. إن كل هذا أحدث حركة مودّة تجاه حزبنا وتجاهنا شخصيا. فرغم خشية جلب الضرر لمن يخفوننا قررنا متابعة أنشطتنا في انتظار أوقات حسنة. في شهر ديسمبر 1935، أقام الحزب مجموعة من الاجتماعات الصغيرة في الناحية الباريسية لإعلام الرأي. ففي إحدى هذه الاجتماعات تناول عماش عمار الكلمة ودافع عن الحزب بقوة كبيرة بينما كان الشرطة تبحث عنه. إن هذه الحركة القوية أثارت إعجاب كل المناضلين.

وهكذا فإننا تابعنا مهامنا مدّة شهرين دون أن تعترضنا صعوبات كبيرة. ولكن استئناف المتابعات القضائية بحَل النجم قد أقلقتنا ولهذا قررنا خلال اجتماع أن صديقيّ عماش وراجف سيتابعَان أنشطتهما في فرنسا حتى ولو بلغ بهما ذلك إلى الإيقاف. ولكن في أبعد أجل ممكن72. بينما أنا فإني سأطلب اللجوء السياسي للحكومة الهلفيتية في انتظار الانتخابات التشريعية الفرنسية في أفريل مايو 1936. كان يجب أن يبقى كل هذا سرّا حتى أحصل على الإقامة في جينيف فأخذت احتياطات لا متناهية لأتجنب أن أفاجأ ويلقي علي القبض قبل سفري. فقد حذفت قسما مهما من خرجاتي. كنت أقضي وقتي في الكتابة والقراءة وتحضير المناشير والمراسلات ومقالات لجريدة "الأمة".

ففي هذه الفترة أي خلال يناير 1936 مات في دمشق حفيد الأمير عبد القادر الذي كان محبوبا ومحترما. فجريدتنا الأمّة قد خصصت له عدة أعمدة ذكرنا فيها الفترات الكبيرة من حياته وكفاحاته وخيبات أمله. فقد قلنا هنا في هذا الكتاب ما فعل وكيف كان ضحية لمحيطه. ففيما يخصني شخصيا فإني كنت معجبا به حتّى لو أني لم أتفق معه في بعض المظاهر من كفاحه ولهذا فإننا انتخبناه رئيسا شرفيا لجمعيتنا منذ إنشاء نجم شمال إفريقيا.

الفصل الرابع

1936 - 1938

من المنفى إلى السجن

"إن هذه الأرض المباركة التي هي أرضنا،
أرض البركة هذه ليست لا للبيع ولا للمساومة..."

ثلاثة أيام قبل ذهابي إلى المنفى في سويسرا، أخبرت أصدقائي الذين كانوا أووني. استأذنت كذلك من عائلتي الصغيرة بكثير من التكتم لتجنب أي صعوبة في آخر ساعة. إن الأستاذة جيلبارت التي كنت أعيش عندها اقتادتني إلى محطة ليون حيث وقع الإقلاع على الحادية عشر ليلا يوم 18 يناير 1936. لم تكن أوراقي مضبوطة تماما وكنت أخشى ألاّ أمرَّ في الحدود. لحسن الحظ لم تتم مراقبة أوراقي. بمجرد مغادرتي لمحطة جينيف أحسست بانفراج كبير فقد أرغب في أن أصيح معلنا عن سعادتي للآخرين وأن أجري للابتعاد عن حي المحطة. في أثناء العشية وجدت نزلا صغيرا ورخيصا في ساحة كبيرة، أمام كنيسة روسية تشبه مسجدا. فقد كان في النزل خمسة أو ستة نزلاء. فقد ظهر لي هذا المكان جيدا من جميع النواحي. كانت غرفتي بسيطة جدا ولكنها مسخنة ومؤثثة بلطف. ففي اليوم الثاني من وصولي أي 20 يناير 1936، أديت زيارة إلى الأمير شكيب أرسلان. كان يسكن قرب حديقة برتراند، تقريبا في أعالي حيّ "لي ترانشي". فقد استقبلني بسرعة وفي الحين وشكرني على أنشطة النجم وشجاعة العمال المغاربيين. فقد قال: "نعم، في كل مكان بدأ أبناء الإسلام يرفعون رؤوسهم ويُسْمِعون صوتهم. إني أجد هذا مفرحًا". وسأل عن ظروف مجيئي إلى جينيف ووضعيتي الجديدة في النزل. إن بعد هذا اللقاء السريع، ذهبت للقيام ببعض المشتريات وخاصّة لشراء ما أقرأ وبما أكتب حتى لا أتقلق.

لم أتجاوز خمسة أيام في جينيف حتى وصلتني الشرطة السويسرية فضربت على بابي. إن شرطيا بعدما قدّم نفسه بأدب أخبرني بأنهم في انتظاري في المحافظة. ثم قال بأنه ينتظرني في الخارج ليسمح لي بأن ألبس على راحتي. ثم ذهبنا عند مدير الاستخبارات العامّة وهو رجل ذو أربعين عاما وقد كلمني بدون حيلة: "نحن نعرف أنك عندنا منذ أيّام وقدر رأيناك في "لابروميناد دي زانجلي" تمشي في نواحي فندق فيكتوريا. ونحن نرغب في أن تخبرنا لماذا أتيت إلى سويسرا وماذا ستفعل هنا". قبل أن يتركني أجيب عن أسئلته ثم أضاف: "ومتى تريد أن تغادر بلدنا ؟" في الحقيقة ليس هناك أي شيء غير عادي في كل هذه المجموعة من الأسئلة.

فبدأت بالقول : "سيدي المدير جئت إلى سويسرا حتّى لا يتم إيقافي وأنتظر أياما حسنة أو أن يشملني عفو. لقد قضيت ستة أشهر في سجن "لاسنتي" في باريس. إن الحكم عليّ سياسي بحت ولا يمس أبدا بكرامتي وكرامة عائلتي. جئت إلى جينيف لأني أعرف هذه المدينة وقد قضيت فيها خمسة عشر يوما" فقاطعني: "أليس كذلك لأن لك في جينيف أصدقاء؟" فأقررت: "نعم، ولكني كذلك اخترت جينيف لأن في هذه المدينة الساحرة مقر عصبة الأمم الذي يهمني كثيرا. والشيء الذي أقوم به في سويسرا ؟ فسأبحث عن التعلم وعن القراءة والتفكير في مستقبل بلادي. سأغادر سويسرا بمجرد ما أستطيع القيام بذلك ودون أن تقلقني الشرطة الفرنسية مباشرة" .

إن مدير الاستخبارات العامّة سألني فيما بعد عن برنامجنا. فأظهر ارتيابه عندما نطقت بكلمة استقلال. ثم أشار لي أنه بإمكاني البقاء في سويسرا ثلاثة أشهر ولكن: "بعد هذا الأجل يلزمك جواز سفر. على كل حال ستستدعيك الشرطة في الوقت المفيد" . فالتقطت كل أوراقي لأنسحب وأنا فرحان لأني تخلصت من هذه الهموم الإدارية لمدة ثلاثة أشهر وقلت في نفسي: "ها أنا الآن مطمئن مؤقتا من جهة الشرطة، فسأستخلص أحسن ما يمكنني من هذه الإقامة في جينيف" .

كنت أستيقظ باكرا حسب ما كنت متعودا عليه لأكمل مراسلاتي مع الحزب يعني إرسال مقالات للأمّة ونصوص مناشير وتحاليل. كنت كذلك أرسل بطاقات جميلة لابني علي وإلى أمّه، ثم أقرأ الصحافة الموجودة في النزل وأخرج للقيام بجولة على ضفة بحيرة ليمان. وعلى الحادية عشر أذهب لمقابلة الأمير شكيب أرسلان لأمشي معه. كنا نتبادل الأفكار حول مشاكل الساعة والصحافة اليومية وأخبار الشرق وشمال إفريقيا.

كنت أذهب كل صباح وأحيانا في العشية لقراءة صحافة العالم كله في الجامعة. كنت كذلك أقرأ مؤلفات لا أستطيع حملها معي. أتذكر أني بدأت "ما العمل ؟" للينين. كنت أرى أني سأجد حلولا لمشاكلنا أو على الأقل بعض الأدوية. نحن الشباب كنا نعتقد حينئذ أن لينين قد توقع كل شيء وحل كل المشاكل. كنا ننتظر الكثير من قراءة كبار البلشفيين ومن كبار باعثي الثورة الفرنسية.

وخلال جولاتي لاحظت أن العديد من الجرائد السياسية والمالية كانت ملصقة ومنذ ذلك الوقت بدأت أقرأها على الرصيف حتى لا أدفع شيئا. لم أكن بخيلا ولكن

فقيرا وكنت أقتصد في كل شيء. إلا أن قراءة الجرائد وخاصّة "لوتان" كانت ضرورية بالنسبة لي فقد كانت بمثابة السّجارة للمدخن الكبير.

التقيت خلال إقامتي الأولى بعض المواطنين القاطنين في جينيف والذين رجعت هذه المرّة لزيارتهم. فلاحظت أن عددهم قد زاد بصفة محسوسة الشيء الذي خلاني أفكر في إحداث قسمة صغيرة في هذه المدينة[1]. ثم بعد التفكير مليا فضّلت الانتظار حتى أكون متأكدا أني لا أجلب لهم الخطر بذلك تجاه السلطات. وبما أن مواطنينا كانوا يصرون على أن أزورهم كثيرا فوعدتهم بزيارات منتظمة أي مرّة في كل خمسة عشر يوما ولكن دون أن أخبرهم بمشروعي. وبالفعل أنشأت قسمة دون ذكر اسمها. كانت زيارتي تقتصر على وجبة غذاء معهم أجيب خلاله عن كل الأسئلة التي توجه لي. ولم تكن الأسئلة دائما سياسية. في العديد من المرات طلبوا مني أن أكلمهم عن الإسلام وعن رمضان وعن الحج إلى مكة وعن نبينا العظيم محمد.

كنت ألتقي بالكثير من الناس. وهكذا فإني تعرفت على أبناء أخي إحسان باي الجابري وهم طلبة في جامعة جينيف. فَبِمُجَرّد ما سقط الحياء بيننا لم نصر أصدقاء فحسب بل صرنا أحباب. فقد حصلت لي كذلك بسرعة زيارة الدكتور زكي على الذي كنت لقيته في المؤتمر الإسلامي الأوربي. فقد تكلمنا معا عن المشاكل السياسية الآنية والوضعية في فرنسا. من الخارج يبدو أن هذه الوضعية كانت تخيف حتّى المتفائلين. كان الناس يعتبرون الجبهة الشعبية على أنها ثورة شيوعية. إن الدكتور زكي علي كان مكلفا في جينيف بالدفاع عن بلده مصر وعن القضية العربية. فقد كان وطنيا ممتازا ورجلا عاقلا وخدوما. كان يعطيني العديد من الأخبار عن المشاكل العربية وعن الأوساط السياسية في سويسرا وفي عصبة الأمم. فقد قررنا أن نلتقي من حين لآخر لتبادل الأفكار ومنح لي على أساس أنه طبيب خدماته وعلاجه.

ذهبت لرؤية الأحزاب اليسارية السويسرية لإقامة اتصال. وزرت كذلك جمعية حقوق الإنسان. وأخبرت كلا منهما بوضعيتي كمنفي سياسي وشرحت برنامج حزبنا والأسباب التي جعلته ينخرط في الجبهة الشعبية وصرحت بأني مستعد للقيام بمحاضرات في الأوساط السياسية اليسارية لأعلمهم جيدا عن سياسة نجم شمال إفريقيا. فقد تقبلوا هذا الاقتراح بلطف ولكن بدون حرارة إذ ذهب البعض منهم إلى

---

(1) القسمة في التنظيم الحزبي كانت تجمع عدة خلايا يعني عدداً من الأفواج القاعدية ذات خمسة أشخاص.

درجة أنه ينصحني ألاّ أمارس السياسة في سويسرا "حيث وجدتم مأوى وأمنا" لأن "ذلك مناف لقوانين الضيافة في بلادنا" . إن هذا أزعجني ولكني في النهاية وجدت أنهم على حق.

فخلال شهر مارس 1936، مرت السيدة وانير على جينيف قادمة من الجزائر. فقد بقيت فيها يومين أو ثلاثة. فقد كان لنا عدة محادثات حول مهمتها في الجزائر فقد عبرت البلاد من الغرب إلى الشرق وحضرت في مؤتمر الحزب الشيوعي الجزائري في سيدي بلعباس ولقيت كذلك العلماء والمنتخبين عن اتحادية قسنطينة وقادة الحزب الاشتراكي الجزائري. فقالت لي: "في كل مكان مررت به علمت أن الناس فرحون بك. وكلفوني كلهم بإبلاغك تحياتهم وصداقاتهم. هناك يتم عمل جيد. كل المناضلين موافقون على توسيع أنشطتهم خارج الأحزاب للوصول إلى الرجال والشرائح الاجتماعية البعيدة جدًا. والشعار الذي هو جار هناك هو: التوسيع، توسيع أنشطتنا من أجل الخبز والحرية والعمل." .

كل ما كانت تقول لي عن هذا الشعار التوسعي أزعجني فطلبت منها توضيحات عن هذا التوجيه السياسي الجديد للحزب الشيوعي الفرنسي. إن هذه الكلمات "التوجيه السياسي الجديد" لم يعجبها فحاولت أن تشرح لي ما لا يمكن شرحه، يعني أن الحزب الشيوعي كان على طريق التخلي عن المطالب الوطنية للشعوب المستعمرة. فالسبب الحقيقي لسفرها إلى الجزائر بدأ يتوضح: كان عليها أن تقنع الحزب الشيوعي الجزائري أن يتبنى الإستراتيجية الجديدة التي تطرح جانبا استقلال الشعوب المستعمرة. "لا بدّ أن نتحلى بشيء من المرونة" كما قالت لي. وبعبارة أخرى كانت ترغب في أن نجم شمال إفريقيا يتخلى عن شعاره لفائدة الاستقلال.

لقد لقيت السيدة ليبو وانير الأمير شكيب أرسلان. فقد كانت غاضبه عند أول اتصال به. فقد وصفت الأمير بأنه "برجوازي بزيادة" . وهذه كيفية خاصّة بالشيوعيين للتقليل من قيمة الناس والأشياء. هذه شتيمة تلقى على وجه كل من يتجرأ على أقل نقد لتنبؤات لينين. فبعد ذهابها فكرت كثيرا فيما قالته لي عن سفرها في الجزائر لأن كل هذا ملأني بالحيرة. كنت أتساءل: هل قالت لي كل الحقيقة ؟

في مارس/أفريل 1936، تطورت حركة عامة للاحتجاج في تونس والمغرب والجزائر. لقد اندلعت هذه الحركة تضامنا مع سوريا التي كانت منهمكة في معركة كبيرة لمواجهة الاضطهاد وطرح مشكلة استقلالها. إن الأخبار التي كان الأمير

شكيب يتلقاها من دمشق وكذلك ما كان يقال في أوساط عصبة الأمم وفي اللجنة السورية الفلسطينية كلها كانت تؤكد ما كان يكتبه لي أهلنا ومناضلونا. الأمة كانت تفتح أعمدتها كاملة للحديث عن القضية السورية[1]. وفي باريس نظم نجم شمال إفريقيا مع الجامعة المناهضة للامبريالية والجامعة السورية لحقوق الإنسان تجمعا احتجاجيا يوم 7 فبراير 1936. في نهاية هذا التجمع، تم تبني إعلان أرسل المحافظ للجمهورية الفرنسية في بيروت. ونعرف أخيرا أن المحافظ السامي فتح مفاوضات وأعطى تعهدات من شأنها أن تعيد العمل بالدستور في سوريا.

كنت في اتصال مستمر مع الأمير شكيب أرسلان. لم يكن سوريا فقط[2]، بل كان ينتمي إلى كل العرب وكل المسلمين. الامبريالية الأوربية لا تحبه ولا تحب من يقترب منه. إن الصحافة الاستعمارية والمتخصصين في الشؤون العربية الإسلامية كانوا يقدمونه على أنه رجل خطير. فخلال محادثاتنا كنت أقول له أن النشاط السياسي المشروع لا يمكن أن يكفي بحد ذاته إلى اقتلاع استقلال بلادنا. فكان يجيبني أنه عليّ أن أتابع النشاط السياسي كما كان من قبل وأنها تتطور من تلقاء نفسها في الوقت المناسب عندما تكون يقظة الضمير كافية. إن الشعوب المغاربية حسبه كذلك يجب عليها أن تقترب ولكن دون أن تدعي إنجازا سريعا لوحدة كثيرة الضجيج لا يكون لها مستقبل. كان يقترح علي أن أجعل من نجم شمال إفريقيا واقعا سياسيا فعالا عبر كل شمال إفريقيا.

إن هذه الاتصالات سمحت لي بتحسين رؤيتي السياسية عن الوضعية. فتيقنت أن العالم العربي الإسلامي يتمتّع بعوامل مهمة وكنت أحس أن آلية اندلاع العملية الموصلة إلى التحرر الوطني قد انطلقت في العالم العربي. كل لقاءاتي بواسطة الأمير مع سيد ضياء الدين الوزير الأول السابق لإيران ومع نوري سعيد الوزير الأول للعراق أو مع المغربي عمر بن عبد الجليل أثبتت لي أن المغاربيين والمشارقة كانوا يريدون أن يتعاونوا.

إن الأمير شكيب أرسلان كان قد سافر إلى المغرب في المنطقة المحايدة[3]. وسفره هذا لم يعجب الفرنسيين لأنهم كانوا يتحركون بدقة لمنع أي اقتراب بين

---

(1) يذكر مصالي هنا المقال الذي نشرته الأمّة (جانفي-فبراير 1936) تحت عنوان: "الدم يسيل في سوريا".

(2) الأمير شكيب أرسلان الذي ولد في إحدى أكبر العائلات الدرزية في لبنان، اعتنق السنة تحت تأثير الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

(3) شكيب أرسلان سافر أول مرّة إلى طانجة، مدينة خاضعة للقانون الدولي ثم إلى المنطقة الاسبانية في طيطوان في أغسطس 1930. وهناك التقى بعبد السلام بن نونة "أبو الوطنية المغربية" ونظم الحملة ضد الظهير البربري.

المغرب العربي والمشرق. كان الأمير يحدثني كثيراً عن المغرب. كانت له مراسلة متواصلة مع بن نونة وبلفرج وخاصّة الزعيم الكبير الشيخ الثعالبي والحبيب بورقيبة. وكان شبان جزائريون يكاتبونه ليطلبوا منه معلومات عن المبادئ الإسلامية. هناك شاب من عمالة قسنطينة أخبره في رسالة عن نيّته في إحداث حزب سياسي.

عندما جاء جزء من الوفد السوري المكلف بالتفاوض مع السلطات الفرنسية إلى جينيف في أفريل 1936 للقاء أعضاء اللجنة السورية الفلسطينية[1]. فدعاني الأمير شكيب إلى حضور كل المحادثات بما في ذلك التي ستكون مع رئيس مجلس الوزراء السوري، الأتاسي ووزير الداخلية الجابري أخو إحسان الجابري باي. إن يوم أول اجتماع، قال لي الأمير: "أنت هنا معنا كأخ. تستطيع لا سيما أن تستمع ولكن كذلك أن تشارك في المحادثة وأن تعبر بحرية عن أفكارك". وتكلم بعده الرئيس الأتاسي بكلمات ودية تجاه الجزائر وعنّي شخصيا. فقد التقيت عدّة مرّات مع السوريين وتبادلت في غالب الأحيان الأفكار مع الرئيس الأتاسي. وتواعدنا باللقاء في باريس. فقال لي: "سنحتاج بالتأكيد إلى معاونتك".

جاءت شخصية من باريس لرؤية الأمير شكيب أرسلان. إذا كانت المفاوضات الفرنسية السورية تتلقى صعوبات ضخمة، حسب ما قيل له، فذلك راجع إلى حضور مصالي الحاج قربه وسياسته المناهضة لفرنسا لم تكن بدون مفعول. فطلبوا منه أن يبعدني من حاشيته وأن يتوقف عن مكافحة التأثير الفرنسي في البلدان الإسلامية. كنت حاضرا في هذا الحوار في مقهى "حديقة المياه الحية" بدعوة من الأمير، ورأيت هذا الأخير ينتقض ويرفض ما يطلب منه لمساعدة المفاوضات. "نعم، صحيح أنا سوري ولكني قبل كل شيء عربي ومسلم ومحارب." هذا ما قاله الأمير شكيب الذي كان يشبه نمرا في حالة غضب وهو يؤكد على كلماته.

كنت نوعا ما منزعجا لأني كنت أنا السبب في هذه المناقشة. وبالتالي التزمت بالصمت. وكنت كذلك خائفا أن تفشل المفاوضات. إن هذه المساومة الاستعمارية التي نزلت إلى هذه الدرجة الدنيا، خلتني أفكر كثيرا. ومن ناحية أخرى فإن محبتي

---

(1) إن المفاوضات انطلقت في باريس في 21 مارس 1936. ابتداء من 3 أفريل تلقى الوفد ضمانا أن الحكومة الفرنسية تقبل إلغاء نظام الوكالة. ثمانية أيام بعد هذا تم الاتفاق على أساس مبدأ الوحدة السورية ولكن هذه لا تتحقق إلاّ في فترة قادمة بعد نوع من التدريب التجريبي. إن هذه الفترة كان عليها ن تثبت في ثلاثة سنين في المعاهدة الموقعة في 9 سبتمبر 1936.

وثقتي وإعجابي بالأمير شكيب ارتفعت كثيرا وصرت أعتبره من الآن أكبر زعيم في العالم العربي. إن علاقاتي معه قد جرت لي متاعب وجلبت لي حقودا شرسة. "الآن يعتبره مشاغبا متعصبا في خدمة ابن سعود أو موسكو". فهذا لا يغير رأيي في هذا الرجل العظيم.

إن أصدقائي من باريس أرسلوا لي تقريرا كاملا عن الوضعية في فرنسا وعن حالة علاقاتنا مع الجبهة الشعبية. لم يكن كل شيء أسود رغم الصعوبات التي تواجهنا. كان في الجبهة الشعبية شخصيات ومثقفون لهم بعض التقدير نحونا. وجمعيتنا رغم كل التوترات التي تثيرها المؤامرات المشاغبة، لم يتم بفضل الله حلها وهو عكس ما كنا نخشى.

إن عماش عمار وراجف بلقاسم تم إيقافهما وكانا مسجونان في سجن "لاسانتي". وكنت من ناحيتي في منفى محتم. علمت في جينيف عن طريق صديق أن الشرطة الفرنسية كانت مندهشة لكون السلطات السويسرية لم تطردني من ترابها. وبالتالي فإنه عليّ ألا أغادر حدود البلد الذي يضيفني إذا أردت تجنب الوقوع في كمين. الوحيد من بين القادة، سي الجيلاني، الذي حرر بعد قضاء ثلاثة أشهر في السجن، هو الذي يستطيع أن يتحرك ولكن المناضلين لم يتوقفوا عن عقد اجتماعات الأحياء للمحافظة في هذه الساعات الصعبة على الإتصال بين العمال الجزائريين والعمال الفرنسيين.

ففي أفريل مايو 1936، كل أوربا كانت تنظر إلى باريس وتنتظر بقلق الإنتخابات التشريعية التي كان عليها أن تحسم بين الأحزاب السياسية الفرنسية. كان البعض منا يفكر بأنه علينا أن ننتظر حتى تصل الجبهة الشعبية إلى الحكم لتحكم عليه وكان آخرون يبرزون التشكك. ما العمل ؟ أجبت المناضلين أنه علينا أن نلتصق بالجبهة الشعبية ومساعدتها في مهمتها وفهمها. وفيما بعد يجب أن نستفيد من هذا التحالف لإنجاز البرنامج التالي:

1) ربح محبة كل الأحزاب اليسارية.

2) تقوية حزبنا بتحسين تنظيمه واستقدام إطارات.

3) غرس علم نجم شمال إفريقيا في الجزائر.

4) ابقاء استقلال الجزائر كهدف رئيسي في إطار أنشطتنا.

5) لا نرفض الحوار أبدا، قضاء كل الوقت الضروري لشرح برنامجنا.

6) علينا باحترام خصومنا وإيلاء الاعتبار لهم مع بقائنا في ما نحن عليه.

7) اعتبار أن الشعب يبقى دائما وفي كل الظروف هو قوتنا الضاربة الحقيقية.

إن الجبهة الشعبية قامت هي الأخرى بنشر برنامجها. ولكن فيما يخص القضية الاستعمارية فإنه فقد اقتراح إحداث لجنة تحقيق. في الأوساط المستعمرة اعتبرت هذه النقطة على أنها مناورة. الم يقل جورج كليمانصو أن "لجنة التحقيق هي لجنة الدفن". أن تكون الجبهة الشعبية استعملت هذه الحيلة العملية فإننا نعتبر هذا فضيحة. إن جريدتنا احتجت بنشر رسالة إلى الجبهة الشعبية. واقترحت جريدتنا إنشاء جبهة شعبية شمال إفريقيا على أساس برنامجنا المؤرخ في فبراير 1936.

إن أصدقاءنا من القيادة كانوا حاضرين في المؤتمر الثالث والثلاثين للحزب الاشتراكي الذي انعقد في نهاية شهر مايو 1936 والذي تم خلاله الكلام عن الجزائر. فقرر الحزب إحداث لجنة استعمارية حيث يتواجد الكثير من أصدقائنا وخاصّة المحامون جان وروبار لونغي ودوبرو وشارل آندري جوليان ودانيال غيرين إلخ... إن نجم شمال إفريقيا نظم بالمناسبة حفل استقبال دعا له كل المؤتمرين الجزائريين وأعضاء اللجنة. وكانت جمعيتنا حاضرة كذلك في تظاهرة جدار المتحدين. فالمقصود بالنسبة لنا ليس فقط الاحتفال بذكرى بلدية باريس ولكن كذلك بلدية الجزائر لعام 1871 حيث رفع آباؤنا علم الانتفاضة.

بداية جوان وجدت على مائدتي عند الدخول في غرفتي، رسالة من زوجتي. إنها تخبرني بأن اجراءات الاعفاء هي الآن في الطريق السليم: "يمكن أن تحضر نفسك لأنك، على أكثر تقدير تستطيع بعد أسبوع أن تأخذ طريق العودة". ففي كل هذه الفترة التي كنت أنتظر فيها، شعرت بأني عصبي. لم أستطع لا القراءة ولا الكتابة ولا حتى متابعة حديث بسهولة أو المساهمة فيه. ولهذا كنت أخرج وأذهب بعيدا، عموما في اتجاه بحيرة ليمان وحديقة "المياه الحية". وفي يوم من الأيام أحببت أن أذهب إلى غاية جزيرة جان جاك روسو التي كانت على خمس دقائق مشي من المكان الذي أتواجد عليه. فَدُرْت مرتين أو ثلاثة بهذه الجزيرة الصغيرة ثم توقفت لحظة لأتمل تمثال مؤلف العقد الاجتماعي. وحينئذ فكرت في "الاعترافات التي حكى فيها روسو حياته كلها حتى التفاصيل الدقيقة. كنت قرأت هذا الكتاب منذ خمس سنين وفي نفس الوقت كتب أخرى لهذا المفكر الفرنسي السويسري. إن عمله قد

أثر في تفكيري إلى غاية اليوم: إن مثله قد شجعني على كتابة مذكراتي بعد أن كنت مدة طويلة مترددا. ففي ذلك الوقت كان قد أنار سبيلي حول مشكل الحرية والديمقراطية والعدالة. ألا نستطيع القول مع شيء من المبالغة أن جان جاك روسو كان هو أب الثورة الفرنسية؟ أو على الأقل هو الذي تنبأ بها ؟ فالحق يقال حتى لو كان هذا يبدو غريبا، فقد كنت أتساءل إن لم أكن على نهج ثوري منذ العديد من السنوات. وأترك للجزائريين ولكل المفكرين أن يحكموا.

يوم 15 جوان 1936 وجدت رسالة جديدة من السيدة مصالي. فأخبرتني أنه يمكنني أن أدخل باريس بدون أي خطر. وما هي إلاّ ثلاثة أيام حتى التحقت بها. فقد تحدثنا في ذلك المساء إلى ما بعد منتصف الليل. فقالت لي بقوة: "إن الحزب على أحسن ما يرام وهو يتمتع لدى الجزائريين بنفوذ عظيم. كل الناس ينتظرون أن تأخذ مكانك كمسؤول أوّل وكحَكمٍ لأن هناك في داخل الحزب بعض الغيوم الصغيرة الناتجة عن طبع ومزاج قادتنا. عشنا مدة غيابك أوقاتا كبيرة مع الجبهة الشعبية التي لها مودّة كبيرة تجاه الشعوب المستعمرة". في الوقت الذي صعدت فيه الجبهة الشعبية إلى الحكم كتبت في الأمّة: "في الحقيقة إننا نعرف أن الحكومة تواجه مهمّة صعبة وخطيرة سواء في الداخل أو في الخارج. إنها ترث من سوء تسيير كبير عليها أن تقومه وتحسنه. ولهذه الأسباب بالضبط نطلب منها أن تعمل وأن تأخذ القرارات القوية التي تجلب لها المحبّة والثقة من قبل الثمانية عشر مليونا من المغاربيين. إن بلدنا يطلب أن يعيش في كنف الحرية والسلام وأن يعلم أبناءه وأن يتمشى في طريق التقدم والانعتاق".

فبعد توقيع اتفاقيات ماتينيون كنا فرحين. لم نتخلف عن تهنئة العمال الفرنسيين الذين توصلوا بعد كل هذه السنوات من الكفاح أن يجعلوا قسما كبيرا من مطالبهم ينتصر. إن هذا الانتصار كان قد خلانا نأمل أن الحكومة ستفكر بجدّ في تلبية البعض من مطالبنا الأساسية على الأقل. ولكن، وأسفاه! لم يقترح علينا أي شيء جدّي.

إن المؤتمر الإسلامي الجزائري هو أوّل من خاب أمله. في الوقت الذي كان فيه هذا المؤتمر منعقدا في الجزائر يوم 7 جوان 1936 والذي سنتحدث عنه فيما بعد، كنت وقتئذ ما زلت متواجدا في سويسرا. فمن غير أن أعرف الميثاق السياسي لهذا المؤتمر أرسلت له البرقية التي كان محتواها ما يلي: " تحية أخوية إلى المؤتمر الإسلامي. النجم يساند كل المطالب التي من شأنها تحسين مصير الشعب ويوافق

عليها. ويرفض كل المقترحات والمطالب التي تخدم الأقلية (تمثيل البرلمان) وكذلك كل المطالب التي يمكن أن تمس بوضعية المسلم." إذا كانت هذه البرقية تتضمن بعض التحفظات فلأنني كنت أعلم أن سياسة المؤتمر الجزائري الإسلامي كانت بعيدة عن أن تكون سياستنا.

ففي اليوم التالي لوصولي إلى باريس غمرتني الفرحة بلقاء أصدقائي وإخواني وأصحابي عماش عمار وسي الجيلاني وراجف بلقاسم والقادة الآخرين للحزب. ففي شهر جوان هذا من السنة الأولى للجبهة الشعبية، كانت باريس تشبه خلية نحل أثناء نشاطها. إن شعب باريس كان يعيش ثورة سلمية ولكنها نشيطة. إن الطبقات الكادحة والرؤساء كانوا يريدون أن تنجح هذه الثورة في كنف النظام والاحترام والديمقراطية والعدالة الإجتماعية. ولهذا فإن احتلال المعامل أو المغازات الكبرى التي بدأت كانت تجري في هدوء حتى يمكن القول إن باريس ملك للجميع. إن العمال الجزائريين كانوا يشاركون تماما في الاضرابات والاحتلالات. إن العمال الفرنسيين والمغاربيين كانوا يتحابون ويتآخون في كل مكان. قررت بالاتفاق مع المكتب السياسي للحزب ورفاقنا الفرنسيين القيام بدورة عبر المعامل المحتلة أي نوصي بالإتحاد للكفاح من أجل مطالبنا الوطنية وانعتاقنا. فقد زرنا بادئ ذي بدء مصفاة كبيرة للسكر في شارع المحطة حيث كان العمال الجزائريون بأعداد كثيرة. عند الباب كانت هناك مصلحة حراسة ومراقبة استقبلتني وسمحت لي بعد بعض الشروحات أن أتصل بمواطنينا وكذلك بالبروليتاريا الفرنسي. مباشرة عند المدخل نشاهد مصقلة صنعت وأقيمت بوسائل بسيطة وكنا نستطيع أن نقرأ ما كتب عليها: "هنا ماتت الرأسمالية للأبد". فبعد أن رأيت مواطنينا الذين كان من بينهم العديد من المناضلين والمحبين، قررت أن أعقد اجتماعا سيدعى له العمال الفرنسيون كذلك. فقد تواجدنا كلنا في مستودع كبير من المعمل. شرحت ما هو في رأينا معنى الجبهة الشعبية وما هي سياستها تجاه الرفقاء الفرنسيين والمعمرين. وفيما يخصنا، قلت بأننا توقعنا ببساطة وفي الوقت الراهن إحداث لجنة يكون عليها أن تذهب إلى إفريقيا الشمالية وإلى الهند الصينية لتعاين حاجات الشعوب المستعمرة، أن تذهب لجنة إلى بلداننا لتسمع حاجات مطالب سكاننا، هذا شيء جميل. إننا نرى مع هذا أن حكومة الجبهة الشعبية تعرف جيّدا وضعيتنا المزرية ومطالبنا العاجلة والوطنية. ثم أضفت: "نحن إلى جانب الشعب الفرنسي لمساعدته على اقتلاع حقوقه في الحياة والرفاه الإجتماعي ونحن في حاجة إليه ليساعدنا على انتزاع

حقوقنا." إن هذا الجزء من تدخلي قد تم التصفيق عليه من طرف كل العمال الفرنسيين والجزائريين.

وبعد هذا ذهبت إلى ثلاثة أو أربعة مؤسسات من ساحة إيطاليا حيث كان يتم معالجة الخزف. وكان هنا نسبيا قليل من العمال المغاربيين. فكررت نفس الكلام الذي قلته في المعامل الكبيرة. إن شيئا مما يمكن أن يسمى عائلة كان يجمع بين العمال نساء ورجالا. عندما وصلت كانت هناك موسيقى بالأكورديون وكانت البنات يرقصن في سواعد الرجال رقصة الفالس.

ففي ظرف شهرين إلى أربعة أشهر تم التوقيع على اتفاقات ماتينيون. فتوقفت الاضرابات شيئا فشيئا. وفيما يخص المستعمرين كان يقال في الجبهة الشعبية أنه لا بد من فعل شيء ملموس أو على الأقل عملا رمزيا في انتظار نتائج لجنة التحقيق. كان الحديث يجرى هنا وهناك عن مشروع فيولات على إسم عضو مجلس الشيوخ الفرنسي وهو حاكم عام سابق للجزائر. إن هذا الرجل كان مشهورا على أنه صديق الأهالي الجزائريين. فقد كتب كتابا مفيدا جدّا خاصّة من الناحية الوثائقية: هل ستعيش الجزائر ؟

بدأ الحزب الاشتراكي يهتم بحركتنا السياسية. وهكذا فقد كان لنا لقاء مع مارث موش زوجة موش، عضو من ديوان ليون بلوم. فصرحت لنا بأنها فرحانة بالاتصال معنا وأخبرتنا في الحين أنه من الممكن القيام بتحرير رفاقنا المنفيين في الجنوب الجزائري. وهكذا فإن مساوي رابح سيطلق سراحه بالفعل فيما بعد. وفيما بعد تم استقبالنا من طرف جول موش شخصيا في داره وقد أخبرناه بمطالبنا الوطنية. وصارت المحادثة ساخنة فقال لنا جول موش حينئذ بشيء من الانزعاج: "بعد كل هذا فلستم الوحيدين في الجزائر. هناك أشخاص غيركم الدكتور بن جلول وفرحات عباس مثلا واتحادية منتخبي عمالة قسنطينة. ليسوا موافقين على سياستكم". فأجبت بأني أعرف ذلك جيدا ولكن مطالبهم ليست مطابقة للتطلعات الحقيقية للشعب الجزائري. فرغم الخلافات السياسية تواصلت المحادثة رغم هذا في جو من التفاهم والإرادة الطيبة فصرح في شكل اختتام للمحادثة: "إن مطالبكم رغم أنها عادلة ليست قابلة للتحقيق في الوقت الحاضر. فلا بد من وقت طويل، طويل".

إن حزبنا في الجزائر كما في فرنسا هو الحزب الوحيد من نوعه. إنه وطني ويقوده جزائريون عرب ومسلمون وهو يرى أن يأخذ في الاعتبار ماضينا التاريخي وحضارتنا

التي تستنبط مادتها من المبادئ الإسلامية دون التورط في أي تعصب. كانت الإدارة تريد أن تنتسب إلى أحزاب سياسية فرنسية ليتم استيعابنا في المجتمع الفرنسي. وفي هذا الشأن فقد كنا خاصّة موضوع مطامع من قبل الحزب الشيوعي الفرنسي. إن الحزب الاشتراكي في حدّ ذاته، لم يكن له حسب معرفتنا مثل هذه المطامع. ومع هذا فإن أحد الرفاق الاشتراكيين الذي لم يحضرني اسمه الآن قد طلب منا يوما ولم أدر إن كان مازحا الانخراط في الحزب الاشتراكي. "فأنتم مثلنا تقدميون وديمقراطيون. فإن هذا سيجعلكم في مأمن من الاضطهاد ويربحكم الوقت في مروركم من الوطنية إلى الاشتراكية." فقد وجدنا أن هذا التفكير بسيط وبعيد عن الحقائق التاريخية والنفسية.

فبمجرد رجوعي من جينيف بدأنا نحضّر كراسين من المطالب، واحد منها متعلق بالمشاكل العاجلة والآخر خاص بالقضية الوطنية. كان لا بدّ من تحضير ملف وثائقي نسلمه لأصدقائنا من الجبهة الشعبية. وكنا كذلك نفكر في تقديم هذه المطالب إلى وزارة الداخلية وفي هذا المجال طلبنا من محامينا روبرت لونغي ليحضر لنا محادثة مع الوزير. فقد تم تقديم هذا الطلب يوم 20 جوان 1936 وهكذا فإن وفدنا قد قدم للسيد أودو نائب كاتب الدولة للداخلية قائمتين من المطالب العاجلة بالنسبة للجزائر والجزائريين العائشين في فرنسا[1].

إن اجتماعات فروع وتجمعات قد تم تنظيمها للتعريف بعملنا وإخبار مواطنينا بهذا المسعى في نفس الوقت. فخلال مؤتمر الجبهة الشعبية للناحية الباريسية يوم 28 جوان 1936، قد تم التصويت بوضعية الستين ألف (60000) عامل مغاربيين في باريس الكبرى :

1) إلغاء قانون الأهالي وقوانين الاستثناء التي تعمل به حتى في الناحية الباريسية.

2) حرية السفر في فرنسا وحتّى في الخارج.

3) حرية الصحافة والاجتماع وإحداث الجمعيات.

---

(1) فيما يخص المطالب العاجلة نستفهم أن القائمة المقدمة تبدو أكثر اعتدالا من برنامج 1933. كان يرجع في الكراسة الأولى إلى المطالب التي وجهت للجبهة الشعبية في فبراير 1936 باسم نجم شمال إفريقيا ولجنة الدفاع عن الحريات في تونس وكذلك المصالح المغربية. إن نصّ مطالبات العمال الجزائريين تم نشره كذلك في جريدة الأمّة في جويليا وأغسطس 1936.

4) تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية على العمال المغاربيين في الناحية الباريسية.

5) منح العمال المغاربيين في الناحية الباريسية وفي كل مكان في فرنسا منحًا عائلية ومساعدات وإرجاع صندوق التعويضات لصالحهم.

6) الإلغاء الفوري لمكتب الجوسسة والتفريق بين العمال الفرنسيين والعرب أي ما يسمّى بمصلحة حماية المغاربيين وحراستهم الكائن في 6 نهج لوكورب في باريس.

7) إلغاء التوجه الخاص إلى مستشفى بوبينيي واستقبال المرضى المغاربيين في مستشفيات دائرتهم.

لقد انعقد تجمع كبير يومين قبل ذلك، أي 26 جوان 1936، تحت رعاية نجم شمال إفريقيا ومنظمة الدفاع عن الشعوب المستعمرة وبمساعدة ممثلي كل الشعوب المضطهدة. لقد كان من الأهمية بمكان أن يأتي الجزائريون ولكن كذلك التونسيين والمغاربة والسوريين والسود من إفريقيا ومن الأنتيل، وكذلك الهند الصينيين، كلهم بكثرة ليدعموا تطلعاتهم أمام شعب فرنسا. فقد كان الخطباء من شتى الأنحاء. فقد كان هناك الحبيب بورقيبة رئيس الدستور الجديد ومصالي الحاج رئيس نجم شمال إفريقيا[1]، ثم ممثل للحزب الوطني السوري، والمغربي عن الحزب المغربي الوطني، والأستاذ جان لونغي من الحزب الاشتراكي الفرنسي، ولوزراي نائب شيوعي لباريس ونائب رئيس لجنة المستعمرات، ورمناجاته من مدغشقر، وممثل عن إفريقيا السوداء، وبواريف من الأنتيل وعضو من الحزب الراديكالي. وفي الحضور خارج بعض الشخصيات كان هناك الكثير من الطلبة المغاربيين والتجار الصغار وكذلك النساء: فرنسيات وبعض الجزائريات والنساء السود. فالجزائريون كانوا هم الأكثر. فلحظات قبل افتتاح التجمع أُخْبِرت بأن شارل آندري جوليان، أستاذ التاريخ ومتخصص سامي في المسائل الإسلامية العربية كان يرغب في التعرف علي وهو وقتئذ أمين عام لرئاسة مجلس الوزراء. ذهبت للقائه وكانت لنا محادثة صغيرة قال لي أثناءها: "حرصت على الحضور شخصيا لهذا التجمع المهم لأسمع ما يقال فيما يخص مطالب كل

(1) حسب التقارير الصحفية، عبّر مصالي الحاج عن ثقته في الحكومة "التي هي عازمة عن تحسين مصير أهالي شمال إفريقيا وحبه لفرنسا الجبهة الشعبية.

المعنيّين. وهكذا فإن الحكومة سيتم إعلامها مباشرة. وفيما يخص بالتدقيق يجب علي أن أقول لكم أن متابعتكم ومعرفتكم سياسيا قد اقتضت مني قراءة ملفات ضخمة".

وبعد هذه المحادثة السريعة، رأيت الحاج علي عبد القادر يتوجه نحوي بابتسامة عريضة. فجريت نحوه وسلمنا على بعضنا حسب تقاليد البلاد. يجدر القول أنه اختفى عليّ منذ سنوات. كان يعيش الآن في برونواي حيث قام بأعمال ناجحة في النقل. فقد كنت مسروراً لرؤيته لأني قد حافظت له على كل تقديري. قال لي الحاج علي وهو مبتسم أنه يأتي إلى هذا التجمع "ليحطمني" ولكنه أضاف أنه: "لن أفعل ذلك، لن أعارضك". فابتسمت كذلك وأنا قائل له أني: "لا أخشى أي معارضة. ومن ناحية أخرى فأنا أعرف جيّدا أن الحاج علي لا يسمح لنفسه بالهبوط إلى أسفل الدركات.

في ليون يوم 14 جويليا، تظاهر 5000 مغاربي وهم يهتفون بشعارات نجم شمال إفريقيا. ولكن 14 جويليا شهد في باريس خاصّة استعراضا عظيما[1]. وعلى رأس الموكب رفع علم نجم شمال إفريقيا ليرفرف في إجلال إلى جانب العلم السوري، علم إخواننا الذين يكافحون من أجل استقلالهم. وبعد ذلك تبعت كل أعلام فروعنا وإعلاناتهم المشيرة إلى مطالبنا بأحرف غليظة: "ليسقط قانون الأهالي وقوانين الاستثناء" و"التعليم بالعربية"، "تحيا وحدة واستقلال سورية" و"العفو، العفو للجميع" إلخ... في وسط كل هذه الشعارات كان من الممكن رؤية إعلان المضربين المغاربيين الذين قاموا بالاضراب إلى جانب رفقائهم الفرنسيين في مصفاة صاي.

على طول المسافة خصصت الجماهير استقبالا وديا وحارا لنجم شمال إفريقيا. فكنا نسمع صيحات: "تحيا الجزائر !"، "يحيا شمال إفريقيا !"، "تحيا الحرية !" كل هذه الصيحات كانت تحيي مرورنا. وعند وصول الموكب إلى ساحة الأمّة أمام المنبر الرسمي، تصاعدت هتافات قوية من صدور 35000 متظاهر وهي: "حرروا العرب !"، "حرروا سوريا !"، "تحيا الحرية وتحيا الأخوة بين الشعوب !" في المنبر الرسمي لاحظنا صديقنا جان لونغي الذي كان يمد لنا يده أخويا في حركة ودية. وكذلك فإن كل المغاربيين كانوا مقدرين الشرف الذي حصل لنا بمشي الأستاذ

(1) تم إحصاء عددهم بـ 10000 حسب عمالة الشرطة.

هاجي إلى جانبنا. يومان بعد وصول وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري إلى باريس، أي 18 جويليا 1936، أخبرناهم برغبتنا للترحيب بهم بصفة مباشرة. إن هذا الوفد كان يرأسه الدكتور بن جلول وكانت متكونة من شخصيات مثل الشيخ بن باديس رئيس جمعية العلماء والشيخ الطيب العقبي والأمين العمودي وعمارة وبعض الآخرين[1]. وكان في مهمتها أن تقدم لحكومة ليون بلوم وللأحزاب السياسية والمجموعات البرلمانية كراسة المطالب. وجوابا لطلبنا دعينا لزيارتهم خلال الأسبوع الثالث من جويليا 1936.

ذهبنا إلى الفندق الكبير حيث كان يقطن وفد المؤتمر الإسلامي. وعند وصولنا تم استقبالنا بودية كبيرة من قبل الشيخ بن باديس والابراهيمي والطيب العقبي[2]. فبعد الترحيب بهم بدأنا ننظر في الوضعية بصفة عامّة ثم انصرفنا مباشرة إلى النظر في الميثاق السياسي الذي حدده المؤتمر الإسلامي. فوضحنا عدم موافقتنا على المطلبين الخاصين بربط الجزائر بفرنسا وبالتمثيل الجزائري في البرلمان الفرنسي. فقد كان هذين المطلبين يتنافيان مع سياستنا الباحثة عن الاستقلال. فقد شرحنا موقفنا خلال المحادثة التي كانت طويلة جدا لأنها دامت أكثر من عشر ساعات في المجموع.

بالنسبة لنا فإن طلب ربط الجزائر بفرنسا كانت عملا سياسيا بشعا ومهينا. ففي حرارة المحادثة قد ذهب بعض أعضاء الوفد إلى القول بأن الجزائر لن تحصل أبدا على استقلالها. إن هذه الكذبة الكبيرة كانت تخرج من أفواه المحامين والأطباء والصيادلة. فقد أجبنا هؤلاء المثقفين أن الجزائر كانت مستقلة وأنها انتمت إلى الإمبراطورية العربية ثم إلى الإمبراطورية العثمانية.

لقد دامت المناقشة إلى غاية الساعة 19 في الفندق الكبير ثم رجعنا إليها على الساعة 21 في مقهى تلمسان في مونبارناس. إن الشيخ بن باديس كان يظهر في الحقيقة منزعجا أو حتى قلقا. كان يدافع على قضية خاسرة وسياسة لا مستقبل لها. لم يستطع بالطبع إقناعنا .أثناء المناقشة التي كانت أحيانا هائجة قد احترمناه احتراما كبيرا ولكن في نفس الوقت وضحنا له أننا لن نتبعه على هذا الطريق الذي لا منفذ

---

(1) من بينهم فرحات عباس وسعدان ولخضري وطهرات.

(2) قد حضر هذا الاجتماع فرحات عباس وطهرات، وقد كان هذا الاجتماع هو الثاني حسب بعض الشهادات.

له بأي حال من الأحوال. فادعى أنه لا يستطيع أن يضيف شيئا ولا أن ينقص أي شيء للميثاق السياسي الصادر عن المؤتمر الجزائري.إنه من المحتمل جدّا أن تكون هذه الأرضية قد فرضت على المؤتمر من طرف المنتخبين الجزائريين لعمالة قسنطينة.إن واجب جمعية العلماء المهتمة بإعادة ترسيخ المبادئ الإسلامية لم يكن فقد في معارضة ارتباط الجزائر بفرنسا ولكن كذلك في التنديد بسياسة الخيانة هذه. إن عدم الموافقة بقي كاملا عندما افترقنا على الساعة الواحدة صباحاً.

فرغم كل توسلاتنا، ذهب وفد المؤتمر إلى وزارة الداخلية لتقديم المطالب المتضمنة ارتباط الجزائر بفرنسا. إن الأحزاب الشيوعية، الفرنسي والجزائري، كانا يعملان اليد في اليد مع قادة المؤتمر الإسلامي وكانوا يؤثرون فيهم. إنهم وجهوا المؤتمر الجزائري وهم في ذلك مثل الحزب الاشتراكي إلى مشروع فيوليت الذي لم يعلن عنه بَعْدُ.

ما كنا لنجهل أن الوضعية خطيرة ولكن بما أن الحزب الشيوعي الفرنسي بدأ يتخلى عنا بعد المنعرج الذي أخذه، فلم يكن في استطاعتنا أن نفعل شيئا. إن هذا المنعرج قد تسبب في استياء كبير في صفوفه وحتى بين قادته. فقد تبعته إقصاءات وتنبيهات. علمنا فيما بعد أن آندري فيرات، عضو اللجنة المركزية ومسؤول عن اللجنة الاستعمارية كان من بين الذين تم إقصاؤهم وقد دافع على نفسه بقوة في كتيب. التقيت به بُعَيْدَ إقصائه وقال لي بأنه كان متأثرا جدّا بهذا العقاب الجائر. آندري فيرات كان رجلا مستقيما وخدوما وصديقا للعمال المغاربيين، لم يكن من "المنبطحين" كما كانوا يقولون في ذلك الوقت. انخرط في الحزب الاشتراكي بعد الحرب العالمية الثانية حيث واصل نضاله. وقد ساعدنا كذلك خاصّة في نشر جريدتنا "الجزائر الحرّة".

في 31 جويليا وعلى الساعة العاشرة صباحا ذهبت إلى المقر الاجتماعي للحزب لحضور الاجتماع اليومي للمكتب السياسي. وفي هذا اليوم وصلتنا رسالة من فرعنا بالجزائر العاصمة يقول فيها أصدقاؤنا تقريبا ما يلي: "أيها الإخوة الأعزاء، سينعقد بتاريخ 2 أغسطس تجمع هام جدّا في الملعب البلدي للجزائر العاصمة سَيقوم خلاله وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري تقريرا عن مهمته في فرنسا. ورأينا أنه من الأهمية بمكان أن يتدخل أحد منا ليمثل نجم شمال إفريقيا وسياسته ولم نجد أحدا ليقوم بهذه المسؤولية، فأخونا ميساوي رابح الذي أطلق سراحه منذ قليل قد حاول تحضير

خطاب ولكنه وجد أنه ضعيف. ونحن نعتقد أن مصالي الحاج وَحْدَه هو الذي يمكن أن يمثل الحزب ويدافع عن سياسته خلال هذا التجمع. وهكذا يستطيع أن يبرز للشعب كي يعرفه علما بأنه يتمتع لدى الشعب بنفوذ كبير. على كل حال، نعتمد على الله وعليكم."

إن هذه الرسالة غير المتوقعة قد أثلجت صدري بالفعل، ولكنها بثت فينا حيرة كبيرة. فقد كان علي في هذا اليوم إلقاء كلمة في "لاميتواليتي". إن هذا التجمع قد أعلن عنه في الثامنة والنصف مساء. والقطار الوحيد الذي كان في إمكاني الركوب فيه للذهاب إلى مرسيليا كان إقلاعه على التاسعة والربع. فبعد ربع ساعة من المناقشة قرروا أن يرسلوني إلى الجزائر بأسرع وقت ممكن. إن سيارتي أجرة يسوقهما عضوان من الحزب كان عليهما أن ينتظراني عند مخرج التجمع. إن هذا الذهاب اتفق على إبقائه سرّا. امتطيت سيارة أوصلتني إلى نهج الراحة. وبعد تردد لم يتجاوز عشرة ثوان، صرحت تقريبا في انفجار متوجها في نفس الوقت لزوجتي وابني علي الذي كان عمره ستة سنوات: "يجب أن نحضر أنفسنا في أسرع وقت ممكن لأننا سنذهب هذه الليلة للجزائر العاصمة حيث ينتظروننا يوم 2 أغسطس". ثم أضفت أننا نركب القطار الذاهب إلى مرسيليا ونبحر في باخرة "مدينة الجزائر". إن زوجتي سألتني وهي شديدة الاضطراب إن لم أكن أمزح وقد جمعت كل جديتي لإقناعها. على الساعة الثامنة مساء ركبت عائلتي الصغيرة سيارة أجرة متوجهة إلى محطة ليون حيث يجب عليها أن تسجّل الأمتعة مع مساعدة أحد مواطنينا وفي الوقت نفسه كنت حاضرا في تجمع "لاميتواليتي" حيث كان علي أن ألقي خطابا قصيرا. فبفضل سيارتي الأجرة اللتين كان يقودهما مناضلان وصلت إلى المحطة على التاسعة وخمس دقائق.

في الجزائر كنا لا نعرف أحداً ما عدا محمد مستول. وإذا لم يكن هذا الأخير حاضرا لاستقبالنا ؟ هذا ما دار في ذهني بنوع من القلق عندما اقتربنا من المرسى. فمن أعلى ظهر سفينة "مدينة الجزائر" وبينما بدأ بعض المسافرين من الطبقة الأولى ينزلون الواحد تلو الآخر عرفت صديقي في وسط جمع من بعض المواطنين. تم استقبالنا ببساطة وبسرعة مع تجنب جلب الأنظار علينا. إن سيارة كانت في انتظارنا وعشرون دقيقة كنا في فندق من ساحة الحكومة وكانوا قد حضروا غداء ابتلعناه بشهية جيدة.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة عندما غادرنا الفندق لنذهب إلى نهج "لالير" لشراء شاشيتين واحدة لولدي علي والأخرى لي. كان في صحبتي عشرة أشخاص كلهم شبان. وكان العدد يتكاثر كلما اقتربنا من الملعب البلدي لحسين داي. كان الناس ينظرون إليّ بفضول كبير وباحترام. إن أصدقائي كانوا يذهبون ويجيئون وكان أحدهم يخبرني بالوضعية في داخل الملعب. وانتبهت إلى كونهم كانوا يتحركون وفق مخطط سابق. كان هناك النظام والجدية في كل ما يفعلون.

وصلت إلى الملعب البلدي قبل منظمي التجمع، وفد المؤتمر الإسلامي. كان الوقت رائعا وحارّا. إن مدرجات الملعب الشاسعة كانت تمتلئ على مرأى العين. وبدأت الإشاعة تتحرك أن مصالي الحاج وزوجته الفرنسية وابنه قد وصلوا الآن من باريس لحضور هذا التجمع. إن "التلفون العربي" ومبالغاته العديدة كان يشتغل بكل فعالية.

عندما امتلأت مدرجات الملعب إلى أقصاها، كان الناس ما زالوا يصلون أفواجا أفواجا. كان الشيوعيون الجزائريون المسلمون هم الذين يقومون بمسألة النظام تحت إشراف أوزقان الذي رأيته مرّة أو مرّتين في باريس. ولاحظت كذلك ميزابيا صغيرا إسمه سليمان الفركد الذي قضى شهرا من المنفى في الصحراء. إن صديقنا ميساوي رابح الذي أرسل هو كذلك إلى الصحراء، كان بجانبي كما هو الحال بالنسبة لمستول. ثم جاء لتحيتي السيد بوحرّة وهو رجل كبير القامة وقد كان قاضيا تم عزله حسب ما شُرح لي ذلك وكان مديرا لجريدة "العدالة" التي كانت تدافع عن القضية الجزائرية.

لقد قررت الكلام خلال التجمع الذي أتيته من بعيد. وبدأت المفاوضات حول هذا الموضوع بسرعة مع منظمي التجمع. أخبرني أوزقان بكلمة واحدة وهي أنه لا يمكن أن أتناول الكلمة لأن عدد الخطباء قد تم تحديده منذ يومين. لم أقبل الأسباب التي قدمها واحتججت على ذلك. فتدخل مستول بدوره وكذلك ميساوي رابح. كان التجمع قد بدأ ومازالت المفاوضات متواصلة في جو عصيب. وأخيرا جاء أوزقان نحوي وقال: "أتعرف أيها الرفيق مصالي الحاج أن هذا التجمع قد تم تحضيره منذ أسبوع تقريبا وإن أعضاء الوفد الذين ذهبوا إلى باريس وحدهم هم الذين يجب أن يتناولوا الكلمة ليعطوا تقريرا عن مهمتهم. هذا ما يمكن أن يجري ولا شيء آخر إذ لا يمكن أن نغيّر أثناء الاجتماع نظام الخطباء الذين تم تسجيلهم من قبل. ومع

هذا فإني سأرى مع رئاسة التجمع إذ أمكن أن تُعطى دقيقتين أو ثلاث لك لتحية التجمع. إن الوقت يحصرنا كذلك أيها الرفيق مصالي الحاج إني أعتمد عليك ألا تتجاوز الثلاث دقائق".

وأضاف مستول بكلمة: "كل التجمع يعرف أنكم هنا" وبالفعل لاحظت أن الجمهور في المدرجات ينظر إلينا ويشير إلينا بأصابعه. إن أول خطيب وهو الدكتور جلول أشار إلى حضوري بهذه العبارات: "نحيي حضور أخينا مصالي الحاج بين ظهرانينا بمعية زوجته وابنه علي. إن مصالي الحاج والحق يقال يدعو إلى سياسة مختلفة عن سياستنا وأننا لا نستطيع أن نوافق على أفكاره. إنه يواصل طريقه ونواصل طريقا آخر وكل واحد أمام مسؤولياته. فبدأ كل الناس ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتي دورنا لتناول الكلمة. وأخيرا وضع الميكرو على طاولتنا الصغيرة.

إن خطابي دام عشرين دقيقة تقريبا وكان كله مرتجلا وبالعربية الدارجة. وها هو ما قلته على الأساس: "إخواني الأعزاء منذ بعض الساعات وصلت من باريس حاملا تحية نجم شمال إفريقيا إلى الشعب الجزائري وإلى تجمع هذا اليوم. نعمص! إني أحيي شعبنا الذي ما زال واقفا ووطنيا ومخلصا لماضيه وهذا رغم أكثر من قرن من الاستعمار الكبير. نعم ! أنا سعيد اليوم بتواجدي في بلدي وبين ظهرانيكم بمناسبة هذا التجمع الذي سيسجل في تاريخ الكفاح الذي نواصله جميعا لنفس الهدف. نعم ! وأكرر ذلك إني فرحان جدّا أن أكون بينكم في هذه الظروف الخاصّة والمهمة بالنسبة لمستقبل بلادنا. إن هذه الأرض المقدسة التي هي أرضنا، إن أرض البركة هذه ليست للبيع ولا للمساومة ولا أن تربط بأي شخص. إن هذه الأرض لها أولادها وورثتها، هم هنا أحياء ولا يريدون إعطاءها لأيّ كان. ولهذا بالضبط أتيت لحضور هذا التجمع باسم نجم شمال إفريقيا حزبنا وحزبكم الذي هو ينادي باستقلال الجزائر. يجب أن يكون هذا واضحا ومفهوما وإننا في هذا المجال نردّ كل مناورة وكل مساومة. والآن يجب علينا أن ننظم أنفسنا وأن نتحد لنكون أقوياء ونكافح لتحقيق أهدافنا".

لقد بلغ بي الأمر إلى قول أشياء لم أتذكرها الآن بدقة. والشيء الذي لم أَنْسَهُ، بالعكس، وأقول هذا بكل تواضع أن خطابي قد تم التصفيق عليه من البداية إلى النهاية من طرف الأغلبية الساحقة من الجمهور. وكان الناس كذلك يلقون صيحات وهتافات وكلمات ودية تبرز الموافقة. بمجرد ما أنهيت خطابي استولى علي الجمهور

ودار بي عدة دورات في الملعب البلدي وهم يهتفون ويغنون : "تحيا الجزائر !" يحيا مصالي! يحيا الاستقلال! يحيا الاسلام ! يحيا الله !"

إن المتفرجين نزلوا إلى ميدان الملعب. كانوا يهتفون ويلقون الشعارات كما هو الحال في مظاهرة. وقد دام ذلك ربع ساعة. وحتّى بعد ذلك فقد بقي الكثير من المواطنين حولي. فالبعض كانوا يحاولون الكلام معي والآخرون يسلمون علي والآخرون كذلك يصافحونني ويدعون لي ويهنئونني. إن البعض كانوا يتوسلون إلى الله لينقذ الإسلام والعالم العربي. إن العلماء الذين كان لهم نفوذ كبير قد شعروا بأن هذا قد مسّ كرامتهم. فبعد خطابي قام الشيخ الطيب العقبي وألقى خطابا حارّا ضد سياسة النجم وضدي وهو يقول بغضب: كيف يمكن للحمامة أن تطير إلى السماوات بدون أجنحة ؟"

وعند الخروج من الملعب صاحبني المواطنون بالمئات، لم يريدوا أن يتركوني أسير وحدي. طول المسافة من الملعب إلي الفندق، اتبعنا إذن الشبان راجلين وعلى الدراجات وفي السيارات. كانوا يهتفون: "يحيا مصاليص! يحيا الاستقلالص!" وقد كان اليوم من أحسن أيام حياتي ولكنه كذلك من أحسمها على المستوى السياسي. إن هذا التجمع المؤرخ في 2 أغسطس 1936 الذي كان من شأنه أن يقدس السياسة الفرنسية الجزائرية وبلسان رئيسها قد أعلنت إرادة الجزائر أن تكون بلداً مستقلا.

وفي اليوم التالي هاجمت الصحافة الوطنيين بعنف. والمعمرون الذين هم سادة البلاد أظهروا عدم رضاهم وطلبوا إيقاف كل من هم "مناهضون لفرنسا" بما في ذلك الخطيب الذي ألقى الكلمة في التجمع. وفي الأيام التي تلت ذلك، جاء الكثير من الناس إلى الجزائر العاصمة من العمالات الثلاث وقد جلبهم ما جرى في التجمع. إن بعض الأصدقاء أتوا من تلمسان لرؤيتي وتهنئتي وإعطائي أخباراً عن عائلتي.

إن اغتيال المفتي كحول في يوم التجمع نفسه قد أدهش كثيرا الجزائريين. فقد رأوا في هذه المؤامرة يد الاستعمار. وإن إيقاف الشيخ الطيب العقبي أحد الزعماء الثلاثة الكبار لجمعية العلماء قد كانت بمثابة الدليل على ذلك. إن الصحافة كتبت تحت عناوين كبيرة أن القاتل المسمى عكاشة قد كلفه الشيخ الطيب العقبي باغتيال المفتي كحول. كنا كلنا متأكدين من براءة العقبي. إن هذا السيناريو وهذا الضجيج الذي أقامته الصحافة كان له هدف واحد ألا وهو اهْبَاط نفوذ كل الحركات السياسية الجزائرية. وكان كذلك يرمي إلى وضع العراقيل لحكومة الجبهة الشعبية لتتخلى عن مشاريعها الإصلاحية.

فأمام وضعية كهذه، كان علينا أن نمد يدنا للعلماء. فلا بدّ من مواجهة المناورات الامبريالية التي كانت تبحث عن تفرقة الجزائريين وتخويفهم. فلقينا العلماء وأخبرنا الشيخ بن باديس عن رغبته في الذهاب إلى باريس على رأس وفد صغير ليحصل على سراح الشيخ الطيب العقبي. طلب منا أن نساعده على وجود محامين. فأكدنا له مساعدتنا واقترحنا عليه أن نضع تحت تصرفه حزبنا ومناضلينا للقيام بحملة الاحتجاج. فرفض الشيخ بن باديس هذا الاقتراح وشكرنا. كان يفضل حسبه: "أن يذهب إلى باريس في السكوت وأن يعود إلى البلاد في السكوت" لأن "هذه هي الوسيلة الوحيدة للتخلص من هذا المشكل."

إن اغتيال المفتي كحول وإيقاف الشيخ الطيب العقبي مباشرة بعد التجمع في الملعب البلدي للجزائر العاصمة قد أحدث نوعا من الارتباك وشيئا من الذعر في صفوف المنتخبين. وقد انتشرت الشائعة التي كانت تقول بأن العديد من المنتخبين ذهبوا إلى فرنسا "لقضاء عطلتهم". وكانت الألسنة السيئة تقول أن هؤلاء قطعوا البحر الأبيض المتوسط خشية أن يتم إلقاء القبض عليهم. إن الدكتور بن جلول رئيسهم قام بعدد من التصريحات إلى جرائد في الجزائر وفي فرنسا قبل أن يذهب إلى باريس ليتصل بالسلطات. كان يظهر في تصريحاته في أسفل الدركات. فقد قال خاصّة أنه يجب مطاردة كل ما هو ليس فرنسيا في الجزائر بدون هوادة".

في يوم 12 أغسطس قال لـ "مارساي-متان" أشياء بشعة إلى درجة أنه يصعب علينا أن نفكر بأنها خرجت من فم عربي. عن سؤال متعلق بالتعليم في الجزائر، إن السيد بن جلول أجاب بأنه كان يريد أن يعطى التعليم باللغة الفرنسية فقط. وهكذا فإن في الجيل الثالث حسب ما يراه، تكون العربية قد اختفت ويكون الاندماج في كنف العائلة الفرنسية من تحصيل الحاصل فإن الجزائريين المسلمين سيتكلمون ويحلمون ولا يفكرون إلا بالفرنسية. وصرح كذلك بن جلول أن العلماء كانوا خطرين على الأقل مثل الوطنيين والشيوعيين لأنهم كانوا يريدون تجديد الإسلام والتربية باللغة العربية وهكذا سيكونون حجر عثرة في طريق إدماج المسلمين. عندما سئل عن اغتيال المفتي كحول أجاب بأنه لا يعتقد أن العلماء انغمسوا في هذا الاغتيال ولكن رغم هذا فإنها جريمة دينية وليست مما لا علاقة له بالدعاية الدينية وكذلك بالتحريضات الشيوعية. وفي باريس حاول أن ينقد نجم شمال إفريقيا لدى أحزاب اليسار وذهب به الأمر تقريبا إلى طلب توقيفي.

قبل مجيئي إلى الجزائر العاصمة كان نجم شمال إفريقيا معروفا في البلد. أكثر من ذلك فقد كان لها وجود سياسي والعديد من الفروع المتفرقة عبر العمالات الثلاث. ولكن كل هذه الأنشطة كانت تجري في السرية. فبعد النجاح الذي حصل في تجمع 2 أغسطس قررنا القيام بكفاحنا علنا أمام شعبنا وأمام الرأي العام العالمي. سنصطدم بصعوبات جمّة سواء من طرف الاستعمار أو من طرف الحركات السياسية الجزائرية المسلمة. إن البعض وخاصّة عدد من المعلمين من الحزب الشيوعي الجزائري كانوا يعتبروننا مشوشين أو حتى مخربين. كانوا يتهموننا بأننا ندخل في لعبة المعمرين عندما أفسدنا مطالب المؤتمر. ومن البديهي أن حزبا مثل حزبنا الذي طرح مسألة الاستقلال على حدّ سواء في باريس وفي الجزائر سوف لن يجلب الإجماع حوله.

ومن ناحية أخرى وحسب بعض أصدقائنا، إن الوفود التي ذهبت إلى باريس لتطلب الإفراج عن الشيخ الطيب العقبي لم تذكر هذا الموضوع البتة. بل قد تكون خلال هذه المحادثات كونت حلفا مقدساً ضد مصالي الحاج ونجم شمال إفريقيا. مع العلم أننا كنا من الأوائل الذين أرادوا الدفاع عن الشيخ الطيب العقبي. بعد الإفراج عنه تكون وفد من الشيخ الزاهري زكرياء وميساوي والسيدة مصالي وأنا شخصيا وذهب هذا الوفد إلى القبة لإظهار صداقتنا ودعمنا لزعيم العلماء. وفي انتظار أن يستقبلنا رأينا الدكتور لفراني وهو يخرج من عنده والذي لم ينظر إلينا إلاّ بعناء.

كانت الشرطة تتبع أقل تنقلاتنا في الجزائر العاصمة فقد وضعت حولنا مخبرين. ولكن في باريس لم تكن الأمور على ما يرام. إن تجمع 2 أغسطس 1936 قد أحدث في العاصمة الفرنسية أفراحا لدى الجالية الجزائرية ولكن الغضب كان عارما في الأوساط الاستعمارية. فطلب إيقاف مصالي الحاج وحل حركتنا فذهبت الشرطة إلى مقرنا الاجتماعي لحجز لعض الوثائق بحثا عن قرائن أو أثارا تتعلق باغتيال المفتي كحول.

فوزعنا منشورا في الجزائر وضاحيتها. وها هي بعض الفقرات منه: "إن الأعداء الظاهرين أو المخفيين لمطالبنا الشرعية يريدون تحطيم الوحدة البديعة التي خرجت من المؤتمر. إنهم يحاولون أن يدفعونا ضد حكومة الجبهة الشعبية التي لها ميول لقضيتنا. ولكن الشعب الجزائري قد تم إنذاره وهو ليس غرًّا ! ولن يمشي في المؤامرة! ولنكن متحدين ! ولنكن يقظين ! ولنكن هادئين وراء نجم شمال إفريقيا وضدّ كل من همه الوحيد أن يكسر حركة الانعتاق لشعبنا المضطهد." يمكننا

الملاحظة سواء في خطبنا أو في ما نكتب أننا لا نستعمل الكلمة المشينة "أهالي" فقد تم حذفها من زمان. كنا نقول "الجزائريين" و"الشعب الجزائري" و"الأمة الجزائرية" إلخ. كنا نريد أن نمحق بعض مركبات النقص وإعادة الحقيقة التاريخية في مكانها.

كنت أشتغل مع أعضاء الفرع المركزي للعاصمة لألقن لهم سياستنا. كنت أستقبل الكثير من الناس وأرد على أسئلتهم. وعليه فإني قد دعيت إلى حفلات استقبال صغيرة وحفلات شاي وعشاء حيث كانت تنطلق مناقشات حول الأحداث الحالية. إن الجزائريين صغاراً أو كباراً كانوا يريدون أن يعرفوا الأخبار ويفهموا وهذا ما كان يسرني. إن تغييرا كبيرا صار يحدث شيئا فشيئا. ومع هذا فإن ضرورة التنظيم ما زالت لا يتم الشعور بأهميتها. ولهذا فإني كتبت قبل رحيلي من الجزائر مقالا عنوانه: "أيها الشعب الجزائري إذا أردت أن تعيش وتنتصر، نَظِّمْ نفسك"[1]. بالفعل لقد كان هناك تجمعات ونوادي رياضية هذا إن لم نذكر الزوايا ولكن كل هذه الجمعيات لا تعرف للفعالية معنى. لم يكن للجزائر أيّ حزب سياسي منظم حقا. كانت هناك انتخابات والحمّى الانتخابية ثم يخيم السكوت: فالشعب ينسحب ظنا منه أنه قام بواجبه. كان لا يفكر لا في مواصلة الكفاح ولا في مراقبة المنتَخَب علما بأن هذا الأخير كان لا يرغب في ذلك. إذْ لا يقوم بأيّ تقرير عن أنشطته ولم يحاول أن يقلق نفسه بالسؤال عن مصير الفلاحين والعمال.

إن أغلبية المثقفين في 1936 كانوا لا ينظرون إلى حزبنا بعين الرضا وقد أزعجهم مجيؤه إلى الجزائر. إن الأغلبية كانوا متفقين مع المؤتمر الإسلامي. وكانوا يتظاهرون بجهلنا وهم في نفس الوقت يعارضون سياستنا. لقد كنا بالنسبة لما يرون غير عقلاء أو قل أغبياء. ولكن هناك القليل وفي صمت كانوا قد ساعدوا على توطين وترسيخ نجم شمال إفريقيا في الجزائر. إن السيد عمر راسم وأخوه السيد محمد راسم اللذين كانا فنانين من الطراز العالي قد أعانانا مثلا في سنة 1936. إن هذين الأخوين مع آخرين لم أتذكر أسماءهم قد أحيوا فن النمنمة العربية برسم مشاهد من الحياة العاصمية في عهد الإمبراطورية العربية وعروج خير الدين وذلك لكثير من الفن والرقة.

إن أحداثا كبيرة كانت تجري حينئذ في المشرق الإسلامي العربي. إن مصر وسوريا كانتا تنتزعان الواحدة منهما الاستقلال والأخرى الاستقلالية. إن تحرير هذين

(1) إن هذا المقال نشر في الأمّة (سبتمبر/أكتوبر 1936).

الشعبين الشقيقين قد أدخل علينا البهجة. ولكن هذا التحرير قد ساعدنا كثيرا كذلك لتحريك نشاطنا لدى الجزائريين من كل التيارات. كنّا نقول لإخواننا التائهين: "كيف تتجرأ على التخلي عن الجزائر وبيعها بأبخس الأثمان لتصيروا فرنسيين من الدرجة الثانية، بينما سوريا ومصر قد تحصلتا على التحرر من ربقة الاستعمار الغربي؟

فبعد إقامتي في الجزائر قررت أن أذهب لقضاء بعض الوقت في مسقط رأسي أي مدينة تلمسان. في هذه المدينة الكثيرة الحركة كان نجم شمال إفريقيا معروفا. إن بعض الخلايا قد ألقت بجذورها في بعض النوادي التي كان يجتمع فيها كل الشباب. فقد كانت مضبوطة التنظيم. وإن معظم المناضلين لم يتجاوز عمرهم العشرين سنة إلا أنهم كانوا متعلمين سواء بالعربية أو بالفرنسية. إن هؤلاء الشبّان كانوا في أغلبهم أبناء لأصدقائي القدماء الذين هم أعضاء زاوية الدرقاوة. كنت بناء على هذا أتمتع بنفوذ كبير لديهم لأنني كنت في نفس الوقت وطني مقتنع وابن المدينة ومريد الزاوية.

ولكن عندما وصلت سمعت بأن اضطرابا كبيرا كان يسود العلاقات بين الزوايا والعلماء. وقد تألمت لهذا كثيرا لأنني كنت أحب تلك الأوساط الدينية التي حضرت فيها نفسي للحياة. إن العلماء حسب ما قيل لي قد أخذوا مكانة الريادة ولفوا إليهم عددا لا بأس به من مريدي الزوايا. كانوا يعيبون عليهم بعض الممارسات المتشددة والمتناقضة حسبهم مع المبادئ الإسلامية. إلاّ أن رواد الزوايا كانوا يقولون: "نحن نمارس ديننا حسب السنة"[1]. ويدعي العلماء كذلك أن الطرق الدينية قد ربحها الاستعمار.

فقد كان لي في جنيف حديث مع الأمير شكيب أرسلان حول موضوع الخلافات بين المسلمين الذي عبر صداه البحر الأبيض المتوسط. إن الأمير الذي كان يعرف جيدا هذا الموضوع لم يوافق على هذا النزاع. كانت له صداقات وكان معجبا بالطرق التي كان روادها الذين يجتازون الصحاري والجبال والسهول ليحملوا كلمة الله إلى من كانت لهم حياة صعبة وشاقة كان قد قال لي: "إن هؤلاء الرجال يتحملون كثيرا من الآلام ليبلغوا العقيدة الإسلامية إلى النواحي الصعبة. بينما يعيش العلماء في ظروف بورجوازية جداّ. إن إخواننا الذين يتحملون كل شيء هم خدام الإسلام ومبادئه

(1) منبع الوحي الثاني وتتكون من أقوال وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم.

الجيدون. ولهذا فإنه ينبغي أن يفعل كل ما يمكن فعله لإنهاء هذا النزاع بين العلماء والطرق الدينية".

أثناء إقامتي بتلمسان، اقتربت كثيرا من العلماء ومن رئيسهم الشيخ البشير الابراهيمي. وكانت محادثتنا تندرج دائما بحضور أصدقائي التلمسانيين. كان زعيم العلماء يتهرب من المناقشة ويكتفي بالعموميات. ومع هذا لاحظت أنه كان ذا نفوذ كبير لدى التجار والشباب. إن البعض من مناضلينا سواء في تلمسان أو في مكان آخر، كانوا يتوددون كثيرا للعلماء. إن هذه الجمعية كانت قد رسمت لنفسها هدفا في الأصل وهو إنشاء المدارس عبر كل التراب الوطني لتعليم اللغة العربية. إن فخر العلماء هو أنهم يستطيعون القول: "أما نحن، فإننا نبني المدارس". ولكن شيئا فشيئا بدأ العلماء يمارسون السياسة. وأيّ سياسة! لقد تم استدراجهم، كما رأينا ذلك، إلى قبول ارتباط الجزائر بفرنسا ومشروع "بلوم/فيوليت" الذي كان يهدف إلى الشروع في فرنسة الجزائر بمراحل. فقد صاروا ألعوبات في أيدي المنتخبين والحكومة والحزب الشيوعي الفرنسي. في الواقع، كان كل الناس يغازلون العلماء ويستعملونهم. إن هذه الممارسة قد فتنتهم وضيّعتهم في آخر المطاف.

كتبت إلى باريس لأخبر قيادة الحزب عن الوضعية في الجزائر وعن نيتي في تمديد إقامتي. لقد شرحت لهم الإمكانيات التي تمنح لنا والتي ينبغي اختطافها في الهواء. في الحقيقة إن أصدقائي كان بودهم لو التحقت بباريس لاستئناف الكفاح معا. ولكنني قررت مواصلة مهمتي في ناحية مسقط رأسي مدة نهاية هذا الصيف 1936. لم أتوقف عن التحرك والكلام والمناقشة. إن الشباب التلمساني من الجيل الجديد كان يحيط بي ويساعدني في نشاطاتي.

كتب لي أصدقائي من الجزائر لإعلامي أن جمعية العلماء كانت ستعقد مؤتمرها السنوي في الجزائر العاصمة خلال النصف الثاني من سبتمبر. إن هذا الاجتماع حسب قولهم سيكون مضطربا وصعبا على العلماء ومن المحقق أن يندرج الكلام عن نجم شمال إفريقيا. فقررت الحضور شخصيا لهذا المؤتمر لتكون لي فكرة نهائية عن العلماء.

بعد رجوعي إلى العاصمة، توجهت إلى المؤتمر الذي تابعته من آخر القاعة. وبسرعة تأتّى لي أن قادة العلماء ليس بينهم إجماع بخصوص السياسة التي ينبغي اقتراحها. مقابل بن باديس والابراهيمي والعربي التّبسي يبدو أن الشيخ الطيب العقبي

يسير منفردا. كانت سياسة الإدارة الفرنسية قد وضعته من جهتها. فلأنه استلم من موريس فيوليت برقية بُعَيْدَ الإفراج عنه حيث كان يوجه له فيها تهانيه ومودته، فقد صرّح أن البرقية قد غمرته بالفرحة وأنه يبقيها معه بكل لطف و"يحملها معه في قبره". ولاحظت أنه خارج المؤتمر إنه قد أزعج الكثير من المؤتمرين والكثير من الجزائريين.

إن التدخلات في أغلبها تحدثت عن التعليم باللغة العربية وعن إنشاء المدارس وعن الوسائل لتمويلها. كما تم الحديث كذلك عن ارسال الطلبة إلى البلدان العربية. فصفقت بحرارة على هذه المبادرات السعيدة. وفي الوقت الذي كان الكلام يجري عن المسائل المالية شعرت أن العلماء لهم موارد هامّة. إن صناديق الجمعية كانت مملوءة بفضل الاشتراكات والاكتتابات.

وانتهى المؤتمر بوليمة. إن الخطب تناولت مشاكل مختلفة ولكنها كلها آنية. فقد لمحوا تجاه حزبي وتجاه شخصي ولكن دون أن يذكر اسمي بعض الابر اللاكزة. ولكن عندما أردت أن أتكلم في نقطة نظام فلم تُعطَ لي الكلمة. إن هذا المنع من الكلام قد تسبّب في حادث. فإن مجموعة من أصدقائي تدفقوا في قاعة الوليمة للاحتجاج. ودون أن يذهبوا إلى المشادات الفعلية فقد أظهروا عدم رضاهم. ثم غادرنا معا القاعة حتّى لا نزيد الطين بلّة وتتأزم الوضعية.

حسب ما كنا ننتظر فإن خبر ذلك الحادث قد تم نقله إلى الجهات الأربعة من العاصمة وكل واحد يعلق عليه بالكيفية التي يراها حسب توجهه السياسي. إن هذه المسألة قد شغلت كثيرا الرأي العام وساعدت على التعريف أكثر بنجم شمال إفريقيا وبرنامجه. ولكن البعض كانت لهم ردة فعل سيئة. إن نادي الترقي خاصّة أعلن أن لم نعد مرغوبا فينا فيه بصفة رسمية بينما كان مفتوحا للشيوعيين ولكل أصحاب المؤتمر. إن الهوة بدأت تتوسع بيننا وبين جمعية العلماء. قررنا إذن عقد اجتماع عمومي في الجزائر العاصمة. لقد اندرجت يوم 29 سبتمبر في جوّ ودّي. فطيلة أكثر من ساعة شرحنا برنامجنا السياسي ومطالبنا التي ترمي كلها في نهايتها إلى الاستقلال. إن قاعة السينما مونديال في نهج ليون كانت غاصّة بالحضور. ولاحظت أن من بين المستعمرين كان هناك عدد كبير من المنخرطين في جمعية العلماء، أتوا إلى المحاضرة للاطلاع بالضبط على سياستنا. ثم نظمنا فيما بعد عبر الجزائر العاصمة وضاحيتها دورة دعائية في شكل زيارات ودعوات إلى حفلات زفاف ولقاءات تكون صدى للمحاضرة.

ثم حملت عصا الحج. ومنذ زمان كنت أمني نفسي بزيارة بلاد القبائل لمعرفة هذه الناحية الجميلة من وطني التي حدثني عنها صديقي جيلاني والتي مازلت لم أعرفها بعد. إن السيد ميساوي رابح هو الذي رافقني في هذه الدورة التي قادتنا في أكتوبر إلى تيزي وزو ولاربعا ناث إيراثن وتيزي راشد. في هذه المدينة الأخيرة عقد اجتماع في إطار ساحر أمام الجبال والغابات. فقد كان أمامنا تقريبا خمسة آلاف مستمع، وحتى يكون كل واحد مرتاحا، جلسوا كلهم على الأرض والتفوا في برانسهم لأن برودة لطيفة كانت تأتي من جبال جرجرة. إن القائد اليزيد تمركز بعيدا علينا في مرتفع صغير ليحرص جيدا اندراج هذا الاجتماع. إن مواطنينا الذين كان البعض منهم يعرف فرنسا ونجم شمال إفريقيا كانوا ينتظرون بفارغ الصبر بداية الاجتماع. فبمجرد ما بدأت أُحَضِّر نفسي انطلقت التصفيقات.

ولأسمح لكل الناس بالفهم، تكلمت بالعربية وبالفرنسية. تحدثت عن ماضي المنطقة وروح المقاومة فيها. ثم تناولت برنامج الحزب ووصفت أنشطتنا في فرنسا وعددت مطالبنا وألححت أولا على ما هو أساسي: "انعتاق واستقلال الجزائر" ثم تكلمت طويلا عن المطالب العاجلة التي يمكن الحصول عليها بتطبيق مبادئ الديمقراطية. وبعد التجمع أحاط بي وبميساوي المواطنون وهنأونا.

فقد كنت مسرورا في الجملة بإقامتي في بلاد القبائل. وعند عودتي إلى الجزائر العاصمة أخبرني أصدقائي بمشاريع قادة المؤتمر الإسلامي. إنهم سيقومون بعد مدة قصيرة بدورة دعائية وإعلامية. أما الأخبار الآتية من باريس كانت تعلم بأن الفضيل الورتلاني باسم العلماء كان يقوم بعمل تخريبي ضد نجم شمال إفريقيا. كان يبذل جهدا لإنشاء مدارس لنشر تعليم العربية والمبادئ الإسلامية في العاصمة الفرنسية. كان الفضيل الورتلاني يجد المساعدة لدى الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يتفاهم معه جيّدا. إن ليبو وانير التي كانت البارحة تبحث عن صداقتنا، دارت الآن نحو العلماء. كان أصدقائي من قيادة الحزب يتمنون إذن إرجاعي قربهم لنشكل جبهة ضدّ كل هذه الهجومات. فأجبتهم أن حضوري في البلد كان ضروريا أكثر من أيّ وقت مضى لأن وفد المؤتمر سيقوم بدورة دعائية وكان عليّ أن أتبعهم خطوة لأعطي المناقضة. كان على الوفد أن يذهب أولا إلى مستغانم. في هذه المدينة المتدينة والتجارية تم الاتفاق على عقد الاجتماع في سينما من وسط المدينة. وهنا طلبت الكلمة من المنظمين لعرض سياسة الحزب على المستمعين. فأعطيت لي ولكن أثناء تدخلي كله سفّر علي بعض الشبان الذين شجعهم بني وي وي. ثم لاحظت أن كاتب

الشؤون الأهلية نفسه كان يقود الضوضاء. إن هذا الضجيج المتعمد لم يمنعني من شرح الأمور الأساسية في برنامجنا.

كان حزبنا معروفا في مستغانم قبل سنة 1936. إن شباب هذه المدينة وبدعم مني قد بارز محاميا اسمه كيلهات كان يطالب بإيقاف الوطنيين[1]. لم أرد مغادرة المدينة قبل أن أنظم اجتماعا باسم نجم شمال إفريقيا. وبالتالي فقد عقدنا تجمعا خاصّا وبطاقات الدعوات وعرف هذا التجمع نجاحا كبيرا.

فبعد العودة من عمالة وهران علمنا أن وفد المؤتمر يتحضر لمواصلة دورته الدعائية في مقاطعة قسنطينة. انتظرت بفارغ الصبر وبقلق ذهابنا إلى قسنطينة التي لم أكن أعرفها. بجبالها العالية وواديها أقصد وادي الرمال، وقنطرتيها المعلقتين وصنوبرها وسيدي راشد وليها الصالح إنها فعلا مدينة ساحرة الجمال. إنها مدينة عربية بكل ما في الكلمة من معنى. قسنطينة متفتحة على الشرق العربي الإسلامي. إن روح جامع الزيتونة[2] وجامع الأزهر[3] في القاهرة يهب نسيمه في كل مكان في مدينة صالح باي الكبيرة. إن القسنطينيين مهذبون وفضوليون وهم مسلمون جيدون. إنهم كذلك ظرفاء وجادون وبشوشون وهم مواطنون مقتنعون. لقد وجدت فيما يخصني كثيرا من أوجه الشبه بين قسنطينة وتلمسان.

إن مدينة قسنطينة كانت مرتعا لجمعية العلماء والشيخ عبد الحميد بن باديس. فبمجرد وصولنا علمنا بأن عامل قسنطينة قد منع أيّ اجتماع عمومي وأي مظاهرة في الشارع. إن وفد المؤتمر الجزائري وعددهم عشرة أشخاص تقريبا دخلوا معنا في مقهى - مطعم للنظر في الوضعية. في البداية كان السكوت مخيما. وكل الأنظار كانت متوجهة إلى الشيخ البشير الابراهيمي، كان الناس ينتظرون أن يقول أي شيء وأن يقترح إجابة أو أي هجوم مضاد. ولكنه بقي ساكتا. ثم بدأت الألسنة تتحرك شيئا فشيئا ولكن لم يتم تقرير أي شيء إيجابي. وحينئذ أخذت الكلمة قائلا: "أعتقد أنه يجب أن نحرر احتجاجا شديد اللهجة ضد منع الاجتماعات ونذهب نحن بأشخاصنا في وفد لتسليمه إلى العامل ونطلب منه مقابلة. وإن لم يأت هذا المسعى بأيّ نتيجة، يكون علينا أن نرسل برقية احتجاج إلى رئيس مجلس الوزراء

(1) بدون شك في جريدة عين الصفراء التي كان يسيّرها.
(2) جامعة تونس.
(3) جامعة القاهرة.

وكذلك إلى اللجنة المديرة للجبهة الشعبية. كما يجب كذلك الكتابة إلى فرنسا، إلى وكالات الأنباء والأحزاب اليسارية وإلى لجنة اليقظة للمثقفين المناهضين للفاشية." إن اقتراحي رفض وبدأ المندوبون وحاشيتهم ينسحبون الواحد تلو الآخر.

أمّا أنا فإني ذهبت مع دحمان، المسؤول عن فرع قسنطينة. أخذني معه إلى منزله حيث فحصنا معا وضعية الحزب في قسنطينة والحالة العقلية لمواطنينا ومناضلينا. إن بن دحمان موظف في السكك الحديدية وهو شاب جدي وذكي. كان يستطيع أن يتحدث مع شيوعي ويتغلب عليه فيما يخص مشاكلنا المغاربية. إنه كان رساما رائعا. في ظرف قصير جدا كان يستطيع أن يرسم رسما تمهيديا لشخص ما أو لمشهد. قد وضع تحت تصرفي غرفته حيث كنت أعمل وأستقبل زواري من الطلبة والحرفيين والفلاحين. فبصحبة المناضلين قمت بزيارات لعائلات أرباب الدكاكين وصانعي برنوس بني عباس. وفيما بعد دعيت من طرف عائلة عربية ثرية من قسنطينة. وكانت هذه العائلة محبة للأتراك على غرار كل الجزائريين تقريبا وكان لهما منزلان الواحد مقابلا للآخر: الأول من طراز تركي والآخر من طراز عربي. إن هذه العائلة كانت كذلك تبدي إعجابا كبيرا بالمهاتما غاندي.

إن أحد أعضاء فرع قسنطينة كان يعمل في معمل نجارة تحت قنطرة سيدي راشد الشهيرة. هنا كانت تعقد الاجتماعات للتخلص من فضول المخبرين والشرطة ذات الزي المدني. إن الأسئلة التي كانت تطرح علي كانت تبرز أن مناضلينا ومحبينا كانوا لا يقبلون إلا بصعوبة خلافاتنا مع جمعية العلماء. حاولت أن أفهمهم أن موقفهم المناهض للوطنية كان خطيرا جدّا ومناهضا للإسلام: "لا يمكن أن جزائريا يستطيع عن طيب خاطر المطالبة بارتباط الجزائر بفرنسا". كنت أظن أن اجتماعا عموميا لشرح موقفنا كان لازما. إن مسؤولي الفرع انطلقوا في البحث عن قاعة للاجتماع للسماح لنا بعقد تجمع يشرف مدينة قسنطينة. إن أصدقاء روسيا امتنعوا عن كراء المحل لنا. وقد كان الأمر كذلك بالنسبة للقاعات البلدية والجامعة الشعبية وقاعات السينما ونادي بن جلول. كل هؤلاء الناس كانوا لا يريدون أن رئيس نجم شمال إفريقيا يستطيع أن يعرض على السكان القسنطينيين برنامجه السياسي.

وفي نهاية المطاف أخبر مناضلونا السكان بأننا سنعقد اجتماعا شبه خاص في مقهى مطعم. إن القاعة لم يكن في وسعها أن تستقبل أكثر من ثلاثمئة أو أربعمئة مستمع واقف. عرضت ثم شرحت برنامج الحركة بكلمات واضحة بسيطة ومقنعة.

فأجبت عن بعض الأسئلة ولكن أزحت كل سؤال متعلق بالأشخاص. نستطيع القول بأن هذا الاجتماع عقد في جوّ من البركة لأن عددا هاما من المستمعين صاروا فيما بعد مناضلين في الحزب أو حتى أعضاء في اللجنة التنفيذية أو في مكتبه السياسي.

بعد قسنطينة توجهنا إلى قالمة حيث استقبلني جلول بوجريدة الذي زارنا في باريس تقريبا في سنة 1935. لاحظت مباشرة أن الشباب في صف الحركة الوطنية. فقد عقدنا تجمعا يوم 29 أكتوبر 1936 في قاعة متوسطة الكبر ولكنها مريحة. كان هناك الناس والشباب خاصّة ولكن كذلك الشرطة والمشوشين فبمجرد ما بدأت الكلام انفجر الضجيج من كل جهة. إن بعض الشبان والأطفال كانوا يصفرون ويصيحون ويضربون بالأيدي والأرجل بينما كان الآخرون يعوون. رغم كل هذه الضوضاء حاولت الكلام. ولكن هذا التشويش قد سمح للشرطة أن تطلب بإخلاء القاعة فإني اعترضت على هذه المناورة وانغمست القاعة في الظلام. إن خمسين رجلا من مناضلينا أحاطوا بالمنبر حيث كنت متواجدا، لقد دام الظلام عشر دقائق ولكن أحدا لم يتحرك خلال هذه الفترة من الزمن. فبما أن المناورة قد فشلت، تم عقد التجمع وعند الخروج وقعت مظاهرة لم تكن منتظرة في شوارع قالمة. ستمئة شخص طافوا في شوارع المدينة وهم يهتفون: "يحيا نجم شمال إفريقيا! يحيا التحرير الوطني لبلادنا!"

من أمر بإطفاء الأضواء ؟ من قام بهذا العمل الإجرامي الذي كان يرمي بدون شك إلى سفك الدم العربي والتقليص من قيمة الحركة الوطنية؟ لقد علمنا أن الفاعل لهذه الإثارة هو بوجمعة مصطفى الذي نعرفه. فقد حاول في باريس أن يجلب صداقة مناضلينا وذلك بتقديم وعود خيالية ثم ذهب إلى مكّة ليتجسس على الحجاج.

عندما دخلت إلى الجزائر فقد انشغلت بتقوية النجم في عاصمتنا. فقد عينا، باقتراح منّي مناضلين، لحول حسين وخليفة بن عمر كدائمين في الحزب. كما عُيِّنَتْ لجنة استشارية يرأسها مستول محمد ويتضمن خاصّة غرافة براهيم والحاج سماعيل ومفدي زكريا الزاوي وأحمد مزرني والماحي ومصطفى دشوك. إن مستقبل الفرع بدأ يظهر جيدا في هذا الشهر أي نوفمبر 1936 في الوقت الذي بدأت أتهيأ فيه لمغادرة البلاد ولأذهب إلى باريس. ذهبت وحدي للعاصمة الفرنسية والسيدة مصالي وابني علي يبقون في تلمسان في عائلتي لأني كنت أفكر بالفعل أني سأعود لأعيش في الجزائر بعد موافقة قيادة نجم شمال إفريقيا.

مباشرة بعد وصولي إلى باريس، وضعت نفسي تحت تصرف الحزب. إن أصدقائي كانوا كلهم مثلي راضين عن كل ما قمت به من عمل سواء في الجزائر أو في فرنسا خلال هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة. ولكن الوضعية كانت صعبة. إن بعض الشخصيات من الجبهة الشعبية ودون أن يقولوا لنا شيئا مزعجا في الحقيقة إلاّ أنهم أشعرونا أنهم لم يكونوا موافقين على أهداف دورتي الدعائية في الجزائر. وبدأت الشرطة من جديد التحرش علينا بدون توقف، فقد كانوا ينغصون علينا الجو بالازعاجات المتواصلة والمختلفة. إن الفرقة المغاربية لمصالح الاستخبارات كانت تشعرنا بوجودها منذ رجوعنا من الجزائر. كان لدينا الإحساس بأن الإدارة الاستعمارية تبحث عن إضافة أشياء إلى الملف لتحييد حركتنا.

وعلى المستوى الدولي فإن الوضعية صارت خطيرة. فإن الجمهورية الاسبانية قد تم التخلي عنها من طرف حكومة الجمهورية الفرنسية. إن سياسة عدم التدخل لم يتم في الواقع الموافقة عليها بإجماع من طرف أعضاء حكومة بلوم. وفيما يخصنا فإننا احتججنا ضد السياسة الفرنسية تجاه اسبانيا. أولا لأننا ديمقراطيين ولكن كذلك لأننا كنا نعرف أن الجمهوريين بدأوا تحضير إصلاحات سياسية لصالح إخواننا المغاربة في المنطقة الاسبانية. كان هذا في نظرنا فعلا إيجابيا في اتجاه انتصار الحريات الديمقراطية وانعتاق الشعوب المستعمرة[1]. إننا قد أرسلنا رمزيا اكتتابا صغيرا إلى الحكومة الاسبانية. إن فخامة رئيس الجمهورية الاسبانية قد أرسل لنا رسالة شكر بتاريخ 13 أغسطس 1936.

عندما وصلت إلى باريس في محطة ليون، كان أصدقائي من نجم شمال إفريقيا قد نظموا لي حفل استقبال بسيط وأخوي ولكنه مؤثر. إن حضور خمسمئة جزائري لاستقبال رجل رجع من القيام بمهمة في الجزائر وهذا ليس مبتذلا. بعد هذا الاستقبال قرر الحزب عقد اجتماع إعلامي عن سفري إلى الجزائر يوجه للمناضلين والمحبين وأصدقاء الحركة الوطنية.

إن يوم 27 نوفمبر 1936، قمت بالتقرير في قاعة "غرانجوبال" عن دورة الدراسة والدعاية أمام 4000 مسلم مغاربي ثم وافقنا على تقرير يعلن خاصّة أن الجزائريين "(...) يطلبون بإلحاح تطبيق الحريات الديمقراطية بكل بساطة وكذلك تطبيق

(1) المقال الذي نشره مصالي في جريدة الأمّة (جانفي 1937). "إن الحرب الأهلية في اسبانيا وتسرب الألمان إلى المغرب وتلاعب الإيطاليين في الباليار وفي الحوض المتوسطي والقضية المغاربية".

القوانين الاجتماعية والعمالية، وقانون التفرقة بين الدين والدولة واحترام ممارسة الإسلام وحريته. وتطلب كذلك إلغاء قانون الأهالي والقوانين والإجراءات الاستثنائية وإلغاء القيادة والبلديات المختلطة والمناطق العسكرية. (...) يردون بكل قوّة مشروع فيوليت (...) وتلفت خاصّة انتباه حكومة الجبهة الشعبية على الوضعية المأساوية التي يتخبط فيها الشعب الجزائري على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على أن يتخذ إجراءات قوية لمواجهة الفقر بالدرجة الأولى وغلاء العيشة الذي تضاعف منذ بداية عهد الحكومة الحالية ودون أن ترتفع الأجور. (ويلاحظون) أن كل هذا البؤس الذي يتألم منه الشعب الجزائري والاضطهاد المتواصل الذي يتعرض له يساعد الدعاية الفاشية التي تحاول بكل الوسائل إحداث الاضطرابات (...)".

إن ممثل جمعية العلماء، الفضيل الورتلاني كان قد حضر التجمع. وتدخل للاحتجاج ضد بعض الانتقادات التي عبرنا عنها ضد الشيخ الطيب العقبي. وبالفعل خلال تقريري قمت ببعض الملاحظات تنقد موقف الدكتور بن جلول وموقف الطيب العقبي. إن انتقاداتي كانت لا تمس الرجال ولكن سياساتهم وبالتالي فإنها شرعية. ولهذا وحتى أوضح نهائيا للرأي العام الذي مازال عرضة للمناورات قررنا نشر توضيح: "لم نقل أبدا أيّ شيء عمّا هو في مجال الدين يعني تعليم اللغة العربية وتعليم الإسلام الحقيقي بالعكس فإن هذا التجديد قد سرنا كثيرا لأنه لازم لبلادنا. إن الأمر إذن واضح كالنهار أننا لم نتخل أبدا عن واجبنا في هذا الميدان. لسنا مثل بن جلول الذي منع العلماء من القيام بالسياسة. نحن فيما يخصنا نقول بأن العلماء أحرار بممارسة السياسة وهذا حقهم. بل نقول: هذا واجبهم. ولكن بشرط واحد وهو أن يسمحوا لنا بالتعبير عن أفكارنا وتوجيه الاعتقادات التي تفرض نفسها." إن هذا النص كان دبلوماسيا أكثر منه سياسيا. إنه كان يرمي إلى إحداث جبهة موحدة لقواتنا نحن الاثنين ضد الاستعمار الذي كان يبحث بكل الوسائل عن تعارضنا. ولكن مع الأسف، إن جهودنا لم تثمر شيئا جيدا لأن العلماء لم يغيروا نهجهم.

كما أشار به علينا بعض الأصدقاء وجهنا تعازي النجم إلى الحزب الاشتراكي (س.ف.إ.أ) بعد انتحار الوزير سالنغرو الذي أحدثته حملة صحفية شرسة وعنيفة إلى أقصى درجات العنف. إني ذهبت شخصيا لتمثيل النجم في مراسيم دفن سالنغرو في ليل. وفي نفس الوقت مع أصدقائنا المغاربيين كان علينا أن ندفن كذلك أحد مناضلينا الذي قتله فاشي في المعمل الذي كان يعمل فيه في كليشي. أكثر من

150000 رجل وامرأة[1]، رافقوا أخانا الطاهر أشرشور، عضو نجم شمال إفريقيا، إلى محطة ليون لينقل ويدفن في قرية مسقط رأسه. إن الفرنسيين والفرنسيات كانوا كثيرين في هذا الحفل الذي حضره العديد من الشخصيات. إن أخوة وتضامن كل المكافحين من الجبهة الشعبية معنا كانت مؤثرة. خلال خطابي قلت بأن "الجبهة الشعبية عليها فيما يخص الطاهر أشرشور أن تعمل علي تحقيق تطلعاته، يعني بالنسبة للجزائر تطبيق الحريات الديمقراطية وانعتاق الشعب الجزائري".

إن قاضي التحقيق فاردي في نوفمبر 1936 أي بعد رجوعي من الجزائر بقليل استدعاني إلى قصر العدالة في باريس. فقد علمت وقتها أن المحكمة توجه لي عدة اتهامات على جنح أكون قد ارتكبتها في باريس وفي تلمسان ومستغانم والجزائر العاصمة أثناء دورتي الدعائية في الجزائر. كانوا يتهمونني على المساس بالسلطة وبالسيادة الفرنسية. وأن خطبي قد أحدثت اضطرابات وحثت العرب على المقاومة النشيطة أو الهادئة للقانون والسلطة العمومية. كانوا قد ذكروا بالضبط أني صرحت: "الاستقلال لا يعطى ولكنه ينتزع" و"يجب النزول إلى الشارع لتحضير المسَاء الكبير".

إن قاضي التحقيق، بحضور المحامين: الأستاذ بومنجل والأستاذ لونغي، طلب مني الإجابة عن كل الأسئلة بنعم أولا. فصرحت بأني مستعد للجواب عن هذه الأسئلة مرفقا جوابي ببعض الشروح ولكن أرفض أن أجيب بنعم أو لا ببساطة. إن القاضي ألح وتوقفت المساءلة. كنت لا أريد أن أوافق على ما لم أكن قلته وأثبت هكذا ما قاله المخبرون. فبعد تدخل من الأستاذ لونغي الذي لاحظ أن مطالبنا كانت سلمية وأنها قد تكرر غالبا في الاجتماعات هنا في فرنسا دون أن ينجرّ عن ذلك متابعات قضائية، وقلت للقاضي: "نعم، نحن نستعمل في كفاحنا كل الوسائل السلمية والوسائل السلمية وحدها."

فأمام الوضعية الخارجية المشحونة بالتهديد، بدأ القول في الدوائر العليا: "كل الفرنسيين عليهم أن يرصوا صفوفهم حول فرنسا فليس الوقت وقت إصلاحات بنيوية". وهذا سبب إضافي لألاّ يفعلوا شيئا لصالح الشعوب المستعمرة. فلشغل المتفرجين والأذهان، يُرمي في المرعى للرأي العام وللأهالي الجزائريين مشروع

(1) الأمّة تحدثت عن أكثر من أربعين ألف عامل جزائري و160000 عامل فرنسي وهي أرقام أسطورية.

بلوم/فيوليت المشهور الذي أسال حبرا كثيرا. في البرلمان إن الوسط اليميني واليمين عارضوا هذا المشروع وفي الجزائر تقريبا كل الفرنسيين قد ناهضوا بشدة هذا الاصلاح الصغير أو شبه الاصلاح الذي في الواقع لا يمكنه أن يغير شيئا في الوضعية المزرية. ولكن في المقابل نجد العديد من الجزائريين مع هذا الاصلاح لأنهم كانوا يظنون أنه يحسن حياتهم.

-إن قراءة مشروع بلوم فبوليت تبرز أنه قد تمت دراسته في العمق وبدقّة من قبل مختصين في الشؤون الاسلامية. إن العشرين ألف أهلي جزائري الذين تم اختيارهم ليصيروا مواطنين فرنسيين قد تمت غربلتهم بدقة. كانوا أغلبهم ينتمون إلى البورجوازية من التجار وملاك الأراضي والمثقفين والمرابطين. فالمعنيون كانوا فقط الممرن والمعلم والأستاذ والطبيب والمتقاعد العسكري والمتطوعون وحارس الغابة والقايد والآغا والباشاغا إلخ... إن السلطة عندما تعطي صفة المواطن الفرنسي لعشرين ألف من الأهالي الجزائريين إنما يشكل هذا الفعل مناورة ذكية وخطيرة. إن نظام الاستغلال الجديد الذي يحدثه مشروع فيوليت يستطيع أن يجعل العشرين ألف من المحظوظين ينهضون ضد الستة الملايين من الأهالي الذين يبقون "خاضعين فرنسيين".

إن هناك مناورة تقسيم المقصود منها أن يعارض الجزائريون الجزائريين. وأن ينعم الاستعمار بالسعادة. إن الاستعمار يريد أن يحول الجزائر إلى أرض فرنسية على مراحل وأقساط من عشرين ألف جزائري تنتزع في كل مرّة وهكذا ينفصل بلدنا شيئا فشيئا عن شمال إفريقيا وعن العالم العربي الإسلامي. وراء مشروع فيوليت كانت الامبريالية تتهيأ لتوسع كبير وتقوية ممتلكاتها الاستعمارية. وأمام هذا الخطر، فإن نجم شمال إفريقيا تجنّد وأنذر الجزائريين[1].

ومن جديد كان علي أن أرسل تعليمات ليتم تبليغها في كل مكان في فرنسا وفي الجزائر إلى المناضلين والمحبين. فاقترحت أن أقوم بدورة دعائية في شمال فرنسا وبلجيكا حيث كان لدينا فروعا هامّة. ولكني دعيت إلى ليون لأصلح مشكلا داخليا. إن شيئا من الغيرة والتحيز العصبي كان قد جعل القيادة والمناضلين يتواجهون وهي أشياء تقع في كل الأحزاب الأحسن تنظيما. بعدما انتهيت من إصلاح الوضع في ليون

---

(1) الأمّة (جانفي 1937) نشرت مقالا كبيرا تحت عنوان: "خطر كبير يهدد وحدة الجزائر. أيها الشعب الجزائري إنهض ضج مشروع فيوليت!"

عاصمة الرون أكملت جولتي إلى سانت إتيان وثيار وكلارمونفران. في كل مكان كانت المعنويات جيدة ولكن أخبرت أن بعض الاشاعات في الأوساط الجزائرية تقول بأن النجم سيحل. وبالفعل، حل نجم شمال إفريقيا، تَم بينما كنت متواجدا في تلك الناحية. يوم 25 جانفي 1937. لم تقع بواسطة حكم قضائي كما كان يجري العمل بذلك عادة. إن الحكومة أرادت أن تسرع في عملها، فتم ذلك في مجلس الديوان الوزاري حيث صودق على مرسوم قانونَ لحل جمعيتنا. إن الإجراء كان ساري المفعول في الحال وإن هذه الكيفية تغلق أمامنا كل سبل المراجعة في العدالة.

إن بعض الأيام قبل حلّ الحزب، جاء إلى ليون ليون بلوم رئيس مجلس حكومة الجبهة الشعبية أثناء تواجدنا بنفس المدينة. فألقى خطابا في إحدى القاعات الكبيرة بالمدينة. كنت حاضرا مع أصدقائي في هذا الخطاب وأهدينا بنفس المناسبة إلى رئيس المجلس باقة من الزهور قد كلفتنا الكثير من المال. ولم يَجل ببالنا المرّة أننا في عشية حَلِّنَا.

في ليون وخلال اجتماع للفرع المركزي طلبت من أصدقائي مواصلة أعمالهم باسم جمعية أصدقاء الأمّة التي أنشأتها في الحين. إني أوصيت بالهدوء ورباطة الجأش والإرادة والمرونة. وفي اليوم الموالي التحقت بباريس وفي نفس اليوم قررنا هنا كذلك إنشاء جمعية أصدقاء الأمّة. وهكذا نستطيع أن نواصل أنشطتنا دون خرق للقانون. إن أوامر مكتوبة أرسلت إلى مجموع فروعنا بفرنسا والجزائر وبلجيكا. إن طبعة خاصّة للأمّة حضرت وسحبت على العديد من عشرات الآلاف من النسخ. ثم وجهنا كذلك احتجاجا إلى كل جرائد أحزاب الجبهة الشعبية. ثم توجهنا إلى منظمة حقوق الإنسان ولجنة يقظة المثقفين المناهضين للفاشية ولأحزاب الجبهة الشعبية ومنظمات الشعوب المستعمرة وإلى أصدقائنا مارسو بيفار غيرين وغاستون بارجري. باختصار فإننا طرقنا كل الأبواب وقرعنا كل الأجراس.

في مقال عنوانه : "خدعونا" كتب عمار عماش: "إن الجبهة الشعبية حلفت بالزور. إن الجبهة الشعبية قد ضحت بأحد أعضائها بسند من الشيوعيين!" إن هذا النص كان ينقصه المهارة عندما حكم على الجبهة الشعبية بأجمعها. إن اللجنة الاستعمارية للحزب الاشتراكي قامت بتحقيق عن حل نجم شمال إفريقيا. واستمعت اللجنة إلي بواسطة الرفيق لوبي الذي كان فرنسيا من تونس. وبعد التحقيق إن اللجنة الاستعمارية للحزب الاشتراكي (آس، آف، إي، أو،) قد نددت بحل حزبنا وأنكرت هذا على الحكومة.

لكن لماذا حلت الحكومة الفرنسية النجم في جانفي 1937؟ إن ليون بلوم قد شرح هذا لعضو مجلس الشيوخ ليبسون الذي سأله في مجلس الشيوخ وهو يعيب عليه أنه انتظر كثيرا: "حقيقة إننا انتظرنا كثيرا ولكننا كنا نريد القيام بالعملية على برودة وليس بسرعة. وهكذا فإننا اخترنا الوقت المناسب للقيام بذلك. إن هذا الوقت قد وصل عندما أنكر الجزائريون نجم شمال إفريقيا وحكموا عليه هم أنفسهم."

إن هذا الإجراء لا يجب أن يحدّ من عزمنا. إلى حدّ الآن كنا نقدم دائما مطالبنا بكثير من المرونة. لم نكن نطلب أن ينجز استقلالنا خلال الأربع والعشرين ساعة ولا حتّى خلال الخمس سنين. كنا نظن أنه من مصلحة شعبينا أن خمسة عشر سنة تكفي لتدريبنا على قيادة البلاد لنتمتع فيما بعد باستقلالنا وفي تعاون يمتد إلى كل المجالات. لم يكن هذا إلاّ فكرة أو أقل رغبة. ولكن حلّ نجم شمال إفريقيا يحملنا على إعادة النظر في مواقفنا فنشدد أنشطتنا ونؤصلها أكثر.

من جهة الجبهة الشعبية ورغم بعض الاستثناءات فإن السكوت التام يخيم على مسألة حل نجم شمال إفريقيا. فقد حضرنا إلى تخلٍ كامل نستطيع تشبيهه بالموافقة على المسألة. إن هذا قد شكّل بالنسبة لنا خبرة مفيدة. إن هذه الضربة بالخنجر بين الكتفين تعلمنا ألاّ نعتمد إلاّ على أنفسنا.

إن الشيوعيين قد لبسوا بدلة الامبريالية وصاروا يتهموننا بكل أنواع العار ليتقنوا إخفاء لعبهم ويغرقوا السمكة. وفي محاولة لتبرير مسؤولياتهم اتهمونا بالمعاهدة مع "فرانكو وموسيليني" وسخافات من هذا العيار. إن الحزب الشيوعي كان دائما يستعمل هذا السلاح ليتخلص من الرجال الذين يقاومون تأثيرهُ. ففي مدة زمنية معينة استطاع أن يحطم أناسا نزهاء ولكن هذه الخطة ومن كثرة استعمالها لم تعد تخدع الرأي العام. كان الحزب الشيوعي يعاتبنا على علاقاتنا مع الأمير شكيب أرسلان والعالم العربي وكذلك مناهضتنا لمشروع فيوليت. ولكن الشيء الذي كان يقلقه كثيرا، في الواقع، هو التزامنا باستقلال الجزائر. لم يقبل منا أن نرفض اتباعه في انقلابه وتَخلّيه عن استقلال الشعوب المستعمرة. إن هذه السياسة قد فرضتها عليه موسكو بعد توقيعها لمعاهدة لافال - ستالين.

في الوقت الذي كنا نواصل فيه نشاطنا باسم أصدقاء الأمّة فإننا لم ننقطع عن الدفاع عن منظمتنا وعن الاحتجاج على حلها. ففي رسالة للجبهة الشعبية بتاريخ 3 فبراير 1937، كنا نطلب "لجنة تحقيق لمعرفة الأسباب التي حملت الحكومة على

حلّ النجم" . فمن الواضح أننا يراوحنا الأمل في رؤية رجوع نجم شمال إفريقيا إلى الساحة السياسية. كنا لا ننتظر شيئا من الجبهة الشعبية التي كان الشيوعيون والرادكاليون يسيطرون عليها. فإذا كنا قمنا ببعض المساعي وحررنا احتجاجات وزرنا بعض الشخصيات فقط كان ذلك من محض التكتيك وهو كيفية نثبت بها لأصدقائنا ولأعدائنا السياسيين وللاستعمار نفسه أننا ما زلنا أحياء وأن حل المنظمة لم يقض علينا. وفي نفس الوقت وبناء على هذه المساعي كنا نبحث عن ربح الوقت وسدّ المنفذ أمام الاضطهاد لنتهيّأ جيدا في فرنسا وفي الجزائر لردة الفعل.

إن جريدة الأمير شكيب أرسلان، الأمّة العربية، قد نشرت في أفريل 1937 مقالا احتجاجيا. فبعد التأسف على الحل، كان يقول: "نحن لا ننفي بأن من بين الشبان الذين يتركب منهم نجم شمال إفريقيا هناك من هم متحمسون ما زال العمر لم ينضج عقلهم وهذا موجود في جميع الجمعيات السياسية ولكننا لا نوافق بأي حال من الأحوال أن نشاط الجمعية الشمال الإفريقية قد يكون تهديما محضا وأنه بالنسبة لها لا يمكن أن تفعل شيئا آخر غير رمي الفرنسيين المتواجدين في الجزائر إلى البحر. إن برنامجها حسب ما نعرف هو أن يبقى الشعب الجزائري كما هو وألاّ يندمج في الجنسية الفرنسية حتى يفقد فردانيته، ولكن هذا لا يعني أنه يجب عليه أن ينفصل عن فرنسا" إن الأمير كان يتعامل بمهارة دبلوماسية كبيرة. كل شيء كان في هذه السطور الثلاثة الأخيرة التي تبرهن بكيفية دامغة أن ما كنا نبحث عنه، هو أن نعمل على أن تبقى جنسيتنا دائما حيّة إلى أن يأتي اليوم الذي نصير فيه بفضل كفاحنا أمّة جزائرية مستقلة.

إن الجمعيات الآسيوية والإفريقية كانت تنشر في نشرياتها ومناشيرها كتابات ضد الاضطهاد. وكانت كذلك تعقد اجتماعات للدفاع عن الحريات الديمقراطية وللتنديد بالحملات الاستعمارية وكانت تدعونا، أنا وأصدقائي لنعبّر وندافع شخصيا عن قضية بلادنا.

إن جامعة الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين قد نظمت هكذا تجمعا يوم 11 فبراير 1937، حضره أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة مغاربي. ثم قام على التوالي السيد الجيلاني، مسير "الأمّة" ويحياوي وبول فور وهو مهندس أصله من الداهوماي كنت عرفته في محيط الحزب الشيوعي الفرنسي، كلهم احتجوا ضد حلّ النجم ونددوا بالاتهامات التي وجهت له. ثم ختم بول فور بدعوة إخوانه العرب للتآخي مع

السود وهتف قبل مغادرته المنبر: "إفريقيا للإفريقيين." إن هذا الشعار قد تَمَّ التصفيق عليه بحرارة. إن الحاج علي اشترك مع الخطباء السّابقين وطلب من الحاضرين الوقوف في دقيقة صمت ثم قال: "كنت لصالح مشروع فيوليت ولكني ألاحظ الآن أنه خُدعة". عندما أعطيت لي الكلمة شكرت المنظمين قبل أن أقول: "إن مشروع فيولت تاريخه في الواقع منذ 1871 وقد كلفنا غاليا لأنه بسبب هذه المناورة في قانون كريميو، انتزعت منا الامبريالية جزءا هامّا من سكاننا واستطاع أن يثيرها ضدنا. لا سيما إن هذا الجزء قد ذهب إلى الجهة الأخرى من الحاجر ولكنها صارت كذلك الدليل والخادم للاستعمار. إن السيد فيوليت يريد اليوم محاولة القيام بنفس العملية بامتصاص مثقفينا. إننا لن نقبل هذه المناورة الخسيسة." وفي الأخر سلمت على إخوان ليس لهم كلهم أفكارنا السياسة على أنها البداية لوحدة كل الجزائريين[1].

إن التجمع الذي حضّرته جامعة مصالح المسلمين الجزائريين لم ينته حتى منحت لنا فرصة جديدة للدفاع عن أنشطتنا. إن أصدقاءنا في الدستور أخبرونا بقدوم الحبيب بورقيبة إلى باريس للإقامة مدّة أسبوع. التقينا بسرعة واتفقنا على تنظيم تجمع معاً. إن هذا التجمع الذي عقبته حفلة شاي قد سمح لنا بتناول المشاكل المغاربية أمام مائتي شخص في جَوّ ودّي للغاية. إن هذه الحفلة الصغيرة أبرزت أن التضامن المغاربي ليس كلمة فارغة المعنى. ففي الكفاح من التحرير الوطني نشأت فكرة وحدة المغرب العربي. أثناء شهر فبراير 1937، قامت أخيرا الجبهة الشعبية بتكوين اللجنة الشهيرة التي كان عليها أن تذهب إلى الجزائر. تكونت هذه اللجنة من برلمانيين ينتمون إلى كل الجماعات التي لها مقاعد في البرلمان وكان على رأسها صديقنا لاغروسيليار وهو محام ونائب من الأنتيل وهو يعرف جيدا المسألة الاستعمارية كان على اللجنة أن تستقبل في الجزائر وفودا مختلفة من أصدقاء الأمة" في مستغانم والجزائر العاصمة ووهران وفورناسنال وقسنطينة وقالمة، إن مناضلينا قد سلموا له كراسات بالمطالب وعرضوا شفويا وضعيتنا.

---

(1) إن جامعة الدفاع عن المسلمين المغاربيين لأن هذا هو اسمها الحقيقي - غيرت بالفعل توجهها السياسي في نهاية 1934 وتشددت في موقفها تدريجيا تحت تأثير الحاج علي عبد القادر سنة 1936. وفي جانفي 1937 لم يعد في هذه الجامعة إلا خمسين منخرطا، جزائريين "متقدمين" يعرفون قراءة الفرنسية وكتابتها والبعض منهم قد تجنس مثل عمار نارون. وفي سنة 1937 كان أهم قادتها المهندس والمعماري آيت علي سليمان وهو مستشار بلدي اشتراكي قديم لبلدية البورجي. حاول أن يجمع كل الجزائريين القاطنين في فرنسا والموالين للمؤتمر الإسلامي والجبهة الشعبية باتفاق مع العلماء في باريس والحزب الشيوعي الفرنسي.

في تلمسان، مثل كل الجهات، أنزل وفد البرلمانيين لمدة ثلاثة أيام واستقبلوا وفود من مختلف الحركات السياسية. استمعوا في أول مرة إلى طالب عبد السلام وهو محام ومستشار عام ومفوض مالي لتلمسان فعرض وحلل كل مظاهر المشكل الجزائري من وجهة نظر المؤتمر الإسلامي الجزائري. وبعد ذلك تبع المنتخبون المسلمون والعلماء والشيوعيون وتبعهم الاشتراكيون. تتذكرون أني تركت زوجتي في تلمسان مع ابني علي الذي صار عمره سبع سنين. كنت أخبرتها بمتسع من الوقت أن لجنة تحقيق برلمانية يرأسها صديقنا لاغروزيليار ستأتي عن قريب إلى الجزائر. إن وفدا من أصدقاء الأمة ترأسه السيدة مصالي قد ذهب إلى البلدية وسلم كراسة من المطالب ثم قام بعرض عن الحريات الديمقراطية.

بينما كان صديقنا السيد عبد السلام القلوش يقود وفدا من الفلاحين الذي سلم كراسة من المطالب التي تصف الوضعية المأساوية للعمال الفلاحيين وأصحاب الأراضي الصغيرة المهددين بانتزاع الملكية. وتبع هذا مناقشة مست كل العالم الفلاحي فقال السيد عبد السلام القلوش: " نريد أن نتمتع بنفس الحقوق كالمعمرين وأن يكون لنا نقاباتنا ودارنا للفلاحة والحق في القروض وفي مساعدة الدولة " .

إن اللجنة البرلمانية للتحقيق تمت دعوتها إلى فندق " الترانزاتلنطيك " تحت رئاسة السيدة مصالي من ناحية والسيد لاغروزيليار رئيس لجنة التحقيق وصديقنا بن عبد الله كمترجم من جهة أخرى والسادة معروف بومدين وقنناش وسنوس وبن رزوق ومحمد ممشاوي من لجنة أصدقاء الأمة قد تناولوا الكلمة خلال هذه الحفلة لتبادل وجهات النظر عن كل المشاكل. لقد ظهر حسن النيه من الجهتين ونوع من الثقة في المستقبل.

إن إنشاء حزب سياسي جديد بعد حل نجم شمال إفريقيا إنما هو عملية جريئة وخطيرة فالبعض كانوا يعتقدون أن قرار التصريح بجمعية جديدة للعمالة إنما هو ضرب من الجنون أو الإثارة ولكننا لم نبال بذلك. كان علينا أن نختار بلياقة كبيرة الاسم الذي ينبغي أن نعطيه لها لتفادي حل جديد. فكرنا أن نعطيه تسمية الحزب الوطني الجزائري ولكن البعض من أصدقائنا قالوا بأن هذا الاسم له رنة سيئة في بعض الأوساط. ولهذا فإننا اخترنا "حزب الشعب الجزائري " الذي أنشئ يوم 11 مارس

1937. فقبلت مسؤولية أن أكون رئيس هذا الحزب. إن لجنته التنفيذية كانت تتضمن سبعة أسماء بالإضافة إلى اسمي فقد كان فيها عماش عمار وكحال أرزقي وفلالي مبارك (المدعو سي عبد الله). وأشخاص آخرون قد نسيت أسماءهم[1].

ثم قررنا عقد اجتماع في نفس اليوم في نانتير للإعلان رسميا عن تأسيس حزب الشعب الجزائري وها هي الكلمة القصيرة التي ألقيتها بهذه المناسبة: "أيها المواطنين الأعزاء يشرفني ويسرني أن أعلن أننا خلال هذه العيشة من يوم 11 مارس 1937 أنشأنا حزب الشعب الجزائري بإيداع التصريح في عمالة الشرطة.

إن المولود الذي رأى النور منذ ست ساعات لا يطلب شيئا غير الحياة وأن يلعب دوره كاملا وأن ينجز المهمة السياسية التي أنشئ من أجلها. إننا كلنا نتمنى له السعادة والنجاح ومستقبلا جميلا، فبوصوله إلى العالم إنه ورث ماضيا كبيرا عليه أن يستثمر فيه. إن هذا المولود هو ولد كل الجزائريين أضعه بين أيديكم وأطلب منكم أن تخبوه وأن تحفظوه وأن تسمحوا له بإكمال مهمته ولنسهر عليه كلنا ونرجو من الله القدير أن يحفظه". إلى غاية هذا اليوم كان نجم شمال إفريقيا يفهم بأنه لا بد أن يكرس جهودهم للدفاع عن شمال إفريقيا كلها ومع حزب الشعب الجزائري، أردنا أن تخص أنشطتنا الجزائر مع إبقاء علاقتنا مع تونس والرباط.

كان ينبغي علينا أن نراجع برنامجنا السياسي، وعندما انتهينا من هذه المهمة، نشرنا تصريحا يوم 10 أفريل 1937، في هذه الوثيقة أبرز حزب الشعب الجزائري لأول مرة وبدقة كبيرة كيف وبأي وسيلة كان يرى أن يبلغ هدفه الأسمى، يعني استقلال الجزائر. إن المكتب السياسي كان ينادي كل الجزائريين بدون تمييز في الجنس أو الديانة لإشراكهم في الكفاح من أجل الحريات الديمقراطية على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك الثقافية. إذا منحت لنا الحريات الديمقراطية سنذهب بالتدريج نحو انعتاق بلادنا وفي حالة عكس ذلك فإن حزب الشعب الجزائري سيواصل الكفاح بثبات حتى يبلغ مجموع أهدافه بما في ذلك الاستقلال وهذا مهما كانت غطرسة الاستعمار. بالطبع لم نكن متأكدين أن فرنسا

---

(1) إذا كان كل قادة النجم على رأس حزب الشعب الجزائري فإن عماش قد كان غائبا من القيادة فقد إعتبر أن البرنامج - الجديد. معتدل كثيرا لأنه كان يقول : " حزب الشعب الجزائري يعمل من أجل الإنعتاق الكامل للجزائر و ذلك دون أن ينفصل عن فرنسا (....) إن الجزائر المحررة ستكون الصديقة و الحليفة لفرنسا "

ستأخذ في الاعتبار اقتراحاتنا الحكيمة ولكن كان لزاما علينا أن نعلن عنها ليطلع عليها الرأي العام الفرنسي وليكون الشعب الجزائري على علم بذلك .

و في هذا المجال كان يلزمنا أن نقوم بدعاية مكثفة لإقناع كل واحد بحسن نيتنا و بإخلاصنا إزاحة الستار عن متطلبات الإمبريالية الفرنسية. ففي تصريحنا أعطينا مكانا هاما للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كنا نرغب في إيصال سكاننا إلى ميدان الكفاح كل يوم من أجل المطالب الآجلة المتعلقة بالعمل وبالأجور وبالبطالة وبالقوانين الاجتماعية وبالمرض وبالنقابة وبالتمدرس.

كانت قيادات بعض الأوساط السياسية تعتقد حزب الشعب الجزائري ليس لا أكثر ولا أقل من مواصلة نجم شمال إفريقيا أما الإدارة فإنها كانت تعتبر إنشاء حزب الشعب الجزائري تحديا. ففي الجزائر و في فرنسا فإن الشيوعيين و العلماء والمنتخبون والمحاربون القدامى الانبطاحيون من كل نوع كانوا غير راضين عن نشأة هذا الحزب.

في تجمع انعقد في بلدية تلمسان في مارس أو أفريل 1937، هاج الشيوعيون ضد حزب الشعب الجزائري وقادته الذين يتهمهم أنهم في خدمة فرانكو وموسليني، عمر أوزقان أحد زعماء الحزب الشيوعي الجزائري ألقى خطابا عنيفا جدا ضد شخصي. كنت غائبا في ذلك الاجتماع لكن السيدة مصالي الحاج كانت حاضرة فصاحت بأعلى صوتها قائلة : "هذا غلط، هذا غلط في غلط " فكان أوزقان قد تجمد مدة لحظات ثم واصل شتائمه إلى درجة أنه أحدث مشاجرة لإغراق السمكة، في الحقيقة إن كل تلك الشتائم والاتهامات الكاذبة من طرف الشيوعيين كانت قد أحدثتها النجاحات التي حققها حزب الشعب الجزائري. كان عمر أوزقان يطوف بالمدن والقرى ليحاول بدون نتيجة أن يتوقف عن خسارة في الميدان منذ اختار مشروع فيوليت ورمى في الشكوك استقلال الجزائر .

فبعد تقلباته كان الحزب الشيوعي الجزائري الذي أنشئ أخيرا كان يرى صفوفه تمتلئ بالجزائريين الذين جلبتهم الوطنية. قررنا في موضوع التقديم العمومي لحزبنا أن تكون كل نشاطات حزب الشعب الجزائري مطابقة لروح وحرف " التصريح " . لقد طلبنا من فروعنا أن يرسلوا مراسيل يشرحون لمواطنينا بالصوت المباشر مخططنا العملي.

إن الحروف الأولى لحزب الشعب الجزائري في باريس وفي العديد من مدن فرنسا والجزائر. إن ردة الفعل الاستعمارية كانت في الحين[1]. فقد ترجمت ردات الفعل بالتفتيشات التي واجهها مناضلونا بكرامة وبشجاعة، مباشرة بعد ذلك علمنا عن طريق الصحافة أن تحقيقا ضد مجهول (إيكس) قد فتح. إن هذه العمليات موجهة ضد المناضلين وقيادة حزب الشعب الجزائري. كانت الصحافة تقول بأنهم سيهتمون أو أنهم سيتوقفون. فتحدث مع الأستاذ أ. برتون، حسبه علينا أن ننتظر تفتيشات أخرى ولكنه ليس لديه شيء مضبوط عن تحقيق ضد مجهول فاختتم قائلا: "في السياسة يجب أن نتوقع أوقاتا سيئة ولكن يبقى أن النجاح وانتصار الأفكار والقضايا العادلة سيكون دائما في نهاية كل المطافات المغلقة ".

فبعد الأستاذ آندري برتون اتصلت بأصدقائنا التونسيين الذين أخبرتهم بأنني سأعود قريبا إلى الجزائر العاصمة، فأنذرني هؤلاء بأنني ربما سيلقى علي القبض و ما أنه كان في نيتي أن أمر على تونس حيث كان لدي موعد مع ثلاثة من قادة حزب الشعب الجزائري أخبروني بعدم القيام بذلك. إن وصولي وإقامتي بالعاصمة التونسية التي جاءت بعد الخطاب الكبير الذي ألقاه فيينو نائب كاتب الدولة في حكومة بلوم ولهذا ألغيت مشروعي حتى لا أقلق أصدقائي التونسيين. فقد كنت بعيدا عن الاعتقاد أن الاتصالات الفرنسية التونسية ستعطي نتائج إيجابية فلن يكون هناك إلا وعودا واهية لا مستقبل لها.

إن الاستعمار كان يفعل هكذا لربح الوقت وتفريق المغاربيين، إنها قصة الجزرة والعصا. أعترف بأني كنت مستاء نوعا ما لأن التونسيين قد أفسدوا خطة عملي. أخبرت عائلتي الصغيرة التي كانت في تلمسان أن تلتحق بي في الجزائر العاصمة حيث سأسافر مباشرة يوم18 جوان1937. إن ذهابي إلى الجزائر العاصمة قد كان موضوع مناقشات مع قادة حزب الشعب الجزائري فقد نظرنا في كل الحالات التي يمكن أن نواجهها من وقت لآخر: الاضطهاد أو التوقيفات أو حل حزب الشعب الجزائر إلخ. في الواقع وحتى لو أننا لم نكن على علم بذلك كنا وقتئذ نجتمع لآخر

---

(1) في إطار إستعلام مفتوح يوم 25 فبراير 1937 للتحريض على الفوضى ضد السيادة الفرنسية فإن الشرطة قد قامت بإثني عشر تفتيشا يوم 5 أفريل 1937 في باريس و في ضاحيتها عند المناضلين الأساسيين و تمت كذلك تفتيشات في تلمسان و الجزائر .. إلخ و قد تم القيام بها مرة أخرى في الجزائر يوم 16 جويليا 1937 بعد فتح الإستعلامات بعنوان إعادة تكوين جمعية ثم حلها يوم 28 مايو 1937)

مرة قبل زمن طويل لأن أحداثا كبيرة ستفرقنا. لم نكن نفكر أبدا أن الزوبعة الكبرى للحرب العالمية الثانية الكبرى ستفرقنا، كنا متأكدين أن المستقبل يبتسم لنا وكنا واثقين وعازمين على مواجهة كل شيء لتخليص بلادنا.

عندما انتهت تحضيراتي للسفر، كانت الجبهة الشعبية التي قلصنا معها علاقتنا عقب حل النجم، كانت تفكر في مظاهرة يوم 14 جويليا 1937 فقد حافظنا على بعض العلاقات مع أصدقاء فرنسيين أعضاء في أحزاب اليسار والذين حافظوا على ثقتنا ولكن في الحقيقة، إن الجبهة الشعبية نفسها قد ضيعت كثيرا من قوتها ومن وحدتها ومن حركيتها. فيما يخصنا إنها لم تعد تهمنا إلا قليلا منذ الضربات المتوالية التي أوقعتها على الشعوب المستعمرة، لم تعد الجبهة الشعبية هي تلك التي كانت في جويليا 1935، إنها بدورها قد لبست قبعة المعمر.

استقبلت في مراسلاتي أخباراً جيدة من عائلتي بتلمسان. إن ابني علي صار يكتب لي هو شخصيا وكانت زوجتي تتكلم جيدا العربية. فقد كنت فرحا بذلك فرحا كبيرا وستكون الفرصة عن قريب لأقول لهم ذلك، إن يوم 18 جوان، امتطيت القطار لأذهب إلى مرسيليا ولأصل إلى الجزائر العاصمة يوم 20 جوان 1937.

كان في انتظاري مناضلون مع عائلتي على الأرصفة واقتادتنا سيارة إلى فندق في ساحة الحكومة. ثم دعيت إلى أكل عند صديق كان قد جمع بالمناسبة أكبر قادة الحزب. فقد كان هذا الغداء وديا و لكننا انتهزنا الفرصة للقيام بحصيلة. إن الوضعية ليست سيئة في الجزائر حتى لو أن الكفاح صار يصعب تدريجيا. إن قوتنا الأساسية تأتينا من الشرائح الشعبية و البرجوازية الصغيرة. فالآن مثل ما هو الحال في فرنسا فقد بدأ التجار الصغار والحرفيون والطلبة يؤمون اجتماعاتنا ومقرنا الاجتماعي بنهج لبنان.

كانت تأتينا الدعوات بمناسبة الأعياد الإسلامية وحفلات الزفاف وحتى مراسيم الدفن للفقراء. إن الاسم الجديد للحزب المقرون باسم الشعب كان يعجب الناس كثيرا وعندما ينطق بالعربية يأخذ معنى واضحا جدا. بالنسبة للحكومة الفرنسية لم نكن شعبا بما فيه المعنى التاريخي والحضاري. فقد كنا ببساطة لا أكثر ولا أقل من " الأهالي ". حسب المختصين كنا نكتفي باستقبال كل الاجتياحات بما في ذلك بطبيعة الحال الاجتياح العربي الذي مر فقط بشمال إفريقيا دون أن يخلف أي آثار. وفي الختام فإن مصيرنا أن نخضع أبديا لهذه الاجتياحات من حيث ما أتت. وإننا نعتقد أن هذا التصور للتاريخ هو الذي قاد الاستعمار إلى تثمين المشاكل الأثنية

والبربرية خاصة ليجعل السكان يواجه بعضهم البعض. كان علينا أيضا أن نحضر وثائق تاريخية هامة لنثبت أن الجزائر كانت قد وجدت كدولة حرة. ألم يكن لها علاقات دبلوماسية مع المملكة الفرنسية ومع الولايات المتحدة الأمريكية ؟.

أثناء صيف 1937، كانت هناك حملة انتخابية لانتخاب عدد من المستشارين البلدين بصفتهم أهالي في المجلس البلدي للجزائر العاصمة. وقررنا المشاركة فيها لا للحصول على مقعد في بلدية الجزائر العاصمة ولكن لننتهز هذه الفرصة لعرض أفكارنا السياسية على الجمهور كما كنا نريد أن نعطي لهذه الانتخابات صفة سياسية لنقضي على البخشيش وعلى شراء الأصوات التقليدين.

إن حزب الشعب الجزائري قدم قائمة من المرشحين العمال والحرفيين والتجار الصغار. وأنا شخصيا كنت مساهما في هذه الانتخابات لا كمترشح ولكن كخطيب. إن الحملة دامت أسبوعين تقريبا وأثناءها استطعنا أن نعرض أفكارنا عن أهمية الانتخابات إذا كانت نزيهة. وكان علينا أن نقوم ببرهان قاطع أمام كل الجزائريين لإقناعهم بالطبيعة المناهضة للديمقراطية لهذا النظام الانتخابي. إن الأوربيين الذين ليسوا إلا 660000 كان لهم الحق في ثلاثة أخماس المقاعد في المجالس الجزائرية بينما العرب الذين هم ست ملايين لهم الخمسان فقط. إن الشعب الجزائري رغم أنه الأغلبية كان يعامل في المنطلق على أنه أقلية. فقد كان من الواجب قرع الطبل الكبير لتأسيس ديمقراطية حقيقية في الجزائر.

كانت هذه المشاركة في الانتخابات البلدية باسم حزب الشعب الجزائري نجاحا باهرا. لقد تحصلنا في هذه الانتخابات على360 صوتا، وهذا حسب أعدائنا[1].فيما يخصنا ليست المسألة الأساسية في هذا المستوى لأن كل الناس كانوا ضدنا فإن هدفنا كان نفسيا وفي هذا المجال إن القصة التالية ينبغي أن نقصها. إن برجوازيا كبيرا دعا السيد والسيدة فيوليت لحضور حفلة كبيرة بمناسبة زواج ابنته وكان في المرسى وفد من الوحدة الشعبية التي ذهبت لاستقبال السيد والسيدة فيوليت والترحيب بقدومهما وإخبارهما بفوز الوحدة الشعبية وانهزام حزب الشعب

(1) من مجموع 3163 منتخبا كان هناك 2188 مصوتا 69 ٪ إن قائمة الحزب الشيوعي تحصلت على 700 صوتا و قائمة المثقفين على 580- صوتا و قائمة حزب الشعب الجزائري على 210 و في الدور الثاني تحصلت القائمة المسماة الوحدة الشعبية على 1050 صوتا من أصل 2340 مصوتا و تحصلت قائمة المثقفين على 870 صوتا بينما تحصلت قائمة حزب الشعب الجزائري على 320 صوتا .

الجزائري.إن الوحدة الشعبية وهي سعيدة وفخورة بنتائجها كانت تنتظر على الأقل التهاني فقد أصيبت بالخيبة لأن السيد فيوليت سكت طويلا ثم صرح مع نوع من القلق في نبرة صوته أن الذي يخشاه أكثر: هي الـ 360 صوتا التي تحصل عليها حزب الشعب الجزائري".إن هذه النكتة قد تنقلت في كل مدينة الجزائر ثم بالتلفون"العربي" تدفقت من العاصمة. إن كاتب"هل تعيش الجزائر؟"قد رأى أين يكمن الخطر الرئيسي بالنسبة للجزائر الفرنسية.

منذ رجوعي والانتخابات البلدية، صارت الجزائر العاصمة حسب قول المناضلين خلية نحل يتحرك فيها كل الناس. كل حركة سياسية كانت تدافع على عملها وصارت المناقشات شيئا فشيئا تأخذ نبرة حماسية كان مُحبِّونَا يخبروننا بالصعوبات التي تعترضهم في الجواب على خصومهم الذين كانوا يحسنون إغراق السمك في المناقشات الدينية ويبرزون شخصيات قيادة جمعية العلماء ومنتخبي الشيوعيين. كانوا يتهربون من المشاكل السياسية ليتفرغوا إلى مسائل شخصية يقع فيها بسط الشهادات ومعارف الذين يحظون بتفضيلهم. كنا نقول لهم أنه يجب الرد هكذا: " إن مشكل سياسي لا يمكن أن نتناوله ونناقشه ونحلله إلا في هذا الإطار. لا يجب تضييع الوقت في تقييم الثروة ومعرفة هؤلاء وأولئك أن تكون خصومنا علماء كبارا أو أثرياء أو خطباء كبارا أو رجالا محترمين من طرف المعجبين بهم فإن هذا لا يدخل في الحسبان. إن الشيء المهم قبل كل شيء هو الاختيار بين سياسة الفرنسة التي يتضمنها مشروع فيوليت والكفاح من أجل الحريات وإنعتاق شعبنا واستقلال الجزائر ألا يكون مصالي الحاج عالما أو ثريا أو خطيبا كبيرا وأن ينتمي إلى عائلة بسيطة وريفية. فإن هذا لا يخصه إلا هو وإن هذا لا يدخل البتة في الخلاف السياسي الذي نتعارض من أجله ".

إن دعاتنا ودعاة خصومنا كانوا يتلقون في ساحة الحكومة في ناحية المسجد إلى غاية مقهى التلمساني كانت أفواجنا تتركب من أربعة مناضلين. إن الأول من كل فوج يتدخل في المناقشات ليعرِّف بالمواقف السياسية لحزب الشعب الجزائري وينتظر ردة فعل المستمع ويرجع مرة أخرى عند الضرورة ليقدم أمورا دقيقة وإذا صارت المناقشة صعبة يتدخل مناضل ثان ويعمق المسائل المتناولة بالحديث. وأحيانا يتدخل ثالث ليعرض موقفنا من مشروع فيوليت وربط الجزائر بفرنسا. كنا نلاحظ أن خصومنا كانوا يسبحون في غموض كبير وكان من الصعب جدا إرجاعهم إلى واقع المشاكل السياسية التي كانت في الميدان خلال هذا الصيف 1937.

بسرعة، قررنا أن نعطي أشكالا جديدة لكفاحنا فمن الآن فصاعدا علينا أن نعقد اجتماعات كبيرة أمام آلاف الأشخاص من كل الآفاق السياسية ومن كل جهات الوطن. ليس بعيدا عن الفندق الذي أسكنه كانت هناك قاعة سينما يعرفها الجزائريون جيدا، إن لم تخني ذاكرتي اسمها " الكازينو الصغير" لقد تم اجتماع هام جدا في ذات صباح من شهر جوان 1937 في ذلك المكان فقد كان في القاعة مناقضون ومشوشون أرسلوا لإحداث الفوضى، ولكن كذلك مئات الأشخاص الذين أتوا لفهم مستقبل البلاد. إن مهمتي منحصرة في تناول الكلمة في أول تدخل للقيام بعرض عام يدوم ثلاثة أرباع ساعة. وبعد ذلك أسلم الكلمة للمناقضين ولكنني أسترجعها قبل نهاية الجلسة للإجابة على كل أسئلة خصومي دائما بكثير من الاحترام والتقدير، ولكن ذلك لا يخلو من الفكاهة و الهزل أحيانا.

بعد " الكازينو الصغير" عقدنا اجتماعنا الثاني في سينما " المونديال " الذي كان قريبا من سجن بربروس في أعالي الجزائر شيئا ما. في هذا الاجتماع كما في الاجتماعات التي تبعته، اندرجت الأشياء بكيفيته مختلفة، وبالفعل لم يطلب أحد أن يشرح موقفه في المنبر. اكتفى خصومنا بالهتاف: "يحيا مشروع فيوليت ! يحيا العلماء ! يحيا الحزب الشيوعي ". إن المناقضين الذين يصعدون للمنبر لعرض أفكارهم السياسية قد صاروا نادرين.

يوم 10 جويليا تقريبا، علمنا أن الحزب الشيوعي الجزائري يتحضر بكثير من الحرارة لتنظيم 14 جويليا باسم الجبهة الشعبية. حينئذ قررنا المشاركة في هذه التظاهرة بصفتنا أعضاء في التجمع الشعبي كما فعلنا ذلك في باريس 14 جويليا 1935 و1936، تم تحضير منشور بسرعة على أن يوزع في كل العاصمة ليدعو أكبر عدد ممكن لمواطنينا للمشاركة في هذا اليوم.

كان على المتظاهرين أن يتجمعوا في بلكور حيث تتكون المواكب قبل الانطلاق إلى ساحة الحكومة. إن الشيوعيين الذين كانوا يعارضون حضورنا حاولوا بكل الوسائل على أن يحتموا علينا الاختلاط مع الجمهور. ومن نافلة الكلام أن تقول بأننا رفضنا بشدة تلك المناورة. كنا قررنا أن نشارك في هذه المظاهرة بموكبنا الخاص تحت علم حزب الشعب الجزائري وأعلامنا وأناشيدنا الوطنية وإعلاناتنا. كان رجالنا للنظام يؤطرون الموكب بكيفية خفية. كنت على رأس الموكب مع قادة حزب الشعب الجزائري. قربي يوجد مستول ولحول وزكريا خليفة وغرافة براهيم وآخرون.

فقد تم التصفيق علينا بحرارة. كان لنا علمان: الأول كله أخضر كان علم الإسلام والثاني، العلم الجزائري أخضر وأبيض وفيه الهلال والنجمة باللون الأحمر وكان يحمله رجل اسمه عبد الرحمان وهو عامل بسيط، سائق طاكسي وقد كان كبيرا وقويا وشابا وكل شخصه يتنفس الوطنية وإرادة انتزاع الحرية.

عندما بلغ الموكب العمالة، صاح الجمهور: "يسقط قانون الأهالي وقوانين الاستثناء ! تحيا الديمقراطية و إنعتاق الشعب الجزائري ! ". إن الجزائريين والجزائريات كانوا يقبلون العلم الوطني ويصلون ويبعثون هتافات الفرح والزغاريد. إن أخبار المظاهرة قد انتشرت كذر الغبار. و لهذا كان الناس يصلون من أعالي المدينة ومن القصبة فعند رؤية العلم كانت الدموع في أعين الجزائريين وإن نشيد حزب الشعب الجزائري: " فداء الجزائر"، كان يكرر طول المسافة. إن عدد المتظاهرين حولنا لم يتوقف من التزايد. فعند عدم الفضاءات في الطريق كان الناس يتمشون على الجهتين من الرصيف. وعندما وصلنا أمام غرفة التجارة هتفنا: " الأرض للفلاحين! ". و أمام قصر المفوضيات المالية صعد الهتاف : " يجب الحل "، " برلمان جزائري.

كان من المفروض أن تتفرق المظاهرة في ساحة الحكومة فعندما وصلنا "سكوار برسون"، بدأنا نرى مئذنة المسجد بينما كان الموكب يتضخم ويجد المصاعب في التقدم. فلما وصلنا في الساحة رفعني مجموعة من الرجال الأقوياء من الحزب على أكتافهم ليسمحوا لي بإلقاء كلمة قصيرة. فألقيت نحو المسجد وصرحت بصوت عال : " احترموا الإسلام ! " ثم أضفت : " البارحة كان انتصار 2 أغسطس 1936 " حيث طالبنا بالاستقلال واليوم قمنا بمظاهرة كبيرة وعلى رأس الموكب العلم الوطني الجزائري. إن هذا الانتصار عظيم وخطوة كبيرة إلى الأمام. فلنشكر كل الجزائريين والجزائريات والله يحفظنا ! ".

لم يتم شيء يشبه هذا في الجزائر العاصمة إلى غاية اليوم. وبالفعل فإن الصحافة الاستعمارية لم تغفل أن تشير إلى ذلك. ففي هيجانها تمادت في قولها إلى أن طلبت من السلطة المركزية أن تقوم مباشرة بالاضطهاد وذلك بالقيام بتوقيفات. فقد تحدث الجزائريين والجزائريات في المدن والأرياف مدة طويلة عن هذه المظاهرة، مظاهرة 14 جويليا 1937 حيث تم رفع العلم الجزائري.

ربما ينبغي أن نجعل مكانا لنكتة عن هذا العلم. إن المظاهرة قد تم تحضيرها بتسرع كبير لأنها قررت في آخر ساعة. فقد كان ينقصها إذن المهم، يعني العلم

الجزائري، إن زوجتي أخبرتنا بأنها قد خيطت علما أثناء وجودها في تلمسان وأنها أخفته عند أختي خيرة. كان المشكل يتمثل في كيفية إيصال هذا العلم إلى الجزائر في الوقت المناسب، فتكلمنا إذن في الهاتف إلى تلمسان يوم 12 جويليا وطلبنا من أصدقائنا أن يبذلوا كل ما في وسعهم لإيصاله إلينا. فبعد انتظار طويل وصل إلينا يوم 13 جويليا في العشية. لا يسعنا أن نقول كيف كانت فرحتنا. ثم كان يجب أن نسرع للقيام ببعض الرتوشات وبوجود مقبض للعلم. هذا هو العلم الذي رآه الناس وصفقوا عليه وقبلوه طوال الصبيحة كلها بين بلكور ومسجد الجزائر العاصمة.

إن خصومي السياسين ضاعفوا نشاطهم ضد " المغامر مصالي " شخصية جاهلة بدون فلس. إن صحافة المؤتمر الإسلامي الجزائري هاجمتني بعنف كبير. "لاديفانس " و هي جريدة اليمين العمودي لم تفلت أي مناسبة لتشبعني ضربا. "يجب إسقاطه " هكذا كان يقول. وكانت مقالة تتضمن تقريبا ما يلي: " إن مصالي و عائلته يسكنون في حي فقير في باريس، غرفة في السطح، الطابق السادس، إنها الفقر. كيف يستطيع رجل في هذه الوضعية أن يدافع على بلدنا وأن يجد تقديرا ما عند شعبنا وعند الحكومة الفرنسية ؟ "[1].

إن المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني عقد في جويليا 1937[2]، إن الدخول إليه كان ممنوعا علي وكذلك على قادة حزب الشعب الجزائري. كان من المفروض أن ينتهي المؤتمر باجتماع كبير مفتوح على كل الجمعيات ما عدا حزب الشعب الجزائري. إن جمعية الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين العائشين في فرنسا كان عليها أن تحضر في الاجتماع الختامي. بيد أن هذه الجمعية صارت تقتسم معنا تقريبا بصفة شاملة برنامجنا السياسي وكنا نفكر أنها في يوم من الأيام ستلتحق بنا. تقريبا كل قادتنا كانوا أصدقاءنا: الحاج علي عبد القادر وبومنجل وغيرهما، إن المسؤولين الحقيقين في المؤتمر الإسلامي. إن تدخلهم قد أحدث إزعاجا لدى الإنبطاحيين من كل الجهات ولكنها أعطت كذلك درسا مستحقا لمن أرادوا أن يخنقوا صوتنا.

---

(1) إن اليمين العمودي في نفس المقالة بتاريخ 30 جويليا 1937 ، يعتبر مصالي" عونا مشاغبا و مخربا و زارعا للحقد و التفرقة وأصوليا بئيسا يشتمنا ويحرض آنذاك على شتمنا . و في عدد 30 أغسطس إن مصالي كان نبيا سيئا و جاحدا و عميلا و متشدقا لا يوصف ..."

96 - اجتمع المؤتمر الثاني في نادي الترقي في الجزائر العاصمة من 3 إلى 11 جويليا 1937 و قد جمع حسب المصادر الإعلامية ما بين 154 و 157 مشاركا .

فقررنا حينئذ أن نقوم بدورة كبيرة للدعاية، وكي نبرز عزيمتنا فقد أردنا أن نعطي نقطة الانطلاق من وهران معقل الشيوعيين في بداية الأسبوع الأول من شهر أغسطس 1937. وقبل التنقل حرك الحزب كل فروعه في غليزان ومعسكر وتلمسان حيث كان لنا مئات المناضلين الجيدين. إن وفودا من كل هذه المدن كان عليها أن تتواجد في وهران يوما قبل هذا الاجتماع لتلمّس الميدان والاتصال بالسكان. فبفضل هذا التحضير اندرج الاجتماع في جو من التفاهم والوطنية، فعلا إن الشيوعيين حاولوا أن يرافعوا من أجل مشروع فيوليت وتخريب التجمع إلا أن مصلحة النظام والمستمعين منعوهم من فعل الشر.

وعند الرجوع عقدنا اجتماعا في الحراش فقد كان كذلك اجتماع تناقض. ولكن كنا ننتظر أن نتبارز بصعوبة مع الذين كانوا يظنون أنهم يستطيعون التغلب علينا فالعكس هو الذي جرى. إن محاولاتهم باءت بالفشل فتحتم عليهم الانسحاب من القاعة أمام رفض الأغلبية الساحقة من المستمعين لما قدموه[1]. ثم حاولنا فيما بعد الذهاب إلى المدية وفي الجنوب، إن الشاب لحول حسين كان عليه أن يذهب في الطليعة لهذه المدينة وليحضّر الاجتماع و كان علينا اللحاق به في صبيحة 27 أغسطس 1937. ولكن الذهاب لم يقع: تم اعتقالي يوم 27 أغسطس 1937.

لماذا هذا التاريخ ؟ عندما نتناول بالدراسة أنشطة المؤتمر الإسلامي بين جوان 1936 وأغسطس 1937 فقد نجد لدينا الكثير من العناصر لنستخلص أن الاستعمار قد لعب ورقة التفرقة كاملة بين حزب الشعب الجزائري والمؤتمر الإسلامي الجزائري. كانوا يعتقدون في الدوائر العليا للإدارة الجزائرية والباريسية أن العلماء، بمساعدة الشيوعيين سيتوصلون إلى القضاء علينا. كانوا يتخيلونهم قادرين على تحطيم حزب الشعب الجزائري وجلب الثلاثة أرباع من قادتنا ومناضلينا إليهم. في الحقيقة إن العلماء كانوا يقولون بالرجوع إلى الإسلام الطاهر وأنهم ربحوا مكانة عظيمة في الوسط الشبابي وعند البرجوازية والناس البسطاء ولهم كذلك تأثير كبير على منتخبي اتحادية قسنطينة والجزائر ووهران. كانوا يقولون بأني رجل فقير وجاهل وكافر. وقد

---

(1) حسب المحافظ الشرطة للحراش فإن أورزقان قد أهانه مناضلوا مصالي الحاج و لكن هؤلاء منعوا بن علي بورط- من الكلام : "فإحتج عمارة و هو مستشار بلدي شيوعي للجزائر العاصمة . و في الأخير بوخراط عمارة و المناضلون الشيوعيين الآخرين قد أخرجو من القاعة من طرف مصلحة الأمن لحزب الشعب الجزائري" .

قالوا حتى للأمير شكيب أرسلان أني كنت ضد الإسلام لأنني متزوج بفرنسية وأنني لا أصلّي ولا أصوم شهر رمضان. فقد كان بين يدي الاستعمار وسائل ممتازة ليتخلص من حزب الشعب الجزائري دون مشقة وكذلك من دون أن يتسبب ذلك في إحداث البطل أو الشهيد ولكن عندما رأوا أن مقاومتنا قد صيّرت المخطط غير قابل للتطبيق، فقد تقرر في الدوائر العليا استعمال وسائل القهر.

فقد سجنت مع أصدقائي من القيادة في سجن بربروس بالجزائر العاصمة[1]، أما لحول حسين الذي كان يومها في المدية فقد تم إيقافه هو كذلك واقتياده إلى الجزائر العاصمة. فقد تم عزلنا ووضعنا في النظام السرّي مدة "مرتين خمسة أيام" حسب تعبير المحكمة. إن هذا النظام كان قاسيا جدا، إنه يعزلنا عن رفاقنا وكذلك عن أهلنا ومحامينا والسجناء الآخرين، كما أنه يمنعنا كذلك من التجول في ساحة السجن. يظنون أنهم بهذه الكيفية يجعلوننا نشك في مهمتنا وفي واجبنا، إن أياما بعد ذلك تم إيقاف معروف بومدين ومصطفى بن رزوق وهما مسؤولان من فرع تلمسان واقتيادهما إلى سجن بربروس لأنهما عقدا تجمعا كبيرا في تلمسان للاحتجاج على إيقافنا.

وفي الأخير تم تقسيمنا إلى فوجين ووضعونا في زنزانتين الواحدة بجنب الأخرى، كنا إذن نستطيع الخروج معا في الساحة مرتين في اليوم. وقد عينا للدفاع عنا الأستاذ حدو المحامي لدى المجلس في الجزائر العاصمة والأستاذ آندري بيرتون من محكمة الاستئناف بباريس وقد اتصلنا كذلك بالأستاذين لونغي وزيفائيس من محكمة باريس ولكنهم لم يستطيعوا الاستجابة لندائنا لكثرة أشغالهم بدون شك. بينما كان أعداؤنا يضحكون الضحكة الصفراء، فإن ردة فعل الشعب الجزائري غداة إيقافنا كانت ساخنة جدا. إن الغضب قد ترجم إلى احتجاجات وصلوات وزيارات لأولياء المدن والقرى والأرياف. في كل مكان كان الكلام لا يدور إلا على حزب الشعب الجزائري وعلى القومية الجزائرية والوطنية. كان السكان يرتمون على الجرائد ليعرفوا ما هي ردة فعل حكومة الجبهة الشعبية. إن الجدران والإعلانات الإشهارية وحتى الأرض نفسها كلها كانت مملوءة بالكتابات المعبرة مثل: " إن القومية الجزائرية ستنتصر " و " يحيا

---

(1) إن السجن المسمى بربروس موجود فوق القصبة بالجزائر العاصمة.

حزب الشعب الجزائري" و "يحيا مصالي الحاج " و " يحيا إخواننا " و " يحيا الإسلام " و يحيا الاستقلال وتحيا الديمقراطية " . كنا نرى أطفالا مراهقين والطباشير بأيديهم يكتبون الشعارات بينما الآخرون يهتفون بالشعارات. لقد تخلص الشعب الجزائري من مركبات الخوف والنقص التي أراد الاستعمار أن يفرضها عليه والعصا بيده.

مباشرة بعد إيقافي جعلت السيدة مصالي من منزلنا بنهج فرانسوا فيون مركز حزب الشعب الجزائري ومكانا يلتقي فيه مناضلونا. وأياما بعد ذلك تم وضع مركز اللقاءات في قلب قصبة الجزائر وتم اتخاذ قرارين نهائيين وهما متابعة أنشطة وتنظيم مقاومة بفضل الاجتماعات و أعمال الاحتجاج. كان من المفروض أن ينعقد اجتماع في السينما " دياماان " الذي كان قريبا من سجن بربروس. ولكن الشرطة ذهبت عند السيدة مصالي لإخبارها أن التجمع كان ممنوعا فاحتجت ضد هذا الإجراء المناهض للحريات الديمقراطية. فقد تقرر أن تجمع السينما " دياماان " يبقى لتغليط السلطات وأن كل المستمعين والمناضلين الذين يذهبون هناك يدعون إلى التوجه إلى التوجه إلى مقر الحزب في ساحة " دوكيسن " حيث كان لدينا قاعة كبيرة. وفي الأخير عندما عرفت الشرطة الخبر عن التجمع اندفعت نحو ساحة " دوكيسن " في مقر حزب الشعب الجزائري وبدأت تخبط على الباب وعلى النوافذ قائلة: " افتحوا ! افتحوا ! " خرجت السيدة مصالي وقدمت نفسها للشرطة التي كانت تصيح : " كنت تعرفين جيدا أن هذا التجمع كان ممنوعا! إن هذا المنع قد تم إبلاغكم به ! " فأجابت السيدة مصالي : " إن هذا صحيح ولكن هنا في هذا المحل الذي هو ملك الحزب، نحن في دارنا، لقد تم منع السينما "دياماان" فقط إن هذا الجواب قد خيب أمل محافظي الشرطة. ولكن و بما أنه على الشرطة أن تفعل شيئا ما في مثل هذه الحالات فإنها طلبت أن يغادر المستمعون مقر حزب الشعب الجزائري خمسة خمسة ويأخذون اتجاهات مختلفة لتجنب أي مظاهرة. وهكذا فإن هذا التجمع قد انتهى بفرحة قادتنا ومناضلينا.

وصل إلى الجزائر العاصمة أياما بعد ذلك، أصدقاؤنا كحال أوزقي وفلالي مبارك عضوي المكتب السياسي في باريس وكرسا وقتهما مدة أيام لإعادة تنظيم كل الحزب باعتبار الوضعية الجديدة. كان ينبغي إقامة نظام سري عبر العاصمة وخاصة القصبة لأنها تنطبق على ذلك بإعجاب. فمن الآن فإن الفرع المركزي لحزب الشعب الجزائري بين أيدٍ آمنة.

لما لوحظ أن التجمع الأول لساحة دوكيسن قد تم عقده في مقر الحزب، قرر أصدقاؤنا تنظيم تجمع ثان في نفس المحل. ولكن الاستعمار لم يسمعه بهذه الأذن. فبينما كان الاجتماع الثاني يندرج بهدوء وصلت الشرطة بقوة و حاصرت المحل وبدأت في تحطيم النوافذ و الباب و هي تصيح : " إفتحوا ! " . انفتح الباب واندفعت الشرطة على كل الجزائريين الحاضرين الذين بدأوا يصيحون جراء الضرب الذي كان يتهاطل عليهم ويطلبون النجدة، إن المارة اللذين سمعوا هذه الصيحات بدأوا يصلون من كل أنهج القصبة. إن الشرطة انزعجت من ذلك وخافت لأن الزجاجات والحدائد القديمة وأدلاء الماء الحديدية والأفران بدأت تتساقط من كل شرفات وسطوح المنازل. ومع هذا فقد كان لها الجرأة أن تفرغ قاعة الاجتماع وأن تعطي لكل جزائري يخرج ضربة على رأسه. و تواصلت المعركة في أنهج القصبة. إن بعض الناس دخلوا المساجد وهم هاربون ليتخلصوا من الشرطة. و لكن رجال الشرطة تبعوهم فيها. كان هنالك رجلان يصليان ويذكران في سبحتيهما فتم ضربهما وإيقافهما وفيما بعد تم الحكم عليهما بسنة حبسا[1]. إن تحرش الشرطة في نهج دوكيسن قد خلف 40 جريحا و14 إيقافا وأربعة أحكام بمجموع 12 عاما من السجن.

منذ وصولنا إلى سجن بربروس وضعنا مع سجناء نظام الحق العام و هكذا فعندما طلبنا من محامينا الحصول على النظام السياسي وقد أخبرنا شفويا مصالح السجن بشكوانا. فبعد أيام من الانتظار عاودنا الشكوى، وحينئذ توجهنا إلى قاضي التحقيق الذي حادل بدوره ربح الوقت، فتوجهنا في النهاية إلى باريس إلى المحامين المكلفين بقضيتنا وإلى جامعة حقوق الإنسان. وبما أن كل هذه المساعي لم تثمر شيئا، فكرنا في إضراب عن الطعام باقتراح مني، كنت أعرف إن هذا قد يكون له على المستوى السياسي أهمية شاسعة، فقبل أصحابي إلا خليفة بن عمار الذي كان يريد أن نستشير عالما مسلما لنعرف إذا كان الإضراب عن الطعام غير مخالف للمبادئ الإسلامية. في الواقع خليفة كان خائفا وما اقتراحه إلا مناورة بسيطة، فقد تجاوزنا ذلك الاقتراح وانطلقنا في إضرابنا عن الطعام في بداية أكتوبر 1937[2].

كذا خلال الأربع أيام الأولى متحمسين كثيرا ولم نعجز عن القيام بجولة في ساحة السجن، ولكن بعد اليوم السادس بدأ التعب يتغلب علينا، كنا نشرب الماء لمخادعة

---

(1) حسب جريدة الأمة ، جانفي1939

(2) بالضبط أول أكتوبر حسب تقارير الإدارة .

الجوع ولمحاربة الأوجاع المعدية. كنا نأخذ قليلا من السكر بعد إلحاح محامينا وأهلينا، وفي اليوم العاشر ظهر الضعف وصارت أوجاع الجوع لا تحتمل. إن طبيب السجن الذي ينتمي كذلك لبلدية الجزائر العاصمة نصحنا بإنهاء إضرابنا للجوع، وأكد لنا أن الأمور ستسوّى بعد قليل، وبالفعل أخبرونا يوما بعد ذلك أننا سنحصل على ما يرضينا أي نظام خاص سيسمح لنا، و فيما بعد عرفنا أن هذا النظام السياسي كان محدودا إلى بعض الامتيازات لأن سجن بربروس حسب بنائه لا يسمح بتجهيز كل ما هو ضروري للنظام السياسي.

تشاورت مع أصدقائي حول هذه المسألة وقررنا في العشية أننا نقبل هذا النظام ونطالب أن يوسع. فأغلقوا علينا في زنزانتنا لينظموا أكلنا تحت إشراف ممرض ليجنبونا كثرة الأكل. فقد كان صحيحا أن سجن بربروس لم يكن فيه شيء يسمح بتأسيس نظام سياسي. إن هذا لم يوجد قط من قبل وإذا حصلت حالة من هذا النوع كانوا يكتفون بتحسين إقامة المساجين خاصة في مجال الأكل والزيارات.

عندما صرنا مساجين سياسيين تغير نظام أكلنا تغيرا كاملا بالفعل، فعوض الأكل في الجفنة صرنا نأكل من مطعم اسمه " لاقاليت " وهو مطعم في أسفل نهج روفيغو، كنا كذلك نتمتع بحرية في التنقل، كانت أبواب زنزانتنا تبقى مفتوحة وهذا مما يسمح لنا بالتواصل فيما بيننا، كنا كلنا نذهب إلى الجولة، و كان لنا الحق في حلاق من المدينة وكان يأتي ليحلق لنا في السجن، و لكن مع هذا كنا ممنوعين من قراءة الصحافة وزيارات العائلات في المكان الذي نلتقي فيه كانت محروسة. فقالوا لنا بأنهم منحوا لنا نظاما سياسيا منقوصا " الأسباب تعرفها الدولة "، كانوا قد قالوا لجامعة حقوق الإنسان التي قامت بالمساعي تتحصل لنا على النظام السياسي الكامل أنه يحسن بنا أن نطلق سراح مصالي الحاج خير من أن نسمح له بقيادة حزبه من السجن. إن مناضلينا ومحبينا كانوا أتعبوا نفوسهم بدون هوادة لإعلام السكان بفترات الإضراب عن الطعام. كان المئات من الجزائريين يأتون تحت جدران السجن أفواجا لينشدوا لنا الأناشيد الوطنية، كانوا يشجعوننا وينادوننا كل واحد باسمه. فقد جرت مظاهرات تضامن كذلك في فرنسا. إن أصدقاءنا الباريسيين كانوا قد تحركوا لتهويل الرأي العام الفرنسي ضد الاضطهاد الاستعماري.

إن الجبهة الشعبية كانت في الحكم عندما تم إيقاف قادة حزب الشعب الجزائري، ومع هذا فهل يمكننا القول بأن كل الفرنسيين وكل أعضاء الجبهة الشعبية

هم مسئولون عن ذلك ؟ لا! إن الحزب الاشتراكي رفض الإجراء وندد بالاضطهاد وبإيقافنا. ومن ناحية أخرى فإن الكثير من الفرنسيين، رجالا و نساء، قد عارضوا الاضطهاد والإيقافات بينما كان القليل منهم في تلك الفترة لصالح استقلال المستعمرات. وخارج الناس الذين كانوا منظمين فان التروتسكيين كانوا بوضوح مع استقلال الشعوب المضطهدة فهؤلاء الفرنسيين النزهاء كنا نسميهم باعتبار صداقتنا لهم: " كمشة البركة" .

اعتبرت مع رفاقي أن العمل الأكثر أهمية هو أن ننشئ مدرسة داخل السجن لنتعلم اللغة العربية والفرنسية وتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. وإن مفدى زكريا الذي كان من ناحية المزاب وكان يتقن اللغة العربية عيناه معلما للغة الوطنية والمبادئ الإسلامية وكان مساعده خليفة ولحول حسين الذي كان خريج الثانوية كان مكلفا بالفرنسية بالمراسلة. وفيما يخصني عينت للقيام بدرس في شكل محاضرات صغيرة عن تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. إن أصدقائي خليفة بن عمار وغرافة إبراهيم ومستول محمد ولحول حسين وزكريا مفدي كانوا كذلك يرغبون وبفضول كبير أن أكلمهم عن فرنسا وعن الأحزاب السياسية وعن الحياة الفرنسية. وفي الحقيقة لم نستطع أن ننفذ هذا البرنامج في زمن تواجدنا في بربروس، فقد كنا منشغلين كثيرا بالمحامين والزيارات وتحضير المحاكمة. لم نجعله حيز التطبيق إلا عندما وصلنا إلى السجن المركزي بالحراش.

فبعد بعض الترددات، قرر قاضي التحقيق بالجزائر العاصمة ألا يسائلنا في المحكمة ولكن في سجن بربروس لتجنب الأحداث والمواجهات بين الشرطة والشعب. لم يكن مطلعا على هذا الخبر إلا المحامون والسيدة مصالي. إن التاريخ المضبوط لمساءلتنا لم أتذكره ولكني اعرف انه تم بين أكتوبر ونوفمبر 1937. إن المناضلين كانوا يحرسون كل تحركات القاضي ليحضروا مظاهرة أمام باب سجن بربروس في نفس يوم الاستنطاق. كانت المحكمة تعتقد إن كل شيء سيجري في الهدوء واللامبالاة من طرف الجزائريين والجمهور. فالصحافة كان بإمكانها أن تنمق براحتها ما تريد. لكن مخططه فشل تماما. إن العدالة الفرنسية تلاحقني قبل كل شيء على إعادة منظمة منحلة. وكنت كذلك متهما بأني ناديت بالعصيان وبالفوضى ولأسباب أخرى. إن القاضي يوبخني علي أني أريد رمي الفرنسيين إلى البحر وطلب استقلال الجزائر. بينما كنت أدافع قدما لقدم سمعت هتافات حتى المكتب الذي

كان يجري فيه الاستنطاق، ثم لحظات بعد ذلك جاء مدير السجن لإخبار القاضي بأن الأهالي كثرين يهتفون ويرددون شعارات سياسية. إن القاضي ومدير السجن انسحبا ليتشاورا بدون شك. عرفنا فيما بعد أنه تم استدعاء الحرس المتحرك (غارد موبيل). وعندما وصل هؤلاء انسحب مناضلونا في منحدر صغير ليدافعوا عن أنفسهم وفي نفس الوقت يواصلون المظاهرة.

كانت هناك مواجهات وهتافات وشتائم ورمي أحجار والكل دام بعض الدقائق. إن السيدة مصالي الحاج وابننا الشاب علي كان مع المتظاهرين وأوقفا واقتيدا إلى مكتب السجن. وفي ذلك كنا ما زلنا نسمع: "حرروا مصالي! "و" يحيا حزب الشعب الجزائري " و" يحيا الاستقلال ! ". إن أصدقاءنا انسحبوا نحو مستشفى القطار بينما وصل آخرون من القصبة. دامت المشاجرة نصف ساعة وهولت كل الحي. إن الموقوفين في الحق العام تأثروا بعمق وبدؤوا يتساءلون عن حزب الشعب الجزائري والكثير منهم عندما خرجوا من السجن قد تابوا إلى الله وإلى الكرامة وانخرطوا في حزب الشعب الجزائري.

إما استنطاقنا فقد اجل إلى الغد. وفي الظاهر لم يبق احد في محيط السجن ولكن ذلك لم يكن إلا مناورة. إن بعض المتظاهرين تفرقوا في أنهج القصبة وذهبوا لإحضار النجدة واستئناف المظاهرة بمناسبة خروج قاضي التحقيق من السجن بمجرد ما ظهرت سيارة القاضي رَامْبَار أحاط بها المتظاهرون وأرادوا قلبها وهم يهتفون: "حرروا مصالي ! يحيا حزب الشعب الجزائري !". فنزل وقتها الأستاذ حدو من السيارة ثم دعا المتظاهرين إلى احترام القاضي وقال بعد الاستنطاق سيحرر مصالي الحاج وأصدقاؤه. ودقائق بعد ذلك انسحب المتظاهرون إلى أعالي القصبة.

كان عليّ أن أشرح كل نشاطاتي في الجزائر منذ يوم 2 أغسطس 1936 إلى غاية الدورة الدعائية في ناحية وهران في أغسطس 1937. واستنطق من بعدي كل أصدقائي بدورهم. كان يطلب من كل واحد منهم هل يعترف بأنه قال "يجب أن يرمى الفرنسيون في البحر ". وأجابوا كلهم أنهم لم يحثوا أبدا شعبنا على رمي الفرنسيين في البحر وبالعكس فإنهم أكدوا أنهم طلبوا استقلال الجزائر بواسطة الحريات الديموقراطية وانعتاق شعبنا على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. هذه هي الوسيلة الوحيدة، كما قالوا لتجنب ثورة مسلحة.

كان استنطاقنا قد تم منذ قليل عندما جرت الانتخابات الكانتونية في الجزائر[1]. اخبرنا أصدقاؤنا عن طريق المحامين عن رغبتهم في ترشيحي لحزب الشعب الجزائري. قد وجدت هذه الفكرة جيدة بل أكثر من جيدة ولكني فضلت أن أفكر في الموضوع وأن أزن المحاسن والمساوي بمعية أصدقائي في السجن. وبعد أربع وعشرين ساعة اتفقنا كلنا على أن نتقبل هذا الاقتراح.

إن مشاركتنا في هذه الانتخابات ستشكل بالنسبة لنا منبرا للتعريف ببرنامجنا السياسي الوطني. إن قيادة حزب الشعب الجزائري في باريس من جهتها كونت صدى لهذه الحملة من أجل الانتخابات الكانتونية في الجزائر العاصمة. إن نشرة خاصة للأمة كرست لهذا الشأن إننا واجهنا محنة الأسر دون أن نتخلى عن كفاحنا بشجاعة وكرامة، فإن هذا قد استحسنه الجزائريون سواء كانوا منخرطين في حزب الشعب الجزائري. أم لا، فإنهم كانوا يحضرون بكثرة في كل الاجتماعات الانتخابية. كانوا يشعرون في داخلهم حاجة الاقتراب والتوحيد لفتح أفاق جديدة.

إن آمالهم أنجزت ورغباتهم غمرت لأن المصوتين في العاصمة وضاحيتها قد شرفوني بانتخابي في المجلس العام[2]، فقد كان هذا فوزا محددا ولكنه مع هذا خطوة كبيرة إلى الأمام. إن الشعب لم يتردد في الحكم على موقف الإدارة التي ألغت انتخابي بناء على أسباب واهية لا أساس لها من الناحية القانونية وذلك نبرر غضبها وانزعاجها من فوزنا. بالنسبة لنا كما هو الحال بالنسبة للرأي العام، لم يكن هنا سوى عمل الأمير وصرف للإرادة الشعبية.

إن يوم محاكمتنا كانت الحراسة مشددة على قصر العدالة في الجزائر العاصمة. إن القاعة كانت مملوءة وبنسبة كبيرة بالشرطة المدنية وبالمخزن. كنا خمسة في مقعد الاتهام: لحول حسين، مفدى زكريا، خليفة، غرافة إبراهيم و أنا شخصيا. إن الأستاذ آندري بيرتون الذي لم يعد شيوعيا وإنما صار اشتراكيا هو الذي يدافع علينا.

---

(1) إن الانتخابات الكانتونية جرت يومي 18 و 25 اكتوبر 1937 و قدم حزب الشعب الجزائري مرشحين في سبع مقاطعات.

(2) إن مجلس العمالة رغم انه صرح بان مصالي الحاج غير قابل للانتخاب اعترف بأنه تحصل على أكثر الأصوات من غير الأوراق " الملغاة بغير حق " ، ففي الدور الأول تحصل مصالي على 2485 صوتا من 7780 مصوتا ، إن المنافس الذي جاء في الدرجة الثانية و هو بن حاج لم يحصل إلا على 965 صوتا ، إما زر وق محي الدين لم يكن عنده إلا 188 صوتا في الدور الأول و حسب حزب الشعب الجزائري فان مصالي تحصل على 4063 ، و حسب الإدارة 1754 من اصل 8201 صوتا معبرا عنه ، إن المجلس الغى هذه الانتخابات.

إن أهل زكريا عينوا له محاميا من الجزائر ظانين بأن ذلك سيضمن لابنهم الإفراج. إن العديد من المحامين العاصميين محتمين بجبابهم السود التي لا تلبس إلا في الأيام الكبيرة كانوا قد اخذوا مقاعدهم لحضور محاكمة الوطنيين " الأهالي " والاستمتاع إلى زميلهم الكبير القادم من باريس. كان أهلنا هنا وأنظارهم كانت لا تفارقنا.

كنا نحس بخطورة الوضعية. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقف فيها وطنيون أمام محكمة الجزائر العاصمة لأنهم صرحوا عاليا وطالبوا علنا بانعتاق الشعب الجزائري واستقلاله. أخبرني الأستاذ بيرتون أنه قبل مغادرته باريس قد قام بدورة في الأوساط السياسية ليجس النبض وليطلع على الحالة الذهنية للسلطات قبل المحاكمة وقام بنفس العملية في الجزائر فقال: "إن باريس والجزائر العاصمة كلاهما ضدك وضد حزب الشعب الجزائري. أبقِ مخلصا لمبادئك فينبغي لك أن تلعب على كل اللوحات وعليك أن تنتظر حكما بسنتين سجنا وإلى العقوبات المرافعة ".

خلال هذه المحادثة، أخبرت آندري بيرتون برغبتي أثناء المحاكمة أن أتحمل كل المسؤوليات بصفتي رئيسا لحزب الشعب الجزائري. اتفقنا على أن يقوله هو في ختام مرافعته وأن أثبته أنا ببساطة. كنت بهذا أتمنى أن يطلق سراح أصدقائي أو ألاّ يتعرضوا في الأقصى إلا إلى أحكام مبدئية.

بما إنهم كانوا يوجهون لنا تهمة النداء إلى الجهاد فان مترجما شرح مختلف المفاهيم للكلمة العربية: الجهاد التي معناها حسبه الطموح والجهد والكفاح العسكري والديني. إن حزبنا الذي كان يكافح من أجل برنامج سياسي على أساس الحريات الديمقراطية، بعيد كل البعد على الوقوع تحت طائلة اتهام من هذا النوع. إذا كان الحديث قد دار حول هذا المعنى خلال الجلسة فلأنهم كانوا يريدون تقديمنا أمام الرأي العام الوطني والدولي على أننا متعصبين وهكذا يكون باستطاعتهم أن يسلطوا علينا عقوبات قاسية.

إن الأستاذ أندري بيرتون عندما أعطيت له الكلمة لمرافعته بدأ بعرض الوضعية السياسية في الإمبراطورية الاستعمارية في المغرب وتونس وفي الهند الصينية. وبالفعل إنه كان كذلك محامي الدستور والمغاربة والوطنيين من مستعمرات فرنسية أخرى. فبعد مروره بالثورة الفرنسية سنة 1789 والثورات التي نشأت على أثرها الجمهوريات الأولى والثانية والثالثة. فصرح بأن فرنسا أم هذه الجمهوريات الثلاث لا يمكنها أن تمنع الشعوب المستعمرة من حرياتها. ثم تابع مذكرا ما كان نجم شمال أفريقيا وما

هو عليه الآن حزب الشعب الجزائري "نعم في باريس نعرف مصالي الحاج وأنشطته السياسية للدفاع عن مطالب الشعب الجزائري. إننا نوبخه على أنه عقد اجتماعات طلب خلالها استقلال بلاده ولكن هذا اليوم شيء عادي أن نطلب انعتاق الشعوب المستعمرة"وأنا أعتقد أنه أضاف: "إنه على فرنسا ثورة 1789 أن تذهب أمام هذا المطلب لتلبيته".

إن المحاكمة كانت تابعة من قرب أو من بعد من طرف الجزائر المسلمة كلها إلى غاية الصحراء. إن الأحكام التي طبقت علينا من شأنها أن تبعث بقوة حركة الانعتاق. إن لحول، زكريا، خليفة وأنا تحصلنها على سنتين سجنا لكل واحد أما غرافة إبراهيم فقد تحصل على سنة سجنا. وفيما يخصني فقد عوقبت عقابا ثانيا وهو حرماني من الحقوق المدنية والسياسية تطبيقا للمادة 142 من قانون العقوبات. والمقصود هنا بدون شك هو خلاصة انتخابي في المجلس العام بأغلبية ساحقة. وهكذا فإنهم أقاموا سدا أمامي لمنعي من مواجهة الصندوق الانتخابي من جديد وإضعافي أمام مواطنينا.

إن غرفة الاستئناف لمحكمة الجزائر العاصمة لم تغير شيئا في الأحكام الشيء الذي حملنا على الاستئناف في غرفة التمييز ولكن دون أن نتغنى بالأحكام. كنا نريد فقط ربح الوقت وتأخير تحويلنا إلى السجن المركزي بالحراش وهو مشهور بأنه مكان ملعون.

كنا وقتها في مارس 1938 هذا هو الوقت الذي استلمت برقية من تلمسان تخبرني بموت أبي عن عمر فات المئة سنة. إن الموت شيء شنيع مهما كان عمر الذي يعود إلى الأرض التي آتى منها. و هكذا فاني وجدت نفسي يتيما من الأب والأم وفي هذه الفترة من حياتي التي أنا فيها متواجد في السجن. إن في هذه الأوقات المؤلمة كانت كل أفكاري تذهب إلى تلمسان إلى أخواتي وكل العائلة التي تبكي.

فبالاتفاق مع أصدقائي السجناء طلبت من إدارة السجن أن ترخص لي في حضور مراسيم الدفن. و لم تمنح لي رخصة. إنها مع هذا تعطي لأصحاب الحق العام. إن هذا القرار من طرف الإدارة قد أحزنني كثيرا ولكني لم استغرب ذلك أكثر مما ينبغي من هذا الإجراء. إني لم أستطع مصاحبة أبي المسكين إلى مقره الأخير مع أسرتي، فإنني وجدت لدى أصدقائي ولدى كل الشعب الجزائري الدفء والتعزية. ولكن هذه اللحظات قد بقيت في أعماقي جرحا عميقا.

تم التفكير في الدوائر العليا أنه ينبغي لتفكيك حزب الشعب الجزائري أن يمتد الاضطهاد إلى فرنسا وإلى الجزائر وهكذا فإن قادتنا في فرنسا قد ضربوا مرة أخرى. فلا لي و كحال أرزقي قد القي القبض عليهما عندما جاءا من باريس في شهر مارس 1938، في الوقت الذي كان في نشاط مكثف. وكذلك مناضلون آخرون ألقي عليهم القبض في ناحية وهران وفي ناحية قسنطينة وتم تحويلهم إلى سجن بربروس فاستطعنا الاتصال بهم ومعرفة ماذا كان يجري.

رغم الاضطهاد، فإن كل شيء كان على ما يرام، حسب ما أخبرونا لأن كل مسؤول يقبض عليه كان له في الحين من يخلفه. وقد صار الآن بين فرنسا والجزائر ذهاب وإياب للمناضلين والعمال بحيث صار هذا يخدمنا كثيرا. وهكذا وصل بوقادوم الذي سيبذل جهدا للقيام بإعادة تنظيم الحزب آخذا في الاعتبار ضرورة العمل السري. لقد عرف كيف يحيط نفسه بشبان ليضمن السير الحسن للأمور.

وفيما يخصني فإنه كان في استطاعتي أن أوجه سير الحزب بواسطة أشخاص آخرين. لم يكن هذا غير ذي جدوى لأنه قد وقعت أزمات بين القادة والمناظلين بسبب بعض النزاعات على السلطة وبسبب ميل البعض إلى العمل التفريقي. إن هذه الأزمات قد سمحت بتصفية مفيدة [1].

إن إدارة السجن قررت أخيرا تحويلنا من سجن بربروس إلى سجن الحراش الذي كان على مسافة عشرة كيلومترات عن عاصمتنا[2]. فقد جرى الذهاب يوم 31 مارس 1938 في الصباح الباكر، وفي الشاحنات. لم يتركوا لنا الوقت لإخبار أهلنا. إن السلطات كانت تخاف من المفاجآت مثل المظاهرات أو حتى الاختطافات، كانوا يظنون أننا قادرون على كل الجرآت.

في الحراش قادونا مباشرة إلى حي الواصلين الذي يعرف بقسوته فقد سمي "كايان الصغير". قضينا فيه الليلة الأولى ثم في الغد قادونا إلى قاعة كبيرة جدا حيث كان يعيش سجناء الحق العام الذين يتأهبون للذهاب إلى سجن الأعمال الشاقة. إن هؤلاء

---

(1) لم يذكر مصالي الحاج في مذكراته مثلا بعض الشؤون التي حملته في بداية 1939 إلى إقصاء كل المناظلين الذين اتصلوا بحكومة هتلر، اقصد المجموعة المسماة (بالكارنا) (لجنة العمل الثوري لشمال إفريقيا.

(2) إن غرفة الاستئناف في محكمة الجزائر قد أقرت الحكم الصادر في 2 نوفمبر 1937 و أقرت كذلك نظام الحق العام.

الرجال الذين كانوا من أعمار مختلفة كانوا قد علموا، لا أدري كيف، أننا وطنيون من حزب الشعب الجزائري فخصصوا لنا استقبالا وديا ولكنه متكتم خشية من وقع بطش الحراس عليهم. إن الحراس لم يكونوا ظرفاء معنا لأننا حسبهم ضد الفرنسيين.

ثم أخذونا إلى مشغل للعمل ولنسج الحلفاء. إن الانضباط في هذا السجن المركزي كان قاسيا جدا، فقد كان يمنع فيه الكلام و رفع الرأس مدة العمل للنظر يمينا وشمالا. وبالإضافة إلى الحرس كنا كذلك محروسين من طرف " البريفو" الذين يتم اختيارهم من بين المساجين كان هؤلاء (البريفو) يتكلمون بصوت مرتفع ويهددون ويشتمون وفي بعض الأحيان يضربون إخوانهم المساجين وكان الحراس ينظرون ولا يقولون شيئا. إن الحياة في السجن بشعة. إنها تؤلم كثيرا لأنها تنزل الإنسان إلى العجز الكامل. كنا نعضّ على شفاهنا و نصر بأسناننا ثم نعود إلى الله ونداء الواجب فقد كان علينا أن نواصل مهمتنا.

لما تم اقتيادنا إلى لجنة السجن التي يرأسها مدير السجن طالبنا بالنظام السياسي فرد علينا المدير بقوله: "لم يصلني شيء يخصكم، عندما جاء دوري لأتقدم إليه التقطني اثنين من "البريفو" وجمدوني حتى صرت لا أستطيع استعمال يدي. بمجرد وصلونا حلقوا لنا كل الشعر: اللحية والشوارب. إن هذا قد أحزننا كثيرا ثم فصلنا تماما عن الخارج مدة بعض الأيام.

كنا متأكدين أن أصدقاءنا عاجلا أم آجلا سيتحركون. وبالفعل فقد زارني محامينا الأستاذ ديرولاد والسيدة مصالي وابني علي. ولكن الأستاذ ديرولاد وابني علي استطاعا رؤيتي بالفعل. إن الحالة التي كنت فيها لم تسمح لابني بمعرفتي فقد كان يتردد في التقدم نحوي. إن الأستاذ ديرولاد أخبرني بسرعة عن الوضعية فقد أكد لي إن الشعب كان معنا. إن المساعي ما زالت جارية في باريس والجزائر للحصول على النظام السياسي. في كل مكان لا يتحدث الناس إلا عنا.

يوم 10 أفريل تقريبا، بينما كنا نائمين في قاعة كبيرة مع مساجين الحق العام جاءنا حراس السجن ومدنيون من إدارة السجن ليقتادونا إلى الحي السياسي في السجن المركزي بالحراش. كنا فرحين جدا. بالفعل إن هذا انتصار للقضية التي كنا ندافع عنها وهي كذلك كيفية للاعتراف ببعض مطالبنا الديموقراطية.

الفهرس

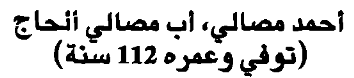


مصالي الحاج سنة 1908 و في عمره 11 سنة (في الوسط والكرة عند قدميه)



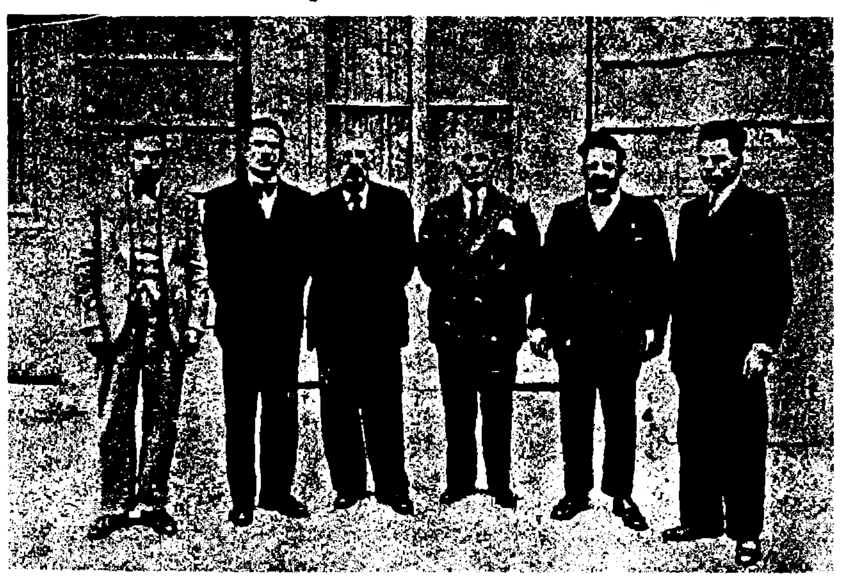
إن هذه البطاقة كانت موزعة من طرف حزب الشعب الجزائري في بداية الأربعينات لصالح السجناء من الحركة الوطنية. إن صورة مصالي تم التقاطها بدون شك في 1938. النص العربي المكتوب بخط اليد رسالة من الأمير شكيب أرسلان يثني فيها على «المجاهد الأكبر» مصالي الحاج.





أحمد مصالي، أب مصالي الحاج
(توفي وعمره 112 سنة)

مصالي الحاج (جالسا) مع أحد أقاربه
في زمن خدمته العسكرية.



في المؤتمر الإسلامي الأوروبي المنعقد في سبتمبر 1935
في جينيف (مصالي الحاج هو الثاني من اليسار)



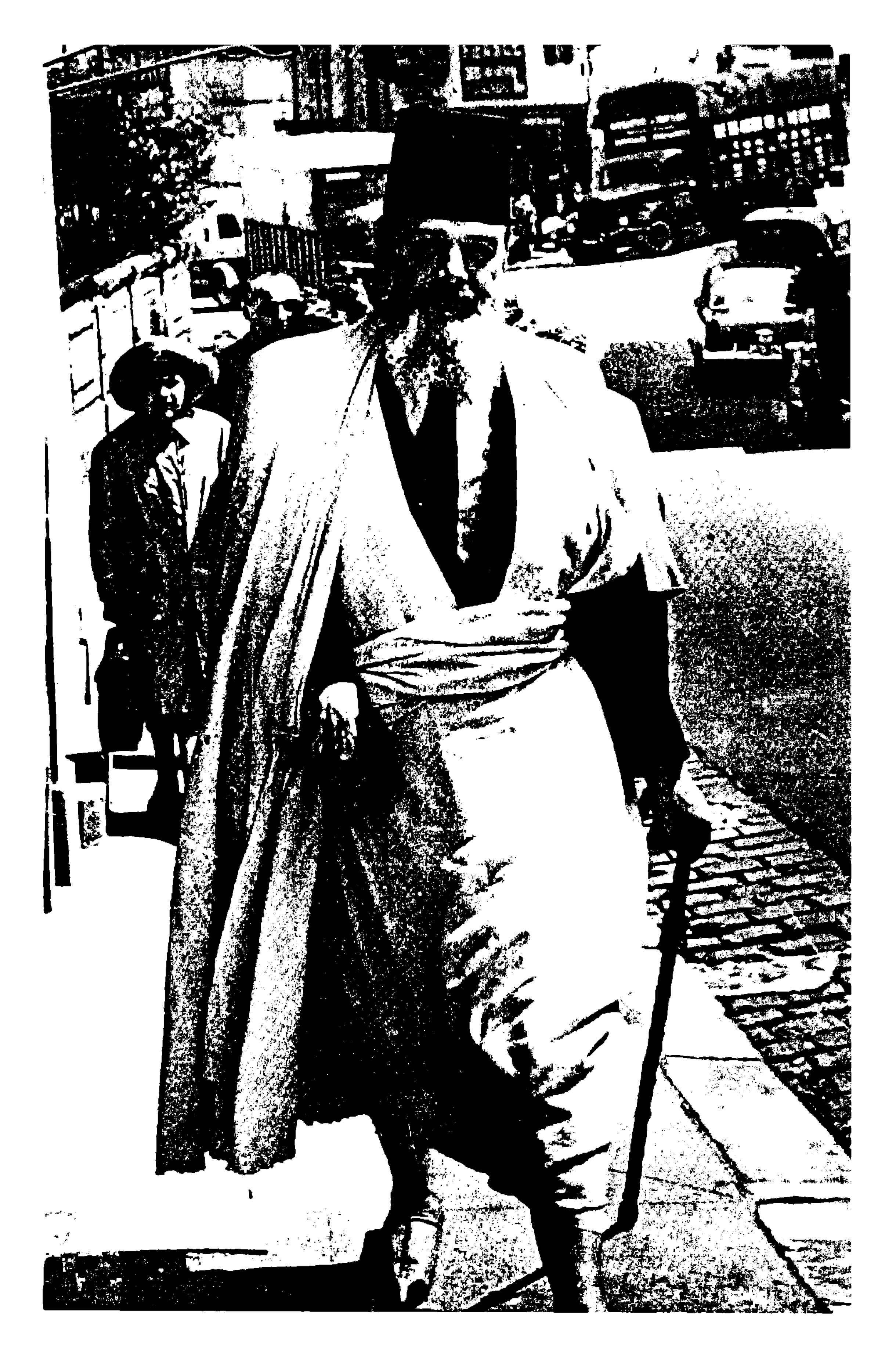
مصالي الحاج في فترة عمل في نزل نيورت أثناء الأزمة الحادة
لحزب البيان من أجل انتصار الحريات الديمقراطية في أواخر 1953.

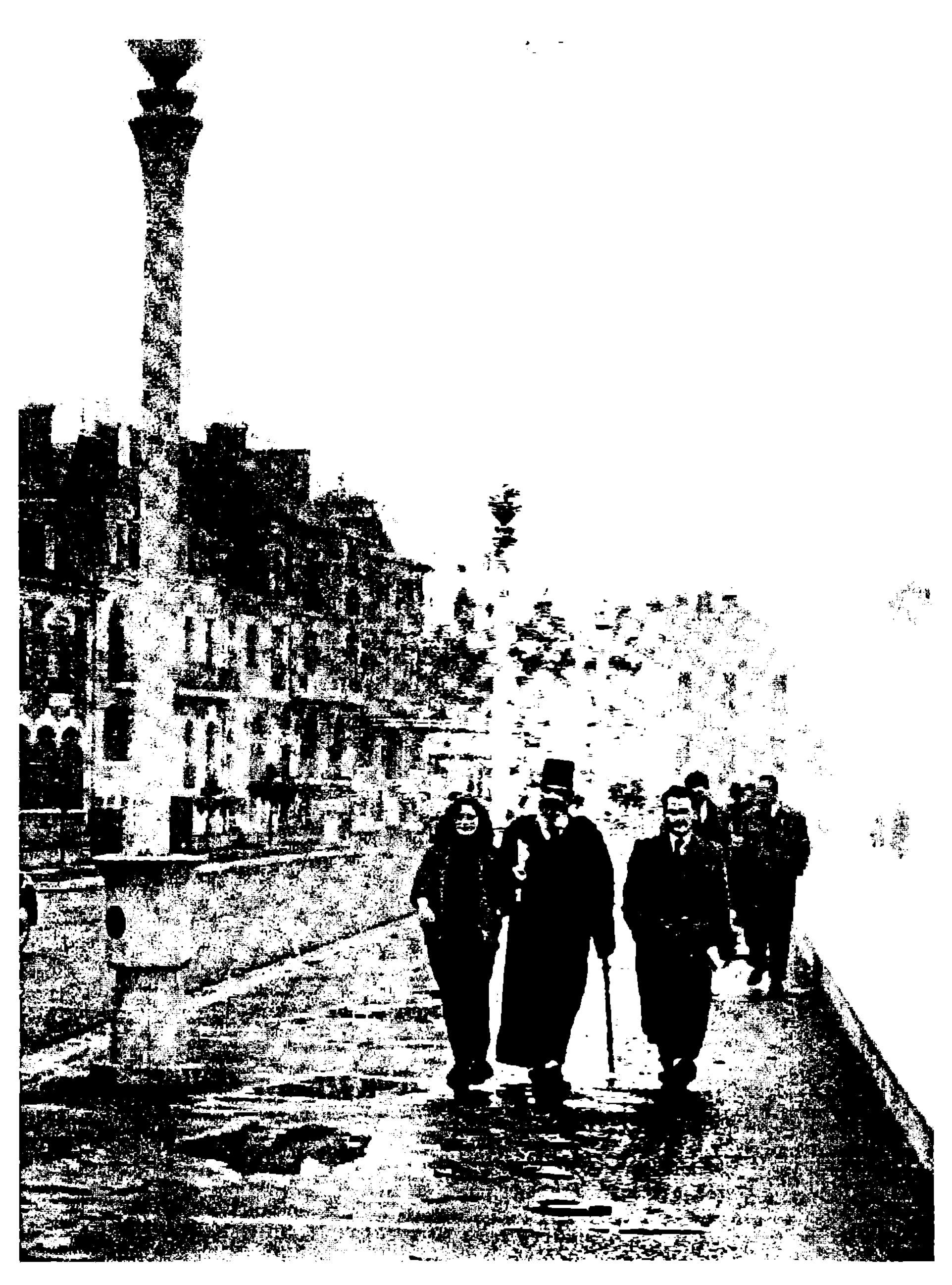


السيدة مصالي
وولداها علي وجنينة.
الصورة التقطت بالجزائر
في جويلية 1942.



مصالي ا لحاج في فيفري 1952،
يتو جه بخطاب لمناضلي العاصمة
الذين جاؤوا لتحيته بعد عودته
من البقاع المقدسة.





مصالي الحاج في «صابل دولون» غداة
الفاتح نوفمبر 1954 (الصورة ملتقطة يوم 2 أو 3 نوفمبر).

الصفحة الموالية : الحاج مصالي في «أنغولام» سنة 1955.



تشييع جنازة مصالي الحاج في تلمسان يوم 7 جوان 1974.



أحمد بن بلة بعد إطلاق سراحه، في وقفة ترحم على قبر مصالي الحاج، في نوفمبر 1980. ومباشرة على يساره يوجد مراد حميدو ، الذي ناضلت عائلته في الحركة الوطنية.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

سلسلة
التراث

مذكرات مصالي الحاج

لقد ارتفع صوت قويّ وجريء وراديكالي ضد الشك المعمم والخرف المشل الذي كان يكتنف الجزائر المسلمة في مشد من الخضوع الظاهر. وهذا الصوت هو صرخة مصالي الحاج التي صدع بها ثلاث سنوات فقط بعد ذهاب الأمير خالد إلى المنفى وهي بمثابة القفزة النوعية والتصورية والتنظيمية لحركتنا الوطنية. مع مصالي الحاج لم يعد استقلال الجزائر حلما أو مطلبا سريا، بل صار فكرة إجرائية وهدفا عمليا ومبدء تنظيميا. فبفضل جرأة مصالي الحاج ومجهوداته العنيدة وفي البداية مع ثلّة من رفاقه فقد صارت هذه الفكرة، المقصود فكرة الاستقلال، المحور الذي يبنى عليه المجتمع الجزائري كل يوم أكثر.

مقتطف من التصدير



ISBN: 9947-21-305-6